ربي،

كيف عصيتك؟!

الجزء السابع: صفات محمودة وصفات مذمومة

مراجعة: الشيخ/ خ.

عضو الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين

كتابة:

الأخ/ عبد السِتِّير

ربي، كيف عصيتك؟!

الجزء السابع: صفات محمودة وصفات مذمومة

كتابة: الأخ/ عبد السِتّير

التدقيق اللغوي: هشام عبده الروبي؛ عبد الرحمن غريب علي.

مراجعة: الشيخ/ خ.

عضو الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين

الكتاب يجوز مشاركته أو نسخه لمنفعة المسلمين بالعلم، ولكن ليس للتربح الشخصي. إذا أراد أحد تنقيته أو تلخيصه وإعادة نشره فلا مانع عندي ولكن ليتق الله.

فهرس الجزء السابع

فهرس الجزء السابع.....2
7. صفات محمودة وصفات مذمومة.....3
مِن الصفات التي تقود إلى النجاة: 3
من الصفات التي تقود إلى الهلاك:.....112
بعد أن كل شيءٍ قد قيل وفُعِل، هناك أمل.....258
الوصية الأخيرة الشاملة.....280
الخاتمة.....285

7. صفات محمودة وصفات مذمومة

مِن الصفات التي تقود إلى النجاة:

هناك صفاتٌ عامة، إذا اتَّسم بهن العبد، يصبح أقل قابليةً لارتكاب معصية. إليكم بعضًا منهن:

الإخلاص مع الله. إن العبد إذا أخلص نيته مع الله، فكانت غايته في أقواله وأفعاله هي إرضاء الله، وهذا بالالتزام بشرع الله، ويضع نصب عينيه ما يُحبه الله فلا يلتفت إلى رغبات الناس بجنب إرادة الله، كان أبعد ما يكون عن عصيان الله. والإخلاص قد أمر الله به نبيه (صلى الله عليه وسلم) به {قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ} [الزمر 11]، {قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الأنعام 162]، فهي صفة في غاية الأهمية من جهة قبول الله لأعمال العبد، ومن جهة سلامة العبد من أضرار الدنيا. فبالإخلاص، لا ينزل العبد على رغبات الداعين إلى الشهوات أو الفساد مثلًا، بل يخذلهم كي يُرضي الله. وبالإخلاص فإن العبد لا يترك العمل الصالح نظرًا لأن الناس لن يعلموا به. وبالإخلاص، يعارض العبد هواه عندما يأمره بفعل ما يُسخط الله، خاصة في الخلوة. وبالإخلاص لا ينتظر العبد شكر الناس والمُكافأة منهم بعدما يُقدِّم لهم معروفًا، فلا يسخط ولا يحمل تجاههم مشاعر سلبية. وهكذا يكون العبد بعيدًا عن عصيان الله.

الصدق مع النفس. إن الصدق مع النفس هو مواجهة النفس بالحقائق، فهو أولًا: يُسمِّي الأمور بحقيقة اسمها، وثانيًا: يُحاسب نفسه على نياته؛ وهذان الأمران تأثيرهما بالغٌ في إبعاد العبد عن عصيان الله، بتوفيق الله. عندما يُسَمِّي العبد الأمور على حقيقتها، بأن يصف ما يُسمَّى "الفوائد" (أو ما شابه) من البنوك بأنه رِبا، وما يُسمَّى "مشروبات روحية" (أو ما شابه) بأنه خمرا، وما يُسمَّى "رُقي وحضارة" المرأة بكشف الجسد والتزين أمام الناس هو تَبَرُّج، يكون أعون له في إنكار وتجنب مثل هذه المعاصي. أما إن سَمَّى هذه القبائح بأسماء ألطف، كما يفعل المُقبلون عليها الداعون لها، وهذا تجميلًا لها وتخفيفا لثقل سوئها، فهذه من مقدمات إقباله عليها.

أما الجانب الثاني، وهو محاسبة نفسه على نياته، فبها يكون أتقى لله. مثالًا على هذا هو العامل الذي يسعى لإتمام مُراد شخصٍ عن طريق إجراءات مُخالفة للشرع أو قوانين المجتمع، وهذا

مقابل مُكافأة مادية. يُبرِّر العامل مسألة الرشوة بأن هذا الشخص له حق في إتمام مُراده، وأن ما يتقاضيه مقابل ذلك إنما هو صدقة يتصدق بها الشخص وليس لها علاقة بالمُهِمَّة. آنذاك يستجوب نفسه على نياتها ويُصارح نفسه بسؤال مثل: إذا أيقن أن الشخص لن يدفع له مقابلًا، هل ما زال سيسعى في إتمام مُراد هذا الشخص؟ وهنا تظهر حقيقة الأمر، أن هذه رشوة صريحة وليست صدقة منفصلة عن الإجراءات التي سيفعلها. وعامةً، إن العبد ينبغي أن يصدق في طرح كل مسألة على سُنَّة الرسول (صلى الله عليه وسلم): هل هي مُطابقة لأفعال الرسول فيعملها، أم هي مُخالفة فيُنكرها ويتجنبها؟

وقد يقول قائل: أليس الصدق مع الله أهم من الصدق مع النفس؟ فالإجابة هي: نعم، ولكن لا يبلغ العبد الصدق مع الله إلا بعد أن يكون صادقًا مع نفسه أولًا. فالصدق مع النفس ينشأ منه الصدق مع الله، ومع الناس. لا يمكن أن يكون المرء كاذبًا على نفسه ولكن صادقًا مع الله أو الناس، كيف وهو مقتنع بما يكذب به على نفسه أن يقول لغيره خلاف ما يعتقده؟ وتوضيحًا لهذا، فإن المرء إذا سمع آيات الله مع رؤية عظمة الله في الكون الذي خلقه، يُدرك أن هناك إلهًا، فإن صدق مع نفسه أن هذا صحيحٌ فإنه يصدق مع الله بالإيمان به، أما إن كذَّب عينيه وأُذنيه وقلبه، أو كذَّب عقله ما رآه، فإنه من ثَمَّ سيكفر بالله ولا يصدق معه تعالى.

ولكن على الصعيد الآخر، قد يكون هناك من يصدق مع نفسه ولكن يكذب على الله والناس، وذلك لتحقيق أغراضه الشخصية. عامةً، قد أمرنا الله أن نكون من الصادقين، مع الله ومع النفس ومع الناس، وهذا في قوله {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} [التوبة 119].

البحث عن الحق من المصادر الموثوقة. هذا فخٌ يقع فيه كثير من الناس، أنهم إذا أرادوا أن يتفقهوا أو يستفسروا عن مسألة في الدين لجأوا لمن يرونهم على صلاح. والمشكلة تكمن أن الشخص الذي يكون صالحًا في أعماله قد لا يكون فقيهًا، ومع ذلك يفتي في المسألة مما قد يُلبس السائل في الزيغ عن الحق، مثل أن يسأل المرء أحد المُصلين بانتظام في المسجد عن مسألة فقهية بحُسن نية، وهو لا يدري أن ذلك الشخص إنما هو عابد وليس عالم. لاسيما في هذه الأيام، فإن الفتاوى والآراء تُتَداول عن طريق عامة الناس الذين يكون فيهم نسبة كبيرة غير صالحين من الأصل، ومنها ما تكون مكتوبةً –مثل بعض ما يوجد على شبكة المعلومات– فيظن المرء أنها صحيحة وهي غير كذلك (إما عن جهل الكاتب وإما عدم مصداقيته).

والأسوأ والأسوأ أن هناك علماء يُفتون بحسب رغبة الحاكم لنيل رضاه، فيُأول الآيات والأحاديث بما ليس فيها، فيُضل الحاكم ويُضل الرعية وقد خان أمانة العلم، ونرى أمثلة على ذلك

فيمن يُبيح الربا مثلًا، وهذا العالم ليس أهلًا لسؤاله عن الفتوى لأنه ليس أهلًا للثقة. فيجب التحقق من مصدر الفتوى أو المعلومة في الشريعة قبل العمل بها، لاجتناب الحياد عن الصراط المستقيم من غير قصد، ولصد محاولات غير المسلمين من تحريف الشرائع.

وبيانًا لمدى خطورة الكذب في الدين عمدًا من العالم، فإنه قد تشابه بمن قال تعالى عنهم {أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [البقرة 75]. وجاء عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "مَنْ تَعَمَّدَ عَلَيَّ كَذِبًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنْ النَّارِ"[1]، وإن من الكذب العمد على الرسول (صلى الله عليه وسلم) أن يُخفي حديثًا عنه (صلى الله عليه وسلم) ليُحَسِّن المُضِل رأيه. أو أن يقول المُضِل إن المقصد من الحديث هو كذا، ويكون تأويله مخالفًا للكتاب أو السُنِّة، ويفعل هذا عمدًا، فأسلوبه ما بين الإخفاء وتحريف الكلم عن مواضعه.

أما عن داهية أن غير العالم يُفتي في الأمور، فقد حذَّر الله تعالى قائلًا {وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلاَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ} [النحل 116]. وهذه العلة يكون المخطئ فيها الطرفان (مع فارق درجة الوزر)، فالسائل مُخطئ إذ إنه لم يتحرَ عالمًا ليسأله فأعطى الفرصة للجاهل أن يتكلم (وقد يكون معذورًا إذا ظن مثلًا أنه يسأل عالمًا موثوقًا)، والمسؤول مُخطئ إذ إنه أفتى بغير علم (وهذا لا عذر فيه).

ومن الأسباب المؤدية إلى تفشي تلك الظاهرة هو تقصير عامة الناس في تطبيق دينهم، فيعلمون ولكن لا يعملون، حتى ينزع الله العلم عقابًا بسبب تقصيرهم في العمل. فإذا أرادوا أن يتعلموا أمرًا يجهلوه أفتاهم من ليس بعالم فضلوا، وذلك ما نبأنا به الرسول (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ اللَّهَ لا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنْ الْعِبَادِ وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالا فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا"[2].

وقد حدث معي أكثر من مرةٍ أن جاءني رجُلٌ ممن كان يُصلي في الجماعةٍ ثم يعترض على شيء فعلته وينهاني بغلظة، حتى إن هناك من صرخ لي في المسجد بالرغم من أنه كان هو المخطئ في الرأي، وأسلوبه في العظة كان باطلًا أيضًا. فلا يملك المرء إلا أن يحزن على تهاون أُناسٍ في فقهيات الإسلام، والتعصب والتكلم بآراء شخصية ظنًّا أنها من الفقهيات، والله المستعان وهو الحفيظ للإسلام. فأحدهما كان يصرخ لي أن أخلع الحذاء وأنا خارج المسجد ولم أجد حصيرًا فعملت بوصية رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بالصلاة في نعلي مُخالفةً لليهود والنصارى؛ والرجل الآخر ظل يصرخ لي عندما بدأت صلاة النافلة في فُسحة في الصف الأول وجدتها وكانت الصلاة على وشك الإقامة وأنا لم أستيقن، ولم يعلم هو أني قد أقطع النافلة إذا رأيت أنها تُعطل صلاة الجماعة.

---

[1] صحيح البخاري 105.

[2] صحيح البخاري 98.

فكلاهما صرخ لي وأنا في الصلاة، فارتكبا عدة مخالفات كي ينهياني عن أمرٍ ليس بمخالفة، وسبحان الله. ولكن إحقاقًا للحق، كانت لي أنا أيضًا فترةً في أول طريق هدايتي أتكلم فيها بغير علم أو تحقق عن مصدر الحديث للأسف، وأرجو ألا أكون قد أضللت أحدًا بسفهي وأن يُصلح الله زلَّاتي، فأرجو أن تتفادوا ما وقعت فيه أنا وهذان الرجلان، ولنسأل الله الهداية والفقه والسداد والمغفرة.

إن الحق يجب أن يُتحرى عنه بدقة، ولو أن المرء اعتمد على ما يتنقله الناس ويراه منهم فإنه سيضل، وذلك لأن الناس ليسوا معصومين من الخطأ أو النسيان، ويدخل الهوى أو آراؤهم في تفسيرهم أو نقلهم للأمور، بل وإن منهم لمن يكذب ليواري الحق ويُنشر الباطل لأغراضٍ شخصية. والدليل على أن اتباع عامة الناس يؤدي إلى الضلال مُثبت في آيات مثل {وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ} [الأنعام 116]، {وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ} [المائدة 49]. فيجب البحث عن الحق من العلماء الثقات والكتب المُتفق على صحَّتها كي يُميز المرء الحق من الباطل. أما إن عجز عن تطبيق الحق بعد أن علمه فهو أقل ضررًا (وأرجى للنجاة بعد التوبة) من أن يظن أن الباطل حق فينصر الباطل ويؤيده.

وذاك حال أكثر الناس لأن الناس يريدون الحق أن يواكب هواهم، لأن هذا أسهل لهم إذ لا يحتاجون لتعديل سلوكهم، ويُرخص لهم أن يتمتعوا حسب ما يريدون. ولو أن الله قَبِل أن يكون الحق أساسه هوى الناس لفسدت السماوات والأرض كما جاء {وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ} [المؤمنون 71]. سبحان الله والحمد لله، فالهلاك سيقع إن ترك الله لهم تحديد الحق، وذلك من عدة جوانب، أحدهما أن اتباع الهوى فيه الهلاك للنفس والصحة بسبب إساءة استخدام نعم الله. ثانيًا أن الهوى لا يتكون من رغبة الإنسان خالصًا، بل يخالطه في ذلك ما يمليه ويُسوله الشيطان على الإنسان بغرض قيادته إلى النار ومخالفة إرادة الله.

فما ليس بصافٍ لا يُمكن أن يكون طيبًا، أي أن هوى الإنسان يتلوث بوساوس الشيطان، فلا يكون ذلك الهوى موثوقًا فيه ولا مُعبرًا عن الإنسان. فاتباع الآراء والأهواء يؤدي إلى ممارسات كارثية، مثل عبادة الأصنام وغير هذا من الشرك بالله مما هو في الأصل ليس من فطرة الإنسان! ومن يختلف مع هذا الرأي فليُفسر كيف أن كثيرًا من عادات المشركين تُخالف ما جاء به الرسول (صلى الله عليه وسلم) خلافًا تامًا، فأصبح الأكل عندهم باليد اليسرى من الأدب والرُقي، وأن حلق اللحية للرجل من التحضر وحسن المظهر، وأن اللواط من حرية اختيار السلوك الجنسي، وأن ما يُعدّ أنيقًا في ملابس المرأة هو يكاد يستر عوراتها بينما ملابس الرجل الأنيقة تستر إلى رقبته وساعديه،

وأن جعل مع الله شريكًا أمرًا ينبغي احترامه ولكن عبادة الله وحده أمرٌ عجيب (قد يسمع البعض عبارة: ألم تجد ديانة تعتنقها غير الإسلام؟!).

فكل تلك الأشياء تُعارض الفطرة، ولا يسع المرء إلا أن يتعجب كيف أن رأيهم في مثل تلك الأمور أصبح معاكسًا تمامًا لما وصَّى به الرسول (صلى الله عليه وسلم)، بل ويُخالف الفطرة الأصلية للإنسان، فكيف ساروا لهذا؟ كيف أصبح الأكل باليد اليسرى هو البديهي بالرغم من أن أغلب الناس تكون أيديهم اليمنى هي المُهيمنة؟ كيف أصبح حلق اللحية عند الرجل مستحبًّا ولا يحزن على تخلِّيه ما يُميزه كرجل، بل وإن منهم من يلبس الحلق؟! وترتب على أن الرجال يُحبون حلق لحيتهم أنه من ضمن الأسباب التي أدت إلى اللواط، وقلوبهم شربت الشرك وألفوه لدرجة أنهم مثل الذين قالوا {أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ} [ص 5]. هل يُعقل أن انتكاس سلوكياتهم وآراءهم لهذه الدرجة وفي أمور متعددة حدث وليس للشيطان دخلٌ فيه نهائيًّا ولم يؤثِّر عليهم؟! أكل ما يفعلونه ذلك وغيره مما هو مناف للطبيعة صدفةً بحتة؟

الإنسان العاقل يُدرك أنه لو كان مع الله آلهة لفسدت السماوات والأرض لأنهم يحتاجون إلى التنسيق المنتظم والدقيق، فلا يُحفظون إلا بالله وحده. وحتى المشركون يُدركون هذا، والدليل على يقينهم بمطلق سلطان الله على كل شيء جاء في قول الله تعالى (عندما أوحى الله للرسول صلى الله عليه وسلم أن يسألهم) {قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (84) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (85) قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (86) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (87) قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (88) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ} [المؤمنون 84-90].

ولكنهم يُشركون بالله لأسباب مختلفة بحسب قولهم، وكلها باطلة، فبعضهم يتبعون يُعاندون {مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى} [الزمر 3، جزء من الآية]، وبعضهم يُكابرون {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ} [النمل 14]، وبعضهم يواظب من باب العادة تبعًا لما تَلقّاه من آبائه {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ} [المائدة 104]. فتعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا، سبحانه، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ولو أن الله وافقهم في هواهم وسن الحق على ذلك لهلكت السماوات والأرض، والإنسان ذات نفسه كذلك! فإنهم يريدون الحق على هواهم وراحتهم الشخصية دون النظر إلى الصورة الكاملة (مصالح الناس الآخرين) ودون الاعتبار إلى الحق، فلكان الباطل هو الذي يسود ويترسخ كالأساس في الحياة. تخيل معي أخي، إن كان هناك لا قيامة ولا حساب كما أرادوا، فالذي ضربك قد ظلمك ولن تأخذ منه حقك أبدًا، والذي سرقك لن تعرفه لن تأخذ منه حقك أبدًا، والذي يَقتل ويهرب أو كان من

علية القوم الذين لهم منعة فلن يُقتص منه أبدًا لا في الدنيا ولا الآخرة... فكيف سيكون شعورك وأنت تعرف أن من ضرب وهرب فقد فاز! ألن يُسول ذلك لمن كان صالحًا أن يُصبح فاسدًا أيضًا؟ آنذاك لفسدت البشرية.

إن من أبغض المشاعر الإحساس بالظلم والقهر والعجز، أنك لا تستطيع أن تأخذ حقك المسلوب من غيرك لأنه تفوق عليك بالباطل أو بالقوة. ماذا سيحدث بعد ذلك والناس يرون أن سُنَّة الحياة هي أن الظالم هو الذي يغنم ويفلت بقهره للناس دون جزاء، وأنه يعيش في رغد ونعيم. لا شك أنهم سيسعون ليكونوا كذلك أيضًا، فيصبح الباطل (ولو كان قليلًا) يستدرج الكثير من الحق إليه وليس العكس، تمامًا كما تفسد التفاحة الفاسدة سائر التفاحات التي في السلة. حينئذ ستعُم الفوضى على العالم.

فالحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، والحمد لله كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، أن الحق (الله) هو الذي يحاسبنا وهو ولينا وكفيلنا، وأنه قد أراح نفوسنا وجعلها مستقرة مطمئنة إذ إنه دلّنا على الحق ووضع هو القوانين التي تنهى عن الباطل، ووعد المظلوم أنه سيَرُدُ الحق إليه وتوعَّد للظالم. ولكن في نفس الوقت أخي احذر، كما تدين تدان، فما دام أن هناك عدلًا بلا حدود فالحذر كل الحذر أن تُقَّصر في حق الله أو أن تظلم أحدًا من الناس أو الحيوانات، فتكون أنت الذي يُؤخذ من رصيدك.

الإقرار بما حدده الله من الحق والباطل، مع التراجع إذا وجد المرء نفسه في الخطأ. جاء في كتاب الله {وَالَّذِي جَاء بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (33) لَهُم مَّا يَشَاءونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاء الْمُحْسِنِينَ (34) لِيُكَفِّرَ اللّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الزمر 33-35]. هناك من يستمعون حتى إذا أدركوا الحق سلَّموا له وأقّروه بعد أن تحروا عنه. فالويل كل الويل من الكبرياء، فقد صد الكثير عن الهدى، والكبرياء لا ينبغى لأحد إلا لله.

فلا ينبغي أن أكون عاصيًا ومتكبرًا، لأن فعل المعصية قد يكون من التكبر عن الحق إذا أنكر الفاعل أنها معصية بعد أن أُرشد إليَّ الصواب، كمن يسمع أن الموسيقى منهيٌّ عنها ثم يُنكر. ولكن يجب أن أبحث عن الحقيقة، فإن الحقيقة لا تأتي حسب ما أشتهي، ولو حدث هذا لفسدت الأرض! ذلك لأن كل شخصٍ هواه يختلف، فيريد إباحة أمر مختلف عن غيره، والنتيجة أن كل شيء سيباح إن كانت هذه هي القاعدة. يجب أن أتحرى الصدق وأبحث عن الأدلة وعلى أحكام المسائل، وهذا واجب عليَّ وحق الله عليَّ، فأين العذر لمن بلغ من العمر ما بلغ ودرس علوم الجامعات ولكنه يجهل أحكام دينه؟

وإن كان حديثًا فمن واجبي وحقي أن أبحث وأسأل عن صحة الحديث. فمثلًا عن المعازف أجد الحديث عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "لَيَكُونَنَّ مِنْ أُمَّتِي أَقْوَامٌ يَسْتَحِلُّونَ الْحِرَ وَالْحَرِيرَ وَالْخَمْرَ وَالْمَعَازِفَ، وَلَيَنْزِلَنَّ أَقْوَامٌ إِلَى جَنْبِ عَلَمٍ يَرُوحُ عَلَيْهِمْ بِسَارِحَةٍ لَهُمْ يَأْتِيهِمْ (يَعْنِي الْفَقِيرَ) لِحَاجَةٍ فَيَقُولُونَ: ارْجِعْ إِلَيْنَا غَدًا؛ فَيُبَيِّتُهُمُ اللَّهُ وَيَضَعُ الْعَلَمَ، وَيَمْسَخُ آخَرِينَ قِرَدَةً وَخَنَازِيرَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ"[1] (الْحِرَ أي الزنا؛ وَالْحَرِيرَ أي للرجال؛ وَالْمَعَازِفَ أي آلات العزف؛ عَلَمٍ أي جبل؛ بِسَارِحَةٍ لَهُمْ أي الماشية؛ وَيَضَعُ الْعَلَمَ أي يدُكَّ الجبل أو يهدم البنيان). ولكن بعد أن علمت صحة الحديث ورأي العلماء في الموضوع هو الإجماع على التحريم، فوجدت أن هذا هو الحق، فالإعراض عن التسليم للحق هو الكبرياء بعينه.

وأيضًا قد انتشر في بعض المجتمعات العادة أن الرجل قد يصافح المرأة عند الالتقاء، وهذا بالرغم من أن كثيرًا من الناس يسهون عن حكم تلك العادة، وقد يقولون إنهم لا يرون في أنفسهم شيئًا في ذلك (وذلك لأنهم تعودوا على ذلك الشعور أو تبلدوا من كثرة التكرار) وينكرون أن هذا له شأنٌ، إلا أن الله لم يُنزِّل أحكامه لِتُنَاقش. وقد نزل الحكم في الحديث "لأَنْ يُطعَنَ في رأسِ أحدِكم بمِخيَطٍ من حديدٍ خيرٌ لهُ مِنْ أن يَمَسَّ امرأةً لا تَحِلُّ لهُ"[2]، وقد استدل به العلماء على أنه لا يجوز مصافحة رجل لامرأة لا تحل له. فمثل ذلك الحكم تجاهله وإنكاره يدعو إلى الفتن والذرائع كالزنا الأكبر، ولا ينبغي أن يظن أحد أنه معصوم أو قوي، فإن هناك قصص لأتقياء وقعوا في الزنا في آواخر عمرهم، ومن دون أن يُدركوا مدى سهولة حدوث ذلك بعد أن كانوا يستبعدوه.

وتزداد احتمالية الوقوع فيه أضعافًا حين تُجمع تلك العادة مع الخلوة بالمرأة الأجنبية، أو الاختلاط دون ضرورة، أو ما نراه من مسك أيدي الشباب بالفتيات التي وصلت مرحلة العلانية في الطرقات دون أن ينهاهم كثير من الناس، والله المستعان. هذا بالإضافة إلى أني عندما أرتكب معصية وأنا أعلم أنها محرمة فتؤذيني فهذا يُعتبر عنادًا مع نفسي، فنعوذ بالله من الكبرياء والعناد. يجب أن نكون من الذين يسجدون لله ويسبحونه وهم لا يستكبرون عن عبادته أو على نواهيه.

وفي الآية {الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ} [18الزمر] ذكرٌ محمود لتلك الصفة. فلماذا لا أكون منهم؟ لماذا لا أُحاول على الأقل؟ لماذا قد أسمع القول ثم أُعرض؟ فكيف أكون من الذين هداهم الله إذا لم أتبع أحسن القول؟ إني إذا لم أُطع الله فلم ءأخذ بشرائعه، ومع ذلك أطمع في أن أكون من الذين هداهم الله ويكون لي أجر المهتدين (الجنة)، أمنطقيٌ هذا؟ أعَدلٌ أن يهدينى الله وأنا لا أطيعه ولا أجتهد، بل ومُعرض عن الإيمان عندما يلقاني؟ وما تفسيري للتناقض بين فكري وفعلي آنذاك؟ كيف يُعقل أن يكون عملي متعديًا على شرع

---

[1] صحيح البخاري، بَاب مَا جَاءَ فِيمَنْ يَسْتَحِلُّ الْخَمْرَ وَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ.

[2] رواه الطبراني وصححه الألباني في صحيح الجامع 5045.

الله، وشاذًّا عن النظام الكوني الذي سنّه، ومع هذا أكون مهديًا طامعًا في جنة ربي؟ إن أردت أن يهدينى الله فلا بد من أن أبذل مجهودًا في اتباع الحق ومُدافعة الباطل.

وقال الله تعالى {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [آل عمران 135]. لماذا قال الله عز وجل "ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ"؟ من ضمن الأسباب أنه عندما يرتكب الإنسان ذنبًا، فإنه الخاسر الوحيد مجملًا. ذلك لأن الذنب إما أن يكون من نفسه على نفسه كشرب السجائر (مستخفيًا)، فإن أساس الظُلم لا يقع على أحد سواه (مع وجود أثر صغير غير مباشر يقع على سائر الناس، فهو ظلمٌ لهم ولكن غير مباشر)، وإما أن يقع من نفسه على غيره، كأن يسرق من أحد مثلًا.

ففي الحالة الأولى نرى أنه ظلم نفسه لأنه أذنب فسيحاسب على ذنبه يوم القيامة. وفي الحالة الثانية، حينما لا يملك منا أحدٌ إلا حسناته، سَيُرَد الحق إلى صاحبه من حسنات السارق. فالمسروق خرج من الموقف غانمًا... وبقي السارق ناقص حسناته (أو طُرح عليه من سيئات المسروق إن لم يملك السارق حسنات). وكأن في كلتا الحالاتين، النفس الدنيوية ظلمت نفسها البرزخية، أي قد جنت على نفسها لأنه يُنزع منها حق ما استمتعت به بالباطل في الدنيا، وهذا مآل من يعصي أوامر الله {وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ} [الطلاق 1؛ جزء من الآية]. وقد لخَّصت آية ذلك الأمر، أن السيئة تحيط بمرتكبها وحده في نهاية المطاف، فيكون هو المضرور الوحيد {اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا} [فاطر 43].

وقوله تعالى "وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ" يشير إلى أن الشخص الصالح هو الذي لا يصر على معصية، بل يُدرك ويُقرّ أنها معصية، وينوي تركها، ولا يستكبر بنكران أنها معصية أو أنه كان على خطأ. وقال تعالى {وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا} [الفرقان 73]، فهذه من صفات العبد الصالح التي بيَّنها الله عن من لقَّبهم أنهم عباد الرحمن، لمن له الشرف أن ينال ذلك اللقب. وذلك بخلاف المشركين حين يرون أو يسمعون آيات الله، فيتجاهلونها وينكروها فلا تؤثر فيهم كالأصم أو الأعمى الذي لم تصله الآية في المقام الأول، بل هم أسوأ من ذلك لأنهم عرفوا الحق ولكن انكبوا على الباطل إراديًّا.

ومن هذه الآية يجب أن يعتبر المسلم، لأن من عَلِمَ من آيات الله فيما يختص بالواجبات والمحذورات يجب أن يلتزم، ومن لم يلتزم وأنكر أن الحرام حرام (كالذي لا يرى أن الخمر أو الزنى فيه معصية لله) كالذي صمَّ وعمي عن آيات الله. ومن صفات التقي، والتي هي عكس صفات العاصي، أنه إذا علم شيئًا من شرع الله عزم على تطبيقه وأخذه منهاجًا لحياته، أما المعصية فهي تَستلزم نوعًا من الانصمام والعمى عن آيات الله، وهذا ينافي التُقى والعدل.

وأفضل مثالٍ على أناس استسلموا وانقادوا للحق هم الذين قال عنهم الله تعالى {وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِين (83) وَمَا لَنَا لاَ نُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا جَاءنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ} [المائدة 83-84]. هكذا حال بعض أهل الكُتب السابقة عندما يستمعون لآيات الله وكلام الرسول (صلى الله عليه وسلم)، فيؤثِّر فيهم ويُدركون أنه الحق، فيُقِرّون بصدقه ويعملون به. هذا وبالرغم من ثقل ذلك على النفس، لأن الأحب للهوى هو أن تكون كتبهم هي الخاتمة والمُميَّزة بألا يعترفوا بالإسلام، ولكنهم أقروا بأن الإسلام والمسلمين على حق ووجب عليهم هم الانتقال. فهؤلاء عدَّلوا هواهم كي يواكب الشرع، ولم يُحرِّفوا الشرع ليواكب هواهم، وهكذا ينبغي أن تكون سمات المؤمن، فجزاهم الله كل الخير إذ صارحوا أنفسهم أنهم لا يستحقوا أن يكونوا مع القوم الصالحين إن لم يعترفوا ويؤمنوا بالحق الذي ميَّزوه.

فتلك الصفة هي جوهر النجاة لهم ولنا، وهي الاعتراف بالحق، لأن حتى وإن لم يعمل المرء كما ينبغي له كمسلم، فما دام في قلبه مثقال ذرة (أو أقل) من كلمة الحق أنه لا إله إلا الله فلن يخلد في النار. فيا أخي، إذا رأيت الحق فلا تُخفيه أو تخذله أو تُنكره دون الإقرار به بعد التحري عنه، ولو كان ذلك على حسابك أنت شخصيًّا بأن يضعك في موقف محرج أو يُبرز أنك كنت مخطئًا، أو يؤثر (في ظنك) على مكانتك أو سمعتك أو كرامتك عند الناس، أو يُنقصك من أملاكك شيء، فما عند الله خير مما يعرضه الناس، وما عند الله أشد من بطش الناس.

وإذا أقررت بالحق، وإن كانت نفسك كارهة لفعل هذا، كان حقًّا لك على الله أن ينصرك في مواضع يكون لك الحق فيها، لأن الجزاء من جنس العمل. ذلك بالإضافة إلى الثواب المُضاعف عند الله. فالإقرار بالحق يُنجي، والعناد مع الإصرار على الباطل يؤدي إلى الخسائر والهلاك، وذلك الطبع هو رأس النجاة أو الهلاك لأن كلمة التوحيد هي أعلى درجة في إقرار الحق، والشرك أو الكفر هما أعلى مرتبة الظلم والباطل.

فلا تعش في نُكران، فهي صفة مهلكة، لأنك بها تخدع نفسك وتعيش في عالَمٍ مفصولٍ عن الواقع، وهي أن ترى أن عملك أو كلامك الذي يُخالف الحق له منطق أو مرجع أو مُبرر. وهذا يظهر بوضوح عندما لا تستطيع الإجابة بالحُجة الدامغة عن الأسئلة المنطقية، وبدلًا يأخذ الكلام مسار الجدال، وخاصة لو تظن أنه لن يستوعب أحدٌ المبررات وأنت وحدك تفهمها، ولكن أُنظر إلى الأمور بموضوعية وشمولية، وأبصر وتَمَعَّن، وإذا رأيت الحق فاعترف به وتقبَّله فورًا. لا أتكلم فقط عن رأس الأمر (أي التوحيد)، بل وفي الشرائع التي تُخالف هواك أو فكرك أو ما اعتدته أو اعتاده الناس، فهذا أدعى للنجاة. فإما ذلك وإما النكران، الذي يجعل المرء لا يقتنع بالحقيقة وهي أمامه مباشرة واضحة تحدق في عينيه.

ومن عاش في نكران يخدع نفسه، وغالبًا لن يكتشف ويقتنع بهذا إلا بعد فوات الأوان، يوم الحساب. فمثل هذا من يقول لنفسه: أنا أفعل المعصية الفلانية لأني لا أقدر على تركها، على أساس أن كل إنسان له نقطة ضعف وهذه نقطة ضعفي. وقد يصل تفكيره إلى أنه لا بأس من، بل وربما يحق له، ارتكاب صنف واحد من المعاصي. ولكن، حين نُوقف أمام النار سنعترف لأنفسنا أننا كنا نستطيع التخلي عن اعتياد تلك المعصية المُحددة، وسنلوم أنفسنا ولكن أنى ينفع اللوم. فالمبررات والحجج تفتح باب استحلال الحرمات، وللناس شهوات مختلفة، فلو أذن كل واحد لنفسه معصية محددة لهلكنا جميعًا، لأننا سنعيش في مجتمعٍ جميع المُحرمات فيه مباحة.

أما في صغائر الأمور، الاعتراف بالحق يزيد من إيمان المرء ومنزلته عند الله، وتكذيب الحق في تلك الأمور يضع المرء على الطريق إلى الكفر، لأن المسألة مسألة مبدأ: من أنكر الصغير من الحق يسهل عليه إنكار الكبير؛ فإن شاء الله حفظه قبل أن يصل آخر الطريق وإن شاء تركه حتى يصل إلى آخره. ما أردت التركيز عليه هو أنك إذا وجدت نفسك تقع في معصية تكرارًا ومرارًا، أو كنت تعمل عملًا لم تكن تعلم أنه معصية ثم عرّفك أحدٌ بذلك، فلا تنكر الحق (بعد التحقيق إن لزم) لتتفادى الإقرار أنك كنت على خطأ، لأن الإنكار سيجعلك تظل تقع فيها تكرارًا ومرارًا، ولن تُقلع عنها لأنك لا ترى داعيًا لذلك.

بل والأسوأ أنك ستقع في معصية أفدح ويزداد حملك أكثر بكثير، إذ إنك أنكرت شرع الله. هذا لأن نكران شرع الله يؤدي إلى هلاك لا رجعة منه، وهو الخلود في النار. أما الإقرار بالحق بالرغم من تكرار مخالفته فهذا الشخص له أمل في النجاة بعفو الله ورحمته، كما دل على ذلك الحديث القدسي عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا فَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ؛ ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ؛ ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، اعْمَلْ مَا شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ"[1].

وكما هو ملحوظ أن العبد أقر بالحق، وهو أن ذلك ذنب، ولكنه اعترف أنه أخطأ تكرارًا بارتكابه. ونلاحظ أيضًا قول الله تعالى "أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ"، ما يشير إلى سبب مغفرة الله له. ذلك لأن العبد اعترف أنه أخطأ في حق الله وأن الله هو الذي سيحاسبه على ذلك، وأنه تعالى بيده أن يغفر له، فالعبد يعترف بالحق على حق، ويُقر بكمال سلطان الله عليه وبهيمنته على كل شيء فيُذعِن له تعالى، وهذا أدعى للنجاة.

[1] صحيح مسلم 4953.

ومن الحديث نستطيع أن نستشف أيضًا أن القضية المحورية لا يمكن أن تكون إذا وقع العبد في معصية أم لا، وإنما القضية المحورية وأولية نظر الله تكون على هل يعترف العبد بأنه لا إله إلا الله الذي يأخذ بالذنب وبيده المغفرة أم لا يعترف؟ وهذا الذي يتمركز حوله مصير العبد الأبدي، أي الخلود في الجنة أم النار، أما القضايا المُتعاقبة مثل درجة المعصية وصنفها وعدد تكرارها فهذا يؤثر على درجة معاناة المسلم حتى يصل الجنة، بل وقد يتجاوز الله عن المعاصي شريطة أن العبد يعترف بالحق.

ويجب الحيطة أن أكثر موقف تكون فيه النفس كارهة للاعتراف بالحق هو عندما يُخالف هواها أو عاداتها، أو يترتب على الاعتراف بالحق إقرارٌ منها أنها كانت على خطأ أو ضلال. ولكن الاعتراف بالحق في تلك اللحظات من أفيد الدواء لصلاح المرء، إذ إن فيه كسرًا للنفس. إضافة، فإن فعل هذا يجلب رضًا كبيرًا من الله على العبد، فمصلحة المرء تكمن في تقديم الشرائع على الآراء والاستنتاجات والأهواء الشخصية.

وإن المرء الحكيم يدرك أن الرأي يشتمل على أفكارٍ خليطة بين الباطل والحق، لأن الهوى يُملي على الإنسان بعض الأفكار، وهذا ما أدى بالناس إلى عادات الجاهلية في العصر القديم والحديث. فمما يتوصل إليه الإنسان المُتأمل أنه لا قوانين ولا شرائع تضعها مخلوقات ستُضاهي منفعة قوانين الله في الكون وشرائعه لنا، لأن الله كملت حكمته وأحاط علمه كل شيء، وهو الخالق فيعلم كل شيء عن مخلوقاته، شاملًا ما يضرهم وينفعهم. فحكمة الله يجب أن تُتبع وإن لم نُدرك تلك الحكمة.

ومن إساءة الأدب مع الله أن يتخذ العبد منهج أنه يجب أن يُدرك الحكمة أو يقتنع على أساس علمي بشريعة من شرائع الله كي يقبلها، لأنه ليس له حق أن يقتنع بحكمة تلك الشريعة، وفعله ذلك يعني أنه قد نسي أنه عبد إضافة إلى أن هذا منهج غير واقعي لأن عقل الإنسان له حدود. ما ينبغي له هو الانقياد أساسًا، وإن شاء الله أن يُبين حكمته فتلك نعمة من الله يمن بها علينا. والعمل على غير هذا الأساس من انتظار الاقتناع ليعمل بها (وهذا يفترق عن التحقق في شريعة ما أنها صحيحة وليست من افتراء كذابٍ أو بدعة أو تأويل خاطئ) لن يترك في الأرض أن تقوم قائمة، لأن كل سيفعل ما يهواه ويعُم الفساد في الأرض. ثم إن تمييز درجات إيمان العبد عند الله يكون على أساس مدى طاعته لله، في الأمور التي يفهم حكمتها والتي لا يفهم حكمتها، والأفضل هو من يُطيع الله إيمانًا أن ما حكم به الله هو الأصلح، حتى إن اجتمع جميع الناس وقالوا إن شريعة من شرائع الله تضر الإنسان.

ثم قد جاء في كتاب الله {وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ

الرَّاشِدُونَ} [الحجرات 7]، ما يدل على أن طبع الإنسان الميل إلى هواه واتباع شهواته. ولكن، قد بعث الله الرسل والكتب تقويمًا وتهذيبًا للنفس البشرية وحفاظًا عليها، وهذا ما أشار إليه قول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ صَالِحَ الأَخْلاقِ"[1]. ولو أن الرسل أطاعوا أراء الناس (الذي عادة ما يختلط به الهوى)... لهلكوا بوقوعهم في الإثم والضلال عن الصراط المستقيم. ولذلك يجب على كل مسلم أن يجعل حَكَم ودليل أخلاقه وأعماله من القرآن والسنّة، وليس ما تمليه عليه مشاعره أو حتى منطقه، لأن المنطق يصيب تارة ويخطئ طارة.

أقول إن حتى المنطق لا يكون أصوب من الشرائع الإلهية لأن عقل الإنسان مُعَرَّضٌ للتضليل لعدة أسباب، أبرزهم عدم كمال العلم، ثم هناك التأثر بوساوس الشيطان ورغبات النفس والطباع الشخصية، وأن للعقل قدرة محدودة (ولو كانت عظيمة، فما دام له حد فهو مُقيَّد)، ومن ثَمَّ قد يرى الخطأ صوابًا أو الصواب خطأً. وهذا ظاهرٌ بكثرة في الذين لا يُحَكِمون كتاب الله وسنة النبي (صلى الله عليه وسلم) على أنفسهم، لأن تضليل العقل يحدث ببساطة وسلاسة لدرجة أنهم قد لا يدركونه، وعندما يُواجَه بالحق تأخذه العزة وكبرياؤه من أن يعترف أنه مخطئ (أو عنده جهل) لدرجة أنه قد يُنكر الحق مع أنه قد يُدرك أنه الصواب. وهذا بسبب أن الشيطان يُسول لهم السيئ حتى تشربه قلوبهم فيقتنعون به، ثم يبلغون مرحلة الغرور لأن الشيطان يُزين لهم أعمالهم فيرونها فريدة أو عبقرية أو لها سند، حتى إن أحدهم ليرى أن عمله المفسد في الحقيقة إصلاح للأرض، أو في أقل درجات الانحرافات الفكرية أنه له مُبرراته.

وهذه الظاهرة من انقلاب الموازين لديهم أشارت إليه عدة آيات في القرآن مثل {أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ} [فاطر 8]، {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (11) أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ} [البقرة 11-12]، {إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلِّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِؤُواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ اللّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} [التوبة 37]. وذلك كله عقابا من جنس العمل، إذ قلبوا الحق باطلًا والباطل حقًّا في رؤيتهم للأمور، فكذلك فُعل بهم، أنهم خُدعوا في ظن أن أعمالهم الشخصية فيها إنجازاتٌ وفريدةٌ وهي في الحقيقة صغيرة في هذا الكون، وأن سلوكهم إنما هو تكرارٌ لمن هلكوا قبلهم.

ومن الأمثلة في السنَّة الشريفة حول موضوع انقلاب موازين الحق والباطل بين الناس جاء عنه (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّهَا سَتَأْتِي عَلَى النَّاسِ سِنُونَ خَدَّاعَةٌ، يُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ وَيُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ، وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ وَيُخَوَّنُ فِيهَا الأَمِينُ، وَيَنْطِقُ فِيهَا الرُّوَيْبِضَةُ"، قِيلَ: وَمَا الرُّوَيْبِضَةُ؟ قَالَ

[1] مسند أحمد 8595.

"السَّفِيهُ يَتَكَلَّمُ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ"[1]. وفي جزء من حديث آخر جاء "لَيَكُونَنَّ مِنْ أُمَّتِي أَقْوَامٌ يَسْتَحِلُّونَ الْحِرَ وَالْحَرِيرَ وَالْخَمْرَ وَالْمَعَازِفَ"[2] (الحر هو الزنا، والمقصود من الحرير أي للرجال، والمعازف ما يعزف عليه لإصدار الألحان).

فكثيرًا ما نرى من يستحلون هذه الأشياء بتسميتها بغير اسمها، كالخمر يطلقون عليه اسم "مشروب روحاني"، أو يضعونه بنسبة قليلة في المشروب ويسمونه "بيرة" ويفترون أن نسبة الخمر فيها لا تؤدي إلى السُكر. وهذه التحايلات مما نبأنا عنها الرسول (صلى الله عليه وسلم) بما أوحاه الله إليه "يَشْرَبُ نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي الْخَمْرَ يُسَمُّونَهَا بِغَيْرِ اسْمِهَا"[3]. وهذه نقطة يغفل عنها كثير من الصالحين، أن من الإقرار بالحق أن تصف المشهد كما هو دون التحايل أو المواراة بالألفاظ كي لا يصدم الناس مثلًا، فقد يُقال على الرجل الظالم أنه صاحب رؤية أو أنه قوي الشخصية، مما يبتذل إجرامه، بل وربما يُحرِّضه على الاستزادة من ذلك إعجابًا بما وُصِفَ به والعياذ بالله.

ولكن يجب التنبيه أن هناك فرقًا بين تسمية الباطل باسمه وعن تزيين الكلام لتفادي جرح مشاعر الإخوة وهم ليسوا على الباطل، وعلى المرء أن يُميّز بينهما. وأمثلة على ذلك هو أن المرء قد ينتقي الكلمة الطيبة ليقولها لصاحبه، أو يواري عيبًا مجبولًا عليه أخوه (كتشويه في جسده أو الافتقار إلى حسن الهيئة)، أو ليُصلح بين اثنين تخاصما، أو مجاملة الزوج لزوجته. وفي لفتة أخيرة، قد يُجمِّل المرء كلامه في بيان للظالم أنه ظالم فقط إذا رجي منه الإصلاح عندما يرفق عليه في معاتبته، ولكن لا يواري عنه أنه ظالمٌ، والاستفاضة في هذه النقاط يخرج عن إطار موضوع هذا الكتاب.

ورجوعًا إلى استحلال الناس للباطل بتسميته بغير اسمه، فمن الأساليب المعتاد استخدامها هو قولهم إن أناس كثيرين يفعلون هذا فلا يمكن أن يكون حرامًا، أو أنه شيء يسيرٌ فلا تُضيّق شرع الله وتكون متزمتًا (كالرجل يرتدي ربطة عنق من حرير). ومنهم من يتجرأ بقول إن هذا المنكر تحديدًا حقٌ أساسيٌ للإنسان، مُدَّعيًا أنه من الحرية الشخصية التي لا ينبغي تكبيلها (خاصة في الزنا)، أو كالذي يقول إنه لا يُعقل أن يكون هذا حرامًا لأنه لا يظهر منه ضرر (خاصة في حال المعازف).

وقد يتساءل الكثير لماذا حُرمت المعازف؟ هذا لأن المعازف ضررها أكثر من نفعها، ومن أضرارها جعل المرء يسرح في عالم الخيال والأوهام، وتجعل المرء أقل تحكمًا على شهواته إذ إن مشاعره الفائضة التي تُشبه حالة النشوة تجتاح جسده. ومقابل ذلك يلين جانبه الكابح، سواء كان ضميره أم عقله، فيسهل غمور مشاعره عليه، ومن ثمَّ يسهل عليه فعل المعصية خصوصًا الزنا (بأنواعه) كما هو رأي العلماء، ووضع العازف والمستمع شبيهٌ بالذي يذهب عقله من الخمر لكن

---

[1] مسند أحمد 7571.

[2] صحيح البخاري؛ كتاب الأشربة، باب: ما جاء فيمن يستحل الخمر ويسميه بغير اسمه.

[3] سنن النسائي 5564.

بدرجة أقل. كما أن العزف يُبعد المرء عن القرآن وذكر الله ويُنبت النفاق في القلب، وهذا كله إن لم يتضمن العزف جُمَل تُناقض عقيدة المُسلم أو كلمات دنيئة أو حركات شاذة تنقص من وقار وهيبة المرء، فإن شملت شيئًا من هذا كان ضررها أفج. وربما تكون هناك سلبيات أخرى لا نعلمها ولكن الله يعلمها بحكمته وعلمه الشامل، يريد أن يقينا منها.

وقد دلنا سيدنا ابن مَسعُود (رضي الله عنه) ببعض أضرار المعازف قائلًا: الْغِنَاءُ يُنْبِتُ النِّفَاقَ فِي الْقَلْبِ كَمَا يُنْبِتُ الْمَاءُ الزَّرْعَ، وَالذِّكْرُ يُنْبِتُ الإِيمَانَ فِي الْقَلْبِ كَمَا يُنْبِتُ الْمَاءُ الزَّرْعَ[1]. وفي قول الله تعالى {وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ} قال سيدنا ابن مسعود (رضي الله عنه): هُوَ وَاَللَّهِ الْغِنَاءُ[2]. مثال آخر شائع في إقلاب الموازين هو في النهي عن تزين المرأة خارج البيت وقد قال الله {وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلا مَا ظَهَرَ مِنْهَا} [النور، جزء من الآية 31]، ومع ذلك تجد المرأة تتزين لتبرز جمالها عندما تخرج من المنزل. وإذا نهوا عن ذلك قالوا إن هذا ليس خطأ وإنه علامة من علامة التحضر والرُقي وحُسن المظهر، وعلى الصعيد الآخر يقولون على المرأة التي لا تتزين ولا تتنمص أنها لا تفهم في الرقي أو تُهمل نفسها أو أنها رجعية، فسبحان الله.

وأنى هم مما جاء به رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنه نهى عما تفعله الوَاصِلَة والمُستَوصِلَةِ والوَاشِمَةِ والمُستَوشِمَةِ والنَّامِصَةِ والمُتَنَمِّصَةِ والمُتَفَلِّجَاتِ وَالْمُغَيِّرَاتِ خَلْقِ اللَّهِ[3]. الواصلة والمستوصلة يشمل الفاعله والمفعول بها في أن تصل المرأة الشعر بشعر آخر، وعلى هذا النحو في الوشم وفي التنمص –وهو نتف شعر الحاجب– وفي التفلج –أي تفريق الأسنان عن بعص عمدًا للتجمل–. بل وقد تتعطر المرأة خارج بيتها فتثير شهوة الرجال الذين يشتمّون عطرها، وتلفت انتباههم لها (وهذا دون التطرق إلى تطلعهم للنظر إليها) فتفتح باب الذرائع والفتن بذلك. وهذا نهى الرسول (صلى الله عليه وسلم) عن تعطر المرأة خارج البيت نهيًا غليظًا في قوله "أَيُّمَا امْرَأَةٍ اسْتَعْطَرَتْ فَمَرَّتْ عَلَى قَوْمٍ لِيَجِدُوا مِنْ رِيحِهَا فَهِيَ زَانِيَةٌ"[4].

والغريب أن بعضهن قد يخجلن أن يخرجن دون أن يتَزيَّن، والمفترض والأصل هو العكس، أن فطرة المرأة هي الحياء من أن يُطيل الرجال النظر إليها بلفت أنظارهم بالتزين والتعطر. والمتزينات خارج البيت لا يرون ضرر فعلتهن هذه من منطقهم بأن المرأة يجب أن تكون جميلة، ولكنهم لا يدركون أن الرجال لا ينظرون إلى التزين من منطلق الجمال فحسب، بل تثير شهوتهم، ولو أنهن علمن أن منظور الرجل للتزين غير منظور المرأة ربما يدركن ويقتنعن لماذا نهى الله عن ذلك.

---

[1] كتاب السنن الكبرى لأبي بكر البيهقي 223/10.

[2] التلخيص الحبير لأحمد بن علي العسقلاني 367/4.

[3] صحيح مسلم، كتاب اللباس والزينة، باب تحريم فعلِ الواصلة والمستوصلة والواشمة والمستوشمة والنامصة والمتنمصة والمتفلجات والمغيرات خلق الله.

[4] سنن النسائي 5036.

فلو أن القوانين وُضعت بالمنطق بدلًا من الأحكام الشرعية أولًا، لتغيرت القوانين من حينٍ إلى آخر نظرًا لاختلاف آراء ومنطق من يضعهم، ولفسدت الأرض حينئذ لأن لا حكم يحقق العدالة والمحافظة على الإنسان كما يُحققه حكم الله. ولقد رأينا عبر الزمن أن كل الأنظمة فشلت، فقد رأينا الشيوعية والليبرالية والعَلمانية والاشتراكية والجمهورية وغير ذلك كلهن فشلوا، وفي هذا الزمان يتبنى كثيرٌ من الناس والدول فكرة "الديمقراطية" واستقطبهم هذا النظام. هذا ومع العلم أن الديمقراطية أساسها العمل برأي الأغلبية في القرارات، فهو تبعًا بدرجة كبيرة لنفس المنهج المعروف في الإسلام بنظام الشورى في الأمور التي لا نص فيها، ولكن الصبغة الغربية لنظامٍ اسلامي يكون جذّابًا أكثر عند مجموعة من الناس. والحقيقة هي أن ديمقراطية دون نظام الإسلام الشامل (بين الحدود والعدل وقوانين المُعاملات والمواريث وإلخ) هو نظام سيفشل يقينًا.

وفي السُنَّة الشريفة ما يدل على أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان يأخذ بالشورى –مثل مكان الدفاع عن المدينة المنورة في غزوة أُحُد–، ولكن ماذا يقال في أُناس يريدون نفس المبدأ ولكن بإسم غير اسمه في الإسلام ليلتفوا حولة ويقبلوه! ومعلومة للمسلمين عن تاريخ الشورى في الإسلام، ومدى الحزم في تطبيقها فيما يختص بتولي أمر الخلافة، فقد روي أن عثمان وعلي وعبد الرحمن والزبير وسعد دخلوا على سيدنا عمر (رضي الله عنهم) بعدما طُعن وأراد تفادي الخلاف على من يتولى الإمارة بعده، فقال لهم: فَإِنْ حَدَثَ بِي حَدَثٌ فَلْيُصَلِّ لِلنَّاسِ صُهَيْبٌ مَوْلَى بَنِي جُدْعَانَ ثَلاثَ لَيَالٍ، ثُمَّ اجْمَعُوا فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ أَشْرَافَ النَّاسِ وَأُمَرَاءَ الأَجْنَادِ، فَأَمِّرُوا أَحَدَكُمْ، فَمَنْ تَأَمَّرَ عَنْ غَيْرِ مَشُورَةٍ فَاضْرِبُوا عُنُقَهُ[1].

ولكن من يستمع، وما هي إلا بضع سنين حتى يُعيد التاريخ نفسه وتسقط الديمقراطية نظرًا لتعدد العيوب فيها، مثل أنها تُحلّ بعض المُحرمات (مثل الربا والخمر) بينما تُحرّم بعض الحلال (مثل تعدد الزوجات)، تُقدّم رأي البشر فوق حُكم الله، وأن القرارات تؤخذ بناء على الرأي والمصالح (المُتوقعة) دون اعتبار للأخلاق والقِيَم والحق، وهذا بخلاف نظام الشورى في الإسلام. ثم سيأتي أناس بنظام جديد باسم جديد لا يعلمه إلا الله، ويلتف حول ذاك النظام الناس ثانيةً لينصروه، ولا يعتبروا بالتاريخ مهما كرر نفسه! ولكن، من يعتبر؟

أما نظام الحكم الإسلامي فلم يفشل قط، ولكن كان يُهدم دائمًا بترك المسلمين تطبيق أحكامٍ فيه، بالإضافة إلى أيدي الخائنين من الداخل بعدما أعرضوا عن الشريعة ودعوا الدول غير الإسلامية لغزو بلادنا وتطبيق نظامهم، أذلهم الله كما أذلوا الأمة الإسلامية. فالحمد لله الذي أنزل لنا القيم والأخلاق طبقًا لحكمته سبحانه، فالذي خلقنا هو أدرى بما يُقوّمنا وأين مصلحتنا. والقرآن بالنسبة إلينا بمنزلة (مع الفارق) دليل تشغيل الغسالة إلى الغسالة، فالمُصنّع للغسالة كتب دليلًا لتشغيل الغسالة

[1] السنن الكبرى لأبي بكر البيهقي 151/8.

بطريقة تعطي أعلى كفاءة من الغسالة وفي نفس الوقت تُحافظ عليها من إساءة الاستخدام. فمن لم يتبع الدليل ووضع في غسالة الملابس أطباقًا مثلًا، فهل ستعمل؟ نعم ستعمل، ولكن لن تخرج الأطباق سليمة وربما لن تنظف، ومع الوقت ستفسد الغسالة لأنها لم تُصمم لهذا!

كذلك من عاش حياته في الدنيا دون اتباع منهج الإسلام، هل سيعيش؟ نعم، ولكن لن تكون له حياة بمعنى الكلمة لأنه سيعيش مضطربًا وذليلًا للدنيا، حتى وإن ملك مال العالم، فهو في الحقيقة من الأموات الذين يمشون على الأرض إذ لا مغزى من حياته، عيشة ضنك. وذلك ما وصفهم الله به {أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [الأنعام 122]، فوصف المُعرض عن الله كالميت، ووصف الذي هداه كالذي أحياه. هذا بالإضافة إلى أن المُعرض عن الله لا نصيب له في الآخرة أيضًا إذ إنه لم يُعِدَّ لها في الدنيا.

فالحمد لله الذي أنزل لنا الإسلام ليكون لنا دليلًا نتوحد حوله، ويُنهي الاختلاف بأن يُثبت الحق حقًّا والباطل باطلًا، والحمد لله على نعمة الإسلام وكفى بالإسلام نعمة. أما من أراد تغيير ثوابت أو فهمنا للإسلام، أو أراد فصل الإسلام عن جوانب من الحياة العملية (مثل السياسة)، أو أراد تطبيق بعض الشرائع ونبذ البعض الآخر، أو أنه لا يُطَبِّق الإسلام إلى حد كبير في حياته (مثلًا يتهاون في الصلاة أو المرأة تتهاون في الحجاب)، ثم يتكلم عن كيف ينبغي أن يكون الإسلام فاعلم أنه مُفسد ووجب الاحتراس منه. وهذا سواء كان متعمدًا أم غير متعمد، عالمًا في الإسلام أم جاهلًا، إنما قد ينفعه التعمد من خطأه، أو علمه من جهله، عند الله في حُجته مع الله، ولكن النتيجة في الأرض سواء إذ إنه يتسبب في الفساد.

ويجب إرساخ لدينا مبدأ، أن القوانين التي أنزلها الله ليست قابلةً للنقاش ولا التعديل، وإنما للتفكر فيها فحسب. فهي كما هي، فإن الأرض ليست أرضي ولا هي أرضك، إنما هي أرض الله يحكم فيها بما يشاء، وقد سنَّ فيها أن من يكفر به فإن مأواه النار مهما بلغ إحسانه للناس ورأفته بمخلوقات الله، ومهما قدَّم في الأرض من منافع وتطور. وحقٌ لله أن يحكم بذلك، إذ إن الأرض أرضه، وحتى أجسادنا ملكٌ لله، وذاك الكافر يعيش على أرض الله ولكن يجحد أن الله يملكها هي والسماوات والجنة.

قوة البصيرة في قراءة الواقع مع الإقرار بالحق، حتى لا يُضَلُ ولا يَضِلُ. قال تعالى {يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} [الحجرات 17]. هذه الآية نزلت في فئة من الأعراب كانوا يمنون على الرسول (صلى الله عليه وسلم) أنهم

أسلموا واتّبعوه ونصروه (أو لم يقاتلوه كباقي العرب)، وحقيقة الوضع هي أن الله هو الذي له المنة عليهم أن أنزل لهم الإسلام وهداهم إليه وأرسل إليهم الرسول (صلى الله عليه وسلم). وبهذا يكون الرسول (صلى الله عليه وسلم) منة من الله عليهم، وله تعالى المنة عليهم بإبلاغهم سبيل الهدى والنجاة وصبره عليهم، فقد قلبوا الموازين.

هذا الذي أريد الإشارة إليه، أن زاوية رؤية الأمر تُغير منظور الإنسان للأمر بطريقة جذرية، ومن ثمَّ تُغير منطلق تعامله معها. وإن تغيير النظرة كثيرًا تأتي بمفعولٍ قوي في تغيير ما يفعله المرء في أمر ما، فمثلًا ما يحدث لمن حولنا من إخواننا المسلمين في دول شتى مثل فلسطين، فهناك من يرى أن هذه مشكلتهم ولا داعي أن ينزف من أجلهم. ولكنه إذا رأى أن الله يُذل من يتخلى عن أخيه، وأن إخواننا هؤلاء إن هلكوا فستضعف فئة الذين يتمسكون بكلمة 'لا إله إلا الله' فالضرر سيعود على المسلمين جميعًا، وأن العدو إذا انتصر عليهم فسيكون دورنا بعدهم، لبدأ في نصرة إخوانه. وهذا دون الاستفاضة في قضية نشر توحيد الله في الأرض، ولو أن شخصًا قضى حياته فقط في إرساخ أنه لا إله إلا الله في الأرض ليكونن قد أفلح، ولتكونن حياةً أُحسِنَ بَذلها ولم تُهدَر.

ومثال آخر لمن هو مُبتلى، فبعض الناس يرون أن ما هم فيه من مشقة البلاء تحط من قُبح ارتكابهم معصية للتسرية عن نفسهم (أي أنه عُذر لهم)، بينما أناس آخرون يرون أن هذا بلاء من الله ليُراقب كيف سيتصرفون، ولا يريدون الفشل في ذلك الامتحان فيمتنعون عن المعصية. وهذا ينطبق على نظرة المرء إلى المعصية أيضًا، فقد تستدرجه نفسه أنها فيها لذه شديدة وأنه سيكون قد فاته كثيرٌ إن تركها، ولكن إذا تذكر أن تلك المعصية مخالفةٌ لأوامر الله ويُخيب إرادة الله من العبد بعد أن مَنّ عليه لربما ترك المرء المعصية، خصوصًا إذا أيقن أن لذة تلك المعصية يتبعها عقاب من رب الكون.

فهذا الذي ينبغي فعله، ينبغي للمرء مراقبة والتفكر مليًّا في الظواهر حوله حتى يكتشف ويستوعب الحقائق، ثم يُعدل ويُصحح رؤيته للأمور إلى أن تتوافق منطقيًّا مع تلك الحقائق. والمعنى هو أن المرء إذا استلذ المعصية، ولكنه يلاحظ أنه كلما ارتكبها حدثت له انتكاسة أو ظهرت عواقب بعدها على الناس أو ينأح عليه ضميره، ففي نظرته الإجمالية يُدرك أن لذتها إنما هو فخ، وأنها في الحقيقة متعةٌ ظاهرية. وهذه نعمة من الله –قوة البصيرة– يهبها لمن صدق في نيته وتجنب المُحرَّمات، فيستشف حقائق الأمور من الوقائع، فيُقلص من المعاصي ويعرض عنها بالرغم من متعتها، لأنه يدرك تبعات اختياره لتلك المعصية.

فما الذي يجعل ضعيف الإيمان يصعب جدًّا عليه الإعراض عن معصية، في حين أن شخصًا قوي الإيمان يعرض عن نفس المعصية بمنتهى السهولة والتلقائية دون تردد، ولا تتحسر نفسه على فواتها؟ جزءٌ كبيرٌ من الفرق في رد الفعل هو بسبب اليقين المرتبط بالإيمان، اليقين أنه سيُحاسَب

على أفعاله، ودرجة يقينه ينعكس على جودة عمله. واليقين يزيد من رؤية الأوضاع على حقيقتها وبشمولية، وذلك يحدث بالتعلم والتفكر واتباع المنهج الربّاني، وإعلاء الإقرار بالحق على هوى النفس (بدءًا بداخل النفس).

وأبسط مثال على اليقين هو في المرء الذي يذهب إلى العمل، فمع أن العمل فيه مشقة وهموم، بل وقد يتعرض المرء في عمله للإهانة أحيانًا، إلا أنه يعلم أنه إذا لم يعمل فلن يكون له دخل من المال الحلال كي يستعمله في حوائجه. والمحصلة أنه يذهب إلى العمل بالرغم من ثقل العمل على النفس لأنه يرى مُجمل الأمور على حقيقتها.

تقديم الشرائع على آراء واستنتاجات وأهواء الناس، ولو كانوا أقرباء أو الأغلبية أو ذوي نفوذ في الدنيا. قال تعالى مُبينًا لنا {وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} [الأعراف 28]. هذا مثال على مدى التيهة والانحراف الذي قد يصل إليه الشخص عندما يتبع هواه، فقد رأى هؤلاء أنه لا شيء فيما يفعلون من الفاحشة من كثرة تكرارها ورؤيتهم آباءهم يفعلونها، فأصبحت مألوفة –بل ومحبوبة– فثقُل عليهم تركها وإنكارها. بل إنهم قد تجرأوا على الله وزعموا أن الله أمرهم بها، فقُلبت عندهم موازين الحق والباطل حتى رأوا الباطل شريعةً والحق عجيبًا! وهذا حال من اتبع هواه، أنه يقع في دوامة انقلاب الموازين، فيرى الحق باطلًا والباطل حقًّا ولو فقط في بعض الأمور.

وهؤلاء ممن مكر الله بهم بسبب سوء نياتهم، فأُدخلوا فيمن شملتهم الآية {أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ} [فاطر 8]. قد هانوا على الله لدرجة أنه أضلهم وأمر نبيه (صلى الله عليه وسلم) ألا يتحسر عليهم.

وتلك من الفتن العظيمة، حين يُرى أغلب الناس على باطل بينما يرون أنهم على الحق، فيغُرَّك الشيطان على أنه ليس من المعقول أن يكون كل هؤلاء على باطل، وأنه لا يُعقل أن يعذب الله كل هؤلاء. إضافةً إلى هذا تضغط عليك نفسك بسبب هواك لهذه الشهوة، فتشجعك على أن تفعل مثل الناس ولا بأس في ذلك لأن العدد كبير، خاصة أن مخالفة الناس في تلك المسألة تدعو للتهكم والانتقاضات والسخرية من جانبهم عادةً. فيا للفتنة، أعاذنا الله من أن تؤثر فينا أو تضُمَّنا إليها، عندما ينتقد العصاةُ لكثرتهم الملتزمين القلة، فسبحان الله وبه الاستعانة على الثبات.

أما إذا وكزتك نفسك أن تنضم لجموع الناس في باطلهم فاسأل نفسك هذه الأسئلة: ما علاقتي بهم؟ أسيحملون عني من أوزاري يوم القيامة؟ أسيدافعون عني عندما يُحاسبني الله؟

أسيساعدونني في عبور جسر جهنم؟ أينفعونني في شيء يومئذ بسبب كثرتهم؟ فإن كنت لا تريد أن تكون معهم في جملة حسابهم بالنسبة إلى تلك المعصية وجب عليك اعتزالهم في الدنيا، والقرار لك.

وقد بيّن الإمام البصري (رحمه الله) الفرق في الفكر والعمل بين المؤمن والفاسق، ونبَّه من طريقة الوقوع في فخ الاغترار بكثرة الناس على مخالفةٍ ما قائلًا: الْمُؤْمِنُ مَنْ يَعْلَمُ أَنَّ مَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ كَمَا قَالَ، وَالْمُؤْمِنُ أَحْسَنُ النَّاسِ عَمَلًا، وَأَشَدُّ النَّاسِ خَوْفًا، لَوْ أَنْفَقَ جَبَلًا مِنْ مَالٍ مَا أَمِنَ دُونَ أَنْ يُعَايِنَ [أي لا يأمن مكر الله إلا عندما يُعاين الجنة، أي يدخلها]، لا يَزْدَادُ صَلاحًا وَبِرًّا وَعِبَادَةً إِلا ازْدَادَ فَرَقًا [أي فزعًا]، يَقُولُ: لا أَنْجُو! لا أَنْجُو! وَالْمُنَافِقُ يَقُولُ: سَوَادُ النَّاسِ كَثِيرٌ وَسَيُغْفَرُ لِي، وَلا بَأْسَ عَلَيَّ؛ يُسِيءُ الْعَمَلَ وَيَتَمَنَّى عَلَى اللهِ تَعَالَى[1].

فأنصح نفسي وأنت يا أخي، اصبر، وإياك وإتباع الهوى (سواء هواك أو هوى الناس) فإنك لا تدري في أي وادٍ يُلقيك، واتباع الهوي يتركك معرضٌ لهجمات الشيطان والانزلاق في منحدر الشهوات، وغير ذلك من الآفات مثل انقلاب موازين الحق والباطل. وقد كان سيدنا علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) يشتد خوفه من أمرين، اتباع الهوى وطول الأمل قائلًا: فَأَمَّا طُولُ الأَمَلِ فَيُنْسِي الآخِرَةَ، وَأَمَّا اتِّبَاعُ الْهَوَى فَيَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ، أَلا وَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ وَلَّتْ مُدَبِّرَةً وَالآخِرَةَ مُقْبِلَةٌ، وَلِكُلٍّ وَاحِدَةٍ بَنُونُ، فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الآخِرَةِ وَلا تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا، فَإِنَّ الْيَوْمَ عَمَلٌ وَلا حِسَابٌ، وَغَدًا حِسَابٌ وَلا عَمَلٌ[2].

ولا يُجبرك أحدٌ على معصية الله كائن من كان، لأن يوم القيامة لن يكون هناك أي شيء يربط بينكما، ولن يكون لك عنده شيءٌ إلا ما ظلمك فيه، وسيؤخذ منه غصبًا لا طوعًا. بل وسيتبرأ منك لتواجه اللوم على المعصية وحدك بالرغم من أنه هو الذي أجبرك أو حثك أو دلَّك عليها، وتلك الفعلة من قمَّة الغدر (يعلوها الاستدراج إلى الكفر)، والذي جُبر على المعصية يندم أشد الندم ولكن أنى ينفعه ذلك. المشهد كله مُلخصٌ في قول الله تعالى {إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ (166) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُواْ مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ} [البقرة 166-167].

وكل ذلك لأن أمام أهوال يوم القيامة تتلاشى العلاقات والروابط وأسباب تعامل الناس مع بعضهم {فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءلُونَ} [المؤمنون 101]. ذاك يوم تتقطع فيه كل الروابط إلا بين المحسنين، لدرجة أن الفرد -من شدة الخوف- قد يرى أهله ولكن لا يخاطبهم ولا يجتمع معهم، بل يتصرف كأنه لا يعرفهم ولا يراهم، وهذا بين الأقارب، فما بالنا بالمعارف أو الزمائل.

---

[1] الزهد والرقائق لأبي عَبد الرحمن بن المبارك 532.

[2] الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي لابن قيم الجوزية 41.

فأي نوع من الأيام ذلك؟ اللهم سلِّم سلِّم. فلا يَغُرَّنَك أحدٌ على معصية الله كان من كان هو، مهما حثك أو انتقدك أو أرغمك، وأعلم أنك محاسب وحدك وأنه سيتخلى عنك، وأنك عندما تُحاسب على المعصية لا ينفعك جموع الأصدقاء ولا سمعتك لدى الناس ولا سلطان قد بلغته ولا أملاك قد جمعتها. لا أحد سيفتدي بنفسه لك ويتصدر لحسابك، ولن يتكلم بكلمة الحق تطوعًا لينصرك وليحاجج بالنيابة عنك أنه له يدٌ في وقوعك في المعصية كي يُخفف الحمل عليك، لأن ذلك معناه أن حمله هو سيثقل. فمن يعتمد على جموع الناس لتبرير مخالفاته يجب أن يسأل نفسه، هل سيغني عنه أحدٌ يوم القيامة؟

فالأفضل الابتعاد عن كل تلك المُعانات والمذلات ولينظر فقط إلى الله عندما يُقبل على عملٍ، وثمرة ذلك المنهج تعود على المرء بالفائدة في هيئة هدايته وسلامته في الدنيا، وفي الآخرة يسلم من فوضة المشادات والتلاوم واللعان الذي يحدث بين الهالكين يوم القيامة مثل ما جاء في قوله تعالى {وَبَرَزُواْ لِلّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاء لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللّهِ مِن شَيْءٍ قَالُواْ لَوْ هَدَانَا اللّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاء عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ} [إبراهيم 21]. هذا مثال على تبرؤ المَتبوعين من المُتّبعين يوم القيامة، وما أكثر الحجج التي تُقال للتبرؤ منهم. لهذا يجب على العبد أن يتورع عندما يدرك أن مهما أحدث الناس من حوله، ومهما كثروا وبلغوا في هذه الدنيا، فإنه لا يُسأل عن أعمالهم (إلا عن أمر بالمعروف ونهي عن المنكر أو مظلمة) ولا هم يُسألون عن أعماله، فإنه مُحاسَبٌ وحده عن أعماله.

ومن هذا المنطلق يجب على المرء أن يفصل نفسه ممن سلك طريق معصية الله مهما بلغت مكانته في الدنيا، لأن عدم فعل ذلك يُعرّض العبد أن يقع في المعصية مع هذا الشخص. ولا تُمَلِّك أحدًا من الناس أمرك لأنه قد يقودك إلى معصية الله، ولا تُشجِع أحدًا (سواء بالقول أو بالفعل) على أن يكون له سُلطان مُطلق عليك لأن ذلك قد يجعله يغتر ويسوقك إلى ما يرغبه غصبًا، ولا تكن ضعيفًا لأحدٍ لأن ذلك ليس من شيم المؤمن، والمؤمن هدفه إرضاء ربه ولو بمعارضة الناس وجلب سخطهم.

مُفارقة شخص قد ارتضى طريق التقصير في حقوق الله ومعصيته هو الفعل الأصلح واللائق، لأن هذا فيه مصلحةٌ أكثر لهذا الشخص ولنفسك، وأقل غدرًا به، وهذا بعد فَشَل نُصحه وإقناعه بلُطفٍ أن يُصلح حاله إن كان قريبًا لك. وذلك لأنك إذا صاحبته في الدنيا وهو على حاله ثم تبرأت منه يوم القيامة فهذا يكون غدرًا منك به، إذ لم تُصارحه أن ما يفعله خطأ وتعينه على العدول، بل بملازمتك له قد تكون مُمَكنًا له أو شبه المُقر والمُشجّع له على ما هو فيه.

وهذا دون الاستفاضة في الأثر السلبي على قلبك من مُلازمتك له في وضعه ذلك، كما ذُكر في الحديث عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "لَمَّا وَقَعَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي الْمَعَاصِي نَهَتْهُمْ

عُلَمَاؤُهُمْ فَلَمْ يَنْتَهُوا، فَجَالَسُوهُمْ فِي مَجَالِسِهِمْ وَوَاكَلُوهُمْ وَشَارَبُوهُمْ، فَضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ وَلَعَنَهُمْ {عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ}"، فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَانَ مُتَّكِئًا فَقَالَ "لا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّى تَأْطُرُوهُمْ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا"[1] (تَأْطُرُوهُمْ أي تُلزمونهم).

وعندما تفارق لا أستطيع أن أُشدد على مدى أهمية الرفق في المفارقة، إذ إن الغلظة في المفارقة تدعو إلى البغضاء بينكما ولا توفي الغرض المقصود معه (والغرض هو تشجيعه للهداية وهذا يكون بالحسنى، أما الغرض المقصود لك هو أن تصون نفسك)، لأنه لن يقبل منك النصيحة والدعوة للعدول عما هو فيه إذ إنه ينفر من إهانتك له ويرى خللًا في أخلاقك. بل وهناك احتمالٌ كبيرٌ أن تأتي المفارقة الغليظة بتأثيرٍ عكسيٍ، إذ قد يكره أو يُشكك في كل داعٍ يدعو إلى طاعة الله. وقد يرى، بتسويل الشيطان له، أن المشكلة في المنهج الإسلامي (أنه يدعو إلى الغلظة والتشديد والعبس) بدلًا من أن يتَّهم الفرد الذي أساء إليه، وهل يُلام على رأيه إذ كنت أنت نموذجًا سيئًا في الدعوة؟

ويجب أن نُدرك أن الصلات بين الناس والأقارب والأنساب والأحباء تتقطع يوم القيامة ما دامت في غير رضا الله، فليكن عملنا مبنيًا على أساس أننا ندرك هذا، فقد قال تعالى {وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا (10) يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (11) وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ (12) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (13) وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ} [المعارج 10-14]. هذا حال المجرمين يوم القيامة، القرناء يرى بعضهم بعضًا ولكنهم يتجاهلون بعضهم كأنهم لم يرونهم، بل إن المجرم من شدة خوفه وهمّه على نجاة نفسه يفتدي بكل من يعرفهم، حتى ابنه. ذلك لأنه يوم قال عنه الله {وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ (42) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاء} [ابراهيم 42-43].

فعجبًا لي أعصي ربي وأطمئن بالرغم من أنه ما زال أمامي ذلك اليوم لأخوضه، وليس الله بغافلٍ عمّا أعمل ولا بمؤخر أجلي عندما يأتي، بينما أنا أُسَوِّفُ التوبة. ولا أحد من الناس ينفعني يومئذ، بل ولا الملائكة أيضًا، فلا ينبغي أن أتراخى بحيث أن يحملني أحد على معصية ربي مهما كان قدره عندي أو سلطانه عليَّ، فهو ليس أعز عندي من الله ولا بأقدر عليَّ من الله.

وخلاصة عواقب إتباع إنسان في الباطل، ممن له نفوذ في الدنيا، يتضح كاملًا في نهاية المطاف يوم القامة، إذ يُنبئنا الله عما يصدر من الخصوم {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (31) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ

[1] سنن الترمذي 2973. ضعيف لانقطاعه.

صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ (32) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [سبأ 31-33].

يوم القيامة، يُفضى بأقبح الأسرار التي كانت تكمن في صدور المتحابين في غير الله، ويصبحوا متخاصمين، وتظهر أسوأ الأساليب والأخلاق في طعنهم ببعض إذ إنه لا شيء يحجمهم اليوم من النيل من الآخر، فيترتب على هذا فوضى عارمة بينهم. ونرى في الآيات أمثلةً لذلك بداية من "لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ"، وربما يكون لبعض منهم شيءٌ من الحق في ادعائهم أن المستكبرين حالوا بينهم وبين الإيمان. ولكن يكون الرد المُحقّر المُبيّن لخُبث المستكبرين وفرض سيطرتهم وآرائهم على المستضعفين في الدنيا ثم التبرؤ منهم وقت الشدة "أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ"، وهم معهم بعض من الحق أيضًا إذ لا ينبغي لبشرٍ أن يتذلل ويترك نفسه في موضع ضعفٍ تحت سلطة أحد من البشر بطريقة مُطلقة.

حينئذ يفضح المستضعفون الأساليب الخبيثة التي اتبعها المستكبرين كي يستدرجوهم إلى الكفر "بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ"، ثم يندموا على سلبيتهم وخضوعهم للمستكبرين، ولكن أنى ينفع ذلك الآن؟ ومع أن كلا الطرفين عنده جُزءٌ من الحق في حُجته، فإن ذلك لا يُعفيه من العقاب إذ قاد نفسه لذلك، وأعماله تُثبت أنه تعمد توريط نفسه، فكيف يتوقعا أن يُفيدهما الحق الطفيف في حُجة كلا الطرفين مقابل الباطل الوفير الذي ارتكباه.

فقد قادوا بعض بذلك الباطل الوفير إلى توريط بعضهما، وذلك بأنه يخدع المستضعفين إلى الهلاك أكثر، ومقابل ذلك يَحمل المستكبرون من أوزار الذين قادوهم من المستضعفين، والنتيجة إضرارٌ على إضرارٍ لكلا الجانبين، فلكلٍ ضعفٌ من العذاب في هذا الموقف المهيب المشين. {قَالَ ادْخُلُواْ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّن الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاء أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ} [الأعراف 38]، وهذا زيادة في العقاب من الله باستدراجه لهم بما قدموه من باطل.

ومع أن هذا المثل مضروب على الذين كفروا والذين أشركوا، فإنه لا يقتصر عليهم، فقد يحدث حوارٌ شبيهٌ بذلك بين مسلمان كانا أصدقاء سوء واشتركا في المعاصي، لأن كثيرًا ما يكون هناك فردٌ مُستكبر وآخر مُستضعف فيما بين قرناء السوء. فاحذر أخي أن تجد نفسك في علاقة كتلك ولكنك تسكت على هذا ولا تتحرر منها.

بعد المعرفة والإقرار بالحق، يجب العمل بما حكم الله به، وهو الاستقامة، ولو لم يستوعب الإنسان الفائدة أو الحكمة من الحُكم. إن المرء إذا لم يعمل بالحق بعد علمه انتكس، فيبدأ بالرجوع إلى الوراء حتى يكاد يُكذِّب بالحق الذي جاءه، وكل هذا من أجل عدم تكبيل هواه فترة بقائه في الدنيا. وإذا لم يعمل المرء، سيتمتع في الدنيا ولكن قد غفل عن قول الله تعالى {أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ} [الشعراء 205]. جاء سياق هذه الآية في المشركين إذ كانوا يستعجلون عذاب الله من شدة فجورهم، فكانت رغبتهم في عدم تقييد أهوائهم أوصلتهم إلى مرحلة أنهم كذَّبوا بالحق، وبعد التكذيب بالحق تجرأوا أكثر حتى بلغوا مرحلة من الوقاحة أنهم تحدوا الله أن يُنزل عذابه!

وبمنتهى البساطة في الرد والتعامل معهم، التي يدل على مدى قدرة الله وتمكنه منهم، قال تعالى إنه سيُمهلهم بتمتيعهم السنين التي أجزموا أنهم سيتمتعون بها، ثم يعذبهم، فأملى لهم واستدرجهم حتى رضخوا هم لقوانين الله وسُنَنِه (الحرية في الدنيا ولكن مع المحاسبة في الآخرة)، وليس هو سبحانه الذي وافقهم في قوانينهم هم (تحديه على تعجيل العذاب في الدنيا). وصيغة التعبير "مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ" توحي أنها سنوات عدة، أي لا تتعدى العشرة مثلًا، تعبيرًا عن قِصر مدة متعتهم ولو كانت في الحقيقة مدى عُمرهم. فنتساءل، كم يتمتع المرء في الدنيا بحقٍ، عشرة سنين؟ خمسين؟ مائة؟ فلنقل ألفًا حتى، فكم يقضي المرء مقابل ذلك عذابًا في الآخرة؟

فلا شك أن مهما طالت تلك المدة من المتاع في الدنيا إلا أنها لا شيء مقارنةً بطول زمن الآخرة، ولا حتى بأوائل منازل الأخرة –القبر–، الذي يُرغم المرء على الانتظار فيه (إما في نعيم وإما في عذاب) حتى يقضي جميع الناس أعمارهم وتقوم الساعة، ولذلك يكون سياق كلام الله عن عمر الإنسان وكأنه بضع سنين فحسب. وذلك مثل أن يقول أحدنا لشخص آخر: انتظرني ثواني (أو دقائق)، وهو مُصطلح مجازي إذ يتوقع المرء أن يستغرق وقتًا أكثر من بضع ثوانٍ أو دقائق، ولكن القول يدل على عزم القائل على التعجيل. ولكن عندما يقول ذلك الله "مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ" فيجب أن نثق في كلام الله ونؤمن أن تلك السنين لا تُقدَّر بشيءٍ ولو بدت لنا خلاف ذلك. ومن هذا المنطلق فلنصبر على مشوار الحياة الذي نبأنا الله أنه قصير، وهذا يكون بطاعته والبُعد عن عصيانه، ولنستبشر بمصير من أطاع الله ومُكافأة من آثر نصيحة الله على هوى النفس بناء على الثقة في كلام الله.

وهذا هو صميم الإيمان، وهو إيثار نصيحة الله وحُكمه على الرأي الشخصيّ وهوى النفس، يقينًا أن ما يقوله الله أفيد مما يراه النفس، خاصة في الأمور الغيبية. وهذا يظهر في دقائق الأمور مثل اتباع السنن غير الواجبة للرسول (صلى الله عليه وسلم) كشرب الماء جالسًا وغير ذلك، فقد لا يحيط المرء بكل جوانب فائدة هذا للإنسان ولكنه يطبقها إيمانًا أن ذلك أفيد له. ولذلك هؤلاء يكن لهم أكبر المكافأة من الله، المؤمنون الذين يظهر إيمانهم في أعمالهم بالرغم من عدم فهمهم أو إدراكهم

ما أخفاه الله من حكمة لبعض الأمور، ولكن يفعلون ذلك لأن ثقتهم في الله أكبر من ثقتهم في أنفسهم.

ويظهر ذلك الإيمان في العمل بعد الإيمان بالقلب، كما قال الحسن البصري (رحمه الله): إنَّ الإِيمَانَ لَيْسَ بِالتَّحَلِّي وَلا بِالتَّمَنِّي، إِنَّمَا الإِيمَانُ مَا وَقَرَ فِي الْقَلْبِ وَصَدَّقَهُ الْعَمَلُ[1]. وأبلغ درجةً من العمل الإيماني هو من يقاتل في سبيل الله فيفدي روحه من أجل الله، وذلك قمّة الإيمان العملي والتوكل على الله، لأنه يؤسس مصيره على أمرٍ غيبي لم يره (الثواب بالجنة في الآخرة)، ولكن يُؤمن به لأن الله أنبأه به، فيستحق أفضل الجزاء من الله.

فلا يجب دائمًا أن تفهم لماذا هذا الحُكم أو ذاك، ولكن اعمل به ما دام أنك متأكدٌ أنه من الله، ولا تكن كالذي لا يُطبق حُكمًا إلا إذا اقتنع به والعياذ بالله، فإن عقل الإنسان لا يتّسع لإدراك كل حِكَمِ الله في شرائعه، فضلًا على أن الإنسان قد يُخطئ في إدراكه لوقائع الحياة. ولو أننا اجتهدنا في التمثل بإيمان سيدنا أبي بكر (رضي الله عنه) لقلّصنا من معصيتنا لله إلى أدنى الحدود، ولم يكن حال الأمة الإسلامية كما هو الآن.

وإليكم صورة من إيمانه، فتروي لنا أم المؤمنين السيدة عائشة (رضي الله عنها): لَمَّا أُسْرِيَ بِالنَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى، أَصْبَحَ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ بِذَلِكَ، فَارْتَدَّ نَاسٌ ممَنْ كَانَ آمَنُوا بِهِ وَصَدَّقُوهُ، وَسَعَوْا بِذَلِكَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) فَقَالُوا: هَلْ لَكَ إِلَى صَاحِبِكَ يَزْعُمُ أَنَّهُ أُسْرِيَ بِهِ اللَّيْلَةَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ؟ قَالَ: أَوَقَالَ ذَلِكَ؟ قَالُوا: نَعَمْ؛ قَالَ: لَئِنْ كَانَ قَالَ ذَلِكَ لَقَدْ صَدَقَ! قَالُوا: أَوَتُصَدِّقُهُ أَنَّهُ ذَهَبَ اللَّيْلَةَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَجَاءَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ؟! قَالَ: نَعَمْ، إِنِّي لأُصَدِّقُهُ فِيمَا هُوَ أَبْعَدُ مِنْ ذَلِكَ، أُصَدِّقُهُ بِخَبَرِ السَّمَاءِ فِي غَدْوَةٍ أَوْ رَوْحَةٍ؛ فَلِذَلِكَ سُمِّيَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقَ[2].

تطبيق هذا الإيمان هو الإستقامة، والذي أوصى به الله والرسول (صلى الله عليه وسلم). قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (13) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأحقاف 13-14]. قيل إن الاستقامة هي الثبات والاعتدال على 'لا إله إلا الله'، وقيل إنها فعل ما أمر الله به واجتناب ما نهى عنه؛ والراجح أنها الاثنان لأن المسألتين مرتبطان، فالأعمال هي مؤشّر على الاعتقاد. وجاء عن سفيان الثقفي (رضي الله عنه) أنه سأل النبي (صلى الله عليه وسلم): يَا رَسُولَ اللَّهِ، قُلْ لِي فِي الْإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا بَعْدَكَ، فَقَالَ "قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ، فَاسْتَقِمْ"[3]. فهكذا ينبغي أن نفعل.

---

[1] المُصَنَّف لابن أبي شيبة 217/7.

[2] المستدرك على الصحيحين لأبي عبد الله النيسابوري 5/4.

[3] صحيح مسلم 55.

تقييم العبد لأعماله بموضوعية وصدقٍ مع النفس، ومحاسبة النفس بناء على النتيجة. إن المرء الصادق مع نفسه يُحصي أعماله ثم ينظر إليها بنظرة شاملة مُحايدة ليُقيّم نفسه، فيستنبط أهو شخصٌ صالح أم يخدع نفسه أنه صالح. فكثيرٌ من الناس يقولون إنهم مصلحون ولكن أعمالهم تدل خلاف ذلك، وإذا سُئلوا عن ذلك التناقض قدَّموا التبريرات أو الأكاذيب، ولكن هناك من يريد إصلاح نفسه عندما يُدرك ذلك التناقض ويعمد إلى إصلاحه.

ومثال على ذلك هو استغفار المرء، فقد يكون استهانةً أو قد يكون صادقًا بالرغم من أن المرء قد يقع في نفس المعصية ثانيةً. فقد روى سيدنا عبد الله بن عباس (رضي الله عنه) قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) "التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لا ذَنْبَ لهُ"، ويروى له بقية بسندٍ ضعيف (ولعل التكملة موقوفة، أي إسترسال أحد الرواه): والمُستَغفِرُ منَ الذَّنْبِ وهو مُقيمٌ عليه كالمستهزِئِ بربّه[1]. وظاهر الأمر أن ذلك لمن لم يصدق في استغفاره، وصِدق الاستغفار يكون بالندم والرغبة في عدم تكرار المعصية. والاستغفار باب من الأبواب للتوبة، التي تشمل أربعة شروط وهم: الإقلاع عن المعصية، والندم على ما ارتكبه المرء، والعزم على عدم العودة لها، ورد الحقوق إن كانت هناك حقوق مسلوبة. ومن دلالات صدق التوبة الأخذ بالأسباب لتفادي الوقوع فيها ثانيةً، مثل أن شارب الخمر يتخلص من ما يخزنه من الخمر ويعتزل رفقاء السوء الذين يشربون معه.

أما المستغفر أو التائب الذي يقع في الذنب مرارًا وتكرارًا فليتحقق من أمرين: أولًا هل كان ينوي حين الاستغفار أو التوبة ألا يُعاود المعصية، وثانيًا هل أخذ بالأسباب التي تحيل بينه وبين المعصية؟ وبناء على هاتين الإجابتين يتبين للمرء هل هو ممن شملهم هذا الحديث أم لا، فإن كان يندم بشدة لدرجة أنه يعزم على هجرها ويأخذ بالأسباب لإبعاد نفسه عنها، فهذا لا يشمله الحديث وإن وقع في نفس المعصية ثانيةً، بل ويرجى له النجاة إن داوم على الاستغفار والتوبة الصادقة. أما الآخر فإنه لا يعزم على ترك المعصية مع استغفاره، بل وربما عزم على معاودتها في المستقبل، ولا يأخذ بالأسباب المانعة لنفسه من الوقوع فيها ثانيةً، فذلك الذي قد يكون المقصود به في الحديث المذكور.

والنموذج الأول هو الذي يُرجى له الفلاح، لأنه صدق في نياته بل وأخذ بالأسباب المانعة، ولكنه يضعف فيُقبل على المعصية بعد فترة، ويتجاوز الحواجز المانعة التي وضعها ليرتكب المعصية. وهذا لأن ذاك المرء يقع تحت تأثير هواه، مما هو حال الإنسان أنه خَطَّاء، ولكن لا يلبث أنه يندم حين ينتهي من المعصية، فذاك قد زلَّته نفسه وهواه. ويؤيد هذا الرأي حديث نبي الله (صلى الله عليه

[1] فتح الباري لابن حجر العسقلاني 480/13.

وسلم) الذي ذكرناه من قبل عن العبد الذي لا يزال يقع في المعصية ويستغفر، حتى قال له الله: اعْمَلْ مَا شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ.

وجاء في كتاب فتح الباري عن رواية البخاري لهذا الحديث: وقال القُرطبي في المُفهِم: يدل هذا الحديث على عظيم فائدة الاستغفار وعلى عظيم فضل الله وسعة رحمته وحِلمه وكرمه؛ لكن هذا الاستغفار هو الذي ثبَت معناه في القلب مقارنا للسان لِيَنحَلّ به عَقد الإصرار ويحصل معه الندم فهو ترجمة للتوبة، ويشهد له حديث: "خِيَارُكُمْ كُلّ مُفْتَن تَوَّاب"، ومعناه الذي يتكرر منه الذنب والتوبة فكلما وقع في الذنب عاد إلى التوبة، لا من قال 'أستغفر الله' بلسانه وقلبه مُصِرّ على تلك المعصية، فهذا الذي استغفاره يحتاج إلى الاستغفار. قلت: ويشهد له ما أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث ابن عبّاس مرفوعًا "التَّائِب مِنْ الذَّنْب كَمَنْ لَا ذَنْب لَهُ، وَالْمُسْتَغْفِر مِنْ الذَّنْب وَهُوَ مُقِيم عَلَيْهِ كَالْمُسْتَهْزِئ بِرَبِّهِ"[1] (انتهى). فمقتضى الكلام أن المُصر على المعصية ويستغفر هو كالمستهزء، ليس من كرر المعصية وهو ينوي بصدق عدم الوقوع فيها بين كل مرة والتي تليها.

فتلك السعة هي رحمة ورأفة من الله بنا لأنه يعلم مدى ضعفنا (فهو الذي خلقنا)، فمن عمد إلى استغلال رأفة الله وسعته تواكلًا على أن الله لن يبطش، فذلك يمكر مع الله، فيستحق أن يشمله الحديث لأنه فعلًا كالمستهزئ بقوانين الله وعظمته، ويستحق ما يُفعل به الله إذ يُعَرِّض نفسه لنقمة الله ومكره. وذاك الشخص مثل الذين ذكرهم الله في الآية {فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يِقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ} [الأعراف 169].

قال المفسرون إنهم خلفٌ ورثوا الكتاب (أي التوراة) عن آبائهم فعَلِموه ودرسوه، ولم ينهاهم هذا عن أنهم "يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى" أي يأخذوا مما نُهوا عنه من متاع هذه الدنيا، ثم يتأولون ويتمنون أنهم سيُغفر لهم. بل وإن جاءهم عرضٌ مثله يأخذوه، أي يُعاودون تلك الفعلة عندما يُعرض عليهم متاعٌ آخر، وهو بيان لإصرارهم على الذنب مع جُرأتهم أنهم سيُغفر لهم.

وجاء في تفسير الطبري (رحمه الله): عن قَتادَة قوله: "فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ"، إي والله لخَلْفُ سَوء، وَرِثوا الكتاب بعد أنبيائهم ورُسلهِم، ورَّثَهُم الله وعهد إليهم، وقال الله في آية أخرى: "فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ"، قال: "يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا"، تمنوا على الله أمانيّ، وغِرَّةً يغترون بها؛ "وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ" لا يشغلهم شيء عن

[1] فتح الباري لابن حجر للعسقلاني 480/13؛ وقال: قوله: والمستغفر إلى آخره موقوف، وسنده حسن.

شيء ولا ينهاهم عن ذلك، كلما أشرف لهم شيء من الدنيا أكلوه، لا يُبالون حلالًا كان أو حرامًا[1] (انتهى).

فيا أخي، تحرَّ من أفعالك، ءأنت من الصنف الأول أم الثاني، واعلم واحذر أن صدقك مع الله في الاستغفار أو التوبة لا يعلم حقيقته إلا اثنان، هو ثم أنت (وهو أعلم بها منك). ومن ثمَّ، فإنك لا تستطيع أن تخدع الله بعدم صدقك في استغفارك أو توبتك، وذلك يعني أنه لا يبقى سواك، فإذا خادعت تخدع نفسك وتُوَرِّطها.

لوم النفس على تقصيرها وأخطائها. أولًا، يجب إدراك أن الأعمال ستُحصى للمرء كي يُحاسَب عليها في لحظة محددة، فقد قال تعالى {إِنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى} [طه 15]. إن الساعة آتية لا محاله، وإنها لقريبة أيضًا كما قال الله {اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ} [القمر 1]، ويكاد يخفيها الله أيضًا بأن يُخفيها عن جميع مخلوقاته فلا يعلمها إلا هو، ليكفر بها من فسد قلبه، ويستهين بها من نافق، وليظهر الأفراد على حقيقتهم وتظهر معادنهم.

أما المؤمن فيتيقن أن الساعة حتمية، وهذا إيمانًا بكلام الله ونتيجةً للتفكير المنطقي أيضًا، كي تُجزى كل نفس بما تسعى بعد حصاد أعمالهم، لأنه لا يمكن أن تكون حياتنا دون مغزى أكبر من البقاء (الأكل والشرب والتناسل ثم الفناء) أو أن وجودنا هو حدثٌ عشوائي {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ} [المؤمنون 115]. ولو أننا علمنا وقت الساعة لأسرفنا في اللهو لأننا نراها بعيدةً، ولأصابنا اليأس بسبب نفاد صبرنا في انتظارها ولتركنا العمل آنذاك، مع أن موت الفرد هو بمنزلة قيام الساعة بالنسبة إليه. أو لزدنا في الأعمال الصالحة التي ليست في عادتنا (وهذا نوع من التظاهر) إذا علمنا بقُربها، فكان من حكمته سبحانه وتعالى إخفاؤها عنا.

النقطة المهمة في الموضوع هو أن الله فعل ذلك لتُجزى كل نفس بما تسعى، فيا أيها القارئ ما سَعيُك؟ وما سعيي وقد قال الله {وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلا مَا سَعَى (39) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى} [النجم 39-40]؟ كل فرد أعلم بسعيه من غيره، والله أعلم بكل واحد منا أكثر من علم المرء بنفسه. والعجيب أن المرء قد لا يُصارح نفسه بما فعله في موقفٍ كان فيه دنيئًا، ويخفي هذه الفعلة عن الناس من كثرة قبحها في عينه، ولا يفكر فيها –بل وربما يتجنب تذكرها– من خجله وندمه منها لأنه قد يوبخ نفسه أكثر وأكثر وينأح ضميره عليه، ولا يدري كيف صدر ذلك منه. بل والأسوأ أنه قد يختلق المبررات لفعلته تلك، أو يُنكر أنه أخطأ بدلًا من الاعتراف بخطئه والتوبة.

[1] تفسير الطبري 213/13.

ويجب أن نعي أن الاعتراف بالخطأ هو أول الطريق إلى الإصلاح والنجاة، وأدعى لنيل رحمة الله ومغفرته كما جاء في الآية {وَآخَرُونَ اعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [التوبة 102]. فهؤلاء في نهاية الأمر تاب الله عليهم بعد أن اعترفوا بخطئهم في تخلفهم عن غزوة تبوك بالرغم من أن فيهم من جاهد في الله من قبل. فقد خلطوا عملًا صالحًا بآخر سيئ (ومن منا لا يخلط عمله الصالح بعملٍ سيئ؟)، ولكن اعترافهم بالخطأ أفلتهم من طائلة عقاب الله.

فما بال حال المرء عندما تُكشف عن هذه الأفعال بوضوح أمام الله للحساب (وربما أمام الملأ إن لم يستره الله) {بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} [الأنعام 28]، أفلا أخاف تلك اللحظات؟ والمشكلة أنها مكتوبة في كتب أعمالنا أيضًا التي تكون مكشوفة يوم القيامة ولا يُمكن محوها، والهلاك إن ناقشنا الله فيها، فيا للفضيحة ويا للعذاب.

ومن أعمالنا ما قد يُظهره الله بعلامات علينا فيراه من يشاء الله أن يراه، كما جاء في عدة أحاديث عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) كقوله "إِنَّ الْغَادِرَ يُرْفَعُ لَهُ لِوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُقَالُ: هَذِهِ غَدْرَةُ فُلانِ بْنِ فُلانٍ"[1]. وقال أيضًا (صلى الله عليه وسلم) "يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُوَرِ الرِّجَالِ، يَغْشَاهُمْ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، فَيُسَاقُونَ إِلَى سِجْنٍ فِي جَهَنَّمَ يُسَمَّى بُولَسَ تَعْلُوهُمْ نَارُ الأَنْيَارِ، يُسْقَوْنَ مِنْ عُصَارَةِ أَهْلِ النَّارِ: طِينَةَ الْخَبَالِ"[2] (عُصَارَةِ أَهْلِ النَّارِ أي ما يسيل منهم مثل الصديد والقُيحِ والدم؛ الْخَبَالِ هو عَرَق وعصارة أهل النار).

هذه الفضائح تحدث إلا لمن يستُره الله، والدليل على هذا قول سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ اللَّهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّ، حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ، وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ؛ فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ. وَأَمَّا الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُونَ فَيَقُولُ الأَشْهَادُ {هَؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ}"[3]. وفي التعبير "فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ" إشارة إلى أن الله يُبيّن للعبد أنه يستره حتى يُدرك العبد أن الله يشاء ذلك، وهذه بُشرى لمن وجد الله يفعل معه ذلك فهي طمأنينة من الله للعبد، والحمد لله على لطفه ورأفته.

والجدير بالملاحظة أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قال "يُدْنِي الْمُؤْمِنَ" ولم يقل "يُدني المسلم". ومعروف أن المؤمن في درجة أرفع من المسلم، فقد يعني الحديث أن المؤمن هو الذي يحدث معه هذا فيُغفَر له كثير من ذنوبه، أما المُسلم فليس مضمونًا أن يحدث معه هذا، والله أعلم.

---

[1] صحيح البخاري 5709.

[2] سنن الترمذي 2416.

[3] صحيح البخاري 2261.

فهل ضمن أحدنا أنه فيمن يصفهم الله بالمؤمن بينما قد قال تعالى {فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى} [النجم 32]؟

وقد يرى البعض أن هذا النهج في التعامل مع النفس (أي متابعة أفعالها ومحاسبتها ولومها) فيه قسوة وغلظة على النفس، ولكن لنواجه الواقع: إنا وُضِعنا في الدنيا لنجتهد وليس لنرتاح ونلهو؛ وأننا إذا أرخينا رباط النفس لسرحت في الأماكن الخطيرة. ثُم إن حساب المرء لآت لا محالة، فأيُهُما أخف: أن يُحاسِب المرءُ نفسه بالتفصيل أم أن يُحاسب اللهُ المرء بالتفصيل؟ فمن داوم على محاسبة نفسه يُقلِّص من معصيته لله. وإضافةً إلى ذلك فإن الله يُجازي الذي يفعل ذلك من جنس العمل بأن يُخفف عنه الحساب يوم القيامة. وقد قال تعالى {وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ} [القيامة 2]، والنفس اللوامة هي التي تلوم نفسها على تقصيرها وما فعلت من معاصٍ، وهذه من شِيَم المؤمن، أنه إذا فعل معصية حاسب نفسه ثم يندم ويتوب.

وفي هذه الآية دلالة على مدى تعظيم الله لهذه الصفة وحبه لها إذ إنه أقسم بها، وما أشرف شيء قد أقسم الله به، فهنيًّا للذين يلومون أنفسهم على أخطائهم مع الله. هذا وقد قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) "طُوبى لمن مَلكَ لسانَه، ووَسِعَه بيتُه، وبَكَى على خطيئتِه"[1].

فما خطبي أنا، لأني قد أعصي وأنسى، وقد أخطئ وأُنكر أني أخطأت، فهل أستحق الجنة إذا استمررت على هذا؟ بل وأكثر... ربما أتحسر على فوات معصيةٍ ما أحيانًا. أين حيائي وإخلاصي لخالقي؟ وقياسًا على هذا، هل الجنة في ذهني أنها ملأى بأشخاص أسرفوا في المعاصي وأنكروا أخطاءهم، فكيف تكون جنةٌ آنذاك؟ وكيف أرضى بألا يُستثنى المسرفون من العقاب وأتوقع أن أُستثنى أنا منه؟

التعجيل في الإقبال على الله وعدم تأجيل إصلاح النفس. قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ اللَّهُ تَعَالَى فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَدْلٌ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ"[2]. وفيما يتعلق بالموضوع المطروح نختص من هؤلاء السبعة: شابٌ نشأ في عبادة الله.

[1] صحيح الترغيب للألباني 2740.

[2] صحيح البخاري 1334.

أولًا يجب أن أتخيل مدى الرعب الذي في قلوب الناس يوم القيامة... ومن أظلهم الله ومن لهم نور يدركون أن الله قد أكرمهم، فيقلل هذا من خوفهم أو حتى يكونوا مطمئنين. فلماذا أُضيّع هذه الفرصة في أن أكون مثلهم؟ لماذا أقول لنفسي "سأكون صالحًا عندما أكبر" كي أتمتع بالدنيا قدر المستطاع إضافةً إلى رغبتي بالفوز الكامل في الآخرة، وقد مكر الله بمن يفعل هذا بحيث لا يُظلهم يوم القيامة لتفويتهم باب طاعتهم له منذ شبابهم! فلماذا لا أصلح نفسي من الآن كي أُحسب من الذين نشأوا في طاعة الله منذ شبابهم، وذلك ابتغاء مرضاة الله وظله يوم القيامة؟

حتى إن أصلحت نفسي فقط عندما أكبر فقط (مع أن الموت لا عهد له ولا أمان منه، ولن يؤجَل إن جاء في سن مبكرة فتكون المصيبة الكبرى)، فأكون قد أضعت هذه الفرصة من رضا الله. ودعوني أُوضِّح نقطة، من أخذ بسببين أو ثلاثة من أسباب ظل الله، فلن يُعامل مثل من أتى بسبب واحد فحسب. الكيف لا أعلمه، ولكن هذا هو العدل والجزاء من الله لمن اجتهد أكثر، فلو أن الله عاملهما سواء سيكون قد ظلم من اجتهد، ولكن الله ليس بظالمٍ أبدًا ولو مثقال ذرةٍ لأنه حرم الظلم على نفسه. ومن أبسط طرق التفضيل التي تأتي للبال هي مساحة الظل التي يمنحها الله للعبد، أو ربما الراحة تكون أكثر متمثلةً في برودة الظل، أو توقيت التظليل بحيث أن من اجتهد أكتر يُظل أولًا في يوم لا نحتمل ثانية من حر الشمس الحارقة.

وهذا المبدأ ينطبق عامةً في جميع الأعمال، فمن اجتهد أكثر نال منزلة أفضل ومُكافأة أكبر، وكما قال الله عز وجل {وَمَا لَكُمْ أَلا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [الحديد 10]. ودل على هذا أيضًا قول سيدنا موسى (عليه السلام) عندما سأله الله {وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَى (83) قَالَ هُمْ أُولَاء عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى} [طه 83-84]، فقد أدرك أن التعجيل في الاستجابة لربه أجدر برضاه أكثر وأكثر.

ودل على ذلك أيضًا واقعة نشأت بين سيدنا أبو بكر وسيدنا عمر (رضي الله عنهما)، عندما اختلفا مع بعضهما. يروي سيدنا أبو الدرداء (رضي الله عنه): كَانَتْ بَيْنَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ مُحَاوَرَةٌ، فَأَغْضَبَ أَبُو بَكْرٍ عُمَرَ فَانْصَرَفَ عَنْهُ عُمَرُ مُغْضَبًا، فَاتَّبَعَهُ أَبُو بَكْرٍ يَسْأَلُهُ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَهُ، فَلَمْ يَفْعَلْ، حَتَّى أَغْلَقَ بَابَهُ فِي وَجْهِهِ. فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَحْنُ عِنْدَهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "أَمَّا صَاحِبُكُمْ هَذَا فَقَدْ غَامَرَ". وَنَدِمَ عُمَرُ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ فَأَقْبَلَ حَتَّى سَلَّمَ وَجَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَصَّ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْخَبَرَ، وَغَضِبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَجَعَلَ أَبُو بَكْرٍ يَقُولُ: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَأَنَا كُنْتُ أَظْلَمَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "هَلْ أَنْتُمْ تَارِكُونَ لِي صَاحِبِي؟ هَلْ أَنْتُمْ تَارِكُونَ لِي صَاحِبِي؟ إِنِّي قُلْتُ: يَا

أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا، فَقُلْتُمْ: كَذَبْتَ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: صَدَقْتَ"[1] (غَامَرَ أي سَبَقَ بِالْخَيْرِ). هذا يدل على أن من أسرع في الاستجابة إلى الإسلام حتى بين الصحابة، بعدما سمع عنه، فله أفضلية عن من تأخر.

على هذا الأساس، فإن المُسارعة إلى العمل الصالح تنال رضًا وأجرًا أكبر عند الله، مثل الذي يلحق الجماعة الأولى والصف الأول في المسجد. وعلى هذا النحو، من سارع في الاستغفار كان أدعى في قبولها ونيل أجر أكبر إذ إن فيها إقرارًا على أنه أدرك خطأه سريعًا وأناب فورًا، بخلاف المُتأخر في استغفاره أو توبته فالراجح أن توبته تُقبل ولكن أجره قد لا يكون مثل المبادر المُعَجِّل، والله أعلم. وقد حث الله على المُسارعة إلى طاعته وإلى ترك ما نهى عنه، فهو يُحب هذا، بصيغة عامة في قوله {وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ} [آل عمران 133]، وقوله {سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ} [الحديد 21].

وهناك أحاديث تشير إلى أن الأجر يزيد أيضًا كلما صَعُب السعي إلى الله، فالذين يُصلّون العشاء والصبح في جماعة المسجد لهم جزاء خاص بهم ممن يصلّي فريضة أُخرى في جماعة المسجد، كما في الحديث عن النبي (صلى الله عليه وسلم) "بَشِّرْ الْمَشَّائِينَ فِي الظُّلَمِ إِلَى الْمَسَاجِدِ بِالنُّورِ التَّامِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"[2]. هؤلاء سبقوا في الأجر لأنهم كابدوا السعي إلى المسجد في الظلام، وبادروا إلى الله في تلك الظُلمة، فعافاهم الله من الظُلمة على جسر جهنم وغيره من المواضع.

من ثَمَّ، نستنتج أن العبد الذي يظهر عليه شدة الرغبة في طاعة الله ينال رضًا وأجرًا أفضل من الله. فالإقبال على الله في الشباب صعب من جهة التوقيت لأن فيه سرعة تخلي عن تأجيل التقرب إلى الله وعن الاستمتاع في فترة المُراهقة بالشهوات، وصعب من جهة قدر الجهد المبذول لأن فيه يكبح المرء نفسه حينما تكون جامحة. ولكن، من يعمد ويُحقق هذا فله مكانة فريدة عند الله إذ إن هذا شاق على النفس والعوائق مُتعددة.

الخلاصة هي أن الجزاء من جنس العمل، فالعمل الصالح الكثير له منزلة غير العمل الصالح القليل مع أنهما من نفس الصنف، والعمل الصالح الصعب أجره غير العمل الصالح السهل، والعمل الصالح الذي يصحبه سرعة المُبادرة إليه غير العمل الصالح الذي يتأخر. من هذا المنطلق نستطيع أن نستنتج أن من تأخر عن طاعة الله، أو تأخر عن التوبة عن معصية الله، ليس في نفس المنزلة ممن سبق إلى طاعة الله ومنع النفس من عصيانه تعالى في عمرٍ مُبكر. فلماذا لا أتوب الآن قبل الغد؟ لماذا تأجيل التوبة أسهل وأحب إلى النفس من تأجيل المصالح الدُنيوية؟

---

[1] صحيح البخاري 4274.

[2] سنن الترمذي 207.

اغتنام فسحة قبول الاعتذار، وأفضلية المبادرة في هذا. إن لكل إنسان فُسحة من الزمن يستطيع أن يتوب فيها، وستُقبل تلك التوبة لا محالة لأن الله وعد بذلك ما دام العبد صادقًا فيها، ولكن ما بعد هذه الفُسحة الزمنية لا تنفع التوبة مهما حسُنت، وهذه الفُسحة الزمنية هي فترة حياتنا في الدنيا. وذلك ما نبأنا به الله تعالى {وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} [النساء 18]، وأكَّد عليه الرسول (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَيَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ"[1] (يُغَرْغِرْ أي تبلغ الروح الحلقوم فيتيقن الموت).

ومن الاستهزاء والمكر بنظام الله هو الإقبال على التوبة فقط عند معاينة الموت، فهذا النهج شبيهٌ بنهج فرعون {وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلـهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (90) آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ} [يونس 90-91]، ومن ثَمَّ لم يُقبل منه الإيمان ولا التوبة. فوجب علينا دوام الاستغفار والتوبة حتى لا نكون من الذين يتوبون فقط عند موتهم.

فمن يواظب على التوبة ويتوب أيضًا عند معاينة الموت فليس بالماكر ولا المستهزئ، وبإذن الله يُقبل منه إذ إنه صادق النيات والعمل ولكنه يُخفق فيعصي الله أحيانًا. أما ما بعد تلك الفسحة من الوقت، فالمبدأ في التعامل مع من لم يتب هو {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [التحريم 7]، وهذا حق الله يوم القيامة إذ قبض أرواحهم وهم لا يؤمنون، والقاعدة تسري على الجميع وليس على الكافرين فحسب، أن يُختم على أعمال المرء بحسب حال أعماله على طبيعتها.

وعلى هذا المقياس نعتبر، أنه يوم القيامة لا اعتذار ولا أعذار للمرء الذي اختار المعصية ثم لم يتب، ولكن باب الاعتذار مفتوح في دار الدنيا، ومن الحكمة اغتنامه الآن بالتوبة (وهو يعتبر كالاعتذار إلى الله). ويُفَضَّل الإسراع في الإنابة إلى الله ليس فقط لأن المرء لا يضمن متى يموت، ولكن لنيل رضا أكبر من الله إذ إنه يُحب من هو سريع الإقرار بخطأه وسريع الإنابة. فيجب أن أحذر من أن أجد عملي قد قادني إلى نقمة الله، ولا أجد ما أقوله في هذا الموضع أفضل مما كان يقوله الرسول (صلى الله عليه وسلم) -جزاه الله عن أمته كل الخير- "اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ، لا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ"[2]. فاللهم إنا

---

[1] سنن ابن ماجه 4243.

[2] صحيح مسلم 751.

نعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، ونعوذ بك منك، لا نحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك.

اغتنام فترة صحة البدن في الإقبال على العمل الصالح وترك العمل السيئ. قال تعالى {وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ} [الأحقاف 34]. في الآية دليل على أن عندما يُوقف الكفار على النار ويُسألون "أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ" يُقرّون به، أي أن النار حقٌ إذ يرونها رأي العين وأن الحق والعدل هو أن يدخلوها بعد أن كذَّبوا بها. وهذا كله يدل على أن الإنسان عندما يفزع لبلاء أو لمصيبة أصابته يرى بوضوح، ويستطيع أن يرى الحقيقة المجردة للأمور، ويصبح الأمر منطقيًّا ومقبولًا له إذ يزول منه الكبر والعناد، فيتيقن أن الحق حق والباطل باطل. بل وإن فزع بما يكفي سيُعلن بصراحة عن الحق أنه حق وعن الباطل أنه باطل دون مواراة أو كذب أو مجادلة.

والأدلة على ذلك كثيرة في القرآن مثل قوله تعالى {فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا إِلاَّ أَن قَالُواْ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ} [الأعراف 5]؛ {فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ (12) لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ (13) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ} [الأنبياء 12-14]. وأيضا {وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلـهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ} [يونس 90]، فلم يؤمن فرعون حين رأى البحر مُنفلقًا وبنو إسرائيل يعبرونه على ذلك الحال، ولكن أقر بالحق عندما انطبق عليه حائطا ماء البحر وأدرك أنه قُهِر، فسبحان الله على حال الإنسان.

وبالمنطق نُحلل الظاهرة، ما الذي يمنع الإنسان من الإقرار بالحق أو الباطل؟ الصفات الأساسية هن الكبر والغرور والعناد واتباع الهوى. هذه الصفات تذوب لدى الإنسان في الشدائد والمصائب، وهذا طبع الإنسان، فكم من حاكم ظالم متكبر يخضع لرغبات شعبه إذا أحس أنهم سيتمكنون منه، ويتذلل لمن حوله من مساعديه كي يُخرجوه من هذه الأزمة. وكم من قائد سفينة مغرور يدعو ربه بإخلاص عندما يدرك أنه لا يستطيع النجاة من العاصفة بمهارته، وكم من عاصٍ متبع لشهواته يعاهد الله أن يترك معصية كذا وكذا ويتعبد لربه إذا شفاه من مرضه الخطير أو كشف عنه كُربة أعجزته، وكم من غنيٍ يرجع إلى ربه عندما يفقد ماله.

فماذا أنتظر، أن تذهب صحتي فلا أستطيع أن أنزل لأُصلي في المسجد بعد أن كنت أُفوت هذا وأنا صحيح، فوالله لقد رأيت من يصلي في المسجد بالكرسي المتحرك لأن رجليه مشلولتان. ويروي لي أحدٌ ذو ثقة أنه رأى رجلًا مستلقيًا على سرير متحرك جره الناس إلى المسجد لأنه لا

يستطيع الجلوس حتى! فأين أنا وأين هو؟ أم أنتظر أن أُصبح فقيرًا فلا يُلهيني المال ومقتنياته عن عبادة ربي، فأرجع إلى ربي مُجبَرًا مُنكَسِرًا بدلًا من طوعًا مُمتنًّا، فأخسر ثواب العبد المقبل على ربه في جميع أحواله، أم أن يسلبني الله كرامتي بين الناس فأتذلل لهذا وذاك لتحصيل احتياجاتي؟ أم يلزم أن أقف مُكبلًا أمام النار وأراها رأي العين، مُعاينا لها من قريب، كي أقتنع بالحق والباطل دون أعذار وأدركهما إدراكًا يقينيًّا دون غشاوة؟ حينئذ يكون قد فات الأوان.

إنما الفرق بيني وبين هؤلاء المُجدِّين هي رؤية المرء لحقيقة الحياة ثم ضبط نمط العيش طبقًا لتلك الحقيقة، فلماذا أنتظر المصيبة كي تفيقني من عالم اللا واقعية أو الاسترخاء. وقد نصحنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) بالمبادرة في الأعمال ونحن نستطيعها قبل أن نعجز أو ننشغل، فقال "بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سَبْعًا: هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلا فَقْرًا مُنْسِيًا، أَوْ غِنًى مُطْغِيًا، أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا، أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا، أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا، أَوْ الدَّجَّالَ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أَوْ السَّاعَةَ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ"[1] (فَقْرًا مُنْسِيًا أي عن طاعة الله من شدة الانشغال بتحصيل قوت المرء؛ غِنًى مُطْغِيًا أي يجعله يطغى، وفي الحديث دلالة على أن الغِنى المُفرط غالبًا ما يُشغل العبد عن التقرب لربه؛ مَرَضًا مُفْسِدًا أي للجسد فلا يقوى العبد على الطاعة؛ هَرَمًا مُفَنِّدًا أي يجعل المرء يهذي ويُخرِّف؛ مَوْتًا مُجْهِزًا أي فجأة فلا يستطيع زيادة عمله ولا يدرك التوبة).

جاء في تحفة الأحوذي لتفسير الحديث: قال القَارِي: خرج مخرج التوبيخ على تقصير المُكَلَّفين في أمر دينهم، أي متى تعبدون ربكم، فإنكم إن لم تعبدوه مع قلة الشواغل وقوة البدن فكيف تعبدون مع كثرة الشواغل وضعف القُوَى؟ لعل أحدكم ما ينتظر إلا غنًى مُطغيًا (انتهى). ثم إن هناك عظة تحث العبد على استغلال القدرة التي منحها الله له ليتقوى على الطاعة وليتفادى العصيان قبل أن يَسلب منه الله القدرة (وعلى الطاعة وعلى المعصية أيضًا!)، وهي في حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ: الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ"[2] (مَغْبُونٌ أي في غفلة عن استخدامهما فيما يؤجر عليه المرء).

التنافس في أعمال الخير. يقول تعالى في وصف الجنة وأهلها {إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (22) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (23) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (24) يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ (25) خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ} [المطففين 22-26]، فإن الله يحث المسلمين بالتنافس لنيل تلك الغنائم والمنازل. والتعجيل من الصفات التي تُبرز مدى صلاح المرء وارتقائه، إذ إنه لا يكتفي بفعل العمل الصالح فحسب، بل يهمه المبادرة إليه أيضًا وإتمامه في أقرب فرصة. وعلى هذا حثَّنا

[1] سنن الترمذي 2228.

[2] صحيح البخاري 5933.

الرسول (صلى الله عليه وسلم) قائلًا "لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي النِّدَاءِ وَالصَّفِّ الأَوَّلِ ثُمَّ لَمْ يَجِدُوا إِلا أَنْ يَسْتَهِمُوا عَلَيْهِ لاسْتَهَمُوا، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي التَّهْجِيرِ لاسْتَبَقُوا إِلَيْهِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي الْعَتَمَةِ وَالصُّبْحِ لأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا"[1] (النِّدَاءِ أي الأذان؛ وَالصَّفِّ الأَوَّلِ أي في صلاة الجماعة؛ يَسْتَهِمُوا أي يقترعوا؛ التَّهْجِيرِ أي التبكير؛ الْعَتَمَةِ هي صلاة العشاء؛ حَبْوًا أي زحفًا).

هؤلاء المتنافسون في عالم، وأنا في عالمٍ آخر، فبينما يخطط كل واحد منهم كيف يكون في الصف الأول ويتنافسون على الخير عامة، أخطط أنا كيف آتي على وقت الصلاة بالضبط، بل وربما للحضور في آخر ركعة. وبينما هو يخطط كيف يقضي وقته بعد الصلاة ما بين قراءة القرآن والأذكار، أخطط أنا كيف ألهو، وربما حتى أخطط لمعصية. فشتى عالمين بيني وبينهم، يسارًا ويمينًا، فهم يسعون لعدم تفويت الحسنة منهم وأنا أسعى لعدم فوات المتعة مني، {قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُواْ اللهَ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [المائدة 100]، {وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلا الْمُسِيءُ قَلِيلا مَّا تَتَذَكَّرُونَ} [غافر 58]. فهل من العدل أن أتساوى معهم في المكافأة يوم القيامة؟ هل هذا هو الحق؟

حتى إن أكرمني الله بالجنة وأنا عاصٍ (وهذا من تسويل الشيطان أن يُمنّيني الجنة وأنا عاصٍ لا أعمل لها) فهل مقامي سيكون كهؤلاء؟! وفي الآية {أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ} [القلم 35] سؤالٌ يجب أن نطرحه على أنفسنا. والرد على تلك الأماني هو {أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ} [الزمر 9]. فأين أنا وأنا غارق في عالمي الضائع المقلوب الذي صنعته لنفسي، وعشت فيه بالباطل مع أملي بالجنة يوم القيامة، وهو عالم الأماني والخداع لأني تركت الهدى وأقبلت على الشهوات. وبينما أنا ألهو في الدنيا، في هذه اللحظة تحديدًا هناك من يستغلها بالمنفعة في المدى الطويل إذ قد هَمَّه أمور الأخرة، فهو قائمٌ على أعمالٍ صالحةٍ وممتنعٌ عما يُغضب الله لأنه يتلهف إلى مرضاة الله.

تجنب كبائر المعاصي، فلعل الله يعفو عن الصغائر بذلك. قال تعالى {الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى} [النجم 32]. هذا بيان لقدرة الله التامة المُحكَمة على الإنسان، فإنه الخالق ويعلم الأصل التي خُلقنا منه (بل وخلق ذلك الأصل، الطين للجسد والروح التي نفخها فيه)، ويعلم معادِننا –وهي جوهرنا وطباعنا–، ويعلم عنا ما نجهله عن أنفسنا ما يتضمن

[1] صحيح البخاري 580.

اطِّلاعه علينا ونحن في بطون أمهاتنا، وما قبل وما بعد هذا. فقل لي، ما الجديد الذي قد نأتي به بالنسبة إلى الله؟ هل هناك أكثر من أنه أنشأنا ويعلم تفاصيل الخلق وسرائر التكوين التي تَخفى علينا، ونعلم فقط بعضها كي نتيقن أننا كالكُتب المكشوفة له؟

ولكن الشيطان والنفس يتدخلان فيُسَمِمَان فكر المرء، ويجعلانه يغتر ويظن أنه جاء بجديد، مثل الذي يمكر بالله ويعصيه متوقعًا أنه سيتوب قبل موته فيفوز بالدنيا والآخرة، أو كالذي يعصي الله ويُبرر فعلته كي يُخمد ضميره بالرغم من أنه لم يغصبه أحدٌ على فعلها. كلها حيل ومكايد مُتكررة عند الله، ولا تخفى عليه سرائر النفوس حين تتحدث مع نفسها في أثناء التدبير للمعصية، وما هو بجديد على الله إذ قد سبق من ظن ذلك من الناس وخاب. وقد يصل الإنسان إلى مرحلة أنه يُزكّي نفسه، سواء الذي اتقى حتى اغتر أنه نجى ورأى أنه أفضل من عامة الناس، أو الذي عصى الله حتى اغتر أنه وجد مسلكًا للنجاة بالمكيدة وفكّر فيما لم يخطر على بال عامة الناس للتملص من وِزره، وتزكية النفس هو بداية طريق الهلاك لأن هذا يُغلق باب عزيمة تحسين النفس.

وقد ذم الله تلك الصفة عامةً: الاغترار بالنفس، فهي تؤدي إلى أن التقي يرى أنه نجى والفاجر يرى أنه سينجو أيضًا! فأما عن التقي فإن غروره ينبع من تزكية النفس، ولذلك نهى الله عنها بسبب آثارها على النفس من الرياء والكبر والمشي في الأرض مرحًا والاختيال والفخر وذهاب التواضع لله ومع الناس وغير ذلك، وأن الله لا يُحب العبد المُغتر لأن العبد سيظل معلول ولن يُوفِّي حقوق الله مهما بلغ. وأما العاصي فإن غروره ينبع أنه يفعل المعصية ويرى أنه يتفلت بفعلته في الدنيا، فلا يزال يُكرر المعاصي ولا يُلاحظ أثر عقاب الله في الدنيا، فيتجرأ أكثر، وفي النهاية يرى أن له الجنة في الآخرة بالرغم من تمرُّده! ذلك لأنه يُسَوِّل لنفسه ويُسَوَّل له أن الله لم يغضب عليه إذ لا يُعاقبه، بل وقد يظن أنه معفوٌ عنه (أو يأمل ويتمنى على الله بالعفو) بتبريرات غريبة ليس لها مع المنطق العقلي مجال.

وكفى لنا علمًا أن أبا بكر الصديق (رضي الله عنه) لم يكن يُزكي نفسه أنه نجى، بالرغم مما قدَّمه لشوكة الإسلام بمساندة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ما لم يُقدِّمه أحدٌ مثله، وفضَّلَه الرسول (صلى الله عليه وسلم) على سائر الصحابة، بل وبشَّره بالجنة. بالرغم من ذلك كله، فإنه كان يخشى حساب الله له وما يحمله من خطورات، أو أن يضل فيُبطَلَ عمله، أو أن يمكر الله به. فكلامه دل على ذلك فيما يرويه لنا الضَّحَّاك (رضي الله عنه) قائلًا: رَأَى أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ طَيْرًا وَاقِعًا عَلَى شَجَرَةٍ فَقَالَ: طُوبَى لَك يَا طَيْرُ، وَاَللَّهِ لَوَدِدْت أَنِّي كُنْت مِثْلَك، تَقَعُ عَلَى الشَّجَرَةِ وَتَأْكُلُ مِنْ الثَّمَرِ ثُمَّ تَطِيرُ وَلَيْسَ عَلَيْك حِسَابٌ وَلا عَذَابٌ، وَاَللَّهِ لَوَدِدْت أَنِّي كُنْت شَجَرَةً إلَى جَانِبِ الطَّرِيقِ مَرَّ عَلَيَّ جَمَلٌ فَأَخَذَنِي فَأَدْخَلَنِي فَاهُ فَلاكَنِي ثُمَّ ازْدَرَدَنِي ثُمَّ أَخْرَجَنِي بَعْرًا وَلَمْ أَكُنْ بَشَرًا[1].

[1] المصنف لعبد الله بن أبي شيبة 144/8.

فنستنتج من كلامه ومن أفعاله (رضي الله عنه) أن الحياة كفاح مستمر في مجاهدة النفس وقبضا على ديننا حتى نفاد أجلنا، وتلك هي الحقيقة الثقيلة الصعبة المريرة. فأين نحن، ولن أقول من سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه، بل مما قدَّمه تابعٌ من التابعين؟ وبالرغم من ذلك فإني مطمئن بالنجاة أكثر منهم! بل وإني قد أكون ذاهبًا في الاتجاه المعاكس، فإني أُقدم لله معاصيَ وأكون عبئًا على الإسلام، وما زلت أرى أني ناجٍ!

الثبات على الدين بالرغم من ملاحقة الفتن للمرء، وإدراك أن العبد غريب في الدنيا. {قَالَ اللهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [المائدة 119]. لهذا اليوم ينبغي لنا العمل، حين ينفع الصادقين صدقهم.

ومن المعلوم أن الدنيا فتنة، ومع تقدم الزمن لا يُقدَّر الصادق (مع الله ومن ثمَّ مع الناس أيضا) بالرغم من نُدرته، كما دل حديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) عن رفع الأمانة (والأمانة تستلزم الصدق) مع تقدم الزمن بالرغم من أن الطفل يولد والأمنة في قلبه فطرةً "يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ الْأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ أَثَرِ الْوَكْتِ، ثُمَّ يَنَامُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ فَيَبْقَى أَثَرُهَا مِثْلَ الْمَجْلِ، كَجَمْرٍ دَحْرَجْتَهُ عَلَى رِجْلِكَ فَنَفِطَ فَتَرَاهُ مُنْتَبِرًا وَلَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ، فَيُصْبِحُ النَّاسُ يَتَبَايَعُونَ فَلَا يَكَادُ أَحَدٌ يُؤَدِّي الْأَمَانَةَ، فَيُقَالُ: إِنَّ فِي بَنِي فُلَانٍ رَجُلًا أَمِينًا. وَيُقَالُ لِلرَّجُلِ: مَا أَعْقَلَهُ! وَمَا أَظْرَفَهُ! وَمَا أَجْلَدَهُ! وَمَا فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ"، ثم قال سيدنا حذيفة بعد نقل الحديث: ولقد أتى عليّ زمان وما أُبالي أيكم بايعت، لئن كان مسلمًا ردَّه عليَّ الإسلام، وإن كان نَصْرَانِيّا ردّه عليَّ سَاعِيهِ، فَأَمَّا الْيَوْمَ فَمَا كُنْتُ أُبَايِعُ إِلَّا فُلَانًا وَفُلَانًا[1].

حول معاني الحديث: الْأَمَانَةُ هنا أعمّ من الأمانة التي يفهمها كثير من الناس على تأدية الحقوق المادية وما شابه، فالمقصد هنا هي أمانة التكاليف التي على العبد من الله (أي الطاعة والبُعد عن المعاصي)، فإذا ذهبت أمانة العبد مع الله تبعها ذهاب أمانة العبد مع الناس. وفي آخر الحديث تم الكلام عن ذهاب الإيمان، وليس معنى الأمانة على أنه الإيمان أيضًا، بل المغزى هو أن الأمانة والإيمان مقرونان ببعضهما، فمتى ذهبت الأمانة ذهب الإيمان أيضًا. الْوَكْتِ هو الأثر اليسير؛ الْمَجْلِ أي الدِّمّل؛ فَنَفِطَ أي تَوَرَّم وانتفخ؛ مُنْتَبِرًا أي مُرتفعًا؛ أيكم بايعت أي البيع والشراء منه، وليس المقصد المُبايعة على الخلافة؛ سَاعِيهِ هو الوالي المسؤول عن إرجاع الحق من النصراني.

[1] صحيح البخاري 6016.

فترى الصادق مغلوبًا على أمره ولا يُبالي الناس لرأيه ويتجنبونه، بل وقد يُحَارَب. ويحُثه الناس أن يكون –كما يصفون– 'غير مُتَزَمِت' أو 'غير ساذج' أو "واقعي" أو "غير مثالي"، وهو وصفٌ يُبطن أن يصبح المرء بلا مبادئ.

وهذا ما أشار إليه الرسول (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّهَا سَتَأْتِي عَلَى النَّاسِ سِنُونَ خَدَّاعَةٌ، يُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ وَيُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ، وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ وَيُخَوَّنُ فِيهَا الأَمِينُ، وَيَنْطِقُ فِيهَا الرُّوَيْبِضَةُ"، قِيلَ: وَمَا الرُّوَيْبِضَةُ؟ قَالَ "السَّفِيهُ يَتَكَلَّمُ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ"[1]. وهذه فتنٌ عظيمة، نسأل الله الثبات والسلامة منها لأن المجتمع يبلغ مرحلة أن الناس يُحرِّضون الصادق الأمين –الذي هو من القلة أصلًا– أن يصبح كذابًا غشاشًا. وتكون الفتن شاقة على المؤمن الصادق المُتمسك بدينه، لأن ما يتعرض له فتنةً له عن دينه، خاصة أنه يرى الكذابين والمُتملقين والخادعين وذوي الوجهين يَعلون في الأرض، وعادةً يُحصِّلون من الأموال ما يريحهم.

والفتنة تأتي من كثرة الناس الذين ينتقدونه (بل ومنهم من يُحاولون إجباره على الباطل)، ومن أن الناس يتهمونه بالكذب والخيانة من شدة صدقه وأمانته التي لا يألفونها فيشُكُّون أنه يخدعهم. ويُفتتن أيضًا مما يراه –لو كان تاجرًا مثلًا– أن الناس تتحفظ من الشراء منه ويرتاحون عندما يشترون من الكذاب أو المخادع أو المُطفف. ولكن الحقيقة هي أن الفوز يكون لمن ثبت على ما أراده الله وليس على ما أراده الناس، وهذا اليقين هو الذي يُثبِّته على عواقب الصدق ومشقة الأمانة. ويُفتتن أيضًا بكثرة رؤيته للمنكر فيعتاد قلبه، ولعل حوائط دفاعه تتلاشى أمام تلك الفتن، أو تراوده أفكار يسولها الشيطان مثل: كيف يمكن أن يكون هذا العدد المهول من الناس مخطئون وأنا الذي على الحق.

ذلك في الدنيا، إذ قد لا ينفع الصادق صدقه بالنفع في مكسبه، بل قد يجلب عليه الضرر، ولكن في الآخرة كفى بالطمأنينة وبالفرحة مكسبًا حينما يقول الله تعالى "هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ". فالحمد لله، وليستبشر من صبر وصدق، الذي قال إنه مُسلمٌ فتخلَّق بأخلاق وصفات المسلم، ويظهر هذا في طاعته لله ومناوراته عن المعاصي.

وفي خلال ذلك المسار والمنهج سيُضطهد، ولكن وجب على المرء إدراك أنه غريب عن الدنيا فلا يتعلق بها، وسيكون غريبًا لدى الناس بتمسكه لدينه فلا يزيغ ولا يلتفت لسُخريتهم حتى. فكما قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) "بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا ثُمَّ يَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ" قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَنْ الْغُرَبَاءُ؟ قَالَ "الَّذِينَ يُصْلِحُونَ إِذَا فَسَدَ النَّاسُ. وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُحَازَنَّ الْإِيمَانُ إِلَى الْمَدِينَةِ كَمَا يَحُوزُ السَّيْلُ؛ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيَأْرِزَنَّ الْإِسْلَامُ إِلَى مَا بَيْنَ الْمَسْجِدَيْنِ كَمَا تَأْرِزُ الْحَيَّةُ

[1] مسند أحمد 7571.

إِلَى جُحْرِهَا"[1]. ومعنى الجزء الثاني من الحديث هو أن المؤمنين (ومن ثمَّ الإسلام أيضًا) يجتمعون وينضمون نحو المدينة، من حيث ما بدأ الإسلام، فيرجع إليها من سَلِمَ إيمانه حفاظًا على دينه.

حينئذ يكون القابض على دينه كالقابض على جمرة من نار، وذلك كما نبأنا سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) "وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدْ اقْتَرَبَ: فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، يَبِيعُ قَوْمٌ دِينَهُمْ بِعَرَضٍ مِنْ الدُّنْيَا، قَلِيلٍ الْمُتَمَسِّكُ يَوْمَئِذٍ بِدِينِهِ كَالْقَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ (أَوْ قَالَ: عَلَى الشَّوْكِ)"[2]. فالله المستعان والعاصم.

ولا تتبين جليًّا الثمار المجنية بين نهج المؤمن المتمسك بدينه وبين نهج سائر الناس الذين ينتقدون حاله كما تتبين في الآخرة، فبعد أن كان المؤمن يُفتن في الدنيا بكثرة الناس الذين يتهاونون بدين الله يرى بعينيه أنه كان على الحق دون شك، بعد أن كان يقينه أنه على الحق يقينًا غيبيًّا في الأساس. وأمثلة على حدوث ذلك ما جاء في كتاب الله تعالى {قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (51) يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنْ الْمُصَدِّقِينَ (52) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ (53) قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ (54) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاء الْجَحِيمِ (55) قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدتَّ لَتُرْدِينِ (56) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ} [الصافات 51-57].

وفي موقف مهيب تتبين لنا الصورة أكثر وأكثر، إذ إن أصحاب النار كل حينٍ يدخل عليهم فوجٌ جديدٌ من الناس، فيلعن الفوج الجديد الفوج القديم والعكس، حتى إذا اكتملوا جميعًا تفقَّدوا أناس وتعجبوا من عدم وجودهم معهم في النار لأنهم كانوا يرونهم أنهم على ضلال. وذلك في قول الله تعالى {هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ (59) قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ (60) قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ (61) وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ (62) أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ (63) إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ} [ص 59-64]. والعجيب أن الذين يحسبونهم من الأشرار هم المؤمنون، قد نزَّههم الله عن تلك المواقف، ووقاهم النار والاختلاط بهؤلاء، فغابوا عن التواجد في النار لأن الله أدخلهم الجنة!

ولكن الموقف عام، فترى المسلم المتراخي في دينه ودخل النار يتفقد من رآه مُتزمتًا قد ضل الطريق بتشدده على نفسه (في رأيه)، أو يتفقد قرينًا له كان فاجرًا ولكن تاب وعمل صالحًا، فانتقده بل وربما سخر منه في الدنيا، ولكن هؤلاء المؤمنون الذين أطاعوا الله فخالفوا وأعرضوا عن رغبات المُفتِنين هم الناجون الفائزون. ويقول الله تحسيرًا لأهل النار عندما يُخاطبونه تعالى {قَالَ اخْسَؤُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (108) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ

[1] مسند أحمد 16094.

[2] مسند أحمد 8711.

الرَّاحِمِينَ (109) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ (110) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ} [المؤمنون 108–111]. فطوبى للغرباء، الذين يُثابرون على دين الله ويصبرون فيتحملون اعتداء الناس عليهم باللسان (السخرية أو النقد) والعين (الازدراء) والأفعال (نبذهم عن مجالس المجتمع ومُقاتلتهم) بسبب درجة تشبُّثهم بأحكام الله.

طوبى للغرباء، الذين بعد عنائهم في الدنيا تتردد إليهم الملائكة وهم في الجنة يؤكدون عليهم الإصابة في قرارهم، ويُثنون على نهجهم في الدنيا، ويُباركون لهم على فوزهم بجائزة الجنة، وكل هذا بسبب أنهم اختاروا الصبر والمثابرة على دين الله بالرغم من انتقاد الناس لهم، {وَالمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (23) سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ} [الرعد 23–24]. فيا لها من فرحة بعد فرحة، أن تدخل الملائكة على المرء بين كل حين وآخر فيُذكِّرونه بما مر به في الدنيا وأن هذا هو جزاؤه على ذلك، وليطلق عنانه في الجنة كيف شاء! فبعد أن كان يقبض على جمرة أصبح يقبض من نسيج الجنة.

الصبر. إذا أصاب المرء بلاءٌ يجب أن يُدرك أن ذلك خير له، لأن البلاء تطهير للعبد من ذنوبه، والبلاء يجعل النفوس الطيبة تنيب إلى الله إذا سرحت، ويُذكر الإنسان أنه في دنيا ناقصة مَعِيبَة، وأنها مكان سيئ فلا يركن إليه ويُحبه فيشرد عن مقصده في الحياة. وكفى قناعةً لنا أن ذلك ما نصحنا به الرسول (صلى الله عليه وسلم) فائلا "عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ"[1]. ولا أظن أن أغلب الناس (وأنا كنت منهم) يُدركون مدى تداخل وتكرار هذه النقطة في حياتنا اليومية، لأن مغزى هذا الكلام هو أن المؤمن يكون فائزًا في أي حالة من كل موقف يحدث معه.

وما أقصده هو أن المرء قد يرى أن الحالة الوحيدة التي يخرج منها غانمًا في أيٍّ من النتائج هي في الجهاد، أي أن مكسب المؤمن محتوم بإحدى الحسنيين، وهما إما الشهدة وإما النصر، أما الهزيمة فليست مجالًا للمؤمن إذ إن الله ناصره لا محالة إذا التزم بمنهجه. ولكن عندما يتمعَّن المرء، يجد أن هذا المبدأ متمكنٌ من جميع جوانب حياة المؤمن، فيخرج فائزًا في كل موقف وكل حدث. مثالًا على ذلك هو نصيب المرء من المال، فإن كان غنيًّا فله أن يُنفق ماله في أوجه الخير شُكرًا لله، وإن سرق سارقٌ من ماله فله بقيمة ما سُرق حسنات من السارق، وإن قهره سلطانٌ جائر على تسليم جزء زائد من ماله فله من رصيد السلطان يوم القيامة أجرٌ على القهر وأجرٌ على المال، وإن كان المرء فقيرًا في الأصل فإنه يدخل الجنة قبل الأغنياء بأربعين خريفًا!

[1] صحيح مسلم 5318.

ومثالٌ آخر هو في الصحة، من كان صحيحًا فيستطيع أن يستخدمها في الإقبال على ما يُرضي الله فله الأجر، وإن كان سقيمًا فإن ذلك بمنزلة عداد مستمر للكفارات عنه. وكذلك من رُزق بالنسل فقد يُنشئهم في طاعة الله شكرًا له تعالى، وإن أمسك الله عليه في النسل فإن ذلك رفع له من منزلته بحسب عنائه من ذلك الأمر. ومن وهبه الله الذكاء فيمكن أن يستعمله في التعلم والتعليم وتطوير حال الأمة الإسلامية، ومن جعل الله له حدودًا في قدراته العقلية فليس عليه نفس عبء التكليف يوم القيامة كما على العبقري، لأن كل نعمةٍ مقرونةٍ بعبء تكليفٍ. بل وأدق من هذا، فإن شخص أراد إتمام شيء في المنزل أو العمل فاستطاع، فله أجر فعل الخير وأجرٌ إن شكر الله، وإن تعثر عن إتمامه أو انقلب إلى غير ما أراده ثم صبر فله أجر الصبر على ما عاناه وأجر العمل الصالح الذي كان ينوي فعله.

وهناك أمور كثيرة ولكن كل امرئ أعلم بأحواله، وعلى تلك القاعدة تسير جميع الأمور، فيكون المؤمن في مكسبٍ مستمرٍ مهما آلت إليه الأمور، شريطة أن يؤدي حق الله مما عنده من نعمة كشكر، ويصبر لله على ما عنده من بلاء. هذا مع أفضلية شُكر الله باللسان في كلتا الحالتين كما كان يفعل سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم)، فإنه كان إذا رأى ما يُحب قال "الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ"، وإذا رأى ما يَكرَه قال "الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ"[1]. فحقًّا، وا عَجَبَاه.

روى سيدنا أبي سعيد الخُدرِيّ (رضي الله عنه): دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يُوعَكُ، فَوَضَعْتُ يَدِي عَلَيْهِ فَوَجَدْتُ حَرَّهُ بَيْنَ يَدَيَّ فَوْقَ اللِّحَافِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَشَدَّهَا عَلَيْكَ! قَالَ "إِنَّا كَذَلِكَ يُضَعَّفُ لَنَا الْبَلاءُ وَيُضَعَّفُ لَنَا الأَجْرُ"، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلاءً؟ قَالَ "الأَنْبِيَاءُ"، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ "ثُمَّ الصَّالِحُونَ، إِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيُبْتَلَى بِالْفَقْرِ حَتَّى مَا يَجِدُ أَحَدُهُمْ إِلا الْعَبَاءَةَ يُحَوِّيهَا، وَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيَفْرَحُ بِالْبَلاءِ كَمَا يَفْرَحُ أَحَدُكُمْ بِالرَّخَاءِ"[2]. فلنقتدِ برسول الله (صلى الله عليه وسلم) ثم بهؤلاء الذين ذكرهم ممن يصبرون على البلاء الشديد، فهذا رفعة لهم ولنا في الدرجات. وإن استطاع أحدٌ منا أن يُغير سلوكه ونظرته إلى الأمور بأن يُعوِّد نفسه أن يفرح بالبلاء كما يفرح الناس بالرخاء فليفعل، فتلك مرتبة رفيعة.

قال بعض العلماء إن أعلى درجات الصبر تتبين عند نيل السرَّاء من الدنيا، وليس عند الإصابة بالمصائب إذ إن العبد يُجبر ويضطر إلى الصبر. أما الصبر على نعم الدنيا يكون بعدم العُجب والفخر والاغترار والتكبر، وعدم المبالغة في الفرح بها أو الانهماك في استكثارها والحفاظ عليها، مع أداء حقوق الله فيها (الشكر، وإعطاء الناس حظًّا منها)، مع عدم استخدامها في عصيان الله. وهذا ما شمله بعض السلف بقولهم: البلاء يصبر عليه المؤمن والكافر، ولا يصبر على العافية

---

[1] سنن ابن ماجه 3793.

[2] سنن ابن ماجه 4014.

إلا الصِدّيقون[1]. وعلى الوجه الآخر، قال الحافظ في الفتح، فيما معناه، إن كثيرًا ما يُقارن الناس في الأفضلية بين الفقير الصابر أم الغني الشاكر، ولكن ليس هناك جواب كُلّي إذ يختلف الوضع باختلاف الأشخاص والأحوال.

الصبر جُملةً كله خير للمرء، سواء على الابتلاءات أم على الطاعات أم على المعاصي والفتن، فقد بشَّرهم تعالى {إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ} [الزمر 10، جزء من الآية]، وأعلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من شأنه قائلًا "وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنْ الصَّبْرِ"[2]. وجاء في حديث لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) "الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَآنِ (أَوْ تَمْلَأُ) مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَالصَّلَاةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ. كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو، فَبَايِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا"[3] (شَطْرُ أي جزء؛ وَالصَّلَاةُ نُورٌ أي تنهى وتمنع عن المعاصي، وتكون نورًا له في وجهه؛ بُرْهَانٌ أي برهان على إيمان العبد؛ وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ أي الصبر على كتاب الله وسنَّة نبيه، فيكون مُهتديًا وصائبًا في الأمور؛ يَغْدُو أي يسعى في الدنيا؛ فَبَايِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا أي إما بائعها لله فينجو، وإما بائعها للشيطان وللهوى فيورّطها ويُهلكها).

قال عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه): الايمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر[4]. والمقصد هو أن الأعمال التي تدل على الإيمان بالله ترتكز على تلك الصفتين، الصبر والشُكر؛ أما عين الإيمان بالقلب فهو يكون باليقين، كما قال ابن مسعود (رضي الله عنه) في رواية أخرى: اليقين الإيمان كله[5]. قال ابن القيم (رحمه الله) إنه قد جمع الله سبحانه بين الصبر والشكر بقوله {إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ} في عدة سُور. وقد ذكر لهذا التنصيف اعتبارات، منها:

أحدهن أن الايمان اسم لمجموع القول والعمل والنية، وهي ترجع إلى شطرين: فعل، وترك. فالفعل هو العمل بطاعة الله، وهو حقيقة الشكر، والترك هو الصبر عن المعصية، والدين كله في هذين الشيئين: فعل المأمور وترك المحظور.

اعتبارٌ ثانٍ هو أن الإيمان قول وعمل، والقول: قول القلب واللسان، والعمل: عمل القلب والجوارح. وبيان ذلك أن من عرف الله بقلبه ولم يُقرّ بلسانه لم يكن مؤمنًا، وكذلك من قال بلسانه ما ليس في قلبه لم يكن بذلك مؤمنًا بل كان من المنافقين. وكذلك من عرف بقلبه وأقر بلسانه لم يكن

---

[1] عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين لمحمد بن قيم الجوزية 50.

[2] صحيح البخاري 1376، جزء من الحديث.

[3] صحيح مسلم 328.

[4] المعجم الكبير للطبراني 107/9.

[5] صحيح البخاري، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: "بني الإسلام على خمس".

بمجرد ذلك مؤمنًا حتى يأتى بعمل القلب من الحب والبغض والموالاة والمعاداة، فيُحب الله ورسوله، ويوالي أولياء الله، ويعادي أعداءه، ويستسلم بقلبه لله وحده، وينقاد لمتابعة رسوله وطاعته والتزام شريعته ظاهرًا وباطنًا، وإذا فعل ذلك لم يَكفِ في كمال إيمانه حتى يفعل ما أُمر به.

الاعتبار التالي هو أن الدين كله رغبة ورهبة، فالمؤمن هو الراغب الراهب. قال تعالى {إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ} [الأنبياء 90]. فلا تجد المؤمن أبدًا إلا راغبًا وراهبًا، والرغبة والرهبة لا تقوم إلا على ساق الصبر، فرهبته تحمله على الصبر، ورغبته تقوده إلى الشكر.

واعتبارٌ آخر هو أن جميع ما يباشره العبد في هذه الدار لا يخرج عما ينفعه في الدنيا والآخرة، أو يضره في الدنيا والآخرة، أو ينفعه في أحد الدارين ويضره في الأخرى. وأشرف الأقسام: أن يفعل ما ينفعه في الآخرة ويترك ما يضره فيها، وهو حقيقة الايمان. ففعل ما ينفعه هو الشكر، وترك ما يضره هو الصبر.

والاعتبار الذي بعده هو أن الدين مداره على أصلين: العزم، والثبات. وهما الأصلان المذكوران في دعاء النبي (صلى الله عليه وسلم) "اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الْأَمْرِ، وَالْعَزِيمَةَ عَلَى الرُّشْدِ"[1]. وأصل الشكر صحة العزيمة، وأصل الصبر قوة الثبات، فمتى أُيِّد العبد بعزيمة وثبات فقد أُيِّد بالمعونة والتوفيق.

واعتبارٌ أخير هو أن الدين مبنيٌّ على أصلين: الحق والصبر. وهما المذكوران في قوله تعالى {وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ} [العصر 3]. ولما كان المطلوب من العبد هو العمل بالحق في نفسه وتنفيذه في الناس، وكان هذا هو حقيقة الشكر، لم يمكنه ذلك إلا بالصبر عليه، فكان الصبر نصف الإيمان، والله سبحانه وتعالى أعلم (انتهى من كتاب "عدة الصابرين" لابن القيم 88-90، بتَصَرُّف).

إدراك قيمة نعم الله على العبد، ومن ثمَّ يُجِدُّ من عصيانه لربه ويُكثر الحمد والاستغفار. قال تعالى {وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [النحل 14]. كل سعيٍ في الحياة الدنيا لاكتساب الرزق إنما يكون من نعمة الله في نعمة الله بنعمة الله. من نعمة الله أي أني أسعى لأكتسب مما خلقه الله فيعطيني منه ما شاء نصيبًا، وفي نعمة الله من حيث إني أسكن الأرض وهي أرض الله، وبنعمته لأنه

[1] سنن النسائي 1287.

أعطاني القدرة على السعي لتحصيل ما ارتضاه لي من رزق. ولمن يُجادل خلاف هذا، فهل رأى ساعيًا يريد تحصيل شيء ليس مما خلقه الله؟ وكم من ساعٍ يرجع دون تحصيل شيءٍ بعد سعيه؟ وهل من ساعٍ لا يعيش ويسعى في ملكوت الله؟ وكم من راغبٍ للسعي لا يستطيع السعي في المقام الأول؟

وكلامي سيكون مفهومًا أكثر بهذا المثل، وهو الصياد الذي يذهب ليصطاد لنيل مأكله ومسرفه، فالصياد يسعى ليصطاد سمكًا الذي من نعم الله التي خلقهن، ويسعى في البحر –أي في ملكوت الله– الذي أذن الله له أن يدخله ومن ثمَّ الصياد يسعى في نعمة الله، ويسعى ليصطاد سمكًا باستخدام قاربٍ وأدوات صيدٍ وعافية جسدهِ فهو يسعى بنعم الله. فالسعي يتكون من غاية لنيل نصيبٌ من شيءٍ (السمك)، ومصدر فيه يختزن هذا الرزق (البحر)، وباستخدام أدوات (عافية البدن والقارب وما شابه)، وهؤلاء الثلاثة (من نعمة الله في نعمة وبنعمة الله) هم فروع نعم الله لمن يسعى للرزق. فالإنسان في نعمة داخل نعمة داخل نعمة داخل نعم أكثر، نعم على نعمٍ من الله يُبادر هو بهن إلى العباد قبل أن يُبادروه هم بالعبادة، أبعد كل هذا أتجرأ وأعصي ربي؟

ما هذا الغدر بنعم الله، بل وأُغرق نفسي أكثر في ديوني له بعدم شكري له! فلماذا أعصيه بعد كرمه؟ وكيف تُسوّل لي نفسي؟ من أين جاءت جرأتي على عصيان الله؟ كيف ءأكل من رزقه ثم أُغضبه! ءأكل من نعمته كي أتقوى على عصيانه؟! قياسًا على هذا التصرف، ماذا لو أني أكرمت صديقًا لي بأن ضايفته في بيتي وأحسنت ضيافته وبالغت في إكرامه، ثم بعد أن غادر يصلني الخبر أنه يدور في الناس يذُمَّني إليهم، بل وأكتشف أنه أخذ شيئًا من بيتي، فما مدى غضبي عليه وبُغضي له آنذاك؟ ولكن الله يرزقني بعد معصيتي له لعلي أرجع، فهلا رجعت قبل يومٍ يتبدل صبره عليَّ إلى بطشٍ بي؟ لا إله إلا الله الذي يترك عبادٌ له مثلي يعيشون في أرضه بالرغم من أن له عبادًا مثل أبي بكر وعمر وعلي وعثمان (رضي الله عنهم)، والحمد لله أنه يستقبل التوابين.

وحقيقةً، إنما كل كلامي هذا يدعم أهمية الاستغفار والتوبة. ومن خير أدعية الاستغفار الذي علمنا إياها النبي (صلى الله عليه وسلم) "سَيِّدُ الاسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلا أَنْتَ"، ثم قال (صلى الله عليه وسلم) "وَمَنْ قَالَهَا مِنْ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَمَنْ قَالَهَا مِنْ اللَّيْلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ"[1] (عَهْدِكَ أي العهد على الإيمان أنه هو ربنا ولن نعبد سواه؛ وَوَعْدِكَ أي الوفاء بطاعته؛ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ أي ما اقترفته أنا؛ أَبُوءُ أي أُقر أو أعترف).

[1] صحيح البخاري 5831.

شكر الله على نعمه، مع عدم الاغترار بالنعمة. إن العبد إذا نال نعمةً من الله –وأدرك هذا– ربما نسي شكر ربه، وذلك يحدث من أحد ثلاث منطلقات. أولهم أنه قد يسهو لأن هذا من طبيعة الإنسان إذ إنه مخلوق ضعيف، ولكنه إذا تذكر وشكر فلن يكون مُقصِرًا. المنطلق الثاني هو أن العبد قد يرى (بقصر بصيرته) أن تلك النعمة صغيرة فيتخلى عن شكر الله، وهذاه علة في فكر بعض الناس إذ إن النعمة لا يستطيع أن يُقيّمُها الإنسان لأنه لا يعرف ما استلزمته من أحداث كي تصله، فوجب عليه شكر الله عليها، ولله إرزاقها لمن شاء. والمنطلق الثالث عندما تكون نعمة كبيرة، فيغتر الإنسان بها أو تُشغِله فينسى ربه كُليًّا، أو ربما حتى ينسب جلب تلك النعمة إلى مهاراته الشخصية وما بذله من مجهود في تحصيلها وبذكائه، وأنه يستحقها ومن ثمَّ لا يرى عليه شكر.

وهذه الطباع في الإنسان يجب أن تُقوَّم إلى الصواب عن طريق كثرة شُكر الله على الصغيرة والكبيرة (في نظر العبد) مع عدم الاغترار، لأن الاغترار قد يؤدي إلى التكبر والإفساد في الأرض، وفي حالات التمادي الشديد في ذلك قد يؤدي إلى الكفر. فوجب علينا المداومة على شُكر الله كي لا ننحرف من الصراط المستقيم.

ونعم العبرة ما استبصره سيدنا سليمان (عليه السلام) عندما جاءه أحد الجن بعرش ملكة سبأ {قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ} [النمل 40]. هذا حقًّا من أخلاق الأنبياء، وطوبى لمن امتثل بهم من المؤمنين الصالحين، الذين إن أنعم الله عليهم ذكروا الله وشكروه، ولم يغتروا... وأدركوا أن هذا من فضل الله ليختبرهم. فمن شكر فقد فاز، ومن نسي الله فقد خسر ثواب الشكر ورضا الله، ومن كفر فعليه من الأحمال ما عليه. وكما جاء في حديثٍ للنبي (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ اللَّهَ لَيَرْضَى عَنْ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا، أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا"[1]. ألا أخجل من نعم الله عليَّ الذي لا أشكره عليهن... بل وقد أستعملهن في عصيانه؟ وهل أوشكت أن أغتر بنفسي فأتباهى بما نلته منهن على عباد الله؟

وعدم الاغترار، أي التواضع لله، يكون غائبًا عندما يفرح المرء أنه أنجز أمرًا من أمور الدنيا ويراه عظيمًا، والأصح هو أن يفرح أن الله استخدمه وأعانه في تحقيق الأمر. فلو فرح المرء بما حققته يداه فإنه قد ينسب لنفسه أغلب أسباب النجاح (إن لم يكن كلها)، أي إلى مهاراته ومجهوده الذي أدى إلى ذلك المكسب، وينسى أن الله وفَّقه لذلك وأن كل شيء يتم بأمر الله وأن كل شيءٍ يُنال من الدنيا إنما هو عطاء من الله في صيغة نعمة ملموسة. ومثال على ذلك فيما حدث مع الرعيل

[1] صحيح مسلم 4915.

الأول من المسلمين هو رؤيتهم أن عددهم فائق بالنسبة إلى العدو في غزوة حُنين، فسلَّموا أنهم سيفوزون بالمعركة بسبب كثرتهم إذ قد انتصروا من قبل وعددهم أقل من هذا بكثير، ونسي عامتهم أن النصر بيد الله يهبه لمن يشاء. فلما كانت ثقتهم في النصر مرتبطة بعددهم ولم تكن مرتبطة بالله وحده أذاقهم الله بأس الحرب حتى كادوا يُغلبون.

ونزل قوله تعالى عتابًا {لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ} [التوبة 25]. ففي هذه الآية دلالة على أن نصر الله يكون لمن اتبع منهجه وتواضع له، وهذا مُستدلٌ به في قوله تعالى "لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ". وذلك مثل ما حدث في معركة بدر التي كانت العدة والعتاد في صالح المشركين، وكان وضع المسلمين من الناحية الحربية هزيلًا حتى إنهم كانوا بالنسبة إلى المشركين أذلة {وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُواْ اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [آل عمران 123].

ولكن عدة معجزات من عند الله نزلت يوم بدرٍ، منها تنزيل الملائكة، وتقليص منظر عدد المشركين للمؤمنين للحد من قلقهم، وتقليص منظر عدد المؤمنين للمشركين ليغتروا بهم ويتهاونوا في محاربتهم (قبل المواجهة)، حتى إذا التحموا جعل الله عدد المسلمين يبدو كبيرًا ليُرعب المشركين، وثبَّت الله المؤمنين وأنزل سكينته عليهم. وانتصر المسلمون بعون الله، فمن نصر الله بتطبيق شرعه في الأرض نصره الله بالفوز في المواقف العصيبة {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ} [محمد 7].

أما في غزوة حُنين، اغتر المسلمون بعددهم وجزموا بالنصر بسبب ذلك، مع الاستهانة بقلة عدد العدو وأنهم كفَّار أيضًا. ولكن ليس النصر في الحرب مُقتصرًا على تلك العوامل، فقد رأى الله أن شفاء الصحابة من الغرور وإنشاءهم على الإيمان السليم والأخلاق الحميدة أهم من الانتصار على تلك الفئة، فلما انكسر غرور المؤمنين أنزل الله النصر علينا.

لم يتواضع لله كثير من الصحابة في تلك المعركة، ورأوا أن النصر مُسلَّمٌ نظرًا لما أعدوا للعدو، ونسوا أن النصر يرجع لله، فعاقبهم الله بأنهم انهزموا في بداية المعركة حتى فرّ من المسلمين أعداد كبيرة، ثم أنزل الله نصره على رسوله صلى الله عليه وسلم. وذلك شبيهٌ بما حدث في غزوة أُحد إذ اغتر أغلب الرماة أنهم انتصروا قبل انتهاء المعركة، فعصوا أمر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وتخلوا عن موقعهم المتميز، فتكبدوا خسائر فادحة، منها أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) أصبح مكشوفًا للعدو، وترتب على هذا أن المشركين نالوا منه فأُوذي وشُوَّه جسده الشريف، وهذا بالإضافة إلى أن حياته تعرَّضت للخطر.

وفي كل ذلك عبرة وتربية للمسلمين على المبادئ الصحيحة والخُلُق الحسن عن طريق التطبيق العملي. وقد قال العلماء إن سورة الأنفال جاءت عن غزوة بدر تُنبه المسلمين كيف أن الله نصرهم وليزيد من فَرحَتِهِم بالنصر، ولكن بالترابط مع التحذير من الاغترار بهذا النصر وكبت تعجبهم بأنفسهم {فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاء حَسَنا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [الأنفال 17].

ذلك مع تذكيرهم بحالهم قبل الغزوة ليُذهِب اعتزازهم بأنفسهم حتى لا يُبالغوا في فرحتهم ويغتروا بأنفسهم وينسوا الله {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ (9) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [الأنفال 9–10]. فإذا عجبوا بأنفسهم سيؤثر هذا على قلوبهم فيتخلقوا بأخلاق ذميمة مثل الكبر والغرور، فقابلهم الله بما يمنع هذا {وَاذْكُرُواْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [الأنفال 26]، وكذلك تربيةً لمن بعدهم من المسلمين إذ نتأسى بهم.

وقد حذرهم الله من الوقوع في أخطاء قد تُزيل نصرته لهم، ويكأنهم سيقعون فيها (وقد وقع فيهم بعض المسلمين في غزوة أُحد وغزوة حُنين وغيرهما) والله يعلم هذا مُسبقًا، فقد جاء في آيتين متتاليتين {إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَاءكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (19) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ} [الأنفال 19–20]. ومع أن الخطاب في الآية الأولى كان للمشركين على أن كثرتهم لن تُغني عنهم شيئًا ولكن في ذلك عبرة للمسلمين أيضًا، ومقتضى المقصد أن ليس العدد هو الذي يُحدد نتيجه المعركة، ولكنه سبب من الأسباب إذا أذن له الله أن يكون عاملًا من عوامل النصرة، والعنصر الأساسي للنصر هو أن الله مع من آمن واستعان به.

وفي غزوة حنين لم يأخذ المسلمون بالعبرة ففرحوا بعددهم مثل ما فرح الكفار المذكورون في الآية "وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ"، وفي غزوة أُحد عصوا الرسول (صلى الله عليه وسلم) فانقلب النصر المبدئي إلى خُسارة لأنهم لم يعملوا بالآية الثانية التي تحث على طاعة الرسول (صلى الله عليه وسلم). فقد جمع الله سبيلين من سُبل هزيمة المسلمين في آيتين متتالتين، والاثنتين وقعتا (في غزوة حُنين وفي غزوة أُحُد بالترتيب ارتباطًا بالآيات).

وعلى الصعيد الآخر، جاءت سورة آل عمران تتكلم عن غزوة أُحد التي لم ينصرهم الله فيها نصرًا عزيزًا لأنهم عصوا أمر رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، فتكبد المسلمون خسائر فادحة بعد أن رأوا بوادر النصر، مما زاد من إحباطهم وحُزنهم. وعرَّفهم الله خطأهم وعاتبهم عليه مثل ما جاء في قوله {أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ

شَيْءٍ قَدِيرٌ} [آل عمران 165]. ومع ذلك واساهم في تلك السورة أيضًا {وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (152) إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غُمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلاَ تَحْزَنُواْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [آل عمران 152–153].

وفي ذلك حكمة للمتأملين إذ إن الله جَمَعَ بين نصرته للمسلمين في غزوة بدر مع حثهم على عدم المبالغة في الفرحة (بالحد من تعظيمهم لذاتهم) في سورة الأنفال، وجَمَعَ بين عدم نصرته للمسلمين في غزوة أُحُد مع مواساته لهم وبيان لهم خطأهم في سورة آل عمران. فهذا المنهج هو أفضل منهج في أن يُقوِّم الله عباده حتى يكونوا متوازنين، وهو بزرع الثقة في أنفسهم مع زجرهم عن الغرور (بعد غزوة بدر)، وبعتابهم مع مواساتهم حتى لا يُحبَطوا (بعد غزوة أحد). وفي ذلك دلالة على أن الغرور، أو ربط النصر بالأسباب بدلًا من الله، أو عصيان الرسول (صلى الله عليه وسلم)، قد يجعل الله لا يُنزل نُصرته على المسلمين، وهذا بالطبع ينطبق أيضًا على من يعصي الله عامةً.

وإلى لفتة جانبية أخذًا بفوائد منهج الله في التعامل مع عباده، من فطنة المرء أن يتبنى ذلك المنهج في المعاملة مع النفس والغير، إذ إن المرء يُخفف على نفسه أو غيره إذا رأى مؤشرات الندم بعد المعصية، وأن يَحكُم الفرحة إذا رأى مؤشرات الغرور بعد إنجاز عملٍ صالح أو نيل نصيبٍ من مباحات الدنيا. وذلك لأن الوطأة على مشاعر المرء وهي تحت الضغط بالفعل قد يؤدي إلى نتيجة عكسية، إضافة إلى عدم الرحمة والرأفة في ذلك المنهج.

فإذا تماديت في تأنيب النادم فقد يُصاب بالإحباط والاكتئاب، مما يؤدي إلى اليأس من الإصلاح فلا يترك المعاصي ولا يُقبل على العمل الصالح، أو العكس بأن يُصاب بالغضب والتمرد من كثرة الضغط عليه فيشرد عن الصواب عنادًا. وإذا تماديت في مدح الفرحان فإنه سيُصبح مغرورًا ومتكبرًا حتى يقع في المعاصي ولا يُبالي. عدم الإنسانية والحكمة في هذا يكون لأنك تُعذب النادم وتُغرِّر الفرحان، وقد تُضل أحدًا كان قابلًا للهداية.

هنا ينبغي توضيح نقطة، وهي أن العبد إذا جاءته نعمة أو دُفِع عنه بلاء عن طريق إنسان، فعليه أن يشكر صاحب الإحسان من الإنس أيضًا، وهذا في الحقيقة مِن شكر الله. قال سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) "مَنْ لَمْ يَشْكُرْ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرْ اللَّهَ"[1].

في لفتة حول موضوع شُكر الله، هناك مرتبة عالية لا يبلغها أغلب الناس، وهي أن العبد يحمد الله إذا أصابته ضراء أو مصيبة. هذا لأن المؤمن يعلم أنه لا يقع شيء إلا بإذن الله، ولا يصيب

[1] سنن الترمذي 1878.

العبد إلا ما كتبه الله عليه، ويعلم أن جميع أمور الله خير، ويستيقن أن قضاء الله وقدره خيرٌ له مما يرضاه العبد لنفسه، فيرضى (بل ومنهم من يسعد) باختيار الله له أكثر مما يختاره لنفسه.

القاعدة لبلوغ الرضا، حتى يستطيع العبد أن يشكر الله، هي {وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ} [البقرة، جزء من الآية 216]. والأمثلة على هذا في القرآن كثيرة، منها أن سيدنا موسى (عليه السلام) عندما اضطر أن يخرج من قريته لمكر الملأ به ليقتلوه، قابل المرأة الصالحة خارج القرية والتي تزوجها بعد، ثم بدأ الوحي من الله عندما آنس موسى (عليه السلام) النار وذهب إليها. وفي سورة الكهف، قَتل الغلام كان رحمةً من الله لأبويه المؤمنين، كيلا يُرهَقَا من ابنهما الفاجر.

والأدلة على استحباب شكر الله عند المصائب واضحة، مثل ما يرويه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "إِذَا مَاتَ وَلَدُ الْعَبْدِ قَالَ اللَّهُ لِمَلَائِكَتِهِ: قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ؛ فَيَقُولُ: قَبَضْتُمْ ثَمَرَةَ فُؤَادِهِ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ؛ فَيَقُولُ: مَاذَا قَالَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: حَمِدَكَ وَاسْتَرْجَعَ؛ فَيَقُولُ اللَّهُ: ابْنُوا لِعَبْدِي بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَسَمُّوهُ: بَيْتَ الْحَمْدِ"[1] (وَاسْتَرْجَعَ أي قال: إنا لله وإنا إليه راجعون). والأفضل أن يكون هذا الحمد مقاربًا لوقت حلول المصيبة مع الصبر عليها، فإن هذا أدعى لقبوله وأفضل في الأجر، استنادًا بما يُروى أن النبي (صلى الله عليه وسلم) مرّ بامرأة تبكي عند قَبر، فقال "اتَّقِي اللَّهَ وَاصْبِرِي"، قالت: إِلَيْكَ عَنِّي، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَبْ بِمُصِيبَتِي وَلَمْ تَعْرِفْهُ. فقيل لها: إِنَّهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فأَتت باب النبي (صلى الله عليه وسلم) فلم تجد عنده بوَّابِين، فقالت: لَمْ أَعْرِفْكَ؛ فقال "إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى"[2].

فإذا كان الصبر، الذي هو يتحتم تحقيقه حتى يستطيع العبد أن يشكر الله، قد يفوت وقته، فهذا يعني أن شُكر الله عند المصيبة أفضل من تأخيره. ولكنه قد يتداركهما (الصبر والشكر) بالندم والتوبة من سوء استقبال المرء لقَدَر الله، مع إصلاح التطبيق مستقبَلًا بالطبع.

إلمامًا بالقضية، قال ابن القيم (رحمه الله) كلامًا موجزًا حول الشكر: الشكر مبنيٌّ على خمس قواعد: خضوع الشاكر للمشكور، وحُبّه له، واعترافه بنعمته، وثناؤه عليه بها، وأن لا يستعملها فيما يكره؛ فهذه القواعد الخمس هي أساس الشكر وبناؤه عليها، فمتى عَدِم منها واحدةٌ اختل من قواعد الشكر قاعدة، وكل من تكلم في الشكر وحده فكلامه إليها يرجع وعليها يدور[3].

---

[1] سنن الترمذي 942.

[2] صحيح البخاري 1203.

[3] مدارج السالكين 244/2.

عدم استخدام نعم الله وستره على المرء لعصيانه. قال الله {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاء أَفَلَا تَسْمَعُونَ (71) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (72) وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [القصص 71-73]. سبحان الله، إنها لنعم عظيمة لا يعيها كثيرٌ من الناس لأنهم يعتبرونها مُسَلَّمة، ويبين الله لنا عكس ذلك بأبسط وأجمل الأساليب.

وقياسًا على هذا، فهناك أشياء أُخرى كثيرة مثل الرزق والعقل، ولا أذكر الصحة بصفة عامة ولكن كل قدرة وحدها، أي السمع والبصر والتذوق والإحساس والاستنشاق، وهناك العظم والمفاصل والأعصاب والخلايا الدفاعية والدم واللحم وغيرهم، والتي نحتاج منهم أن يؤدوا وظائفهم جيدًا كي نستطيع أن نستمتع بالحياة أو أن نبقى أحياء. وإني أسأل، وأريدكم أن تتفكروا وتحاولوا أن تُحصوا، كم من هذه النعم المُسَلَّمَة يحتاج إليها المرء كي يعصي الله؟ ويجب ألا ننسى أن ستر الله على العبد من الفضيحة (وما يترتب عليها من عواقب في الدنيا) هو أحد تلك النعم، فلولا الستر ما كان يستطيع العبد ارتكاب كثيرًا من معاصيه.

وعلى هذا الأساس، وجب على المرء ألا يعصي الله بعد نيل نعمه تعالى. وهذا يتطلب أن يتصف المرء بصفات مثل العدل والوفاء، فليتصف بهن.

قصر الأمل من نيل الدنيا والزهد مما فيها. الإنسان بطبيعته يميل ناحية حب الدنيا والاستمتاع بمتاعها، فيأمل أن يصيب ويجمع منها أكبر قدر ممكن، حتى أن ذلك يُوقعه في تمنٍ أكثر مما يمكن بلوغه، ويجعله يؤجل التوبة والتعبد لله. قد ضرب لنا رسولنا محمد (صلى الله عليه وسلم) تشبيها لحال الإنسان فخَطَّ خَطًّا مُرَبَّعًا، وَخَطَّ خَطًّا وَسَطَ الْخَطِّ الْمُرَبَّعِ، وَخُطُوطًا إِلَى جَنْبِ الْخَطِّ الَّذِي وَسَطَ الْخَطِّ الْمُرَبَّعِ، وَخَطٌّ خَارِجٌ مِنْ الْخَطِّ الْمُرَبَّعِ، قَالَ "هَلْ تَدْرُونَ مَا هَذَا؟"، قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ "هَذَا الْإِنْسَانُ: الْخَطُّ الْأَوْسَطُ؛ وَهَذِهِ الْخُطُوطُ الَّتِي إِلَى جَنْبِهِ: الْأَعْرَاضُ تَنْهَشُهُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، إِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا أَصَابَهُ هَذَا؛ وَالْخَطُّ الْمُرَبَّعُ: الْأَجَلُ الْمُحِيطُ بِهِ؛ وَالْخَطُّ الْخَارِجُ: الْأَمَلُ"[1] (الْأَعْرَاضُ قيل إنها زينة الدنيا، وقيل إنها البلايا مثل الأمراض والفاقات والمصائب). فهذا حال الإنسان، يتمنى ويطول أمله من الدنيا خارج إطار أجله.

أما المؤمن، فإنه يُدرك أن هذه الدنيا إنما هي دار اختبار، وأنها ستمضي وتزول، يخرج منها بأعماله فحسب، فيعلم أنها فرصته للعمل، وأن متاع الدنيا يُلهي عن العمل. حينئذٍ يُعرض المرء عن

[1] مسند أحمد 3470.

الدنيا ولا يسعى وراء متعتها. أما فيما يحتاجه منها ليعيش –مثل المكسب والمسكن والمأكل– فإنه يسعى وراءهم ولكن ليس بمبالغة، فإنه يطلبهم ويرضى بما يأتيه منهم ما قسمه الله له، دون تحسرٍ على عدم تحصيل مستوى يرغبه من الدنيا. بهذا يكون قلبه مُعلقًا بالله وليس بالدنيا، فيُحسن العمل. فطوبى لمن يجعل أمله في المراتب العالية في الآخرة بدلًا من مقتنيات الدنيا، وإن كانت تفوق عمله، فهذه المراتب لعل الله بكرمه أن يهبه إياها لنيات العبد ورغبته الشديدة.

وخير منهجٍ يسلكه المرء في هذه الدنيا ما نصح به الرسول (صلى الله عليه وسلم)، والرابح هو من تمثل به، والنصيحة نُقلت إلينا عن طريق عبد الله بن عُمر (رضي الله عنه) فيما يرويه: أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَنْكِبِي فَقَالَ "كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ"[1]. ورأى الصحابة نموذجًا عمليًّا لتلك النصيحة في رسول الله (صلى الله عليه وسلم) نفسه، فعن سيدنا عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه) يروي لنا: نَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى حَصِيرٍ فَقَامَ وَقَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ اتَّخَذْنَا لَكَ وِطَاءً، فَقَالَ "مَا لِي وَمَا لِلدُّنْيَا، مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وتَرَكَهَا"[2] (وِطَاءً أي فراش أو سرير). وكان ابن عُمَر يقول: إِذَا أَمْسَيْتَ فَلا تَنْتَظِرْ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلا تَنْتَظِرْ الْمَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ.

فما أحسن هذه العظة! فالغريب عن مكانٍ لا يطمئن ولا يرتاح للمكان الذي هو فيه، دائم التفكر فيما بعد الرحيل والاستعداد لذلك، وأن هذا المكان ليس مناسبًا له، ويشتاق لداره. والغريب لا يهمه جمع شيء من الدنيا إلا ما يُبَلِّغه الجنة –بيته الحقيقي الدائم الذي يشعر أنه ينتمي فيه–. وذلك كان نهج سيدنا أبي الدرداء (رضي الله عنه)، فقد أعد نفسه من الأموات مُسبقًا كما دلت نصيحته: اعبدوا الله كأنكم ترونه، وعُدّوا أنفسكم من الموتى، واعلموا أن قليلًا يُغنيكم خير من كثير يُلهيكم، واعلموا أن البر لا يَبلى وأن الإثم لا يُنسَى[3]. أما أنا، فإني أركن للدنيا أحيانًا وأحن لها، ولا يزيدني ذلك إلا ذُلًّا وتيهةً. فلماذا أعصي ربي؟ هذا وضعٌ غير منطقي، ويدل على السفاهة إذ إني أكون قد ركنت للدنيا واتخذتها موطنًا وفضلتها على الجنة، ولكنها الشهوات التي تهين المرء هكذا!

ومن أجل تجنب انشغال المرء بالشهوات كان ذلك المنهج مُوصًى به، وتنفيذه يعود بمنافع عظيمة على العبد، لأن العبد إذا زهد عن الدنيا لم تشغله تقضية شهواته في زينة الدنيا. ومن المعلوم أن كثرة متاع الدنيا يؤثر سلبًا على العبد، شاء أو أبى، وذلك ما دل عليه قول الله تعالى إذ هو أعلم بحالنا {وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاء إِنَّهُ بِعِبَادِهِ

---

[1] صحيح البخاري 5937.

[2] سنن الترمذي 2299.

[3] المصنف لأبي شيبة 167/8.

خَبِيرٌ بَصِيرٌ} [الشورى 27]. وتلك الآية فيها إجابة السؤال: لماذا لا يُفيض الله على المؤمن الذي أحبَّه من متاع الدنيا؟ هذا لأن طبيعة الإنسان نسيان ربه عندما يُنعم عليه، إذ إن كثرة النعم مُفسدة للمرء إلا من عصمه الله.

ودليل آخر على ذلك قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) "اطَّلَعْتُ فِي الْجَنَّةِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الْفُقَرَاءَ، وَاطَّلَعْتُ فِي النَّارِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ"[1]، فذلك فيه إشارة إلى أن الفقراء قلوبهم أقل انشغالًا بمتاع الدنيا وأقل تكبرًا فيكونون أقرب إلى طاعة الله. وهذه هي الحقيقة المُجردة، أنَّ طبع الإنسان كفور للنعم، أي إما ينسى الوفاء للمنعم لانشغاله بالنعمة، أو يُقل إدراكه لقيمة النعمة، وإما يجحد بفضل الله عليه بسبب غروره فينسب الفضل لنفسه، إلا من عصمه الله من تلك الآفة.

وذلك ما دلت عليه الآية {وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُورا} [الإسراء 67]، ومع أنها تتكلم عن من كفر إلا أن في الآية إشارة أن ذلك طبعٌ في الإنسان، ولكن يختلف أين ينتهي كل امرئ بتلك الصفة. فمن الناس من ينتهي به كفران النعمة إلى أن يكفر بالله، ومنهم من يجحد ببعض النعم جهلًا منه مع إيمانه بالله، ومنهم من يغتر مع إيمانه بالله، ومنهم من لا يترك نفسه يُصاب بأيٍّ من ذلك ويؤدي شُكر نعم الله قدر استطاعته، مُمتنا لله.

وإنما أذكر هذه النقطة توعيةً، قبل أن تأتي فترة في حياتنا تُفتح علينا فيها أبواب متاع الدنيا فنقع في هذا الخطأ (الانشغال بالنعم عن المُنعِم)، فالاحتراس قد يُجنبنا ذلك. ولعل وعسى إن وقعنا فيه فانشغلنا عن ربنا أن نخرج من تلك الحفرة عندما نتذكر حالنا قبل اليُسر، والعهد الذي قطعناه مع أنفسنا، وأننا حدَّثنا أنفسنا وعَزمِنا آنذاك أن لن نقع في ذلك الخطأ إذا صُب علينا متاع الدنيا صبًّا. وفي البداية والنهاية المسألة برُمتها عونٌ من الله، فربما يُنقذ اللهُ شخصًا وقع في دوّامة متاع الدنيا لأن نيَّته في قلبه كانت صادقة قبل انشغاله، فيجب طلب عون الله في الثبات على ديننا وعن دنيانا، فمن المُحزن أن ترى شخصًا تغير حاله بترك بعض دينه بسبب اقتنائه زينةً من زِينَ الدنيا.

جاء في كتاب الله أيضًا {لَا تَجْعَلُوا دُعَاء الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاء بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [النور 63]. إن تأملنا في هذه الآية نجد فيها حكمة عظيمة، إذ إن أصحاب القلوب المريضة كانوا يتسللون من خطبة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لأنهم لا يتحملون الصبر على استماع الذكر. إن الذين يتهاونون بالذنوب وفي قلوبهم حب الدنيا لا يقفون عند حدٍ معين، بل نراهم تدريجيًّا يزدادون طغيانًا وإثمًا مع الوقت إلى أن يصلوا إلى مرحلة نفورهم من ذكر الله، وخاصة المجالس.

[1] صحيح البخاري 3002.

ذلك بأن الدنيا لا تترك من أحبها ليرتاح ولو قليلًا حتى تُهلكه شيئًا فشيئًا، بأن تجعله يزداد حبًّا لها تدريجيًّا، فينزلق في المعصية بعد الأخرى، والكبيرة بعد الصغيرة، كي يحصل على ما يتمناه من متاع الدنيا. ولا يسلم من هذا الطريق إلا الذين يستغفرون الله بعد الذنب ويتوبون إليه ويطلبون الرحمة، والذين أخرجوا حب الدنيا ومتاعها من قلوبهم، وملأوا قلوبهم بتقوى الله وقوة الإيمان.

فإن حب الدنيا وتحصيلها مضاد لحب الجنة والعمل للآخرة، فلا يستقران معًا في قلب عبد. فمن أحب الدنيا لم يعمل للآخرة، ومن أحب الآخرة ترك ما ليس ضروريًّا من متاع الدنيا، ونزَّه نفسه عن اللهفة وراء شهوات الدنيا، ورضي بما قسمه الله له من رزق بعد أن يسعى، وبحسب أيهما يغلب في قلب العبد يكون قوة إيمانه وفلاحه. وكان هناك من الصحابة من يترك بعض المباح من الشهوات كسرًا لهوى للنفس كي لا تكون هي المتحكمة في أموره، بل تكون مطيعة لعقله، فيحصل تهذيب النفس على أن تحب وتشتهي ما أمر الله به! يروي لنا سيدنا جَابِر (رضي الله عنه): رَأَى عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ لَحْمًا مُعَلَّقًا فِي يَدِي فَقَالَ: مَا هَذَا يَا جَابِرُ؟ قُلْتُ: اشْتَهَيْتُ لَحْمًا فَاشْتَرَيْتُهُ. فَقَالَ عُمَرُ: أَوْ كُلَّمَا اشْتَهَيْتَ شَيْئًا يَا جَابِرُ اشْتَرَيْتَ؟ أَمَا تَخَافُ هَذِهِ الآيَةَ {أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا}؟![1]

ومن الذي يقول إن الصبر عن الدنيا ومتاعها سهل، ولكن على الصعيد الآخر من الذي يقول إن الصبر على عذاب الله أسهل؟! ولا يحزن أحدٌ على ما يفوته من الدنيا إن عزم على تركها وسلك طريق الهدى، ومهما كانت كثرة الخلق الذين يراهم منغمسين في الدنيا، أو في معصية معينة حتى لو أصبحت لديهم معتادة ومقبولة، فكفى قول الله تعالى {قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُواْ اللّهَ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [المائدة 100]. فلا يحزن على ما يفوته في الدنيا لأنه سيُحاسب وحده، ويجب أن يعلم أن من ترك الدنيا بلذّاتها لله فلن يُخيب الله أمله، ولا شك أن الله سيُرضي العبد فوق ما كان ينتظره أو يتخيله حتى، فالأعمال مضاعفة عند الله، يمن الله بهذا على من يشاء وكيف يشاء.

وقد يحزن المرء على فوات الدنيا بما يراه من كثرة الناس المستمتعين بها، ويشعر أنه مخطئ لأنه معزول عنهم أو غريب عليهم، ويتشكك أنه ربما يتشدد، وهذا كله من وساوس الشيطان. ولكن التحلي بالصبر، والتعب في مقاومة الدنيا وشهواتها، وتحمل نقد الناس ومعايرتهم ونبذهم لنا خير من فوات متاع الآخرة، لأن الله بحكمته قد سنَّ أن من يحصل على إحداهما لن يحصل على الأخرى، إلا الاستثناءات. ومن هذا المنطلق يشعر المؤمن كالمسجون في الدنيا، لأنه يرى متع الدنيا تُعرض عليه فتُسبب له إغراءً، ولا شيء يمنعه منها إلا هو نفسه، والحائل بينه وبين المتعة هما عقله وإرادته، فينشأ الصراع داخل النفس بين العقل والرغبة.

[1] تفسير البغوي والقرطبي لسورة الأحقاف الآية 20.

ذلك هو المؤمن، دائم النَصَب في الدنيا اتقاءً لربه مجاهدًا نفسه والشيطان، ما هو دون شك صعب ومستنزف للعزيمة، ويجعل الإنسان يرهق أكثر وأكثر مع تقدم العمر. ولكن بعد كل هذا الكلام المُثَبِط، أذكركم بجزء من الحديث الجميل عن النبي (صلى الله عليه وسلم) "وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ، هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لا وَاللَّهِ يَا رَبِّ مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ وَلا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ"[1]، فسبحان الله والحمد لله.

فما مدى المجهود الذي بذله ذاك العبد في مقاومة النفس والشيطان، وما مدى صبره على البلاء وتحملٍ لما يكسر النفس من فقر ومرض وسوء معاملة الناس له، ولا يكل ولا يعترض على قدر الله؟ فسبحان الله، إن حلاوة ومتعة الصبغة في الجنة تفوق قدر مجموع أغلظ أنواع المعاناة في الدنيا، بل وينسى العبد معاناة حياته كلها لانشغال عقله بما رآه وتلهفًا للجنة! الحمد لله الكريم العظيم.

ولا شك أن ذلك الرجل الذي يُصبغ في الجنة قد فاقت معاناته أي أحدٍ منا، فلماذا نُشفق على أنفسنا بأن الدنيا ضيقةٌ علينا وهناك مثل هذا الرجل الذي حقًّا يستحق الشفقة. فلذلك ونحن نحارب الدنيا وشهواتها يجب أن نتذكر أن بتركنا للدنيا نكون غرباء فيها، لا حق لنا في اقتنائها ولا حظ لنا منها إلا ما شاء الله، ولننصب أعيننا على منزلنا في الآخرة. هذا المنزل الذي فيه ما نحبه بأضعاف مضاعفةٍ، وكلها حلال في رضا الله، وهذا المكان الذي ينتظرنا هو الذي ننتمي إليه، الذي يستحق أن نتحمل مشقة السفر إليه عبر طريقٍ وعرٍ وقاحطٍ، طريق الدنيا.

وليتخيل كل واحد منا أنه عُرِضَ عليه ما عرضه الرسول (صلى الله عليه وسلم) على أزواجه {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (28) وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا} [الأحزاب 28–29]، فماذا نختار بعد ما عرض علينا الاثنين؟ هاتين الآيتين من الآيات الواضحة في فرق النتيجة بين إيثار الدنيا وإيثار الآخرة، حيث إنه يتبين أنه الطبيعي أنه لا يجتمع متاع الدنيا مع متاع الآخرة عند أحد إلا القليل ممن استثناهم الله. فهنا قال الله للرسول (صلى الله عليه وسلم) أن يُخَيِّر أزواجه بين أن يعطيهن من متاع الدنيا ويفارقهن أو أن يصبروا معه على الضيق ويكن لهن خير ثواب الآخرة.

وهناك أدلة كثيرة في القرآن والسُنة أن تحصيل الدنيا يؤثر على تحصيل الآخرة كمبدأ عام، سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، عن قصد أو غير قصد. ومن تلك الأدلة {فَأَمَّا مَن طَغَى (37) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (38) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (39) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ

[1] صحيح مسلم 5021.

الْهَوَى (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى} [النازعات 37-41]؛ {بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (16) وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى} [الأعلى 16-17].

ولكن يجب الإشارة إلى أن هناك من يستثنيهم الله فينالون الدنيا والآخرة، مثل من ذكره الرسول (صلى الله عليه وسلم) في جزء من حديثه عن صنفين من الناس يمكن أن يغبطهما المؤمن "رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالا فَسُلِّطَ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ"[1]. وذلك فضلٌ من الله يهبه لمن يشاء من عباده. ولا مانع في أن يطلب أحدٌ من الله ذلك الفضل كما دلت الآية {وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} [البقرة 201]، ولكن دون التلهف وراء الدنيا وإفراط السعي لتحصيلها.

فالاعتقاد أنه يمكن للمرء أن يجمع بين الدنيا والآخرة إنما هو وهم، حتى إنه كان من الصحابة من كان يمنع نفسه بعض الأشياء التي تشتهيها نفسه مما هو مباح (وليس المنهي عنه!). وكان ذلك منهج أحدهم كي يقهر هواه ويتغلب على نفسه، فيتمكن من السيطرة عليها، ولتهذيبها وترويضها على طاعة الله، ويتبين ذلك في أن خُلُقه يكون راقيًا. وهذا ما أشار إليه سيدنا عمر (رضي الله عنه) خشية أن نُذهب طيباتنا في حياتنا الدنيا بالطمع قائلًا: أَوَكُلَّمَا اشْتَهَى أَحَدُكُمْ شَيْئًا جَعَلَهُ فِي بَطْنِهِ؟![2] أما الرغبة في جمع الدنيا والآخرة فذلك في منتهى المشقة، إذ إن جمع متاع الدنيا (المباح) يُلهي عن الدين، فترى الذي يسعى بشدة وراء المال يُقصِّر في ذكر الله على الأقل إن لم يكن أسوأ من ذلك، وينشغل بمتاع الدنيا عن ربه. ومُقاومة الانزلاق في الإنشغال عن الله يحتاج وحده إلى جُهدٍ دائم، يتراكم فوق الجُهد الذي يبذله للحفاظ على دينه من المقام الأول وفوق الجُهد الذي يبذله لتحصيل دنياه، قلما يستطيع أحد هذا كما استطاعه سيدنا أبو بكر وعُثمان (رضي الله عنهما).

رجوعًا لنقطة أن الفقراء هم أغلب أهل الجنة، هناك سؤالٌ منطقي: لماذا الفقراء أكثر أهل الجنة؟ ذلك لأن الفقير أعيا بنعم الله عليه، وأقرب للرضا من قدر الله عليه مع حمده، ولا يلهيه المال عن ذكر الله، ولا يستطيع الإنفاق في المعاصي (عادةً)، وهو أقل قابلية أن يكون ظالمًا أو متكبرًا فيكون قلبه أرق عادةً، كثير اللجوء إلى الله بالدعاء طلبًا للبركة والرزق.

هذا وأن الحمل على الفقير يكون أقل عندما يُحاسبه الله على ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه. هذا بالإضافة إلى أن الفقر صنف من أصناف البلاء الذي يؤجر المرء عليه إن صبر وشكر، وهذا فوق تكفير الذنوب بسبب مشقة الفقر، أي له تأثيرٌ مُضاعف بحيث إن ليس على الفقير حمل المحاسبة على الغِنى وأنه يُكون تكفيرًا لذنوبه، بل وربما يأخذ حسنات. ثم مما لا شك في حدوثه هو

---

[1] صحيح البخاري 71.

[2] تفسير القرطبي 188/16.

تأخر الأغنياء في دخول الجنة إذ يدخل الفقراء قبل الأغنياء، وهذا دليل قطعي على تأثير حظ المرء من الدنيا على حظه في الآخرة وإن أحسن التصرف في ماله. هذا ربما لأن الأغنياء يُسألون ويُحاسبون على تلك النعم، أو ربما هو تفضيلٌ من الله للفقراء على ما صبروا عليه فلم يجعلهم يصبرون لدخول الجنة، أو ربما السببان معًا، والله أعلم.

وذلك لدرجة أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) دعا لنفسه أن يجعله الله مسكينا، كما جاء في الحديث الشريف "اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مِسْكِينًا وَأَمِتْنِي مِسْكِينًا وَاحْشُرْنِي فِي زُمْرَةِ الْمَسَاكِينِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"، فقالت السيدة عائشة (رضي الله عنها): لِمَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قال "إِنَّهُمْ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ قَبْلَ أَغْنِيَائِهِمْ بِأَرْبَعِينَ خَرِيفًا يَا عَائِشَةُ، لا تَرُدِّي الْمِسْكِينَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ يَا عَائِشَةُ، أَحِبِّي الْمَسَاكِينَ وَقَرِّبِيهِمْ فَإِنَّ اللَّهَ يُقَرِّبُكِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"[1]. فمحاولة جمع الدنيا مع الآخرة موازنة صعبة لا يستطيعها إلا من هو إيمانه راسخ، إذ إنه يُقدِّم الدين على الدنيا في كل موقفٍ ولا تكون عنده لهفة على الدنيا، إنما يجد أن ذلك ما بسطه الله له فيقبله مع استغنائه عن الدنيا.

جانب آخر من صعوبة تحقيق جمع الدنيا مع الدين هو أن الله يبتلي العباد في مواقف ليرى معادنهم وحقيقتهم وأين أولوياتهم، فسيقع موقف يُخيَّر المرء فيه بين دينه وبين تحصيل ربحٍ كبير في صفقة ولكن فيها شُبهة أو حتى حرامٌ، فإن اختار المرء دينه فهذا يعني أنه سيتخلى ويخسر هذه الصفقة المُربحة من مُقتنيات الدنيا. وهذه الفتنة تزداد تبايُنًا (أي الفجور في المُحرَّم يزداد بأن يصبح فيه أكل مال اليتيم مثلًا أو بيع مُمتلكات المسلمين لأعداء الإسلام) وتفشّيًا (فالربا الآن عادةً عند كثير من الناس) مع تقدم الزمن، إذ إن أناس أكثر يَقبَلون بالحرام فيما يجنون من المال، لا يُبالون بالتفرقة بين الحرام والحلال عندما يتعلق الأمر بالمكاسب. فيصبح الحرام مُربحًا وسهل التناول ومُعتادًا بين الناس حتى أن العبد التقي ليُجهد في تفادى التكسب من الحرام، ويكون ما يناله من المال يسير نظرًا لبحثه عن مصدر رزق حلال.

فأنصحك أخي أن تنتبه لدينك وتدع ما يأتي من الدنيا أن يأتي، وما فات أن يفوت، لأن السعي المفرط وراء الدنيا (مما هو مباح) يأخذ من دينك وآخرتك، وقد أشار الرسول (صلى الله عليه وسلم) بذلك في قوله "مَنْ أَحَبَّ دُنْيَاهُ أَضَرَّ بِآخِرَتِهِ، وَمَنْ أَحَبَّ آخِرَتَهُ أَضَرَّ بِدُنْيَاهُ، فَآثِرُوا مَا يَبْقَى عَلَى مَا يَفْنَى"[2]. ودليل آخر على هذا الكلام هو عندما سأل سيدنا سعد بن أبي الوقاص (رضي الله عنه) النبي (صلى الله عليه وسلم) قائلًا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلاءً؟ قَالَ "الأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ، فَيُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ

---

[1] سنن الترمذي 2275.

[2] مسند أحمد 2866، الحديث مرفوع منقطع؛ صححه ابن حبان 709 والسيوطي في الجامع الصغير 8313، وحسّنه ابن حجر العسقلاني في مشكاة المصابيح 10/5.

عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ الْبَلاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ"[1]. فكيف يكون المؤمن مبتلًى وهو سابحٌ في نعيم الدنيا؟ هذا وقد قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) "الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ"[2].

إنما متاع الدنيا فتنة، والمباح أقل ضررًا ولكنه قد يشغل المرء عن دينه، وهذا في حد ذاته شيءٌ سلبي. جاء عن الإمام النووي (رحمه الله) في شرحه لحديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "حُفَّتْ الْجَنَّة بِالْمَكَارِهِ وَحُفَّتْ النَّار بِالشَّهَوَاتِ"[3] (حُفَّتْ أي أُحيطت) قوله: وَأَمَّا الشَّهَوَات الْمُبَاحَة فَلا تَدْخُل فِي هَذِهِ، لَكِنْ يُكْرَه الإِكْثَار مِنْهَا مَخَافَة أَنْ يَجُرّ إِلَى الْمُحَرَّمَة، أَوْ يُقَسِّي الْقَلْب، أَوْ يَشْغَل عَنْ الطَّاعَات، أَوْ يُحْوِج إِلَى الاعْتِنَاء بِتَحْصِيلِ الدُّنْيَا لِلصَّرْفِ فِيهَا وَنَحْو ذَلِكَ (انتهى). فدعك أخي من كثرة السعي وراء الدنيا لجمعها مع الدين، واجعل هَمّك وهِمَّتِكَ الأساسية هي الآخرة.

وقال تعالى {إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [يونس 24]. إن الله يُبين لنا في هذه الآية مدى هشاشة الدنيا، إذ يُشبهها بالنبات ينشأ ويفنى بمنتهى البساطة، ومع ذلك فإننا متمسكون بها، فسبحان الله. وإن الحياة لدائرة تتكرر مع كل جيل، ولكن كثير من الناس يظنون أنهم مُختلفون وأمهر ممن سبقهم فلا يعتبرون، فينشقّون عن الصراط المستقيم حتى ينتهي بهم الحال كما انتهى بمن قبلهم.

وما بقي من كل ذلك إلا العمل، فلا تغرّنا الحياة الدنيا على عصيان الله لأن هذا لا معنى له إذا نظرنا إلى الصورة الشاملة. وانظر أخي ماذا يدور في بالك عندما يُحكى لك عن فلانٍ أو عِلان من الذين قد مضوا، إنما هي قصصٌ لك وصورٌ تراها وقد لا تشعر تجاههم بشيء، وذلك لأنك لم تراهم ولم تتعامل معهم. كذلك الحال عندما يُحكى لك عن والد جدك الذي لم تراه، فقد تحمل له المحبة ولكنك لا تستطيع أن تستوعب قيمة حياته الشاملة لأنك لا تعرفها، ولا يزال ينقضي يسيرًا من الزمن حتى تنساه أو لا تفكر فيه إلا نادرًا، مع أنه كانت له حياة مثل حياتك ممتلئة بالأحداث.

وكذلك سيأتي اليوم الذي تصبح فيه حياتنا مجرد قصص تُروى في هذه الدنيا، حتى نُنسى تمامًا وكأننا لم نكن، ولكن تبقى أعمالنا محفوظة في كُتُبِنا ونُجازى بناءً عليها منذ لحظة وفاتنا، فلماذا الإفساد في الأرض بالمعاصي؟ ولماذا تأجيل التوبة وإصلاح النفس؟ إنما الحياة دائرة، فلا تقع

---

[1] سنن الترمذي 2322.

[2] صحيح مسلم 5256.

[3] صحيح مسلم 5049.

في الفخ الذي يسوله الشيطان أو النفس بأننا مختلفون. فلا تغرنك الدنيا وتظن أنك تمكنت منها، فكيف ذلك والنهاية تكون أنها هي التي تتمكن منك بأن تضعك في بطنها؟

ولا يغتر المسلم بأنه نطق الشهادة أن ذلك يعني أنه قد سلِم، فيغتر أن له أن ينال من الدنيا ما يشاء وما زال سينجو، فقد قال تعالى {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (5) إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ} [فاطر 5-6]، فهذا الكلام لنا، والآية الأولى فيها خلاصة العظة والتوعية من الدنيا. نحن ولا شك نؤمن بالآخرة، وأن وجود الموت والبعث والحساب والجنة والنار هو حق، فوجب العمل بناء على هذا الأساس ولا يكون عملي مناقضًا لما أؤمن به، وإلا سيتسلل العمل الفاسد إلى ما أؤمن به حتى يُبطله. وقد يصل الفساد إلى الكفر والعياذ بالله، وقد رأينا نماذج كثيرة من أناسٍ أسرفوا في المعاصي وانتهكوا أعراض المسلمين حتى زُين لهم الباطل وقالوا كلامًا يُخرجهم من الإسلام.

والعمل لا يكون موافقًا للقول في حالتين، إما لجهلٍ بأمر فقهي فيرتكب المرء المعصية وهو لا يعلم أنها كذلك، وهذا قد يُعذَّر بحدود، وإما لهوى بأن تأمر النفس العمل بما لا يُرضي الله، وذلك فيه عنصر اختياري مما لا يجعل له عذرًا ووجب عليه الاستغفار. فالجهل عذرٌ بحدود ولكن هذا لا يزيل منه خطورته من باب أن المرء قد يضل، ومن باب أن أضرار المعصية لا تزال تقع. ولكن المرء قد لا يؤاخذ بالذنب إذا كان يجهل فعلًا (أي يغفل عن الحُكم ولا يتغافل)؛ وأما بالنسبة إلى الهوى فهو أن المرء تغره زينة الحياة وشهواته لارتكاب ما يعلم أنها معصية.

والنفس (بما تشمل من هوى) هي العنصر الأول المُشار إليه في الآية ضمن قوله تعالى "فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا"، فهي النفس التي تغتر بمتاع الحياة الدنيا فتحث على تحصيله. أما قوله تعالى "وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ" فجاء في التفاسير أن الغَرور هو الشيطان، فاشتملت الآية المَدخَلَين لنزعات المعصية وهما: النفس والشيطان. وقيل أيضًا إن الغرور الذي يصيب المرء هو أنه يعصي الله ويتمنى أن يتوب في آخر عمره أو أن يغفر الله له دون توبة حتى! ومع أن هذا قد يحدث، ولكنه الاستثناء، ولا ينبغي التواكل على الاستثناء للنجاة، فهذا منافٍ للمنطق والحكمة.

هذا كما بين لنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ"[1]. والكيس هو الشخص الحكيم الفطن، وهو عكس المُتمني الذي يتمنى على الله أن يغفر له بالرغم من إفساده في الأرض، وهذا الأسلوب ليس توكلًا على رحمة الله بل هو استغلالًا لرحمته تعالى، مما لا يُسلم عقباه. فلا يا أخي، لا يجب أن نغتر

[1] سنن الترمذي 2383.

لأننا نطقنا الشهادة، فكم من مسلم في النار، بل إن بعضهم لهم في أجسادهم آثار للسجود ومع ذلك يُعذَّبون!

وهذا جاء في حديث يصعد وينزل بالمرء، عندما سأل الصحابة رسول الله (صلى الله عليه وسلم): هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فقَالَ "هَلْ تُمَارُونَ فِي الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَيْسَ دُونَهُ سَحَابٌ؟" قَالُوا: لا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ "فَهَلْ تُمَارُونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟"، قَالُوا: لا، قَالَ "فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ، يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُ: مَنْ كَانَ يَعْبُدُ شَيْئًا فَلْيَتَّبِعْ. فَمِنْهُمْ مَنْ يَتَّبِعُ الشَّمْسَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَّبِعُ الْقَمَرَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَّبِعُ الطَّوَاغِيتَ، وَتَبْقَى هَذِهِ الأُمَّةُ فِيهَا مُنَافِقُوهَا، فَيَأْتِيهِمُ اللَّهُ فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ؛ فَيَقُولُونَ: هَذَا مَكَانُنَا حَتَّى يَأْتِيَنَا رَبُّنَا فَإِذَا جَاءَ رَبُّنَا عَرَفْنَاهُ. فَيَأْتِيهِمُ اللَّهُ فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ؛ فَيَقُولُونَ: أَنْتَ رَبُّنَا. فَيَدْعُوهُمْ فَيُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ جَهَنَّمَ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَجُوزُ مِنْ الرُّسُلِ بِأُمَّتِهِ وَلا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ إِلا الرُّسُلُ، وَكَلامُ الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ؛ وَفِي جَهَنَّمَ كَلالِيبُ مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ، هَلْ رَأَيْتُمْ شَوْكَ السَّعْدَانِ؟"، قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ "فَإِنَّهَا مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ غَيْرَ أَنَّهُ لا يَعْلَمُ قَدْرَ عِظَمِهَا إِلا اللَّهُ، تَخْطَفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ يُوبَقُ بِعَمَلِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُخَرْدَلُ ثُمَّ يَنْجُو، حَتَّى إِذَا أَرَادَ اللَّهُ رَحْمَةَ مَنْ أَرَادَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ أَمَرَ اللَّهُ الْمَلائِكَةَ أَنْ يُخْرِجُوا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ فَيُخْرِجُونَهُمْ، وَيَعْرِفُونَهُمْ بِآثَارِ السُّجُودِ، وَحَرَّمَ اللَّهُ عَلَى النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ أَثَرَ السُّجُودِ، فَيَخْرُجُونَ مِنْ النَّارِ، فَكُلُّ ابْنِ آدَمَ تَأْكُلُهُ النَّارُ إِلا أَثَرَ السُّجُودِ. فَيَخْرُجُونَ مِنْ النَّارِ قَدْ امْتَحَشُوا، فَيُصَبُّ عَلَيْهِمْ مَاءُ الْحَيَاةِ فَيَنْبُتُونَ كَمَا تَنْبُتُ الْحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ، ثُمَّ يَفْرُغُ اللَّهُ مِنْ الْقَضَاءِ بَيْنَ الْعِبَادِ وَيَبْقَى رَجُلٌ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَهُوَ آخِرُ أَهْلِ النَّارِ دُخُولا الْجَنَّةَ مُقْبِلٌ بِوَجْهِهِ قِبَلَ النَّارِ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ اصْرِفْ وَجْهِي عَنْ النَّارِ قَدْ قَشَبَنِي رِيحُهَا وَأَحْرَقَنِي ذَكَاؤُهَا، فَيَقُولُ: هَلْ عَسَيْتَ إِنْ فُعِلَ ذَلِكَ بِكَ أَنْ تَسْأَلَ غَيْرَ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: لا وَعِزَّتِكَ! فَيُعْطِي اللَّهَ مَا يَشَاءُ مِنْ عَهْدٍ وَمِيثَاقٍ فَيَصْرِفُ اللَّهُ وَجْهَهُ عَنْ النَّارِ، فَإِذَا أَقْبَلَ بِهِ عَلَى الْجَنَّةِ رَأَى بَهْجَتَهَا سَكَتَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَسْكُتَ ثُمَّ قَالَ: يَا رَبِّ قَدِّمْنِي عِنْدَ بَابِ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: أَلَيْسَ قَدْ أَعْطَيْتَ الْعُهُودَ وَالْمِيثَاقَ أَنْ لا تَسْأَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنْتَ سَأَلْتَ؟ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ لا أَكُونُ أَشْقَى خَلْقِكَ! فَيَقُولُ: فَمَا عَسَيْتَ إِنْ أُعْطِيتَ ذَلِكَ أَنْ لا تَسْأَلَ غَيْرَهُ؟ فَيَقُولُ: لا وَعِزَّتِكَ لا أَسْأَلُ غَيْرَ ذَلِكَ! فَيُعْطِي رَبَّهُ مَا شَاءَ مِنْ عَهْدٍ وَمِيثَاقٍ فَيُقَدِّمُهُ إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ، فَإِذَا بَلَغَ بَابَهَا فَرَأَى زَهْرَتَهَا وَمَا فِيهَا مِنْ النَّضْرَةِ وَالسُّرُورِ فَيَسْكُتُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَسْكُتَ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ أَدْخِلْنِي الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ اللَّهُ: وَيْحَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مَا أَغْدَرَكَ، أَلَيْسَ قَدْ أَعْطَيْتَ الْعُهُودَ وَالْمِيثَاقَ أَنْ لا تَسْأَلَ غَيْرَ الَّذِي أُعْطِيتَ؟ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ لا تَجْعَلْنِي أَشْقَى خَلْقِكَ! فَيَضْحَكُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْهُ، ثُمَّ يَأْذَنُ لَهُ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ فَيَقُولُ: تَمَنَّ؛ فَيَتَمَنَّى حَتَّى إِذَا انْقَطَعَ أُمْنِيَّتُهُ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: مِنْ كَذَا وَكَذَا؛ أَقْبَلَ يُذَكِّرُهُ رَبُّهُ، حَتَّى إِذَا انْتَهَتْ بِهِ الأَمَانِيُّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: لَكَ ذَلِكَ وَمِثْلُهُ مَعَهُ"[1] (تُمَارُونَ أي تُجادلون على أساس اختلاف ما رأوه؛ يُوبَقُ أي يقع ويهلك؛ يُخَرْدَلُ أي

[1] صحيح البخاري 764.

يُجرح ويُقطع من لحمه؛ امْتَحَشُوا أي احترقوا؛ حَمِيلِ السَّيْلِ أي ما يحمله السيل من طين؛ قَشَبَنِي أي سمَّني وآذاني؛ ذَكَاؤُهَا أي لَهَبُهَا).

هذا الحديث مع دلالته على المدى الذي يستوجب الحذر من مكر الله، لأن عقاب الله قد يصل للمكثرين من الصلاة حتى، إلا أنه يبين أيضًا مدى رحمة وعفو وكرم الله، ففي أي الجهتين أريد أن يكون نصيبي؟ فلا تغرنّك سعة رحمة الله فتعمد لاستغلالها فتُخطئها وتصيب مكر الله!

ومن أنواع الزهد عن الدنيا هو ترك الفاخر من اللباس تواضعًا لله، وهذا ما قاله الرسول (صلى الله عليه وسلم) "مَنْ كَظَمَ غَيْظَهُ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَنْتَصِرَ دَعَاهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى رُءُوسِ الْخَلائِقِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ فِي حُورِ الْعِينِ أَيَّتَهُنَّ شَاءَ، وَمَنْ تَرَكَ أَنْ يَلْبَسَ صَالِحَ الثِّيَابِ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَيْهِ تَوَاضُعًا لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى دَعَاهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى رُءُوسِ الْخَلائِقِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي حُلَلِ الإِيمَانِ أَيَّتَهُنَّ شَاءَ"[1] (حُلَلِ الإِيمَانِ هي زينة اللباس لأهل الجنة). ويُقصد بصالح الثياب أي أجملها وأغلاها سعرا وأرفعها في المستوى، ويُستحب تركه خاصة إذا كان من حوله من الناس متوسطي الحال لئلا يكسر قلوبهم ولا يفتخر عليهم. ولكن ليُفهَم الكلام على وجهه الصحيح، فليس المعنى أن يلبس المرء ثيابًا مُقطَّعًا أو غير نظيف أو شكله مُنَفِّر، فليلبس الحسن الجميل دون غلو كما سيأتي الكلام عنه لاحقًا إن شاء الله، فالوصية أن يلبس المرء باعتدال وتوسط.

في الحديث حثٌّ على عدم التباهي أو الاسترسال في التمتع بنعيم الدنيا، وأن لا يُحقق المرء كل ما تشتهيه نفسه وإن استطاع تلبية رغبته، فذلك خير له في التواضع ويُقلِّص من احتمالية إصابته بالكبر. إضافة إلى أن ذلك يُهذِّب النفس ويقصرها تحت سيطرة العقل. ومن تبعات هذا السلوك أن المرء يكون أكثر إقبالًا على طاعة الله وأقل إقبالًا على معصيته، إذ إنه تعود على ترك بعض المباحات لله.

وخير مثال على الزهد هو الرسول (صلى الله عليه وسلم)، إذ بالرغم من كونه رسول الله وخاتم الأنبياء فلم يجعله هذا يفتخر في نفسه ويغتر فيُبرر لنفسه جمع متاع الدنيا أو يترفه به. بل بالعكس، فقد جعلته النبوة أكثر تواضُعًا وإعراضًا عن الدنيا، فقد كان لا يجد طعامًا في بيته أحيانًا، وبيته بالكاد كان مفروشًا حتى إن سيدنا عمر (رضي الله عنه) بكي عندما رأى حاله، وكان ينام على الحصير حتى يؤَّثر في جنبه ويرفض أخذ الوطاء للراحة. ولكن إذا تحججنا أن هذا هو رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ولا نقدر على ما يقدر هو عليه، فما زال الصحابة قدوة لنا.

ففي قصة شيِّقة ممتلئة بالفوائد جاء أن عُمر بن الخطاب (رضي الله عنه) دعا رجلًا من بني جُمَحَ يقال له سعيدُ بن عامر بن حذيم، فقال له: إني مُستعملُكَ على أرض كذا وكذا، فقال: أو تُقيلُني

[1] مسند أحمد 15066.

(أي ألا تعفيني) يا أميرَ المؤمنينَ؟ قال: فواللهِ لا أدعُكَ، قلَّدتُموها في عُنُقي وتترُكوني؟ فقال عُمر: ألا نفرِض لك رزقًا؟ فقال: قد جعلت لي في عطائي ما يكفيني دونه فضلًا على ما أريدُ؛ وكان إذا خرج عطاؤُه ابتاع لأهله قوتهم وتصدَّق ببقيته فتقول له امرأته: أين عطاؤك؟ فيقول: قد أقرضتُه. فأتاه ناسٌ فقالوا: إنَّ لأهلِكَ عليكَ حقًّا وإنَّ لأصهارِكَ عليكَ حقًّا، فقال: ما أنا بمُستَأثِرٍ عليهم ولا بمُلتَمِسٍ رضا أحدٍ من الناس بطلب الحور العِينِ، لو اطَّلعتْ خيرةٌ من خيرات الجنة لأشرَقَتْ لها الأرض كما تُشرِق الشمس، وما أنا بمُتَخَلِّفٍ عنِ العنقِ الأول بعد إذ سمِعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: يُجمَعُ الناسُ للحسابِ فيجيءُ فقراءُ المؤمنينَ فيُزَفُّونَ كما يُزفُّ الحمامُ فيقالُ لهم: قِفوا عندَ الحسابِ، فيقولون: ما عندَنا مِن حسابٍ ولا أسمونا، فيقولُ لهم ربُّهم عزَّ وجلَّ: صدَق عبادي؛ فيُفتَحُ لهم بابُ الجنةِ فيَدخُلونَها قبلَ الناسِ بسبعينَ عامًا[1] (أسمونا أي ارتفعنا أو علونا).

قول سيدنا عُمر 'قلَّدتُموها في عُنُقي وتترُكوني' يقصد بها الخلافة، إذ كلف الناس سيدنا عمر على الخلافة وهو لا يريدها لأنها حملٌ يوم القيامة يُسأل عنه، حتى إذا أراد بعد أن كلَّفوه بالخلافة أن يولي سعيد بن عامر أعرض عن الولاية لنفس الأسباب. حينئذٍ، أصر سيدنا عمر على أن يوَّليه إذ لا يقبل أن يُحمِّلونه المسؤولية وحده ثُم لا يُعينوه، لأنهم يريدوا أن يتهربوا من عبئها يوم القيامة بعد أن كلَّفوه بمثلها، ولكنه يراهم أنسب كفاءةً في المناصب الإدارية ويحتاج أن يستند عليهم، فلم يدَعه، وهذه لفتة إلى مدى زُهد كلا الرجلين (رضي الله عنهما) عن الدنيا، وخشيتهم من حساب الله. وفي القصة أيضا بيان عن مدى زُهد سعيد بن عامر عن المال أيضًا، إذ أدرك أن الفقراء متميزون يوم القيامة عند الحساب. فأين أنا من التأسي بهم؟ فكيف إقبالي على المال والسلطة؟

ومن أنواع الزهد عن الدنيا هو عدم تمني ما عند الغير من نعم، إلا مالا يُنفَق في الحق أو علما وحكمةً يُعمل بهما ويُعلِّمهما، كما سيأتي عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، وذلك على أساس الرضا بما قسمه الله للعبد. ويجب إدراك حقيقة أن متاع الدنيا، مهما جمعه وناله العبد، لا يُساوي شيئًا بجانب متاع الآخرة –أو عذاب الآخرة إن كان تحصيله بالحرام–، وهذا حتى يقل حرصه على جمع متاع الدنيا. والدليل البيّن على هذا هو حديث النبي (صلى الله عليه وسلم) الذي ذُكر قريبًا عن العبد الذي يُصبغ صبغةً في النار ثم يُخرج ويُسأل هل رأى من نعيم قط، فيقول: لا. فلحظة في النار لا تساوي متاع الدنيا كله ولو استطاع المرء جمعه وطال أمد تمتعه به. فيجب أن نصبر عن المعاصي ونصبر على الطاعة، فمهما كانت المشقة فإنها لا تقارَن بمشقة صبغة في النار.

وجاء عن النبي (صلى الله عليه وسلم) "الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ"[2]، فلا يجب أن أنظر إلى ما متع الله به عباده الآخرين لأني لا أعيي مصيرهم. فإن أصَرَّيت وطمعت أن تكون لي نعم

---

[1] إتحاف الخيرة المهرة للبوصيري 435/7؛ حكمه أن رجاله ثقات.

[2] صحيح مسلم 5256.

غيري فوق ما أنعم الله به عليَّ فمن الإنصاف أن أعرض على نفسي: هل أنا موافق على أن أبدل حياتي كلها مع حياة هذا الشخص، شاملةً النعم والابتلاءات والأخلاق والحسنات والأوزار؟

وهذا هو العدل، فإن الله قسم النعم والابتلاءات بين عباده، فلا يجتمع من هذا ولا ذاك كله في عبدٍ واحدٍ، فإن أردت نعمة ليست عندك اعلم أن عندك نعمة ليست عنده، أو ربما عنده ابتلاء ليس عندك مقرونٌ مع تلك النعمة. إنما قسَّم الله النعم والابتلاءات بين عباده بحكمته وعدله بحسب طبيعة كل مرء، كي لا يهلك المرء، إذ إن الله لا يُحَمِّل المرء من البلاء إلا ما يُطيق، وكل امرئ قدرته تختلف عن الآخر. وتمني تعديل النعم بحسب رغبة الفرد (التي في غير نعم الهداية) فيه مساس بالتوازن الذي قدّره الله على المرء (إضافة إلى الاعتراض على قَدَرِ الله بالطبع)، وتمني نعمة لدى غيري يعني موافقتي على تبديل كل النعم والابتلاءات لديَّ مع هذا الشخص جملة واحدة، وهذه مخاطرة كبيرة لأني لا أدري مدى ذنوب وابتلاءات هذا الشخص. فهل أنا مستعد أن أحمل ذنوب مساوئ ذلك الشخص بدلًا من ذنوب مساوئي؟ إنما هي صفة الطمع لدى المرء تجعله يريد جمع كل النعم عنده وكل المحاسن فيه، مع رفض أي أعباء أو سلبيات.

والأسوأ أن يتمنى المرء نعمة مثل غيره من نعم الدنيا ليعيش في نعيمٍ، مثل المال أو السلطان، لأن هذه الأشياء إنما تُثقل الحساب على المرء يوم القيامة، ولو عجز عن أداء حقها فقد أورط نفسه، وكان بمنزلة السفيه لأنه جلب على نفسه العناء في مُحصِّلة الأمر. وهناك حديث عن النبي (صلى الله عليه وسلم) يغني عن الاستطالة في شرح هذه النقطة وهو "لا حَسَدَ إلا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَسُلِّطَ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا"[1]، ومعنى "الحسد" في الحديث أي الغبطة، وهي تمني النعمة مع بقائها عند الشخص الآخر.

الواجب هو أن أستعمل ما ميَّزني به الله من نعم في إرضائه والبعد عن عصيانه بهن، فكل هذا الشقاء يُقضى ويذوب في أول لوَيّحِظة في الجنة، وما يأتي بعد تلك اللحظة فهو هبة وكرم من الله بعد كرمه. فما لي لا أصبر وأبتعد عن معصية الله؟ هل طال عليَّ الإمد فأصبحت كالذين قيل عنهم {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ} [الحديد 16]؟ أم أن الشهوات جعلت مني شخصًا ذليلًا سفيهًا هزيلًا؟

قد أعلمنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) قيمة الدنيا في أحاديث مثل "رَكْعَتَا الْفَجْرِ خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا"[2]. فتخيلوا معي يا إخواني، الدنيا كلها بمتاعها وزينتها موضوعة في كف الميزان قبالة ركعتا نافلة الفجر في الكف الآخر، فيرجح كف ركعتا الفجر! ما هذا؟! فلنا أن نتخيل مدى ثواب وخيرة

[1] صحيح البخاري 71.

[2] صحيح البخاري 1193.

هاتين الركعتين، بل وما مدى الثواب والمكسب من ركعتي فريضة الصبح؟! إني أذكر هذه النقطة ليس فقط للحث على تأدية ركعتي الفجر، ولكن لأُشير إلى تفاهة وقلة قيمة الدنيا التي أنا أتلهف عليها، فأجري وأتعب وأحرص على تحصيل متاعها، ولن أُحَّصل جميع متاعها. وحتى إن حصَّلته، فصفة الطمع عند الإنسان لا تُداوى إلا بالموت، فلن أكتفي ولن أقنع أبدًا، والنتيجة أني سوف أُذل للدنيا فحسب!

فلماذا إذًا لا أبيع الدنيا؟ فكلها لا تساوي حتى ركعتي نافلة الفجر اللتين قد يتهاون بهما العبد أحيانًا للأسف... هذه هي حقيقة الدنيا التي أعطيها أكثر مما تستحق من قدر، وأعطيها أكثر مما تستحق من الاهتمام بها والحرص عليها... فيا حسرتي. هذا وقد قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن الدنيا "أَلا إِنَّ الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلا ذِكْرُ اللَّهِ وَمَا وَالاهُ، وَعَالِمٌ أَوْ مُتَعَلِّمٌ"[1] (مَلْعُونَةٌ لأنها تُبعد الناس عن الله؛ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا أي ما في الدنيا مما يُشغل عن الله؛ وَمَا وَالاهُ أي وما قاربه، مثل العمل الصالح وتجنب معصيته؛ وَعَالِمٌ أَوْ مُتَعَلِّمٌ أي الذي يُعلِّم أو يتعلم العلم النافع الدال على الله).

ومن خطورة الانكباب على الدنيا أن هذا يؤدي إلى خذلان المسلم لدينه، مما يجلب عقاب الله كما نبأنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) "إذا ضنَّ الناسُ بالدِّينارِ والدِّرهمِ، وتبايعوا بالعِينةِ، واتَّبعوا أذنابَ البقرِ، وتركوا الجهادَ في سبيلِ اللهِ، أنزل اللهُ بهم البلاءَ فلا يرفعُه عنهم حتى يُراجِعوا دينَهم"[2] (ضَنَّ أي بخلوا وحرصوا؛ وَتَبَايَعُوا بِالْعَيْنِ هو نوع من التجارة فيه من الربا؛ واتَّبعوا أذناب البقر، وفي رواية "وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ وَتَرَكْتُمْ الْجِهَادَ"[3] هي كناية عن انشغال المسلمين بالحرث والزروع بدلًا من الجهاد). وفي رواية أخرى جاء "أدخل اللهُ تعالى عليهِم ذُلًّا لا يرفعُه عنهُم حتَّى يُراجِعُوا دِينَهُمْ"[4].

وإلمامًا بالموضوع، أقتبس من نصائح الصحابة والعلماء لأنه أخيَر مما قد أقوله، فقد جمع الإمام البخاري (رحمه الله) تحت باب "في الأمل وطوله" قول الله تعالى {فَمَنْ زُحْزِحَ عَنْ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ} وَقَوْلِهِ {ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمْ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ}، وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: ارْتَحَلَتْ الدُّنْيَا مُدْبِرَةً وَارْتَحَلَتْ الآخِرَةُ مُقْبِلَةً، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا بَنُونَ، فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الآخِرَةِ وَلا تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا، فَإِنَّ الْيَوْمَ عَمَلٌ وَلا حِسَابَ وَغَدًا حِسَابٌ وَلا عَمَلٌ[5]. وجاء في فتح الباري تعقيبا على هذا الباب: قيل: فَاتِّبَاع الْهَوَى يَصْرِف بِقُلُوبِكُمْ عَنْ الْحَقّ،

---

[1] سنن الترمذي 2244.

[2] تهذيب السنن لابن القيم 341/6؛ قال عنه: حسن.

[3] سنن أبي داود 3003.

[4] صحيح الجامع للألباني 675؛ الراوي هو عبد الله بن عمر (رضي الله عنه).

[5] صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب فِي الْأَمَلِ وَطُولِهِ.

وَطُول الأَمَل يَصْرِف هِمَمكُمْ إِلَى الدُّنْيَا؛ وجاء أيضًا: وَيَتَوَلَّد مِنْ طُول الأَمَل الْكَسَل عَنْ الطَّاعَة، وَالتَّسْوِيف بِالتَّوْبَةِ، وَالرَّغْبَة فِي الدُّنْيَا، وَالنِّسْيَان لِلآخِرَةِ، وَالْقَسْوَة فِي الْقَلْب، لأَنَّ رِقَّته وَصَفَاءَهُ إِنَّمَا يَقَع بِتَذْكِيرِ الْمَوْت وَالْقَبْر وَالثَّوَاب وَالْعِقَاب وَأَهْوَال الْقِيَامَة، كَمَا قَالَ تَعَالَى {فَطَالَ عَلَيْهِمْ الْأَمَد فَقَسَتْ قُلُوبهمْ}[1].

ومن صميم النماذج على اتباع الصحابة لمنهج الرسول (صلى الله عليه وسلم)، مصحوبًا بحكمة لنا وإرشادًا لإبصار الأمور على حقائقها، هو ما جاء عن أبي ذر (رضي الله عنه). روى لنا جعفر بن سليمان (رحمه الله): دَخَلَ رَجُلٌ عَلَى أَبِي ذَرٍّ، فَعَجَلَ يُقَلِّبُ بَصَرَهُ فِي بَيْتِهِ فَقَالَ: يَا أَبَا ذَرٍّ أَيْنَ مَتَاعُكُمْ؟ قَالَ: إِنَّ لَنَا بَيْتًا نُوَجِّهُ إِلَيْهِ صَالِحَ مَتَاعِنَا، قَالَ: إِنَّهُ لا بُدَّ لَكَ مِنْ مَتَاعٍ مَا دُمْتَ هَا هُنَا، قَالَ: إِنَّ صَاحِبَ الْمَنْزِلِ لا يَدَعُنَا فِيهِ[2]. فيقصد أبو ذر (رضي الله عنه) بالبيت الذي يوَّجه إليه متاعه ويُهيئه لنفسه هو الجنة، وقوله: صَاحِبَ الْمَنْزِلِ لا يَدَعُنَا فِيهِ أي أن الله، مالك المُلك، لا يدعه يمكث في الدنيا.

ومما يُروي عن زهد إبراهيم ابن أدهم (وكان أبوه بالغ الثراء ولكنه فرَّ من ذلك كله وعاش حياةً بسيطة زاهدة، وكان يأكل مما تيسر من رزق الله بعمل يديه) نقله إبراهيم بن بَشَّار الصُّوفيُّ (رحمهم الله) قائلًا: خرجت أنا وإبراهيم بن أدهم وأبو يُوسف الغاسولي وأبو عبد الله السخاوي نريد الإسكندرية، فمررنا بنهر يقال له: نهر الأردن، فقعدنا نستريح، وكان مع أَبِي يُوسُف كسيرات يابسات فألقاهن بين أيدينا، فأكلنا وحمدنا الله، فقمت أسعى أتناول ماء لإبراهيم، فبادر إبراهيم فدخل النهر حتى بلغ الماء ركبتيه، فقال بكفيه في الماء فملأهما ثم قال 'بسم الله' وشرب؛ فقال 'الحمد لله'، ثُمَّ إنه خرج من النهر فمد رجليه، قال: يا أبا يُوسُف، لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من النعيم والسرور لجالدونا بالسيوف أيام الحياة على ما نحن فيه من لذيذ العيش وقلة التعب. فقلت له: يا أبا إسحاق، طلب القوم الراحة والنعيم فأخطأوا الطريق المستقيم؛ فتبسم ثم قال: من أين لك هذا الكلام؟[3]

فكلام إبراهيم بن أدهم (رحمه الله) يدل على مدى السرور والرضا والسكينة النفسية التي هو فيها، وهذا بسبب الحلاوة التي يجدها بقوة إيمانه عن طريق التمسك بكتاب الله (لأنه أدرك قيمة الإسلام)، فسكن عقله وروحه. وهذا أيضًا بسبب زهده والبساطة التي يتعامل بها مع الدنيا، فهي هينة عنده ولا تشغل باله، بل ويرضى بما قسمه الله له، ويُدرك عظم قيمة النعم التي يراها كثير من الناس بسيطة. وبسبب عفوه وسماحته للناس فلا يكمن لأحد من إخوته الشر، وإن أساءوا له، فهو

[1] فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني؛ باب: في الأمل وطوله.

[2] الزهد لابن أبي الدنيا 127.

[3] تاريخ دمشق لابن عساكر 302/6-303.

في راحة البال أيضًا! فهذا الشعور ينتج باجتماع ثلاث صفات: الإيمان الراسخ (وهذا يُعطي تفسيرًا وهدفًا للمرء في الحياة)، والرضا بالبسيط (فهذا يجعل الزمن الحاضر والمستقبل لا يشغل باله)، والعفو عمن أساء إليه (فهذا يجعل الزمن الماضي لا يشغل باله).

للتوضيح، فإنه لا يقلق من الماضي ولا الحاضر ولا المستقبل من جهة أمور الدنيا. أما أمور الآخرة فإن التقي يندم على ما اقترفه من معاصٍ وما فرَّط فيه من طاعات في ماضيه، ويقلق ألا يكون يفعل الصواب في الحاضر، ويقلق ويحرص من أن يزيغ عن الطريق المستقيم في المستقبل.

وقد أدرك أن لذة ذلك الشعور لا يُقَدَّر بثمن، فقال فيه ما قال عن طمع الملوك فيها إذا تطلعوا عليها. فوالله إن حلاوة الإيمان والزهد عن الدنيا ليملآن المرء بسعادة لا تسعها الدنيا بما فيها، فلماذا لا أطمع أنا في تلك الدرجة؟ حقًّا إنه الفخ الذي حذَّر منه الحكماء، بينما أنا قد أطمع في الدنيا التي لا تترك طالبها يشبع منها ويهنأ. قال سيدنا عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه): مَنْهُومَانِ لَا يَشْبَعَانِ: صَاحِبُ الْعِلْمِ وَصَاحِبُ الدُّنْيَا، وَلَا يَسْتَوِيَانِ. أَمَّا صَاحِبُ الْعِلْمِ فَيَزْدَادُ رِضًا لِلرَّحْمَنِ، وَأَمَّا صَاحِبُ الدُّنْيَا فَيَتَمَادَى فِي الطُّغْيَانِ؛ ثُمَّ قَرَأَ {كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى}، والآخَر {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ}[1] (مَنْهُومَانِ أي كثرة الهَمَّ وعلو الرغبة). قد جاءني هذا الدين بعد عناء لتبليغه، وجاءتني الدنيا أيضًا ولكنها هي التي تطلب مني العناء هباءً لتحصيلها، فأيهما سأحرص عليه، وأيهما أجعله هيّنًا عندي؟

إن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد أهدانا بخلاصة المنهج الذي يجب أن نتَّبعه في الدنيا قائلًا "مَنْ كَانَتْ الآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ؛ وَمَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنْ الدُّنْيَا إلا مَا قُدِّرَ لَهُ"[2]. "جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ" أي جعله قانعًا بِالْكَفَافِ والكِفَايَة كي لا يتعب في طَلَب الزِّيَادَة؛ "وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ" أي أُموره الْمُتفرّقة بأن جعله مجموع الخَاطِرِ بِتَهيئة أسبابه من حيث لا يشعر به؛ "وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا" أي ما قُدِّرَ وَقُسِمَ له منها؛ "وَهِيَ رَاغِمَةٌ" أي ذليلة حقيرة تابِعَةٌ لَهُ، لا يحتاج في طلبها إلى سعيٍ كثِيرٍ، بل تأتيه هَيِّنَةً لَيِّنَةً على رغم أنفها. "جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ" أي جنس الاحتياج إلى الْخَلْقِ كالأمر المحسوم مَنْصُوبًا بين عينيه؛ "وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ" أي تتناثر أموره المُجتمَعَة.

فالمسلم الصحيح هو الذي يُصبح كل يوم وهدفه في ذلك اليوم هو أن يُحرز نقاطًا لآخرته، وذاك شغله الشاغل، وبالمرة يُحاول أن يُحرز أهدافًا في دنياه إذ لا ينبغي ولا يستطيع المرء أن يستغني وينسى نصيبه من الدنيا. ولكن سواء جاءت معه الدنيا أم أبت فإن ذلك لا يفرق معه، وإن أبت أن تعطيه من نفسها بعد اجتهاده فيها فإنه لا يحزن، إذ إنها ليست الأولوية عنده وقلبه ليس

[1] سنن الدارمي 336.

[2] سنن الترمذي 2389.

مُعلقًا بها، فقد حاول أن يأخذ حوائجه من الدنيا ليكفي نفسه من أن يكون مُقصِّرًا في السعي أو حِملًا على الناس، ويكفيه ذلك ليستريح باله من هَمِّ الدنيا.

ومن أشمل وأفضل الوصايا حول منهج الزهد هو ما أوصى به الرسول (صلى الله عليه وسلم) قائلًا "مَا طَلَعَتْ شَمْسٌ قَطُّ إِلَّا بُعِثَ بِجَنْبَتَيْهَا مَلَكَانِ يُنَادِيَانِ يُسْمِعَانِ أَهْلَ الْأَرْضِ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ هَلُمُّوا إِلَى رَبِّكُمْ، فَإِنَّ مَا قَلَّ وَكَفَى خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ وَأَلْهَى. وَلَا آبَتْ شَمْسٌ قَطُّ إِلَّا بُعِثَ بِجَنْبَتَيْهَا مَلَكَانِ يُنَادِيَانِ يُسْمِعَانِ أَهْلَ الْأَرْضِ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، وَأَعْطِ مُمْسِكًا مَالًا تَلَفًا"[1] (الثَّقَلَيْنِ هما الإنس والجن؛ آبَتْ أي غربت؛ خَلَفًا أي عِوضا للمال الذي تصدَّق به العبد؛ تَلَفًا أي خِسارة أو ضياعا). وفي حديث آخر حول نفس القضية قال (صلى الله عليه وسلم) "قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، وَرُزِقَ كَفَافًا، وَقَنَّعَهُ اللَّهُ بِمَا آتَاهُ"[2]. فالقدر من زاد الدنيا الذي يكفي المرء من أن يكون عبئًا على الناس، وإن قل، خير من الزاد الكثير من الدنيا الذي يُشغل المرء عن ربه، سواء لتحصيله أو الحفاظ عليه أم استخدامه.

الرضا. من الأسباب المعينة على الزهد من متاع الدنيا هو الرضا، فلو رضي العبد بما قسمه الله من نعمٍ، لن يتطلع إلى ما هو فوق حوائجه الأساسية من الدنيا. والرضا من الصفات بالغة القيمة التي قد يكتسبها المرء، فقد قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) في جزء من حديث "وَارْضَ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لَكَ تَكُنْ أَغْنَى النَّاسِ"[3]. وقد جاء في القرآن الكريم ما يحث على الرضا {وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى} [طه 131]. هذه وصية للرسول (صلى الله عليه وسلم) ألا ينظر إلى ما عند المشركين من نعم، لأنها من تعجيل الطيبات لهم واستدراجهم بأن يظنوا أن الله راضٍ عنهم {فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ (54) أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ (55) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ} [المؤمنون 54-56].

وهذه أيضًا نصيحة ثمينة لنا، وليس فقط على عند المشركين، بل المبدأ يجب أن يُطبّق مع إخواننا أيضًا، لأن توزيع نعم الله حق لله وحده، ومبنيٌ على علم وحكمة لسنا نستوعبهما. هذا ومع العلم أن المرء إذا نظر إلى ما عند هذا وما عند ذاك من نِعم ينشأ عنده أمرٌ من ثلاث (أو جمع بينهم): إما الحسد، أو التنافس والانشغال بتحصيل مثله، أو التحسر والسخط والشعور بالأسى على النفس. وبالنسبة إلى تحصيل مثله، فإنه يؤدي إلى التعلق والحرص البالغ على تحصيل تلك النعمة،

---

[1] مسند أحمد 20728.

[2] صحيح مسلم 1746.

[3] سنن الترمذي 2227 (الحديث مرفوع منقطع).

مما قد يسوق المرء إلى أنه تكون همته الوحيدة هي تحصيل النعمة دون مبالاة أهي بالحلال أم بالحرام.

فمن وجد في نفسه الاشتياق لمتاع الدنيا فليُعوِّد نفسه أن يرضى بما قسمه الله له، لأن غالبًا ما يكون عند المُشتاق نعمة ليست عند غيره ولكنه إما يغفل عنها وإما لا يُقَدر قيمتها حق التقدير، وإما أن يعرفها ولكن يريد تحصيل المزيد وهذا قد دخل في نطاق مرض قلب. وإضافةً إلى إدراكه لتلك النقطة، يجب على العبد أن يؤمن أن الله قيَّد له رزقه لحكمة لا يُدركها، ووجب علينا الإيمان بذلك دون أن يُطلعنا الله على السبب، ويُخفي الله الأسباب في كثير من الأمور. وتلك درجة أعلى في الإيمان، وهي الرضا دون استيعاب الأسباب. وكما جاء عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلاءِ، وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ"[1]. وفي حديث آخر "لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ"[2] (أي بالرضا).

والنظر إلى متاع الدنيا يُولِّد الرغبة فيه والسعي إليه والتنافس على جمعه، وينشغل المرء به عن طاعة الله، مما حذّر منه الله على لسان رسوله (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ، تَفَرَّغْ لِعِبَادَتِي أَمْلأْ صَدْرَكَ غِنى وَأَسُدَّ فَقْرَكَ، وَإِلا تَفْعَلْ مَلأْتُ يَدَيْكَ شُغْلًا وَلَمْ أَسُدَّ فَقْرَكَ"[3] (المغزى من الحديث هو أن يكون همَّ المرء هو عبادة الله، وليس المعنى هو ترك السعي لجني الرزق إذ إن الله يُحب العبد الذي يُعف نفسه عن الطلب من الناس).

في لفتة جانبية، أريد إبراز دلالة جميلة في الحديث، وهي تتعلق بمن قد يرى مثلًا أنه لا وقت لديه للذهاب للصلاة في المسجد إذ إنه مشغول في تحصيل الرزق فسيُصلي في المنزل، أو أنه لا يجد جُهدًا إضافيًا يبذله إذ يحتاج ادخار –أو صَرَف بالفعل– طاقته لتحصيل ضروریاته. أو قد يرى أنه لا يستطيع أن يترك مُحرَّمًا (مثل التربح بالربا من البنوك) لأنه في حاجة ماسة لكل درهم. في الحديث دلالة، وهذا هو الواقع الذي يلمسه من يُجَرِّب، على أن المرء إذا فرَّغ من وقت جنيه الرزق للذهاب إلى صلاة الجماعة في المسجد فإن الله يجعل له تعويضًا على هذا في الدنيا، إما بالبركة في ماله ووقته وإما بوقايته من بلاء كان سيصيبه ويأخذ من ماله، ولا يُشترط أن يكون التعويض بزيادة الرزق المادي. وكذلك من ضغط على نفسه فبذل مجهودًا ليذهب إلى المسجد في حين أنه يبدو له أن لا طاقة عنده، فإن الله سيُعينه –خاصةً أن هذه فريضة– ويرزقه بطاقة لم يكن العبد يظن أنها عنده.

---

[1] سنن الترمذي 2320.

[2] صحيح البخاري 5965.

[3] سنن الترمذي 2390.

مضمون الرسالة هي أن العبد ينبغي له أن يُقدِّم عبادة الله على أمور دنياه وعن هواه وراحته، ويأخذ الخطوة تجاه الله –والتي يراها صعبة– مُتوكِّلًا عليه تعالى. ومن الجهة العملية، إذا رأى العبد أن التفريغ من وقته للذهاب إلى المسجد أو أن ترك الربا صعب، وأن هذا عذر حقيقي ثم أخذ به الناس، فستجد واقعيًا أن المساجد خاوية وأن كل الناس يتربحون بالحرام. ولن تجد عامة الناس تُراعي أوامر الله ولا تقف عند حدوده تعالى إذ إن كل الناس يحتاجون الرزق وكلهم يُجهدوا، لكن الفرق هو بين من يبذل ليتق الله ويسعى لإرضائه وبين من لا يسعى لهذا. بادر أخي إذ إن تأجيل التفريغ من وقتك لله، أو ترك المنهي عنه، يجعله يزداد صعوبة عليك مع مرور الوقت، إذ يزداد اعتمادك على تلك المصادر وتزداد العوامل التي تمنعك من أخذ هذه الخطوة مع تقدم عمرك.

رجوعًا لموضوع الفصل، من لا يزال يجد في نفسه شيئًا إلى ما عند الآخر فليعرض على نفسه قبول كل ما عند ذاك الشخص من نعم وبلاء، لأن الله يُقسّم النعم والبلاء على كل امرئ بحسب حكمته وما يطيقه العبد من كلٍ منهما، ولكن عادةً ما يراه ويحلو في عين المرء ما عند الآخر من نعم وليس ما عنده من البلاء.

فإن رغب أحد فيما عند غيره فليقبل ما عند غيره جملةً، بما في ذلك ما لا يلاحظه من بلاء عند أخيه، لعل ذلك يُردع النفس. وليحمل مع كل مميزاته كل ذنوبه أيضًا لأن ذلك هو العدل، أن يكون لك مجموعة من النعم ومجموعة من البلاء. أفلا ترون أنها مُجازفة الآن، فرُب تبديلٍ ينتهي بك إلى فقدان جزءٍ كبيرٍ من إيمانك وقربك من الله من أجل سعةٍ في المال أردتها، فأيهما أقيم؟ أو الأدهى وهو أن تكتشف أن ذاك المرء ارتكب موبقات كثيرة لنيل هذا المال الوفير، والآن عليك حمل تلك الأوزار التي تجعل مصير صاحبها إلى النار!

لكن إليك بنصيحة قيمة، وهي أنك إذا رأيت ما يُعجبك من نعمة عند أخيك فادعُ له بالبركة فيما عنده وأن يزيده الله منها دون أن يُفتتن بها، وبتلك الطريقة تتفادى إمراض قلبك بالحسد أو ما شابه، وتُعلي من احتمالية أن تُرزق بمثله. ولكن كيف؟ ذلك بأن من يدعو بخفاء لأخيه بشيءٍ يوشِك أن يُجزى بمثل ما دعى له به، كما نبأنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "مَنْ دَعَا لأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ قَالَ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهِ: آمِينَ، وَلَكَ بِمِثْلٍ"[1].

بل وإن أعجبك شيء عند أخيك فادعو له بطِيب نفسٍ أن يُبارك الله له فيما عنده لأنك تُحب ما عنده، وذلك عملًا بحديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ"[2]. كن صريحًا مع نفسك، إنك إذا كانت عندك نعمة ليست عند كثير من إخوانك فإنك لا تُحب أن يُحسدك أحدٌ عليها فتزول من عندك، فكما لا تُحب الحسد وتبعاته على نفسك فلا تفعله

[1] صحيح مسلم 4913.

[2] صحيح البخاري 12.

بغيرك. والمرتبة الأعلى في العمل بالحديث المذكور آنفًا هو أن تدعو لأخيك بنعمة عندك ولكن ليست عند أخيك. فإذا فعلت ذلك فقد فزت فوزين على الأقل، فوز أن الإيمان في قلبك يكتمل بتلك الصفة ويطيب ويصفو قلبك أكثر (إيثار إخوتك وحب الخير لهم ولو لم تحصل عليه أنت)، والفوز الثاني أنك قد تنال تلك النعمة بعد أن دعا لك الملك بمثل ما دعوت لأخيك (وإذا كانت تلك النعمة عندك فإنه أدعى أن يُبقي الله تلك النعمة عندك).

وهناك بعض من ينصح أن تنظر ماذا تريد لنفسك ثم تدعو لأخيك بمثله كي تُحصِّله أنت معه، ولكني أحب التنبيه على بعض النقاط إذا كان يتعلق بأمر من أمور الدنيا. ذلك النمط في التصرف قد يؤثر على صفاء قلب المرء إذا كانت نيته منفعة نفسه في الأصل وليست حُب الخير لأخيه. إضافةً، قد يكون فيه طلب لأمرٍ من أمور الدنيا لنفسك لم يُقسمه الله لك، ولو صبرت ورضيت لكان خيرًا لك، إلا أن يكون ذلك البلاء يقودك إلى الفتن أو المعاصي أو شقَّ عليك، مثل الفقر المنسي أو تأخر الزواج.

وانظروا كم صبر سيدنا أيوب (عليه السلام) من الوقت، وعلى عددٍ من الابتلاءات الثقيلة (في ماله وأهله وجسده) قبل أن يقول {وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} [الأنبياء 83]، وإنما قالها دعاءً وليس شكوةً، إذ قال تعالى فيه {إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ} [ص 44]. أما أن يتخذ المرء ذلك المنهج (الدعاء لأخيه كي ينالان النصيب) في أمور الآخرة فلا بأس، بل والأفضل هو فعل هذا.

واعلم أخي أن الله من رحمته يبتليك بما تطيقه، أي يجوز أن يبتلي أحدًا في ماله لأنه يتحمل بلاء الفقر أفضل من تحمله للمرض، ويبتلي الآخر بالمرض لأنه يتحمل بلاء الجسد أفضل من تحمله للفقر. والعكس صحيح، أنه تعالى قد يعطي عبدًا مالًا لأن ذلك لا يفتنه عن دينه ويعطي الآخر سلطة لأن ذلك لا يفتنه عن دينه ويعطي آخر حُسنًا في المظهر والجسد لأن ذلك لا يفتنه عن دينه. وهذا من فضل الله علينا، ومن لا يقتنع بذلك فليسأل نفسه: إذا أراد الله أن يفتنه عن دينه بنعمة أو بلاءٍ فهل سيُفتتن أم لا؟

وفي الآيات {أَوَلاَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لاَ يَتُوبُونَ وَلاَ هُمْ يَذَّكَّرُونَ} [التوبة 126]، {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ} [الأنبياء 35]، {قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ} [البقرة 93، جزء منها] إجابة لذلك السؤال. فوجب علينا الرضا بما قسمه الله لنا بحكمته من النعم والبلاء، حتى لا نجد أنفسنا نُقبل على ما حرّم الله طلبا لتحصيل النعم (بأخذ رشوة مثلًا)، ولا يليق أن نتذمر أو نعترض على ما ابتلانا الله به.

وهناك واقعة طريفة فيها عظة قيّمة وقعت في عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وهي عندما بعث أبا عُبَيدَة بن الجَرَّاح (رضي الله عنه) إلى البحرين يأتي بجِزيَتِها، وكان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) هو صالَحَ أهل البحرين وأمَّرَ عليهم العَلاء بن الحَضرَمِيّ (رضي الله عنه). فقدم أبو عُبَيدَة بمالٍ من البحرين، فسمعت الأنصار بقُدُوم أبي عُبَيدَة فوافت صلاة الصبح مع النبي (صلى الله عليه وسلم). فلما صلى بهم الفجر انصرف فتعَرَّضُوا له، فتبسَّم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حين رآهم وقال "أَظُنُّكُمْ قَدْ سَمِعْتُمْ أَنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ قَدْ جَاءَ بِشَيْءٍ"، قالوا: أجل يا رسول الله، قال "فَأَبْشِرُوا وَأَمِّلُوا مَا يَسُرُّكُمْ، فَوَاللَّهِ لا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمْ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ"[1].

مخالفة الهوى في الباطل، ومحاولة مخالفة الشهوات في المباحات أحيانًا لتهذيب النفس وكسرها. قال تعالى {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَـٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} [الجاثية 23]. إن من أخسر الخسائر أن يُضِلَ الإنسان بعد علم، فإن العلم النافع نعمة من الله، يزيد العبد في منزلته وحكمتة ونوره وسلامته. لكن هذا الذي ذكره الله بلغ مرحلة من الاتباع والاستجابة الكاملة، مع التسليم، لهواه حتى وصفه الله أنه "اتَّخَذَ إِلَـٰهَهُ هَوَاهُ". وبالتبعية أصبح هواه يُذله ويُصغره ويُهينه، وهذا مصير من يتَّخذ أي إله غير الله وحده. ومن يضل وهو على علم يكون أقبح وأضل ممن ضل على غير علم، فالأول مسخوط عليه وأما الثاني ففيه أمل للنجاة إذا فُقِّه إذ قد يستقيم.

هذا العابد لهواه لا يرى ولا يسمع ولا يستجيب قلبه إلا للشهوة والمتعة، يقوده ويوجهه هواه، مثل المخلوقات التي لا عقل لها، فهم كالأنعام بل هم أضل لأن الأنعام ليس عليها حُجة العقل. وقد قال الإمام ابن تيمية (رحمه الله) بعدما حُبس في السجن بسبب قوله كلمة الحق: الْمَحْبُوسُ مَنْ حُبِسَ قَلْبُهُ عَنْ رَبِّهِ، وَالْمَأْسُورُ مَنْ أَسَرَهُ هَوَاهُ[2]. وكل ذلك يدل على أن من اتخذ إلهه هواه أصبح ذليلًا منكسرًا مُقيَّدًا، بخلاف من اتّبع رضوان الله.

وإن كان المرء يُخالف هواه حتى في المباحات أحيانًا إن استطاع، فذلك أطيب له إذ إن قلبه يصفو أكثر، وهواه يهدأ أكثر فيرتقي في الإيمان. وإضافة إلى هذا فإن مخالفة الهوى تجعل النفس مُنقاضةً للعقل الذي يبتغي الحق، لأن ذلك بمنزلة إعلانٍ للنفس أن قائد الجسد هو العقل المزود بالعلم، وليس الهوى المبني على الغريزة. والصبر والمثابرة على مقاومة هوى النفس، وإرجاح العقل عليه، أمرٌ ضروري، إذ يؤدي إلى السلامة من المعاصي والنجاة من الأضرار والعقاب. قال ابن

---

[1] صحيح البخاري 2924.

[2] غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب لمحمد السفاريني 470/2.

السَمَّاك: كن لهواك مُسَوِّفًا، ولعقلك مُسعِفًا، وانظر ما تسوء عاقبته فوطِّن نفسك على مجانبته، فإن ترك النفس وما تهوى داؤها، وترك ما تهوى دواؤها، فاصبر على الدواء كما تخاف من الداء[1] (مُسَوِّفًا أي مؤجِّلًا لطلباته؛ مُسعِفًا أي مؤيدًا وناصرًا).

إصلاح باطن المرء حتى تكون نياته طيبة وصالحة. يقول تعالى {رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُواْ صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا} [الإسراء 25]. هذه الآية جاءت في سياق البر بالوالدين، ولكن لا يمنع هذا أنها تكون أشمل من ذلك. المعلوم أن الله يعلم ما نُسِرُّ في أنفسنا وإن لم نعمل به، فوجب علينا إصلاح نِيَّاتنا وما نُخفيه في أنفسنا (أي إصلاح مصدر أو منبع مشاعرنا وأفكارنا، وهما القلب والعقل). وذلك لأن المرء يحاسب على أعماله بناءً على ما في النفس، فمثلًا قد تجد شخصين ارتكبا نفس المعصية، ولكن يغفر الله لأحدهما ويعاقب الآخر. وذلك لأن الأول نفسه طيبة وفعل المعصية زَلَّة منه، ولكن الآخر نفسه خبيثة فيرتكب المعصية وهو مطمئن أن الله سيستره، ويمكر أنه سيُكررها اعتمادًا على أنه سيُغفر له عندما يُقرر أن يتوب، فاستغل رحمة الله ويضعها في غير موضعها.

فهذه التفرقة من الله في قبول الأعمال سببها نيات المرء، وذلك بيَّنها الله في مثل واقعة ابني سيدنا آدم عليه السلام {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ} [المائدة 27]، فقيل إن الأول أحسن القُربان الذي قدَّمه بينما الثاني قدَّم شيئًا رديئًا. بل وأكثر من ذلك، فهناك حالات يعمد شخصٌ إلى خير (في نظرته) وتُحسب عليه ذنبًا، ويعمد شخصٌ آخر إلى خير ولكنه يصيب الخطأ ويأخذ على ذلك حسنةً! ذلك لأن الأعمال بالنيات، فقد يعمد الأول على فعل الخير ولكن بطريقة فيها معاندة للمعايير الشرعية فيأخذ ذنبًا، مثل الذي يُفتي الناس بغير علم أو الذي يقضي بين الناس عن جهل. والثاني الذي أصاب شرًّا فقد أخذ بالأسباب الشرعية واجتهد ولكنه وقع في الخطأ فيأخذ أجر المحاولة.

وذلك كله مُبينٌ في أحاديث لرسول الله (صلى الله عليه وسلم)، فمثال على الشخص الأول يأتي في الحديث (الذي يقضي دون علم) "الْقُضَاةُ ثَلاثَةٌ، قَاضِيَانِ فِي النَّارِ وَقَاضٍ فِي الْجَنَّةِ: رَجُلٌ قَضَى بِغَيْرِ الْحَقِّ فَعَلِمَ ذَاكَ فَذَاكَ فِي النَّارِ، وَقَاضٍ لا يَعْلَمُ فَأَهْلَكَ حُقُوقَ النَّاسِ فَهُوَ فِي النَّارِ، وَقَاضٍ قَضَى بِالْحَقِّ فَذَلِكَ فِي الْجَنَّةِ"[2]. ومثال للشخص الثاني يأتي في الحديث "إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ وَاحِدٌ"[3].

---

[1] أدب الدنيا والدين للماوردي 27.

[2] سنن الترمذي 1244.

[3] سنن الترمذي 1248.

ومن أكثر الأخطاء التي يقع فيها الناس فيما ناقشناه هو ما يصدر من اللسان من كلام يؤذي، وهو خطأٌ شائعٌ يقع فيه الناس ويتكرر منهم كثيرًا، وتلك الذنوب من كلام السوء تتراكم على العبد. واللسان انعكاس لباطن النفس كما جاء عن سيدنا عثمان (رضي الله عنه): مَا أَسَرَّ أَحَدٌ سَرِيرَةً إلا أَظْهَرَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى صَفَحَاتِ وَجْهِهِ وَفَلَتَاتِ لِسَانِهِ[1]. واللسان والقلب مرتبطان ببعضهما ترابطًا تناسبيًّا، إذ يظهر ما في القلب على اللسان، وأيضًا ما يصدُر من اللسان يؤثر على القلب، وذلك كما أشار حديث (ضعيف الإسناد) عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "لا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ، وَلا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ، وَلا يَدْخُلُ رَجُلٌ الْجَنَّةَ لا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ"[2] (بَوَائِقَهُ أي أذاه).

فكثيرًا ما يقول شخصٌ شيئًا يُظهر أنه خيِّر وهو في الحقيقة يكمن في قلبه الضغينة أو البغضاء أو الحسد، والأثر السلبي لذلك على النفس أكثر من المتوقع إذ قد يقوده ذلك إلى أن يكون منافقًا إذا لزمه، وهذا لأنه يُبدي خلاف ما يُبطن. وسواء كان المرء يقول كلامًا جميلًا يقصد به شرًّا أم أن يقول كلامًا يريد به شرًّا صراحة، فالصواب أن يمسك لسانه ويأخذ بنصيحة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ"[3].

وليعلم الجميع عواقب التكلم دون حرصٍ ولا تقييد من نصيحة (جزء منها) رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لسيدنا معاذ (رضي الله عنه) "أَلا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الأَمْرِ كُلِّهِ وَعَمُودِهِ وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ؟"، قال سيدنا معاذ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ "رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ" (وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ أي أعلى مرحلة)، ثم قال "أَلا أُخْبِرُكَ بِمِلاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟" قلت: بَلَى، فأَخَذ بلسانه فقال "تَكُفُّ عَلَيْكَ هَذَا"، قلت: يَا نَبِيَّ اللَّهِ وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ قال "ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يُكِبُّ النَّاسَ عَلَى وُجُوهِهِمْ فِي النَّارِ إلا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ"[4]. والدليل على أن اللسان عضوٌ يكب كثيرًا من الناس في النار هو قول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الْجَنَّةَ" [5](مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ أي بين شفتاه، والمقصد هو اللسان؛ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أي الفرج).

فوجب علينا إصلاح سرائر النفس لأنها المنبع، وبسببها إما أن تُقبل (بل وربما تُضاعف) وإما أن تُرفض أعمال المرء بحسب نقاء نياته وإخلاصه، والدليل على ذلك قوله تعالى –بعد تبليغنا أنه يعلم ما في نفوسنا– "إِن تَكُونُواْ صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا". ومعلوم أن للصلاح جانبين،

---

[1] الآداب الشرعية والمنح المرعية لمحمد المقدسي 136/1.

[2] مسند أحمد 12575.

[3] صحيح البخاري 5559.

[4] سنن ابن ماجه 3963.

[5] صحيح البخاري 5993.

نية صالحة وعمل صالح، فكم من مصلٍ نيته خبيثة يُحسب عند الله منافقًا، وكم من مُثاب لصلاح نيته مع أنه لم يعمل العمل الصالح لعدم استطاعته.

أما الذي يدل على أن خبث باطن المرء قد يُفسد قلبه وعمله هو أن من فسدت نياته يُعاقب، وأتكلم عما يدور داخل المرء فحسب من خُبثٍ دون أن يظهر ذلك في عمله حتى، فكما في الحديث عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَتَمَثَّلَ لَهُ الرِّجَالُ قِيَامًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنْ النَّارِ"[1]. والدليل الأهم والأشمل هو أنه من عمل عملًا صالحًا ولكن هدفه هو رياء لأحدٍ من الناس مثلًا فقد بطل عمله الذي في ظاهره الصلاح بسبب سوء نيَّته، ودخل فيمن شملهم حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ" قَالُوا: وَمَا الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ "الرِّيَاءُ، يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا جُزِيَ النَّاسُ بِأَعْمَالِهِمْ: اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاءُونَ فِي الدُّنْيَا فَانْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً"[2].

فمن أصلح باطنه له شبكة أمان أنه إذا أخطأ وعصى الله فله أن يتوب وتُقبل توبته، ولو تكررت المعصية بسبب ضعفه. أما من لا يُصلح نواة قلبه فلا أمان له إذا انسلت، وأمره إلى الله، إن شاء عذبه وإن شاء غفر له. وقد روى لنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) في حديث قدسي "أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا فَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ. ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ. ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، اعْمَلْ مَا شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ"[3] (والمقصد من "اعْمَلْ مَا شِئْتَ" ليس التشجيع على المعاصي، بل بشرى لمن كثرت ذنوبه عن ضعف ولكنه يندم بعد المصية ويُنيب إلى الله، ويرغب في التطهر من عصيان الله).

والأرجح أن يكون ذلك العفو البالغ لمن يتقي وكان باطن نفسه صالحًا، وليس ذلك لمن باطنه فاسد مثل الذي يمكر أن يرتكب من المعاصي ما يحلو له ثم سيتوب في آخر عمره. وأقصد بمن يكون قلبه صالحًا وطيبًا مثل الذي تمنى لمن حوله الخير بالرغم من ضيق حاله، وأما الفاسد في نفسه فقد يحسد إخوانه ويتمنى أن يكون أفضلهم ليستعلي عليهم، حتى وإن كان أكثرهم حظًّا من النعم إذ قد لا يريد أن يُماثله أحد.

والحديث الذي جاء عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهو يُحدِّث الصحابة (رضي الله عنهم) بقوله "أَتُبَايِعُونِي عَلَى أَنْ لا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا وَلا تَزْنُوا وَلا تَسْرِقُوا (وَقَرَأَ) {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا

---

[1] سنن الترمذي 2679.

[2] مسند أحمد 22523.

[3] صحيح مسلم 4953.

جَاءكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}، فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْهَا شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَسَتَرَهُ اللَّهُ فَهُوَ إِلَى اللَّهِ إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ"[1] فيه ملحوظة مهمة. والملحوظة هي أن المغفرة يهبها الله لمن يشاء، ومع الله ليس هناك أحداثٌ عشوائيةٌ لأن كل شيء معلوم ومحكوم عند الله، فالمغفرة التي يهبها الله لمن يشاء لها أسبابها، وغالبًا أن صلاح باطن النفس التي ينبع منها أفكار ونيات الإنسان هو أحد تلك الأسباب.

وجاء أيضًا في القرآن {إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى} [طه 73]. الحمد لله الذي جعل التوبة بسيطة وفي متناول الجميع، وما ذُكر في الآية هو ما فعله سحرة فرعون عندما رأوا آيات سيدنا موسى (عليه السلام) فآمنوا بالله، ومن ذلك نعتبر. وفي هذه الآية دلالة على أن الإيمان بالله وحده قد يكفي للمغفرة في ما بين العبد وربه (أما ما بين العبد والناس فلا بد من رد الحقوق)، ولكن يجب أن يكون إيمانًا مدلولًا عليه بعمل، وفي هذه الحالة تحدوا فرعون من أجل الله. فمن فعل هذا يرضى عنه الله حتى إنه قد يغفر له ذنوب نسي العبد أن يستغفر الله عليها. أما بالنسبة إلى متطلبات الاستغفار أو التوبة فإنهن يجلبن المغفرة على لعبد، ويكون من السفاهة تركهن عمدًا، وإنما الكلام عن الذين قد يسهو عن الاستغفار على أمر فعلوه.

والمعلوم أن يوم الحساب يغفر الله لمن يشاء ويعذب من يشاء، ونيل المغفرة يترتب على عدة عوامل، من أهمها قوة الإيمان بالله، ولكن تشمل مواصفات أُخرى مثل أخلاق العبد مع الناس. فمن يعفو عن الناس يعفو الله عنه، لأن الله أحق بصفة العفو، تمامًا مثل ما أشار حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "أُتِيَ اللَّهُ بِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِهِ آتَاهُ اللَّهُ مَالا فَقَالَ لَهُ: مَاذَا عَمِلْتَ فِي الدُّنْيَا؟ (قَالَ {وَلا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا})، قَالَ: يَا رَبِّ آتَيْتَنِي مَالَكَ فَكُنْتُ أُبَايِعُ النَّاسَ وَكَانَ مِنْ خُلُقِي الْجَوَازُ، فَكُنْتُ أَتَيَسَّرُ عَلَى الْمُوسِرِ وَأُنْظِرُ الْمُعْسِرَ، فَقَالَ اللَّهُ: أَنَا أَحَقُّ بِذَا مِنْكَ تَجَاوَزُوا عَنْ عَبْدِي"[2] (الْمُوسِرِ هو ميسور الحال الذي يستطيع السداد؛ وَأُنْظِرُ الْمُعْسِرَ أي يُمهِل أو ربما حتى يتجاوز عن الذي يتعثر في السداد).

فالرجل السَمِح العفو اللين مع الناس في أمور الدنيا له الرحمة من الله في الدنيا والآخرة، كما دل قوله (صلى الله عليه وسلم) "رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا سَمْحًا إِذَا بَاعَ وَإِذَا اشْتَرَى وَإِذَا اقْتَضَى"[3] (اقْتَضَى أي طلب قضاء حقه بسهولة وعدم إلحاف، وبطبيعة الحال يكون أيضًا غير مُماطلٍ عندما يؤدي لأحد

---

[1] صحيح البخاري 4515.

[2] صحيح مسلم 2920.

[3] صحيح البخاري 1934.

حقه). وعامةً، قد أرسى (صلى الله عليه وسلم) قاعدةً أن المرء يُعامَل من الله مثلما يُعامِل الناس "ارحموا تُرْحَمُوا، واغفِروا يُغْفَرْ لكُم"[1].

والعكس صحيح، من يظلم الناس عَرَّض نفسه لنقمة الله فلا يُعفى عنه فيما يتعلق بحق الله، وأما حق الناس فلا يُعفى عنه إلا بعفو الناس أو القصاص، والعفو يصعب حدوثه –خاصةً مع المُتكبر الفاجر الظالم– يوم يدرك الناس أن الحسنة قد تعني الفرق بين النار والجنة. والسبب أن الله قد لا يعفو الله عنه هو انتقامًا لعباده الذين ظلمهم هذا الظالم، فيكون الانتقام مضاعفًا من حيث الأطراف: من الناس ومن الله. هذا لأن عباد الله مِلكٌ له فلا يحق لأحد أن يتعدى عليهم دون حق، فمن يظلم الناس قد تعدى على مُلك الله أيضًا، فأصبح عليه دَينٌ لله فوق دَينه للمظلوم.

هذا كله يدل على أهمية النية الحسنة في الأعمال، لأن النية الصالحة وحدها قد تتم بها المصلحة والأجر وإن عجز العبد عن التنفيذ، كالذي يأخذ حسنةً على عمل صالح أراد فعله ولكنه لم يستطع. فيجب أن نُصلح نيّاتنا مع الله ونُصلح أعمالنا.

العزم على التحلي بالأخلاق الفاضلة. إن المؤمن لا يزال يُزين نفسه بتعلم الصفات الحميدة وتطبيقها، فيرتقي قدره عند الله حتى يصبح كما جاء في الحديث "إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ"[2] (الْقَائِمِ أي الذي يقوم الليل). فما بالنا بمنزلة الصائم القائم الذي حَسُن خُلُقَه؟!

ويكتسب المرء تلك الصفات من خلال عدة طرق، أهمها الامتثال بخير القدوة –الرسول (صلى الله عليه وسلم)– الذي كان خُلُقُهُ القرآن، ثم الصحابة ثم التابعين (رضي الله عنهم)، وذلك مما يُروى عنهم مثل قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) للأَشَجِّ (رضي الله عنه) "إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ: الْحِلْمُ وَالأَنَاةُ"[3] (الْحِلْمُ أي العقل، وَالأَنَاةُ هي التثبت وترك العجلة). ويمكن أيضًا للمرء أن يراقب من حوله من العلماء والصالحين كي يرى الصفات الطيبة تطبيقيًّا عينيًّا، فيلتقطها منهم ثم يُفَعِّلها. وليُراقب الناس عامةً ليكتسب منهم الصفات الحسنة، فحتى الفاجر عادة ما يكون عنده صفةٌ طيبة فليلتقطها منه ولينبذ باقي صفات فساده.

وسبيل الارتقاء بالأخلاق يكون بمراقبة، ثم تهذيب، كل واحدة من جوارح المرء، لأن أفعال الجوارح يجتمعن ليُمثلن خُلُقًا أو سلوكًا. وأمثلة للتوضيح على اختلاف الأخلاق الناتجة عن طريقة صرف تلك الجوارح هي مثل اللسان الذي ينطق فقد يُجرح أو قد يُوَطِّد العلاقة مع الناس، والأذن قد

---

[1] صحيح الترغيب للألباني 2465.

[2] سنن أبي داود 4165.

[3] صحيح مسلم 24.

تتجسس على ما لا يحق للمرء سماعه أو قد يُنزِّه المرء نفسه بتجنب سماع لغو الحديث. والبصر إما يكون مُطلقًا فيدور ليلتقط الحرام أو قد يُضبط ليتفادى الوقوع على ما لا يعنيه ولا يخُصَّه، واليد إما قد يبطش المرء بها ظلمًا أو قد يعين الناس على حوائجهم.

وما لنا ألا نُهذِّب جوارحنا وقد قال الله عز وجل {وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولـئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولًا} [الإسراء 36]. إحرص أخي على تهذيب الجوارح، فإننا مسؤولون عن كل واحدة منهن، وإذا شاء الله سيسأل كل عضوٍ يوم القيامة عما فعل، وقد يشهدون علينا إن أنكرنا ما في كتاب أعمالنا. فاحرص أن تُهذبهم لكيلا يحصدوا صغائر الذنوب باستمرار إن أطلقتهم، فتتراكم الذنوب فتجدهم جبلًا هائلًا فيُهلكنَّك بعد إحصائهم لك وعرضهم عليك. وهذا ما أوعانا منه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ، كَقَوْمٍ نَزَلُوا فِي بَطْنِ وَادٍ فَجَاءَ ذَا بِعُودٍ وَجَاءَ ذَا بِعُودٍ حَتَّى أَنْضَجُوا خُبْزَتَهُمْ، وَإِنَّ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ مَتَى يُؤْخَذْ بِهَا صَاحِبُهَا تُهْلِكْهُ"[1].

التحلي بالأخلاق الحسنة ومُكابدة النفس لإرساخها فيها أمرٌ قد حث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عليه، فقد أثنى على من حسن خُلُقه "أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا، وَخِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ خُلُقًا"[2]. وفي رواية أخرى جاء "إِنَّ خِيَارَكُمْ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا"[3]، ومن الذي لا يرغب أن يكون من خيار المسلمين وأفضلهم منزلة؟

ضبط صفات المرء بحيث تكون وسطية، وذلك من كمال الإيمان. قال تعالى {مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (22) لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ} [الحديد 22-23]. هذه الآية تدعو إلى الإيمان الراسخ بأن ما أصاب العبد من بلاء أو ما فاته من رزق ونعم الدنيا فهو من قدر الله، وكذلك العكس، فما أصاب العبد من نعمة أو ما أخطأه من بلاءٍ فهو من قدر الله. وتدعو أيضًا على التوسط في التصرفات والأخلاق، فلا يفرح المرء إلى حد الفخر عندما تأتيه نعمة، ولا يُحبط إلى درجة اليأس عندما تصبه مصيبة، فكلا طرفي الطيف يجعلان الإقبال على المعصية للعبد أسهل عليه. ذلك لأن الفرحان بزيادة يستخف بحدود الله وبعواقب المعصية، ويهوى أن يفرح أكثر فيُقبل على المعصية. وعلى الصعيد الآخر، فإن اليائس يفقد العزيمة على مقاومة المعصية، وقد يتشاءم من مصيره وما عليه من وزر فلا يكترث لتبعاتها.

---

[1] مسند أحمد 21742.

[2] سنن الترمذي 1082.

[3] صحيح البخاري 5575.

هذا وقد قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) "لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةٌ، وَمَا بَلَغَ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الإِيمَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ"[1]. فاليقين بذلك يمنع التحسر على ما فات العبد من النعم أو الجزع بما أصابه من بلاء، فيمنع الفخر لما يناله العبد من نصيب الدنيا، ويمنع القنوط. ومن هاتين الآيتين أريد أن أشير إلى جانبي الطيف اللذين يقودان العبد إلى المعصية، أولهما هو الضراء، ويكون بأن يُصاب العبد ببلاء أو يفوته نصيب من الدنيا. ومن أصعبهما وأشدهما اختبارًا للمرء هو الضيق في الرزق، وهذا الابتلاء لا ينجح فيه كثير من الناس، لأن مع هذا البلاء تُسول للمرء نفسه تبرير نيل الرزق بطريقة غير شرعية.

لا يجتاز هذا الابتلاء إلا ذوو الإيمان الراسخ، فالحذر يا إخواني من أن نقع في هذا الخطأ. فمن كان في ميسرة من الرزق اليوم فليُجهِّز نفسه، بتلقين النفس بجدية وعزم تحسبًا للفترة العصيبة من ضيق الحال عندما تأتي. هذا ولنأخذ بعموم النصيحة (تُروى أنها عن سيدنا عمر رضي الله عنه): اخْشَوْشِنوا فإنَّ النِّعمَةَ لا تدومُ. وأما من كان في عُسرة من الرزق اليوم فليصبر وليعلم أن إخوانه، بالرغم من قلتهم النسبية في هذا الزمان، يشاطرون معه المشقة وبالتأكيد يدعون له بالثبات، وليعلم أن الله قد اختاره بعينه ليكون واحدًا ممن في هذا البلاء (لحكمة لا يعلمها إلا الله)، فلا يخذل ربه في اختياره له.

أما الطرف الثاني من الطيف يكون بالسَرَّاء، كمَن في سعة من نعم الله، الذي أوتي وفرةً من المال أو الصحة أو السلطة أو غير ذلك، وهذا أيضًا يُغري العبد على المعصية، فالنعمة بلاء أيضًا ولكن ليس كبلاء محدود الرزق. والذي عنده سعة من النعم تؤزه نفسه أن يستعملها لإرضاء هواه وترفيه النفس ولو كان في معصية الله، بالإضافة إلى ما يتسلل إلى النفس من الكبر والغرور والفخر بسبب جني المال بوفرة، فيقسو القلب ولا ينكر على النفس معصية الله.

وقد تكون السرّاء في هيئة نجاة من ضرر كاد أن يصيب المرء، كمن أوشك أن تُسرق أرضه ولكنه تمكن من دفع الجُناة بل ومُعاقبتهم، أو من كان يوشك أن يُسجن ظُلمًا ولكن ظهرت براءته أمام القاضي في آخر لحظة. هؤلاء قد تحملهم نشوة الانفراج والانتصار على معصية من المعاصي (مثل الاحتفال بالمُدخنات والمعازف أو حتى الخمور). فمن هذين الطرفين من الطيف يجب أن نحترس: السرَّاء والضرَّاء، فلا نعمة حقًّا كنعمة الإسلام، ولا فوز حقًّا إلا لمن وضع قدمه في الجنة.

وقال تعالى أيضًا {ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاء بَنَاهَا (27) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (28) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (29) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (30) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءهَا وَمَرْعَاهَا (31) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (32) مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ} [النازعات 27–33]. هذه آيات جميلة تجعل الإنسان يدرك مكانه،

[1] مسند أحمد 26218.

وتستعطفه ليتقبل مكانه: مكانة العبد. ذلك لأن الآيات تمنع الإنسان من التكبر بسؤال نفسه عن مدى ظنه في تعقيد خلقه، أهو أم السماء، أم الأرض، أم الجبال؟ وفي نفس الوقت تمنع الآيات الإنسان من تصغير مقامه في الدنيا، إذ إن الله بعد أن وصف وصفًا جميلًا كيف خلق السماوات والأرض والجبال الذين أعظم من خلق الإنسان، جمع الكلام في الآية الآخيرة أن كل ذلك خُلق من أجل الإنسان تكريمًا له.

فسبحان الله على جمال تلك الآيات، فهن من الآيات التي يجعلن الإنسان يتوسط، لا يميل إلى جهة الغرور ولا إلى جهة التحقير من قدره. والإنسان المُتَّزن المعتدل هو الإنسان الذي يرتقي، فلا يميل إلى الكبر أو الذلة، ومن ثمَّ لا يميل إلى الغرور ولا اليأس، ولا إلى التشدد في الدين أو التراخي فيه. ومن هذه الآيات يجب أن أعتبر، فلا أدع الغرور والكبر يتسللا إليَّ بسبب الاستعظام كي لا أُهمل في طاعة الله وأتهاون بعواقب معصية الله. وعلى الوجه الآخر، لا أترك ذلة النفس تصبني كي لا أترك طاعة الله وأرتكب المعاصي بسبب ضعف العزيمة واليأس من أن هذه أو تلك الفعلة لها قيمة عند الله أو ستُحدث فارقًا، ولكيلا أيأس من أن يُغفر لي بسبب ما اقترفته.

وهذه نقطةٌ أريد الاستفاضة فيها، وهي أن المؤمن مُتوسِط مُوازن للصفات، أي يجمع بين طرفي الصفات، مُستخدمًا كُلًّا في وقتها ومحلِّها. وما أعنيه هو أن المؤمن يكون خائفًا من ربه ولكن مُحبًّا له، رحيمًا وشديدًا، مهمومًا بالآخرة ولكن بشوشًا مع الناس، صادقًا ولكن ورعًا، مجتهدًا مُخففًا، ليس بمتكبرٍ ولكن ليس بذليلٍ أيضًا، عفوًّا منتقمًا، واثقًا من نفسه ولكن ليس بمغرورٍ، شجاعًا ولكن ليس بمتباهٍ، يُحسن العمل مع الخوف ألا يكفي عمله للنجاة من عذاب الله، يكره السلطة ولكن كفاءة إذا حُمِّل المسؤولية، دائم المحاسبة للنفس ومعاقبتها ولين في مؤاخذة الناس، عنده حياء ولكن جريء في الحق، رفيق ولكن حازمٌ، حسن المظهر ولكن ليس بمتفاخر، طمّاع زاهد، وغير ذلك.

وهذا يشير إلى أن المؤمن يجتمع فيه صفات في ظاهرها التناقض (وهناك فرق بين الصفات والأعمال، فتناقض الأعمال مع بعضها أو مع القول هو النفاق)، ولكن يستعمل المؤمن كل صفة في موضعها. وهذا شاق لأن الاتصاف بصفة واحدة طبيعة الإنسان، كالجُبن دون جُرأة أو الغلظة دون رفق، ولكن المؤمن يُهذّب نفسه ويطّور من أخلاقه وصفاته، فيجمع الصفات كي يرتقي بنفسه. أما شرح ما قيل من الصفات فكما يأتي: فإنه يخاف من الله لأنه يُدرك مدى قدرة الله عليه وشدة عذابه فلا يُقصِّر في العمل، ومع ذلك راجيًا متأملًا من الله الذي يخاف منه أن يرحمه فلا ييأس من رحمة الله، بل ويُحب الله لتفضله عليه. وهما مشاعر، الخوف مع الحب، لا يمكن ولا يجوز أن تجتمعا في قلب عبدٍ لأحدٍ إلا لربه.

وخير دليل يجمع المقصد من الكلام ما يشمله (جزء من) دعاء الرسول (صلى الله عليه وسلم) "وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لا مَلْجَأَ وَلا مَنْجَا مِنْكَ إِلا إِلَيْكَ"[1] (وَلا مَنْجَا أي لا سبيل للنحاة منك إلا إليك). ومن صفات المؤمن أنه شديدٌ رحيمٌ كما وصفهم الله {مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ} [الفتح 29، جزء من الآية].

والمؤمن مهموم بالآخرة، ومع ذلك ينبغي أن يكون بشوشًا في الدنيا مع الناس، لأن من علم واقع الحياة جد واجتهد للنجاة، مما يقلل من ضحك المرء. هذا كما أشار الرسول (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لا يَخْسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلا لِحَيَاتِهِ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَادْعُوا اللَّهَ وَكَبِّرُوا وَصَلُّوا وَتَصَدَّقُوا. يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ وَاللَّهِ مَا مِنْ أَحَدٍ أَغْيَرُ مِنْ اللَّهِ أَنْ يَزْنِيَ عَبْدُهُ أَوْ تَزْنِيَ أَمَتُهُ، يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ وَاللَّهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا"[2]. وجاء أيضًا "لا تُكْثِرُوا الضَّحِكَ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ الْقَلْبَ"[3]. ولكنه بشوشٌ مع إخوته كما أشار أيضًا (صلى الله عليه وسلم) "لا تَحْقِرَنَّ مِنْ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ"[4] (طَلْقٍ أي سمح ومنبسط).

وصادق لأنه لا يكذب أبدًا، ولكن ورع بحيث إنه يُعَرِّض بالكلام ما يدفع الضرر عن نفسه وإخوته من الظَلَمة. ذلك مثل ما فعل سيدنا إبراهيم (عليه الصلاة والسلام) حين قال لزوجته أن تقول عليه أخاها للملك الظالم كي لا يُعتدى عليهما، إذ طمع الملك فيها مما سمعه عنها من الناس. ومقصد سيدنا إبراهيم (عليه السلام) أنه أخوها المُسلم، ففهمها الملك أنها أختٌ له من الآباء، وهذا تعريضٌ بالكلام في الواقع وليس كذبًا.

وإنه مجتهد مخفف، أي يجتهد في طاعة الله، وإذا شعر أن جسده احتاج للراحة خفف عن نفسه. هذا كما علّمنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) عندما دخل على السيدة عائشة (رضي الله عنها) وكان عندها امرأة فقال "مَنْ هَذِهِ؟"، قالت: فُلانَةُ، لا تَنَامُ بِاللَّيْلِ؛ فَذُكِرَ مِنْ صَلاتِهَا، فَقَالَ "مَهْ، عَلَيْكُمْ مَا تُطِيقُونَ مِنْ الأَعْمَالِ، فَإِنَّ اللَّهَ لا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا"[5]. وليس المؤمن بمتكبر على الناس لأن ذلك سيجعله ظالمًا، ولا ذليل لأن ذلك يجعله مستضعفًا مُهانًا في الأرض، فيؤخذ حقَّه ويسحبه المتجبرون إلى الباطل ويمنعوه من إقامة الإسلام والعدل.

كما أن الإسلام جاء ليُعلي من شأن الإنسان عامة. ومن الحقوق التي أكَّد عليها الإسلام ليُحافظ على كيان الإنسان هي كرامته وعزته باله، فمن أراد إهانة قدر مسلمٍ فقد شرَّع الإسلام أن

---

[1] صحيح البخاري 239.

[2] صحيح البخاري 986.

[3] سنن ابن ماجه 4183.

[4] صحيح مسلم 4760.

[5] صحيح البخاري 1083.

يدفع المسلم عن نفسه ذلك. وأمثلة على ذلك فيمن يريد سلب ماله أو الانتقاص من عرضه، كما جاء في حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دِينِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دَمِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ أَهْلِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ"[1]. وحتى من يسب المسلم، فقد ذُمَّ كما قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ"[2].

وإنه عَفُوٌّ إذا ظلمه أحدٌ من إخوته، منتقم إذا انتُهكت محارم الله. وهذا اقتداءٌ بأخلاق الرسول (صلى الله عليه وسلم) التي وصفته به السيدة عائشة (رضي الله عنها) قائلة: مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيْئًا قَطُّ بِيَدِهِ وَلا امْرَأَةً وَلا خَادِمًا، إِلا أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَمَا نِيلَ مِنْهُ شَيْءٌ قَطُّ فَيَنْتَقِمَ مِنْ صَاحِبِهِ إِلا أَنْ يُنْتَهَكَ شَيْءٌ مِنْ مَحَارِمِ اللَّهِ، فَيَنْتَقِمَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ[3].

والمؤمن أيضًا يكون واثقًا من نفسه لأن ذلك يساعد في الإقبال على الأمور وإتمامها، ولكن دون الغرور حيث يظن أنه إذا أقبل على أمر أتمه بمهاراته، فيغفل عن أن إرادة الله نافذة وأنه يعتمد على عون الله. والمؤمن شجاعٌ دون أن يباهي بذلك أمام الناس (إلا في مواضع محدودة مثل محاربة أعداء الإسلام لإرهابهم ورفع معنويات المسلمين)، لأن إخلاص العمل والصدق فيه يكون لله وليس للناس، والتباهي بما عند المرء يُمرض القلب لأن فيه رياء. والرسول (صلى الله عليه وسلم) قد ذمّ التباهي في أكثر من موضع، لأنه يهدم العمل وينقضه كما في قوله عندما جاء رجل يسأل: الرَّجُلُ يُقَاتِلُ حَمِيَّةً وَيُقَاتِلُ شَجَاعَةً وَيُقَاتِلُ رِيَاءً، فَأَيُّ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ قَالَ "مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ"[4]. ذلك وأن الله يكره المختال الفخور كما جاء {وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ} [الحديد 23، جزء من الآية].

ويدل على ذمّ المباهاة والرياء الحديث القدسي "إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لأَنْ يُقَالَ جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ؛ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ. وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ؛ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ. وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ

---

[1] سنن الترمذي 1341.

[2] صحيح البخاري 46.

[3] صحيح مسلم 4296.

[4] صحيح البخاري 6904.

أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ؛ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ"[1].

وأيضًا يُحسن العمل ولكنه يرى أنه أقرب الناس للعذاب (وهذه منزلة عالية من التقوى)، كما وصف الله {وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ} [المؤمنون 60]، وهكذا كان حال الصحابة رضي الله عنهم. والمؤمن يكره السلطة ولكن يكون كُفا لها، لأن السلطة تعني أنه يُحاسب على رَعِيَّتِه استنادًا لقول الرسول (صلى الله عليه وسلم) "كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالإِمَامُ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ فِي أَهْلِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا رَاعِيَةٌ وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ فِي مَالِ سَيِّدِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ" (ويحسب الراوي أنه قال أيضًا) "وَالرَّجُلُ فِي مَالِ أَبِيهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ"[2].

وبيّن (صلى الله عليه وسلم) في حديث آخر "إِنَّكُمْ سَتَحْرِصُونَ عَلَى الإِمَارَةِ، وَسَتَكُونُ نَدَامَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَنِعْمَ الْمُرْضِعَةُ وَبِئْسَتْ الْفَاطِمَةُ"[3] (فَنِعْمَ الْمُرْضِعَةُ وَبِئْسَتْ الْفَاطِمَةُ أي مكسب في الدنيا ولكن معاناة بعد الموت). فما بال حُكَّامًا يتلهفون على السلطة، بل وقد يُضَحّون بأرواح فئات من رعيتهم ظلمًا كي يُحافظوا على سلطانهم ويحتفظوا بنفوذهم، وليتهم وَفّوا حقها.

وكانت الصحابة (رضي الله عنهم) يخافون فتنة السلطة والمحاسبة على رعيتهم يوم القيامة، ولكن إذا حُمّلوا المسؤولية كانوا رجالًا بمقتضى الكلمة، أكِفّاء في ما كُلِّفُوا به لأنهم يتقون الله ويُتقِنون عملهم. ومن أبرز الأمثلة على زهدهم من طلب الإمارة هو ما حدث بعد وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم)، حين جاء عمر بن الخطاب وسعد بن عبادة (رضي الله عنهما) يريدان حسم أمر من يتولى خلافة المسلمين، فتكلم سيدنا سعد حتى انتهى، وبقية الواقعة فيما يرويه لنا سيدنا عمر قائلًا: فَلَمَّا سَكَتَ أَرَدْتُ أَنْ أَتَكَلَّمَ وَكُنْتُ قَدْ زَوَّرْتُ [أي أعددت] مَقَالَةً أَعْجَبَتْنِي أُرِيدُ أَنْ أُقَدِّمَهَا بَيْنَ يَدَيْ أَبِي بَكْرٍ وَكُنْتُ أُدَارِي مِنْهُ بَعْضَ الْحَدِّ، فَلَمَّا أَرَدْتُ أَنْ أَتَكَلَّمَ قَالَ أَبُو بَكْرٍ: عَلَى رِسْلِكَ؛ فَكَرِهْتُ أَنْ أُغْضِبَهُ. فَتَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ فَكَانَ هُوَ أَحْلَمَ مِنِّي وَأَوْقَرَ، وَاللَّهِ مَا تَرَكَ مِنْ كَلِمَةٍ أَعْجَبَتْنِي فِي تَزْوِيرِي إِلا قَالَ فِي بَدِيهَتِهِ مِثْلَهَا أَوْ أَفْضَلَ مِنْهَا حَتَّى سَكَتَ، فَقَالَ: مَا ذَكَرْتُمْ فِيكُمْ مِنْ خَيْرٍ فَأَنْتُمْ لَهُ أَهْلٌ، وَلَنْ يُعْرَفَ هَذَا الأَمْرُ إِلا لِهَذَا الْحَيِّ مِنْ قُرَيْشٍ هُمْ أَوْسَطُ الْعَرَبِ نَسَبًا وَدَارًا، وَقَدْ رَضِيتُ لَكُمْ أَحَدَ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ فَبَايِعُوا أَيَّهُمَا شِئْتُمْ؛ فَأَخَذَ بِيَدِي وَبِيَدِ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ وَهُوَ جَالِسٌ بَيْنَنَا، فَلَمْ أَكْرَهْ مِمَّا قَالَ غَيْرَهَا، كَانَ وَاللَّهِ أَنْ أُقَدَّمَ فَتُضْرَبَ عُنُقِي لا يُقَرِّبُنِي ذَلِكَ مِنْ إِثْمٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَتَأَمَّرَ عَلَى قَوْمٍ فِيهِمْ أَبُو بَكْرٍ،

---

[1] صحيح مسلم 3527.

[2] صحيح البخاري 2232.

[3] صحيح البخاري 6615.

اللَّهُمَّ إلا أَنْ تُسَوِّلَ إِلَيَّ نَفْسِي عِنْدَ الْمَوْتِ شَيْئًا لا أَجِدُهُ الآنَ[1] (ولمعرفة الواقعة كاملًا يُرجى مراجعة المصدر).

فقد كرها عمر وسعد (رضي الله عنهما) أن يتوليا خلافة المسلمين وأبو بكر الصديق (رضي الله عنه) بينهما، لِما رأيا من فضل سيدنا أبو بكر أنه ثاني اثنين في الغار وأنه هو الذي قدَّمه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على الناس في الصلاة عندما تعب. وفي القصة نستوضح أن أيضًا أبا بكر الصديق (رضي الله عنه) لم يرِد الخلافة إذ إنه رشَّح عمر وأبا عبيدة الجرَّاح للخلافة. وكانت هناك واقعة أخرى مُعبِّرة ومُلهِمةً من سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) عندما وُلِّيَ خلافة المسلمين (وهو لم يرد ذلك) وأراد أن يولي سيدنا سعيد بن عامر (رضي الله عنه) على مدينة من المدن فقال: إِنِّي مُسْتَعْمِلُكَ عَلَى أَرْضِ كَذَا وَكَذَا، فَقَالَ: لا تَفْتِنِّي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ: وَاللَّهِ لا أَدَعُكَ، قَلَّدْتُمُوهَا فِي عُنُقِي وَتَتْرُكُونَنِي؟![2] (أي قيدتموني بحمل الخلافة ثم تتهربون من معاونتي؟).

والمؤمن دائم المحاسبة لنفسه ولا ينشغل بمحاسبة الناس، ينصح لهم بلطفٍ ولكن لا يحكم عليهم بالنجاة أو الهلاك لأنه لا يعلم سرائرهم وأعمالهم الخفية، ولا يعلم الغيب. بل إن المؤمن أشد محاسبة لنفسه ومعاقبتها مما هو مع الناس، وقد أجمل ميمون بن مهران بقوله: لا يكون العبد تقيًّا حتى يكون لنفسه أشد محاسبة من الشريك لشريكه، ولهذا قيل: النفس كالشريك الخوَّان، إن لم تحاسبه ذهب بمالك[3].

كما أن الحكم على الناس قد يجعله يستعظم نفسه فيتكبر. وفوق ذلك كله أن ليس له أن يحكم على الناس (إلا الذي يجهر بالمعاصي أو الكفر كلامًا أو فعلًا، فإنه يُصنِّفه ليحترس منه ويواجه أضراره على الإسلام والمسلمين، وليُحذِّر الناس منه)، إنما ذلك لله وحده. ومثال على ذلك، كان هناك صحابي يشرب الخمر ولكنه يُحب الله ورسوله، ويُحب المجاهدة في سبيل الله فيلتحق بالرسول (صلى الله عليه وسلم) في الغزوات، ثم تاب بعد ذلك، وربما انخدع فيه أُناس كثيرون. وهناك بالطبع من أسلم ثم كفر وقتل من المسلمين، ثم تاب وأسلم ثانية وحسُن إسلامه، ومات على ذلك. وينبغي التنبيه أن هناك فرقًا بين الحكم على صلاح أو فساد المرء وبين الحكم على المرء إذا أصاب حدًّا من حدود الله يستوجب العقوبة.

وقد قال إبراهيم بن أدهم نصيحة غالية وهو يمشي في البصرة واجتمع إليه الناس يسألونه: يَا أبا إسحاق، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ فِي كِتَابِهِ {ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ}، وَنَحْنُ نَدْعُوهُ مُنْذُ دَهْرٍ فَلا يَسْتَجِيبُ لَنَا. فقال إبراهيم: يَا أَهْلَ الْبَصْرَةِ، مَاتَتْ قُلُوبُكُمْ فِي عَشَرَةِ أَشْيَاءَ، أَوَّلُهَا: عَرَفْتُمُ اللَّهَ وَلَمْ تُؤَدُّوا

---

[1] صحيح البخاري 6328.

[2] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء للإمام الحافظ أبي نعيم الأصبهاني 246/1-247.

[3] إغاثة اللهفان لابن القيم 79/1.

حَقَّهُ، وَالثَّانِي: قَرَأْتُمْ كِتَابَ اللَّهِ وَلَمْ تَعْمَلُوا بِهِ، وَالثَّالِثُ: ادَّعَيْتُمْ حُبَّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَرَكْتُمْ سُنَّتَهُ، وَالرَّابِعُ: ادَّعَيْتُمْ عَدَاوَةَ الشَّيْطَانِ وَوَافَقْتُمُوهُ، وَالْخَامِسُ: قُلْتُمْ نُحِبُّ الْجَنَّةَ وَلَمْ تَعْمَلُوا لَهَا، وَالسَّادِسُ: قُلْتُمْ نَخَافُ النَّارَ وَرَهَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِهَا، وَالسَّابِعُ: قُلْتُمْ إِنَّ الْمَوْتَ حَقٌّ وَلَمْ تَسْتَعِدُّوا لَهُ، وَالثَّامِنُ: اشْتَغَلْتُمْ بِعُيُوبِ إِخْوَانِكُمْ وَنَبَذْتُمْ عُيُوبَكُمْ، وَالتَّاسِعُ: أَكَلْتُمْ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ وَلَمْ تَشْكُرُوهَا، وَالْعَاشِرُ: دَفَنْتُمْ مَوْتَاكُمْ وَلَمْ تَعْتَبِرُوا بِهِمْ[1].

وما أردت التركيز عليه لهذا الموضوع أنه قال: اشْتَغَلْتُمْ بِعُيُوبِ إِخْوَانِكُمْ وَنَبَذْتُمْ عُيُوبَكُمْ. وقال أيضًا من أسباب الورع: والاشتغال عن عيوب الناس بذنبك. البحث عن عيوب الناس وانتقادهن يورث الكبر والغرور لأن المرء حينئذ يرى أنه أفضل منهم، بل وقد يرى أنه يتفضل عليهم بأنه يُقيم الدين بالنيابة عنهم مثلًا. والنتيجة هي أنه سيتعالى عليهم في سلوكه، ويريد محاججتهم أمام الله على أفعالهم بينما يتغافل عما اقترفه هو من ذنوب وأنه سيُحاسب على ذلك، وأنهم سيحاجونه أيضًا لحقوقهم عليه (مثل إبلاغهم بما عرفه من الحق والباطل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر). وفي أثر مقطوع، قد حذَّر سيدنا عيسى (عليه السلام) من هذا المَسلك قائلًا: وَلَا تَنْظُرُوا فِي ذُنُوبِ النَّاسِ كَأَنَّكُمْ أَرْبَابٌ، وَانْظُرُوا فِي ذُنُوبِكُمْ كَأَنَّكُمْ عَبِيدٌ، فَإِنَّمَا النَّاسُ مُبْتَلًى وَمُعَافًى، فَارْحَمُوا أَهْلَ الْبَلَاءِ وَاحْمَدُوا اللَّهَ عَلَى الْعَافِيَةِ[2].

بل وقد يتمادى فيحكم عليهم كأن يقول: لا يمكن أن يغفر الله لفلان بسبب قبح أعماله، وحينئذ يكون قد افترى على الله فيما ليس له. وهنا أوعظنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) من بلوغ تلك المرحلة، وهي تحديد ما سيحكم به الله على العاصي، مهما بلغ عمل المُفسد، فروى لنا سيدنا جُنْدَبٍ (رضي الله عنه) أن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم حَدَّث أن رجلًا قال: وَاللَّهِ لا يَغْفِرُ اللَّهُ لِفُلانٍ؛ وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لا أَغْفِرَ لِفُلانٍ؟ فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِفُلانٍ وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ (أَوْ كَمَا قَالَ صلى الله عليه وسلم. يَتَأَلَّى أي يَحلِف)[3]. فليس للعبد أن يُملي ما سيفعله رب العباد، وما يشبه ذلك بأن يحكم على عبد آخر أنه من أصحاب الجنة أو أصحاب النار، إذ إن الجنة والنار ملك لله يُدخل من يشاء في كل منهما، فقد يَقلب الله حال عبدٍ قبل موته مباشرة فيتحول عن مصيره الذي توقعه الناس.

فليحذر المسلم من مثل هذه الصفة: ازدراء العاصي وتعظيم النفس مقارنة بهم. إن العبد لا يدري ما الذي ابتلى الله هذا العاصي به، وعصيانه لله وحده ابتلاء، فإذا سَخِر أو شمت أو احتقر العبد هذا العاصي، قد يُبدِّل الله أحوالهم فيتوب العاصي ويُصبح تقيًّا، بينما العبد المتعالى يُفتتن

---

[1] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء للإمام الحافظ أبي نعيم الأصبهاني 8/15-16.

[2] موطأ مالك، باب: ما يُكره من الكلام بغير ذكر الله. الحديث مقطوع.

[3] صحيح مسلم 4753.

فيُصبح من أهل الفسوق، وهذا على الله يسير. وهذا وارد الحدوث أكثر إذا عبَّر الشخص المُتعالي بهذه المشاعر المُسيئة، فقد قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "لَا تُظْهِرْ الشَّمَاتَةَ لِأَخِيكَ فَيَرْحَمَهُ اللَّهُ وَيَبْتَلِيكَ"[1]، وأكثر وأكثر إن كان الذنب قد تاب المُذنب منه (صلى الله عليه وسلم) "مَنْ عَيَّرَ أَخَاهُ بِذَنْبٍ، لَمْ يَمُتْ حَتَّى يَعْمَلَهُ"[2] (قال الإمام أحمد أي على ذنب قد تاب منه).

الذي ينبغي للمؤمن عندما يرى العاصي هو أن يوعظه بالحسنى والرفق، خاصةً أن العاصي قد لا يعلم أن ما يفعله هو معصية، وأن يُشفق على وضع العاصي ويتألم أن أخاه واقعٌ في مأزق. ثم لا ينبغي أن يدعو عليه أو أن يلعنه، بل أن يدعو له بالهداية والنجاة مما هو فيه، إذ إن هذه سُنَّة الرسول (صلى الله عليه وسلم) إذ بُعث رحمة ولم يُبعث لَعَّانًا للعالمين، وليحمد المرء ربه أنه وقاه من ذلك الابتلاء، وليسأل الله الوقاية وليعتصم به من أن يكن من أهل تلك المعصية، مع اعتزال العُصاة عامةً.

قد قال ابن القيم (رحمه الله): ومن علامات الإنابة: ترك الاستهانة بأهل الغفلة، والخوف عليهم، مع فتحك باب الرجاء لنفسك، فترجو لنفسك الرحمة، وتخشى على أهل الغفلة النقمة؛ ولكن ارجُ لهم الرحمة، واخش على نفسك النقمة. فإن كنت لا بد مستهينًا بهم ماقتًا لهم لانكشاف أحوالهم لك، ورؤية ما هم عليه، فكن لنفسك أشد مقتًا منك لهم، وكن أرجى لهم لرحمة الله منك لنفسك[3].

يُضاف لذلك أن النظر إلى عيوب الناس عادة ما يكون مقرونٌ بمعيبة الزمان، أي أن هذا الزمن فيه كذا وكذا. وهي طريقة للتهرب من محاسبة النفس ولومها على تقصيرها وما ترتكبه من آثام إلى إلقاء اللوم على ما يفرضه الزمن، وكأن المرء ليس بيده حيلة إلا مجاراة الزمن وأنه ليس طرفًا من أعراض هذا الزمن الذي هو مُحّصِّلة أعمال عامة الناس. وقد ذم رجل هذا الفعل قائلًا:

نعيب زماننا والعيب فينا

وما لزماننا عيب سوانا

ونهجو ذا الزمان بغير ذنب

ولو نطق الزمان بنا هجانا

وليس الذئب يأكل لحم ذئب

---

[1] سنن الترمذي 2430.

[2] سنن الترمذي 2429.

[3] مدارج السالكين لابن القيم 438/1.

ويأكل بعضنا بعضًا عيانا[1]

والمصيبة الأكبر لو سب المرء الدهر (أي الزمن)، إذ إن الله هو الذي يُجري الدهر ويُقدِّر الأحداث ويقضي ما يشاء. هذا ما نبأنا به الرسول (صلى الله عليه وسلم) قائلًا "لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ، فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ"[2]، وتم توضيح المعنى في حديثٍ آخر "قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ؛ يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِي الْأَمْرُ، أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ"[3].

والمؤمن حَيِيٌّ جريء، فالحياء كله خير كما نبأنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) "الْحَيَاءُ لا يَأْتِي إِلّا بِخَيْرٍ"[4]، وفي رواية أخرى "الْحَيَاءُ خَيْرٌ كُلُّهُ"[5]، وأثنى عليه قائلًا "لَيْسَ الْمِسْكِينُ الَّذِي تَرُدُّهُ الْأُكْلَةَ وَالْأُكْلَتَانِ، وَلَكِنْ الْمِسْكِينُ الَّذِي لَيْسَ لَهُ غِنًى، وَيَسْتَحْيِي أَوْ لَا يَسْأَلُ النَّاسَ إِلْحَافًا"[6]. وقد وصف سيدنا أبو سعيد الْخُدْرِيّ (رضي الله عنه) الرسول (صلى الله عليه وسلم) قائلًا: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَشَدَّ حَيَاءً مِنْ الْعَذْرَاءِ فِي خِدْرِهَا، فَإِذَا رَأَى شَيْئًا يَكْرَهُهُ عَرَفْنَاهُ فِي وَجْهِهِ[7] (الْعَذْرَاءِ هي البِكر؛ خِدْرِهَا أي مكان خلوتها).

فيستحيي العبد من الله، ويشمل هذا عن معصيته تعالى، ويستحيي من الناس ومن أخذ مما في أيديهم. ومن أشد الناس حياء هو سيدنا عثمان بن عفان (رضي الله عنه)، فكان يستحيي لدرجة أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) والملائكة كانوا يستحييون منه. وذلك كما ذكرته أمُّنا السيدة عائشة (رضي الله عنها) قائلةً: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُضْطَجِعًا فِي بَيْتِي كَاشِفًا عَنْ فَخِذَيْهِ أَوْ سَاقَيْهِ، فَاسْتَأْذَنَ أَبُو بَكْرٍ فَأَذِنَ لَهُ وَهُوَ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ، فَتَحَدَّثَ، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عُمَرُ فَأَذِنَ لَهُ وَهُوَ كَذَلِكَ، فَتَحَدَّثَ، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عُثْمَانُ فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَسَوَّى ثِيَابَهُ، فَدَخَلَ فَتَحَدَّثَ، فَلَمَّا خَرَجَ قَالَتْ عَائِشَةُ: دَخَلَ أَبُو بَكْرٍ فَلَمْ تَهْتَشَّ لَهُ وَلَمْ تُبَالِهِ، ثُمَّ دَخَلَ عُمَرُ فَلَمْ تَهْتَشَّ لَهُ وَلَمْ تُبَالِهِ، ثُمَّ دَخَلَ عُثْمَانُ فَجَلَسْتَ وَسَوَّيْتَ ثِيَابَكَ؟ فَقَالَ "أَلا أَسْتَحِي مِنْ رَجُلٍ تَسْتَحِي مِنْهُ الْمَلائِكَةُ؟"[8].

---

[1] هذه الأبيات ينسبها بعض الأدباء للشافعي، فقد نسبها له القفطي في كتابه (المحمدون من الشعراء) وابن قتيبة في (عيون الأخبار)، وبعضهم ينسبها لمحمد بن محمد بن جعفر بن لنكك، فقد نسبها له الصفدي في كتابه (الوافي بالوفيات)، والزركلي في (الأعلام)، وياقوت الحموي في (معجم الأدباء)، والله أعلم.

[2] صحيح مسلم 4169.

[3] صحيح البخاري 4452.

[4] صحيح البخاري 5652.

[5] مسند أحمد 18977.

[6] صحيح البخاري 1382.

[7] صحيح البخاري 5637.

[8] صحيح مسلم 4414.

وبالرغم من استحباب وجود صفة الحياء عند المؤمن، فإن الحياء لا يجب أن يمنعه عن طلب العلم، فكما قال مُجَاهِد: لا يَتَعَلَّمُ الْعِلْمَ مُسْتَحْيٍ وَلا مُسْتَكْبِرٌ؛ وقالت السيدة عائشة (رضي الله عنها): نِعْمَ النِّسَاءُ نِسَاءُ الأَنْصَارِ، لَمْ يَمْنَعْهُنَّ الْحَيَاءُ أَنْ يَتَفَقَّهْنَ فِي الدِّينِ[1]. ولا يجب أن يمنعه الحياء من السؤال عن الحق أو قول كلمة الحق، بل وجب آنذاك الجرأة كما دل الحديث عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "أَلا لا يَمْنَعَنَّ رَجُلا مَهَابَةُ النَّاسِ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِالْحَقِّ إِذَا عَلِمَهُ، أَلا إِنَّ أَفْضَلَ الْجِهَادِ كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ"[2]. فليس يمنعه الحياء مثلًا من أن أمامه السلطان، أو توقيره لعُمرِه، أو مخافة أن يخسر وِدّ السلطان وقربته منه، في أن يواجهه بالحق.

بل إن تعظيم السلطان، أو غيره، في أثناء معصية الله إلى حد عدم إرشاده إلى ما هو الحق، هو باطلٌ شديد وفتنة كبيرة واشتراك في المعصية، وقد تبلغ مرتبة الخيانة، إذ إن العبد بمنزلة المُقِرّ لفعل السلطان والداعم له، وهذا يتسبب في فسادٍ كبير. وتعظيم أي شخص لدرجة الخوف منه بالرغم من أنه عاصٍ لله هو من مكايد الشيطان بالمؤمن وأسلوب له في نشر الفساد في الأرض رغم وجود المؤمنين. قال ابن القيم (رحمه الله): ومن كيد عدو الله أنه يخوف المؤمنين من جُنده وأوليائه، فلا يُجاهدونهم، ولا يأمرونهم بالمعروف، ولا ينهونهم عن المنكر؛ وهذا من أعظم كيده بأهل الإيمان.

وقد أخبرنا الله سبحانه عنه بهذا، فقال {إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [آل عمران 175]. المعنى عند جميع المفسرين: يُخوفكم بأوليائه، قال قتادة: يُعظِّمهم في صدوركم. ولهذا قال {فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}، فكلما قوي إيمان العبد زال من قلبه خوف أولياء الشيطان، وكلما ضعف إيمانه قوي خوفه منهم[3] (انتهى).

ينبغي أن يكون المؤمن جريئًا إذا انتُهكت حُرمات الله أو ظَهَرَ ظالمٌ يحتاج إلى الردع. آنذاك ينطق كلمة الحق، أو حتى يبادر بيديه ليوقف المنكر إن كان يستطيع هذا. وإن الله لا يستحيي من الحق، كما قال {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ} [الأحزاب 53، جزء من الآية]. إنما استحيى النبي (صلى الله عليه وسلم) لأنه هو الذي كان صاحب الحق، فكان تحمُّل ذلك منهم والعفو عنهم أهون عليه من مصارحتهم بهذا، ولكن بعد نزول كلام الله في المسألة فلا مجال لكتمانها.

ويجمع المؤمن بين الرفق في المعاملات ولكن مع الحزم في تطبيق العقوبات إذا ثبت خرق حدود الله، قد قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ الرِّفْقَ لا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إلا زَانَهُ، وَلا يُنْزَعُ مِنْ

---

[1] صحيح البخاري، باب: الحياء في العلم.

[2] مسند أحمد 10716، جزء من الحديث. ضعفه الأرناؤوط.

[3] إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان لابن القيم 193/1.

شَيْءٍ إلا شَانَهُ"[1] (زَانَهُ أي زيَّنه وحسَّنه؛ شَانَهُ أي قَبَّحه وعيَّبه). ومع ذلك، فإن رفقه (صلى الله عليه وسلم) لم يمنعه من تطبيق عقوبة قطع يد المرأة المخزومية التي سرقت، بالرغم من شفاعة أسامة بن زيد (وهو ابن سيدنا زيد الذي كَفَلَه الرسول صلى الله عليه وسلم وذُكر اسمه في القرآن، وأحبهما الاثنان حُبًّا جمًّا رضي الله عنهما). فكان حازمًا في تطبيق حدود الله، لا يقبل شفاعة الناس إذا تَبيَّنت الجناية، لأن تعطيل العقوبات يؤدي إلى فساد المجتمع. ومع هذا، كان (صلى الله عليه وسلم) رفيقًا في أثناء تطبيق الحدود أيضًا، فقد عاتب الصحابة عندما طاردوا رجلًا –قد اعترف على نفسه بالزنا– بعدما فرّ في أثناء رَجمِه وقارب الموت، قائلًا لهم "هَلَّا تَرَكْتُمُوهُ؟"[2]؛ ونهى الصحابة عن سبّ امرأة في أثناء إقامة حد الرجم عليها قد اعترفت بالزنا، ثم صلَّى عليها بعد وفاتها[3].

ويتَّسم المسلم بحسن المظهر (ولكن دون المبالغة في اهتمامه بمظهره)، إضافةً إلى هِمَّته في إصلاح قلبه وعمله. فيجب ألا يُهمل في جعل لبسه حسنًا ونظيفًا، ويُفضَّل التطيب بالعطر، ودل على ذلك ما قاله الرسول (صلى الله عليه وسلم) "لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ"، فَقَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً، قَالَ (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ"[4].

وحث الرسول (صلى الله عليه وسلم) المسلم على عدم ظهوره في هيئة سيئة، فقد جاء عن جَابِر بن عبد الله (رضي الله عنه) أنه قال: أَتَانَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَرَأَى رَجُلًا شَعِثًا قَدْ تَفَرَّقَ شَعْرُهُ، فَقَالَ "أَمَا كَانَ يَجِدُ هَذَا مَا يُسَكِّنُ بِهِ شَعْرَهُ"، وَرَأَى رَجُلًا آخَرَ وَعَلَيْهِ ثِيَابٌ وَسِخَةٌ فَقَالَ "أَمَا كَانَ هَذَا يَجِدُ مَاءً يَغْسِلُ بِهِ ثَوْبَهُ"[5]. شَعِثًا أي مغبر الشعر وغير ممشط، وفي رواية النسائي جاء بلفظ "ثَائِرَ الرَّأْسِ"؛ يُسَكِّنُ بِهِ شَعْرَهُ أي يجمعه ويُهذِّبه.

وعلى الصعيد الآخر، ذم الرسول (صلى الله عليه وسلم) عن الهوس في اهتمام المرء بمظهره، كما جاء عن صحابي: نَهَانَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَمْتَشِطَ أَحَدُنَا كُلَّ يَوْمٍ[6]. وذم أيضا المغالاة في اللباس كما ذكرنا سابقًا عنه (صلى الله عليه وسلم) في ترك صالح الثياب، أي أغلاها وأكثرها لفتًا للأنظار. وبقوله أيضًا "مَنْ لَبِسَ ثَوْبَ شُهْرَةٍ أَلْبَسَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَوْبَ مَذَلَّةٍ"[7] (ثَوْبَ شُهْرَةٍ هو ما يبلغ أن يجعل الناس تُشير إليه بأصابعهم أو يلتفتوا له، سواء كان تفاخرًا بإظهار

---

[1] صحيح مسلم 4698.

[2] صحيح البخاري 1348.

[3] صحيح مسلم 3208.

[4] صحيح مسلم 131.

[5] سنن أبي داود 3540.

[6] سنن النسائي 4968.

[7] سنن ابن ماجه 3596.

الثراء باللبس الرفيع أو رياءً بإظهار الزهد باللبس الرديء الرث، وثوب الشهرة يختلف بين مجتمعٍ وآخر).

كما أنه (صلى الله عليه وسلم) ذم الكبر والتفاخر والعُجب في اللباس، خاصةً إسبال الثوب، وهو تجاوز الثوب لكعب القدم. قد قال "مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خُيَلاءَ لَمْ يَنْظُرْ اللَّهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ" قال أبو بكر (رضي الله عنه): يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ أَحَدَ شِقَّيْ إِزَارِي يَسْتَرْخِي إِلا أَنْ أَتَعَاهَدَ ذَلِكَ مِنْهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "لَسْتَ مِمَّنْ يَصْنَعُهُ خُيَلاءَ"[1] (جَرَّ ثَوْبَهُ أي أطال ثوبه حتى يجُرَّه على الأرض، وكانوا يفعلون ذلك لإظهار الغنى افتخارًا؛ خُيَلاءَ هو التفاخر والتكبر؛ أَحَدَ شِقَّيْ إِزَارِي يَسْتَرْخِي إِلا أَنْ أَتَعَاهَدَ ذَلِكَ مِنْهُ أي أن أحد جنبي إزاره يسقط بسبب نحافة سيدنا أبي بكرٍ رضي الله عنه، ولكنه كان يتعهده أي يشُدَّه ويرفعه باستمرار).

وذم التفاخر مُشارٌ إليه بصفة عامة في عظة سيدنا لقمان لابنه {وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (18) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ} [لقمان 18-19]. فالمؤمن يُحسن مظهره ولكن دون تكبرٍ ولا تفاخرٍ ولا تباهٍ.

يُضاف أيضًا أن المؤمن مُخالطً معتزلً، أي أنه يُخالط المؤمنين والأتقياء، وحتى العصاة أحيانا كي يُلطِّف قلوبهم للتقوى ويدعوهم إلى الله، ويعتزل الناس في أوقات أخرى. هناك أدلة على أن الجماعة والاختلاط بالناس خيرٌ للمرء من العزلة. هذه هي الحقيقة حتى لو كثر الفساد والفتن في المجتمع، ولكن في هذه الحالة يتجنب أذاهم والخوض في الفساد معهم، إلا إذا أدرك ضعف نفسه بأنه يظن أنه سيُفتتن فيصبح مثلهم، أو أنه لا يستطيع إنكار المنكر عليهم، وهذا هو الحال في آخر الزمان خاصةً فالعُزلة أفضل من مخالطة الناس حينئذ.

وبالطبع تُستثنى، عند مُخالطة الناس، الأماكن التي تكون مقصدًا للعصاة مثل الخَمَّارات ومسارح المعازف، وربما حتى الأماكن العادية (مثل مطعم) ولكن يكثر فيهن المعاصي، فتلك لا يجوز أن يوجد فيها التقي. قد قال داود الطائي: انظر أن لا يراك الله حيث نهاك، وأن لا يفقدك حيث أمرك، واستح في قربه منك وقدرته عليك[2]. وأيضًا ليجتهد في تجنب الأماكن العامة في الأوقات التي يكثر فيهن العصاة، مثل قُبيل رأس العام الميلادي ليحتفلوا.

وفي هذا كله مجاهدة، وهي مجاهدة النفس على الصبر وعن الفساد، خصوصًا مع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ومن الأدلة على هذا هو حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم)

---

[1] صحيح البخاري 5338.

[2] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء للإمام الحافظ أبي نعيم الأصبهاني 358.

"الْمُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ أَعْظَمُ أَجْرًا مِنْ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لا يُخَالِطُ النَّاسَ وَلا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ"[1].

أما إذا ظهرت الفتن المهلكة التي لا يُميز المرء فيهن بين الحق والباطل، أو يُميَّز الباطل ولكنه يخشى على نفسه ألا يستطيع مدافعته، فحينئذ تُفَضَّل العزلة. دل على هذا رد الرسول (صلى الله عليه وسلم) عندما سأله سيدنا عُقبَة بن عامر (رضي الله عنه): يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا النَّجَاةُ؟ قَالَ "أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ، وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ"[2] (وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ أي يكفيك بالمكث فيه، خاصة عند الفتن). والعُزلة حتى في أوقات الضرورة لا تجوز أن تكون تامة دائمة، بل تكون نسبية، أي لا يزال يلزم الأمور الجماعية مثل صلاة الجماعة والجهاد ومجالس الذكر وحضور الجنائز وما شابه.

وتُستحب العزلة لمن يرى أنه أكثر تعبدًا وصفاءً مع الله في تلك الحالة، مثل عند ذكر الله حتى لا يُقاطعه الناس، وعند قيام الليل خوفًا من الرياء أو عدم الخشوع. وأفضل خلاصة قالها العلماء عن المخالطة والعزلة: إنها تختلف باختلاف الأشخاص والأحوال والأزمان.

مثال آخر هو أن المؤمن متمكن بإعداد القوة ولكن عادل وعفو. قد أمرنا تعالى بالاستقواء عامة كما دلت الآية {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ} [الأنفال 60]. ذلك لأن القوة تُرهب أعداء الله من التجرؤ على مهاجمة دين الله أو المسلمين، وتردع الظالمين، لأن هناك أناس لا يلتفتون للحق، فلا يحترمون ولا يعملون حسابًا إلا للقوة.

لكن على الجهة الأخرى، أوصانا تعالى أن نتحلى بالعفو (ولكن ليس مع من يستغل العفو)، وأمرنا بالعدل، مع امتلاكنا للقوة والتمكين في الأرض. هذا حتى إن كنا ظُلِمنا، وإلا لأصبحت مبادئنا وأخلاقنا مثل الذين لا يؤمنون بالله. قال تعالى في العفو {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [التغابن 14] (أي احذروا مِن أزواجكم وأولادكم مَن يصدكم عن الإيمان بالله وتقواه). وأوجب علينا الله إقامة الحق والعدل تحت كل الظروف {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [النساء 8] (وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أي لا يحملنَّكم بغضكم لقومٍ بسبب إجرامهم عليكم على ألا تعدلوا معهم).

---

[1] سنن ابن ماجه 4022.

[2] سنن الترمذي 2330.

وفي واقعة عملية تُظهر لنا تحقيق امتلاك القوة مع سعة العفو، وفوائد هذا النهج، نتأسى منها برسول الله (صلى الله عليه وسلم)، هي واقعة للصحابي ثُمامة (رضي الله عنه) قبل إسلامه. كان ثمامة يرأس قبيلة، وكان يُهاجم المسلمين فيقتل منهم، حتى أسرته سرية من سرايا الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأتوا به إليه مُقيّدًا، فما كان إلا أن عفا عنه الرسول (صلى الله عليه وسلم) بعد ثلاثة أيام، فأسلم ثُمامة لذلك.

المؤمن يكون طماعًا زاهدًا أيضًا، يطمع في نيل أكبر قدر من الحسنات مع تفادي المعاصي ليحصل على أفضل المنازل وأكثر عدد ممكن من المكافآت في الآخرة، بينما يزهد عن الدنيا كما ناقشنا سابقًا. المنهج الإسلامي يحث المُسلم على السعي والتنافس وراء جمع الحسنات –الذي يكون بإرضاء الله بأكبر قدر–، فقد قال تعالى {سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاء وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} [الحديد 21]. وقد حث الرسول (صلى الله عليه وسلم) على المُسابقة لنيل أكبر أجر ممكن، فمثلًا رغَّبنا للحاق الصف الأول عند الصلاة. وثبت عن الصحابة طمعهم في المنازل العُلى والكرامات في الآخرة، فقد سأل سيدنا أبو بكرٍ (رضي الله عنه) رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في أثناء الكلام عن أبواب الجنة الثمانية: فَهَلْ يُدْعَى أَحَدٌ مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ كُلِّهَا؟ قال (صلى الله عليه وسلم) "نَعَمْ، وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ"[1].

والخلاصة أن الإلمام بمثل تلك الصفات المتعاكسة هو من صميم استيعاب الإيمان وتطبيقه. هذا لأن المؤمن الحق يُشكِّل رغباته وطباعه طبقًا لما يمليه الشرع، كما أشار الرسول (صلى الله عليه وسلم) "لا يُؤْمِن أَحَدكُمْ حَتَّى يَكُون هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْت بِهِ"[2] (لا يُؤْمِن أَحَدكُمْ بمعنى أنه لا يبلغ كمال الإيمان). ولكن ليس هناك من يُنكر أن تهذيب النفس والطباع كي توافق الشرع أمرٌ سهل، بل قد يستغرق سنين، ولكن الخوض في ذلك سِمة المؤمن، فبادر دون تأجيل يا أخي ولنتوكل على الله، فإن أتممنا فبفضل الله، وإن لم نبلغ فنرجو من الله أن يثيبنا على نياتِنا ومحاولاتنا.

استقبال النصائح والمواعظ بسعة صدر، وتطبيقها بعد التحقق منها، مع الاستجابة للتذكرة. قال الله عز وجل {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ} [ق 37]. جاءت هذه الآية

---

[1] صحيح البخاري 1764.

[2] الأربعون النووية للنووي 41، وقال: حسنٌ صحيح. وذكره العسقلاني في فتح الباري بشرح صحيح البخاري 302/13، وقال عنه: أَخْرَجَهُ الْحَسَن بْن سُفْيَان وَغَيْره وَرِجَاله ثِقَات. ولكن ضعَّفه الألباني في تخريج مشكاة المصابيح 166، وضعَّفه ابن عثيمين في مجموع فتاوى ابن عثيمين 16/91. قال ابن باز في شرح كتاب التوحيد 264: ضعَّف بعض العلماء هذا الحديث ولكن معناه صحيح.

لتحث الناس على الخضوع لأمر الله ولنُصحه لنا، ومع أن الآية جاءت في سورة "ق" خاصة فإنها تنطبق على كل ما جاء في القرآن من وعائظ. وكما جاء في آية أُخرى {وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ} [الذاريات 55]، فإن التذكرة بالمغزى من الحياة (أنها اختبار وليس للهو) وثواب الله وعقابه وتحذيرنا من الوقوع في مكايد الشيطان أو هوى النفس يُحدث تأثيرًا إيجابيًّا عند المؤمن. أي أن التذكرة فيها صلاح عام للفرد، ويؤثر في النفس التي أخضع صاحبها إياها للحق وانقادت له، نرجو الله أن نكون منهم، ولا نكون من الذين يعبدون الله مع فسادٍ في النية، فإنه لا يُؤمَن عاقبة هؤلاء. ويجب ملاحظة أن في الآية يُشار إلى أن الذي يستجيب للذكرى هو الذي له قلب، أي أن الاستجابة للتذكرة مؤشر على حياة القلب بالمعنى الروحي.

بعد قول ذلك، إني أُذكّر نفسي وإياكم بتقوى الله، فليس هناك معصية متعتها تستحق جلب سخط الله، ولا لذة مُحرمة تساوي لذة مثيلتها في الجنة. والإعراض عن إصلاح العمل بعد التذكير يجعل القلب يقسو وربما لا يقبل الموعظة في المستقبل، وإذا تكرر ذلك منه قد يُختِم الله على قلبه، فالأفضل إصلاح عمل المرء ولو بمعدلٍ طفيفٍ مُنتظم. إن العيش في تمسك بالدين كِفاحٌ مستمر، فالمرء بطبعه يعلو وينخفض إيمانه بحسب اختياراته في أفعاله، وبحسب ما يتعرض له من أحداث حوله أو له. ولو كان الإيمان درجة يبلغها المرء ثم يثبت عليها فيستريح بعدها لَما كان هناك مغزى لمن يبلغ أعلى مرحلة إيمانه أن يتركه الله يستمر في الحياة، لأنه لن ينحدر، ولكن الحياة اختبار مستمر. ولو كان الإيمان مرحلة تُبلغ ثم يستريح المرء لما رأينا من هو تقي ثم يسوء عمله في تقدم عُمره، ولكن هذا يحدث عندما تُترك النفس تسرح.

فاصبر عن المعصية حتى تلقى إخوانك الذين تألفهم وتحب أن تُحشر معهم يوم القيامة، إذ إنهم قد صبروا مثلك (من الذين تعرفهم والذين لا تعرفهم)، ولا يعرف الناس مدى معاناة القبض على الدين إلا أنت وهم لأنكم نَفَّذْتُم وعايشتموها. وإنك تصبر أيضًا لكيلا تُحشر مع الذين أسرفوا في معصية الله والكفار فيكونوا حولك، أنت معهم وهم معك مع أنك لست منهم ولا هم منك. وثق أن ذلك شعورٌ كريهٌ، وهو يُشبه موقف كعب بن مالك (رضي الله عنه) عندما تخلف عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عند غزوةٍ لأنه لم يتأهب للخروخ كسائر الناس، فلما نظر إلى من بقي من المسلمين في المدينة الذين تخلَّفوا عن القتال روى قائلًا: فَكُنْتُ إِذَا خَرَجْتُ فِي النَّاسِ بَعْدَ خُرُوجِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَطُفْتُ فِيهِمْ، أَحْزَنَنِي أَنِّي لا أَرَى إلا رَجُلًا مَغْمُوصًا عَلَيْهِ النِّفَاقُ أَوْ رَجُلًا مِمَّنْ عَذَرَ اللَّهُ مِنْ الضُّعَفَاءِ[1] (مَغْمُوصًا أي مُتهمًا أو مشكوك فيه النفاق).

فمثل هذا الموضع يبين للمرء أن به عِلَّةٌ إذ إنه مُحاطٌ بأصحاب عِلل، وذلك يحزُّ في نفس المسلم الصالح، ولكن بفضل الله تاب الله على سيدنا كعب بن مالك (رضي الله عنه) بعد أن ابتلاه،

[1] ضحيح البخاري 4066.

ونزلت الآية في الثلاثة الذين خُلِّفوا بالتوبة عليهم لأنهم صدقوا مع الرسول (صلى الله عليه وسلم) أن لم يكن لهم عُذرٌ مقبول في التخلف، فنجوا بصدقهم. فأيها القارئ، إن مَثَل أعمالنا ليوم القيامة كمثل الذي يذهب ليطلب المرأة التي يُحبها للزواج، فكيف ترون الانطباع الذي يريد أن ينقله عن نفسه، هل يزين نفسه بمحاسن الأخلاق والمعارف الصالحة أم بمساوئ الأخلاق ورفقاء السوء؟ فتلك حقيقة وضعنا في الدنيا، فما بالنا بمن يتجهز للقاء الله يوم القيامة أن يفعل؟!

إجماليًّا، أنصح نفسي وإياكم بتقبل كلمة الحق ولو جاءت من ظالم أو أهل باطل، فهذا النهج فيه منافع مُتعددة عظيمة للمُسلم، لأنه يهتدي وينتفع بتطبيق الحق وفي نفس الوقت يُرَوِّض النفس على تحمل الأذى والاعتراف بالحق وهي كارهة، ويصبح أكثر ابتعادًا عن المعاصي. هناك واقعة على عهد سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) تُبرز لنا هذا، إذ يروي سيدنا أبو هريرة (رضي الله عنه): وَكَّلَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِحِفْظِ زَكَاةِ رَمَضَانَ، فَأَتَانِي آتٍ فَجَعَلَ يَحْثُو مِنْ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ وَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! قَالَ: إِنِّي مُحْتَاجٌ وَعَلَيَّ عِيَالٌ وَلِي حَاجَةٌ شَدِيدَةٌ؛ فَخَلَّيْتُ عَنْهُ. فَأَصْبَحْتُ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "يَا أَبَا هُرَيْرَةَ مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ؟" قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً وَعِيَالًا فَرَحِمْتُهُ فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ "أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ"، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ سَيَعُودُ لِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّهُ سَيَعُودُ. فَرَصَدْتُهُ فَجَاءَ يَحْثُو مِنْ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ فَقُلْتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! قَالَ: دَعْنِي فَإِنِّي مُحْتَاجٌ وَعَلَيَّ عِيَالٌ، لَا أَعُودُ؛ فَرَحِمْتُهُ فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ. فَأَصْبَحْتُ فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "يَا أَبَا هُرَيْرَةَ مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ؟" قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً وَعِيَالًا فَرَحِمْتُهُ فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ "أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ". فَرَصَدْتُهُ الثَّالِثَةَ فَجَاءَ يَحْثُو مِنْ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ فَقُلْتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ وَهَذَا آخِرُ ثَلَاثِ مَرَّاتٍ أَنَّكَ تَزْعُمُ لَا تَعُودُ ثُمَّ تَعُودُ، قَالَ: دَعْنِي أُعَلِّمْكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِهَا، قُلْتُ: مَا هُوَ؟ قَالَ: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} حَتَّى تَخْتِمَ الْآيَةَ، فَإِنَّكَ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنْ اللَّهِ حَافِظٌ وَلَا يَقْرَبَنَّكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ. فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، فَأَصْبَحْتُ فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ؟" قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ زَعَمَ أَنَّهُ يُعَلِّمُنِي كَلِمَاتٍ يَنْفَعُنِي اللَّهُ بِهَا فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ "مَا هِيَ؟" قُلْتُ: قَالَ لِي إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ مِنْ أَوَّلِهَا حَتَّى تَخْتِمَ الْآيَةَ {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ}، وَقَالَ لِي لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنْ اللَّهِ حَافِظٌ وَلَا يَقْرَبَكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ، –وَكَانُوا (أي الصحابة) أَحْرَصَ شَيْءٍ عَلَى الْخَيْرِ– فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ، تَعْلَمُ مَنْ تُخَاطِبُ مُنْذُ ثَلَاثِ لَيَالٍ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟" قَالَ: لَا، قَالَ "ذَاكَ شَيْطَانٌ"[1].

وليقبل المرء منا الحق حتى لو كان هناك عيب أو تجاوز من قائل كلمة الحق، كأن يكون شخصًا مُتّسخ الثياب أو أسلوب كلامه فيه إهانة، فتجاوَز أو انصحه حول ألا تكون طريقته غليظة

[1] صحيح البخاري، باب: إذا وَكَّل رجلًا فترك الوكيل شيئًا فأجازه المُوَكِّل فهو جائز.

ومُهينة ولكن تقبل مضمون كلامه، فإن كان له حق فاعترف له بذلك وأعطه حقه، كما أوصانا ربُنا {وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا} [النساء 8، جزء من الآية]. وهذا كان خُلُق رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، بل وأحيانًا كان يسخو على من يتجاوز عليه ولكن يقول حق، فقد نقل سيدنا أبو هريرة (رضي الله عنه): أَنَّ رَجُلًا تَقَاضَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَغْلَظَ لَهُ، فَهَمَّ بِهِ أَصْحَابُهُ، فَقَالَ (صلى الله عليه وسلم) "دَعُوهُ، فَإِنَّ لِصَاحِبِ الْحَقِّ مَقَالًا، وَاشْتَرُوا لَهُ بَعِيرًا فَأَعْطُوهُ إِيَّاهُ"، وَقَالُوا: لَا نَجِدُ إِلَّا أَفْضَلَ مِنْ سِنِّهِ، قَالَ "اشْتَرُوهُ فَأَعْطُوهُ إِيَّاهُ، فَإِنَّ خَيْرَكُمْ أَحْسَنُكُمْ قَضَاءً"[1] (تَقَاضَى أي جاء ليُقضى إليه حقه؛ فَهَمَّ بِهِ أَصْحَابُهُ أي أن الصحابة بادروا للتصدي وزجر الرجل؛ سِنِّهِ هو الجَمَلَ في عُمرٍ مُحدد، أي أن الرجل أُعطِيَ أفضل مما كان يحق له).

السيطرة على النفس عند الغضب. إن العبد ليتخذ ضوابط وقيودًا كي يحفظ نفسه، ولكنه يكون أكثر قابلية لتعدي تلك الحدود عند عدة أحوال مثل: الشهوة، الغضب، الغرور، الفرحة المُفرطة. عند الغضب قد يترك الرجل غضبه يسيطر عليه حتى يصبح كالمجنون، يقول ويفعل ما يندم عليه لاحقًا. وعند الشهوة والفرحة المفرطة قد يلين العبد عن مبادئه ويَقبَل على نفسه الدناءة لبلوغ متعته أعلى أو لتفادي مواجهة الباطل وتكدير نشوته. وأما بالغرور يرى العبد أنه ليس عليه عيب أو عقاب في التعدي على الحدود أو الناس. لكن موضوعنا في هذا الفصل تحديدًا هو الغضب.

إن الغضب يظهر عندما يُمَس ما يُهمّ العبد، فينشأ إما لأمر من أمور دنياه وإما لأمر من أمور دينه. غضب العبد لأمور نفسه ودنياه مذموم إذ إن الأمور تقع بقَدَرِ الله، خاصةً أن الانتصار لحقوق النفس لا يستلزم وجود الغضب. هذا والعفو أفضل له ولغيره (إلا إذا كان العفو سيؤدي إلى التعدي على الدين)، كما في الآيات {وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (39) وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} [42 39]. جاء عن سعيد بن المُسَيّب: بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَالِسٌ وَمَعَهُ أَصْحَابُهُ، وَقَعَ رَجُلٌ بِأَبِي بَكْرٍ فَآذَاهُ، فَصَمَتَ عَنْهُ أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ آذَاهُ الثَّانِيَةَ فَصَمَتَ عَنْهُ أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ آذَاهُ الثَّالِثَةَ فَانْتَصَرَ مِنْهُ أَبُو بَكْرٍ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ حِينَ انْتَصَرَ أَبُو بَكْرٍ. فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَوَجَدْتَ عَلَيَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "نَزَلَ مَلَكٌ مِنْ السَّمَاءِ يُكَذِّبُهُ بِمَا قَالَ لَكَ، فَلَمَّا انْتَصَرْتَ وَقَعَ الشَّيْطَانُ، فَلَمْ أَكُنْ لِأَجْلِسَ إِذْ وَقَعَ الشَّيْطَانُ"[2] (وَقَعَ رَجُلٌ بِأَبِي بَكْرٍ أي في عِرضِه، والمعنى أنه سَبَّه؛ فَانْتَصَرَ مِنْهُ أي ردّ عليه؛ أَوَجَدْتَ عَلَيَّ أي أغَضِبت مني؟). هذا مع التوضيح ، وأن الانتقام للنفس قد يُمرض القلب.

---

[1] صحيح البخاري 2415.

[2] سنن أبي داود 4251.

بل وليُحاول المرء منا أن يُحسن إلى من أغضبه، فوق العفو، كما كان نهج الرسول (صلى الله عليه وسلم) وصحابته، مثل ما فعل سيدنا أبو ذر (رضي الله عنه) مع غلامٍ قد كسر رجل شاة له، فقال: من كسر رجل هذه؟ قال: أنا فعلته لأغيظك فتضربني فتأثم، فقال: لأغيظَنَّ من حرَّضك على غيظي [أي الشيطان]، فأعتَقَه[1]. والإحسان مرتبة أرفع من مرتبة العفو أيضًا.

أما الغضب لأمور دينه فهو مطلوب ولكن بضوابط. أي أنه ينبغي للعبد ألا يغضب عامةً، إلا إذا انتُهكت حدود الله، فيغضب لله لِيُقَوِّم الباطل، ولكن حتى عندما يغضب آنذاك يجب أن يُسيطر على غضبه بحيث ألا يَظلِم ولا يُخالف شريعة الله.

فينبغي للعبد أولًا أن يتفادى الغضب وما يتسبب فيه، فقد نهى عنه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عندما جاءه رجل يقول: أَوْصِنِي؛ فقال "لَا تَغْضَبْ"، فَرَدَّدَ مِرَارًا [أي كرر طلبه من الرسول أن يوصيه]، فقال "لَا تَغْضَبْ"[2]. وفي التخلص من الحرص على أمور الدنيا عونًا للعبد على عدم الغضب عندما تُمَسّ أمور دنياه. ولكن لا تزال أحداث الحياة تجعل المرء يغضب لنفسه، فعليه أن يأخذ بكتاب الله الذي يُثني على الكاظمين الغيظ والعافين والمحسنين {الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [آل عمران 134].

وقد حثّ الرسول (صلى الله عليه وسلم) على كظم الغيظ أيضًا. يروي سيدنا أنس بن مالك (رضي الله عنه) أن النبيَّ (صلى الله عليه وسلم) مرَّ بقومٍ يَصطرعونَ فقال "ما هذا؟" قالوا: فلانٌ ما يُصارعُ أحدًا إلا صرعَهُ، قال "أفلا أدلُّكمْ على من هو أشدُّ منه؟ رجلٌ كلمَهُ رجلٌ فكظمَ غيظَهُ، فغلبَهُ وغلبَ شيطانَهُ وغلبَ شيطانَ صاحبِهِ"[3] (يَصطرعونَ أي يتنافسون في القوة). وقد أجمل (صلى الله عليه وسلم) بقوله "لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ"[4] (بِالصُّرَعَةِ أي القوي الذي يغلب الناس بقوته). ولِمن يكظم غيظه له مكافأة فريدة عند الله، ألا وهي ما نبأنا بها الرسول (صلى الله عليه وسلم) "مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْفِذَهُ دَعَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ اللَّهُ مِنْ الْحُورِ الْعِينِ مَا شَاءَ"[5].

أما عن كيفية إخماد المرء لغضبه عندما يُثار، فيُساعده تذكر آيات مثل {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (199) وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (200) إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ} [الأعراف 199-

---

[1] مختصر منهاج القاصدين 183.

[2] صحيح البخاري 5651.

[3] فتح الباري لابن حجر العسقلاني 535/10، قال فيه: إسناده حسن.

[4] صحيح البخاري 5649.

[5] سنن أبي داود 4147.

201]. وهناك آثار على مثل هذه المواقف، فإنه يُروى أن عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنِ طلب من ابن أخيه الحُرّ بن قيس أن يستأذن له ليدخل على سيدنا عمر عندما كان خليفة المسلمين، فلما أُذِن له قال: هِيْ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، فَوَاللَّهِ مَا تُعْطِينَا الْجَزْلَ [أي الكثير] وَلَا تَحْكُمُ بَيْنَنَا بِالْعَدْلِ؛ فَغَضِبَ عُمَرُ حَتَّى هَمَّ أَنْ يُوقِعَ بِهِ، فَقَالَ لَهُ الْحُرُّ بن قَيْس: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ {خُذْ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنْ الْجَاهِلِينَ}، وَإِنَّ هَذَا مِنْ الْجَاهِلِينَ؛ وَاللَّهِ مَا جَاوَزَهَا عُمَرُ حِينَ تَلَاهَا عَلَيْهِ، وَكَانَ وَقَّافًا عِنْدَ كِتَابِ اللَّهِ[1].

وقد علَّمنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) بعض الأمور التي تُصرف الغيظ، مثل عندما اسْتَبَّ رَجُلَانِ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَحَدُهُمَا يَسُبُّ صَاحِبَهُ مُغْضَبًا قَدْ احْمَرَّ وَجْهُهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "إِنِّي لَأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ، لَوْ قَالَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ"، فَقَالُوا لِلرَّجُلِ: أَلَا تَسْمَعُ مَا يَقُولُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَالَ: إِنِّي لَسْتُ بِمَجْنُونٍ[2] (اسْتَبَّ أي تبادلا الألفاظ المُسيئة). ومنها قوله (صلى الله عليه وسلم) "إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ قَائِمٌ فَلْيَجْلِسْ، فَإِنْ ذَهَبَ عَنْهُ الْغَضَبُ وَإِلَّا فَلْيَضْطَجِعْ"[3]. ومنها أيضا "إِنَّ الْغَضَبَ مِنْ الشَّيْطَانِ، وَإِنَّ الشَّيْطَانَ خُلِقَ مِنْ النَّارِ، وَإِنَّمَا تُطْفَأُ النَّارُ بِالْمَاءِ، فَإِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَتَوَضَّأْ[4].

وهناك أمور أخرى قد يفعلها المرء ليُخمد الغضب، مثل تذكر أن غضبه قد يجعله يفعل ما يندم عليه فيضطر إلى الاعتذار، وأن يتذكر أن ما وقع عليه إنما هو بتقدير الله ليبتليه. وهناك بالطبع تذكر الموت، فيهون عند المرء ما أغضبه ومَن أغضبه وعلى ماذا غضب، فيروي الماوِردِي (رحمه الله): كان بعض الملوك إذا غضب أُلقِيَ عنده مفاتيح تُرَبِ [أي مقابر] المُلُوك، فيزول غضبه[5].

الخوف من الله مع الرجاء في رحمته. قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنْ الْعُقُوبَةِ مَا طَمِعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنْ الرَّحْمَةِ مَا قَنَطَ مِنْ جَنَّتِهِ أَحَدٌ"[6]. عندما يقرأ المرء آيات الله عن كيفية مجازاته للصالحين، وعن ما أعد لهم في الآخرة وكيف يُعامَلون في الآخرة، وعندما يُعاين المرء بنفسه الجنة التي فيها ما لا عين رأت ولا خطر على قلب بشر، لغفل

---

[1] صحيح البخاري 4276.

[2] صحيح البخاري 5650.

[3] سنن أبي داود 4151.

[4] سنن أبي داود 4152.

[5] أدب الدنيا والدين 251.

[6] صحيح مسلم 4948.

عن مدى قوة بطش الله وانتقامه وقدرته على التنكيل. والعكس صحيح، فإذا نظر المؤمن إلى الاستفاضة في وصف عذابه بتفاصيل دقيقة في الآيات، تفاصيل لا تخطر على بال أحد من روعها وفظاعتها، وعاين جهنم وما أعده الله لمن أراد أن يعذبه من طرق للقهر والتنكيل، لغفل أن من خلق هذا العذاب عنده الرحمة أوسع من غضبه.

وأمثلة من أشكال عذاب الله، مع ذكره لتفاصيلها المُروِّعة، نراها في آيات مثل قوله تعالى {هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (19) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (20) وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (21) كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ} [الحج 19-22]، مما يُبين لنا مدى بؤس المُعذَّب وغرقه في أطياف متنوعة من العذاب الشديد. وجاء أيضا {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ الْعَذَابَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا} [النساء 56]، مما يدل على مدى شدة تعذيبهم، وإرادة وقدرة الله على جعلهم يُعانوا لأقصى الحدود -فوق قدرة تحملهم بمراحل-.

وفي الآية {تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ} [المؤمنون 104] إشارة على مدى معاناتهم وبؤس حال من يُعذَّب، وما يمر به من إهانة مع الألم الرهيب. وقوله تعالى عن عقوبة الذين يكنزون الذهب والفضة {يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ} [التوبة 35] دليل على مشيئة الله في استخدام المناطق الحساسة من جلود الأجساد (الجبهة والجنب والظهر) لزيادة معاناة الطغاة وهو يُذيقهم بأس صنف إجرامهم، ومقرونٌ مع هذا كله توبيخهم. وينطبق نفس المبدأ مع المجرمين، إضافة إلى الإهانة، في قول الله تعالى {يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ} [القمر 48].

وفي الآية {مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاء غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاء حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءهُمْ} [محمد 15] إبراز لدرجة عذاب الله عن طريق التباين بين مصير من بلغ منتهى النعيم وبين مصير من له منتهى العذاب. ففي الآية تفزيع القارئ عن طريق طمأنينته أولًا بغمره في وصف حسن الجزاء تفصيليًّا، ثم ترويعه فجأة في الرمق الأخير من الآية بمواجهته ببؤس المصير البديل وتفاصيله، وذلك كي نفيق من غفلتنا ونستوعب مدى خطورة وضعنا، ونشُد أزرنا.

ويتعجب المرء ويسيطر عليه الهمّ من تفاصيل منقولة حتى في بعض أحاديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، مثل الذي نقله لنا سَمُرَة بن جُندَب (رضي الله عنه) قائلًا: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا صَلَّى صَلاةً أَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ فَقَالَ "مَنْ رَأَى مِنْكُمْ اللَّيْلَةَ رُؤْيَا؟"، فَإِنْ رَأَى أَحَدٌ

[رؤيةً] قَصَّهَا، فَيَقُولُ "مَا شَاءَ اللَّهُ". فَسَأَلَنَا يَوْمًا فَقَالَ "هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمْ رُؤْيَا؟"، قُلْنَا: لا، قَالَ "لَكِنِّي رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ رَجُلَيْنِ أَتَيَانِي فَأَخَذَا بِيَدِي فَأَخْرَجَانِي إِلَى الأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ، فَإِذَا رَجُلٌ جَالِسٌ وَرَجُلٌ قَائِمٌ بِيَدِهِ كَلُّوبٌ، إِنَّهُ يُدْخِلُ ذَلِكَ الْكَلُّوبَ فِي شِدْقِهِ حَتَّى يَبْلُغَ قَفَاهُ، ثُمَّ يَفْعَلُ بِشِدْقِهِ الآخَرِ مِثْلَ ذَلِكَ، وَيَلْتَئِمُ شِدْقُهُ هَذَا فَيَعُودُ فَيَصْنَعُ مِثْلَهُ، قُلْتُ: مَا هَذَا؟! قَالا: انْطَلِقْ؛ فَانْطَلَقْنَا حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ عَلَى قَفَاهُ وَرَجُلٌ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِهِ بِفِهْرٍ أَوْ صَخْرَةٍ فَيَشْدَخُ بِهِ رَأْسَهُ، فَإِذَا ضَرَبَهُ تَدَهْدَهَ الْحَجَرُ، فَانْطَلَقَ إِلَيْهِ لِيَأْخُذَهُ فَلا يَرْجِعُ إِلَى هَذَا حَتَّى يَلْتَئِمَ رَأْسُهُ وَعَادَ رَأْسُهُ كَمَا هُوَ، فَعَادَ إِلَيْهِ فَضَرَبَهُ، قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟! قَالا: انْطَلِقْ؛ فَانْطَلَقْنَا إِلَى ثَقْبٍ مِثْلِ التَّنُّورِ أَعْلاهُ ضَيِّقٌ وَأَسْفَلُهُ وَاسِعٌ يَتَوَقَّدُ تَحْتَهُ نَارًا، فَإِذَا اقْتَرَبَ ارْتَفَعُوا حَتَّى كَادَ أَنْ يَخْرُجُوا، فَإِذَا خَمَدَتْ رَجَعُوا فِيهَا، وَفِيهَا رِجَالٌ وَنِسَاءٌ عُرَاةٌ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟! قَالا: انْطَلِقْ؛ فَانْطَلَقْنَا حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى نَهَرٍ مِنْ دَمٍ فِيهِ رَجُلٌ قَائِمٌ عَلَى وَسَطِ النَّهَرِ، وَعَلَى شَطِّ النَّهَرِ رَجُلٌ بَيْنَ يَدَيْهِ حِجَارَةٌ، فَأَقْبَلَ الرَّجُلُ الَّذِي فِي النَّهَرِ فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ رَمَى الرَّجُلُ بِحَجَرٍ فِي فِيهِ فَرَدَّهُ حَيْثُ كَانَ، فَجَعَلَ كُلَّمَا جَاءَ لِيَخْرُجَ رَمَى فِي فِيهِ بِحَجَرٍ فَيَرْجِعُ كَمَا كَانَ، فَقُلْتُ: مَا هَذَا؟! قَالا: انْطَلِقْ؛ فَانْطَلَقْنَا حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى رَوْضَةٍ خَضْرَاءَ فِيهَا شَجَرَةٌ عَظِيمَةٌ وَفِي أَصْلِهَا شَيْخٌ وَصِبْيَانٌ، وَإِذَا رَجُلٌ قَرِيبٌ مِنْ الشَّجَرَةِ بَيْنَ يَدَيْهِ نَارٌ يُوقِدُهَا، فَصَعِدَا بِي فِي الشَّجَرَةِ وَأَدْخَلانِي دَارًا لَمْ أَرَ قَطُّ أَحْسَنَ مِنْهَا، فِيهَا رِجَالٌ شُيُوخٌ وَشَبَابٌ وَنِسَاءٌ وَصِبْيَانٌ، ثُمَّ أَخْرَجَانِي مِنْهَا فَصَعِدَا بِي الشَّجَرَةَ فَأَدْخَلانِي دَارًا هِيَ أَحْسَنُ وَأَفْضَلُ فِيهَا شُيُوخٌ وَشَبَابٌ. قُلْتُ: طَوَّفْتُمَانِي اللَّيْلَةَ فَأَخْبِرَانِي عَمَّا رَأَيْتُ، قَالا: نَعَمْ، أَمَّا الَّذِي رَأَيْتَهُ يُشَقُّ شِدْقُهُ فَكَذَّابٌ يُحَدِّثُ بِالْكَذْبَةِ فَتُحْمَلُ عَنْهُ حَتَّى تَبْلُغَ الآفَاقَ، فَيُصْنَعُ بِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَالَّذِي رَأَيْتَهُ يُشْدَخُ رَأْسُهُ فَرَجُلٌ عَلَّمَهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ فَنَامَ عَنْهُ بِاللَّيْلِ وَلَمْ يَعْمَلْ فِيهِ بِالنَّهَارِ، يُفْعَلُ بِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَالَّذِي رَأَيْتَهُ فِي النَّقْبِ فَهُمْ الزُّنَاةُ، وَالَّذِي رَأَيْتَهُ فِي النَّهَرِ آكِلُوا الرِّبَا، وَالشَّيْخُ فِي أَصْلِ الشَّجَرَةِ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلام وَالصِّبْيَانُ حَوْلَهُ فَأَوْلادُ النَّاسِ، وَالَّذِي يُوقِدُ النَّارَ مَالِكٌ خَازِنُ النَّارِ، وَالدَّارُ الأُولَى الَّتِي دَخَلْتَ دَارُ عَامَّةِ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَمَّا هَذِهِ الدَّارُ فَدَارُ الشُّهَدَاءِ، وَأَنَا جِبْرِيلُ وَهَذَا مِيكَائِيلُ، فَارْفَعْ رَأْسَكَ؛ فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا فَوْقِي مِثْلُ السَّحَابِ، قَالا: ذَاكَ مَنْزِلُكَ، قُلْتُ: دَعَانِي أَدْخُلْ مَنْزِلِي، قَالا: إِنَّهُ بَقِيَ لَكَ عُمُرٌ لَمْ تَسْتَكْمِلْهُ، فَلَوْ اسْتَكْمَلْتَ أَتَيْتَ مَنْزِلَكَ"[1] (كَلُّوبٌ هي حديدة معوجة الرأس؛ شِدْقِهِ هو جانب الفم؛ تَدَهْدَهَ أي تدحرج؛ التَّنُّورِ هو الفرن). فإن الأشخاص الذين يعذبون بتلك الطرق الكئيبة إنما يعذبون بها في القبور حتى تقوم الساعة، وهذا دون عذاب يوم القيامة!

ولم يقتصر العقاب على التعذيب الجسدي فحسب، بل ويُعذبهم الله معنويًّا أيضًا كما جاء في قوله تعالى لهم وهم يُعذَبون {ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ} [الدخان 49]، وهذا إذلال لهم إذ كان مثل ذاك الشخص مُعزَّزًا مُكرَّمًا مُوقَّرًا وسط الناس. وإنه تعالى يُحسّرهم أيضًا كما في قوله {قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاء الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ} [غافر 50]. وليس فقط ذلك، بل ويجعلهم يغطاظون بما فوّتوه فلم ينالوه من حسن المصير {وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ

[1] صحيح البخاري 1297.

أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ الْمَاء أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ قَالُواْ إِنَّ اللهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ} [الأعراف 50].

وهناك أيضا إهانتهم عن طريق تجاهلهم، وذلك يُبين لهم أن قيمتهم أدنى من أن يتكلم معهم الله، فيقضي على أي أمل لديهم في المساومة على خروجهم حتى {أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (105) قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (106) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (107) قَالَ اخْسَؤُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ} [المؤمنون 105-108]. ولا ننسى أن هناك شماتة الملائكة والمسلمين فيهم لتحديهم قدرة الله ولسخريتهم واضطهادهم للمؤمنين {وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ} [الأحقاف 34]، {فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ} [المطففين 34].

ويجب أن يتساءل المرء الفطن: لماذا يصل الله في وصف تفاصيل عذابه إلى هذا الحد؟ ففي كل تلك الآيات والأحاديث بيان على مدى ذكر الله تفاصيل دقيقة في تهيئة عذابه لهؤلاء، إضافةً إلى أن هذا جاء في كتابه المحفوظ إلى يوم القيامة كي تُثَبَّت ولا تغيب عن الأذهان، مما يثير الذعر. وبذلك نستخلص أمرين، أولهما أن عذاب الله لا قبل لنا به إذا شرع في عقوبة شخص، وثانيًا أن الله بعلمه التام يستخدم نقاط ضعف أجسادهم ضدهم لزيادة معاناتهم في عذابه. وذلك لأن الله هو الذي ركَّبنا فيعلم أسرار جسد المخلوق، ومن ثمَّ يعلم كيف يُعذب مخلوقه بما لا يخطر على بال أحد من المخلوقات، هذا مع القدرة المُطلقة والهيمنة التامة على عبده.

وعلى الوجه الآخر، إذا علم الكافر مدى رحمة الله وما أعده لمن أراد أن يُمتعه من شهوات من حيث التعدد والتنوع، ومن التفاصيل التشويقية التي لا تخطر على بال أحدٍ من شدة متعتها، لن يتخيل أن من خلق هذا لديه صفة الانتقام والمجازاة بالعذاب الشديد، بل ويدرك أنه إن تاب تقبل الله هذا منه. ومن أراد أن يتخيل بعضًا مما أعده الله لمن أراد أن يجازيهم خير الجزاء، فليقرأ حديث النبي (صلى الله عليه وسلم) "قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ"، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ}[1].

وفيما يخص مدى رحمة الله، فليس هناك ما يُضاهي البشرى الشاملة في قول الله تعالى {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [الزمر 53]. ولكن للاستفاضة، فلنتأمل في أحاديث عن رسول الله (صلى الله عليه

[1] صحيح البخاري 4406.

وسلم) مثل "جَعَلَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ مِائَةَ جُزْءٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ جُزْءًا وَأَنْزَلَ فِي الأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا، فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ يَتَرَاحَمُ الْخَلْقُ حَتَّى تَرْفَعَ الْفَرَسُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ"[1].

وعن سعة عفو وكرم الله في الترحاب بالتائب، يتبين لنا عنهما في أحاديث عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مثل "كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ إِنْسَانًا ثُمَّ خَرَجَ يَسْأَلُ، فَأَتَى رَاهِبًا فَسَأَلَهُ فَقَالَ لَهُ: هَلْ مِنْ تَوْبَةٍ؟ قَالَ: لا؛ فَقَتَلَهُ. فَجَعَلَ يَسْأَلُ فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: ائْتِ قَرْيَةَ كَذَا وَكَذَا؛ فَأَدْرَكَهُ الْمَوْتُ فَنَاءَ بِصَدْرِهِ نَحْوَهَا، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلائِكَةُ الْعَذَابِ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى هَذِهِ أَنْ تَقَرَّبِي وَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى هَذِهِ أَنْ تَبَاعَدِي، وَقَالَ: قِيسُوا مَا بَيْنَهُمَا. فَوُجِدَ إِلَى هَذِهِ أَقْرَبَ بِشِبْرٍ فَغُفِرَ لَهُ"[2] (فَنَاءَ بِصَدْرِهِ نَحْوَهَا أي مال إلى تلك الأرض، فيه دلالة على إقباله وشوقه لها ورغبته في الإنابته إلى الله؛ فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى هَذِهِ أَنْ تَقَرَّبِي أي أوحى إلى القرية أو الأرض).

وفرحته تعالى بالمُنيب إليه، رحمةً ورأفة بالتائب، تتجلى في حديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) "قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ حَيْثُ يَذْكُرُنِي، وَاللَّهِ، لَلَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ يَجِدُ ضَالَّتَهُ بِالْفَلاةِ، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِذَا أَقْبَلَ إِلَيَّ يَمْشِي أَقْبَلْتُ إِلَيْهِ أُهَرْوِلُ"[3].

وليس هناك مؤشر توضيحي لمدى رحمة الله أكثر من رحمته بعبادٍ لم يُقدموا من الأعمال الصالحة لله إلا اليسير، بل وبعض منهم من كان عمله سيئًا كما جاء في أحاديث عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "حُوسِبَ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَلَمْ يُوجَدْ لَهُ مِنْ الْخَيْرِ شَيْءٌ إِلا أَنَّهُ كَانَ يُخَالِطُ النَّاسَ وَكَانَ مُوسِرًا، فَكَانَ يَأْمُرُ غِلْمَانَهُ أَنْ يَتَجَاوَزُوا عَنْ الْمُعْسِرِ. قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: نَحْنُ أَحَقُّ بِذَلِكَ مِنْهُ، تَجَاوَزُوا عَنْهُ"[4]. وفي حديث فيه أقل أملًا لنجاة عبدٍ لأنه أسرف في العمل السيئ، جاء عنه (صلى الله عليه وسلم) "فَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ"[5].

وفي كلتا الحالتين، فصيغة الحديث (الذي فيه أنه لو علم العباد ما عند الله من عقوبة ورحمة) عن مدى رحمة وعقاب الله يثير الخوف من الله لأننا لا نستطيع أن نتوقع ما الله بفاعلٍ، فوجب الاحتراس من مكر الله بنا. وفي نفس الوقت يثير الأمل لأن الله قد يغفر لعبدٍ أعمالًا لم يكن ليتخيل أنها تُغفر له (بقصر نظرته لرحمة الله)، ويدخل الجنة على إثرها. ففيما يختص بالخوف، فإنه

---

[1] صحيح البخاري 5541.

[2] صحيح البخاري 3211.

[3] صحيح مسلم 4927.

[4] صحيح مسلم 2921.

[5] صحيح البخاري 3085، جزء من الحديث.

سبب من الأسباب التي تمنع العبد من أن يغترّ بعمله... لأنه لا مخلوق يضمن له الجنة، ولا هو لنفسه. فمن جزم أنه سيدخل الجنة، فالأولى أن يتذكر أن لا أحد يدخل الجنة بعمله، ولا حتى النبي (صلى الله عليه وسلم)، إلا أن يتفضل الله عليه برحمته.

ومن جزم أنه سيدخل الجنة فليقارن نفسه بسيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، هل بلغ عمل أحدنا مقدار عمل سيدنا عمر، أو حتى قاربه؟ فهو من الصحابة ذوي المكانة الخاصة، الذين قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) مُعرِّفًا لنا قدرهم عامة "لا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلا نَصِيفَهُ"[1] (النَّصِيف النِّصْف، ومعناه: لو أنفق أحدكم مثل أُحُد ذهبًا ما بلغ ثوابه في ذلك ثواب نفقة أَحَد أصحابي مُدًّا، وَلَا نِصْف مُدّ، وسبب تفضيل نفقتهم أنها كانت في وقت الضرورة وضيق الحال، إضافةً إلى أفضلية إخلاصهم وإيمانهم). وسيدنا عمر من أفضل الصحابة (رضي الله عنهم) إذ إن النبي (صلى الله عليه وسلم) بشَّره بالجنة، ولكن بالرغم من هذا كله فإنه قال عند موته –حين كانت رأسه على حجر ابنه–: وَيْحَكَ ضَعْ خَدِّي عَلَى الأَرْضِ عَسَاهُ أَنْ يَرْحَمَنِي؛ ثم قال: وَيْلُ أُمِّي إِنْ لَمْ يَغْفِرْ لِي (ثَلاثًا)[2].

ومن جزم أنه سيدخل الجنة فليُدرك أنه بهذا المبدأ يفتح باب الفساد للنفس على مصراعيه، وهو بمنزلة من قال لها: انطلقي فافعلي ما يحلو لك. هذا لأنه لن يزداد صلاحًا لقناعته أنه ناجٍ، بل وسيتراخى في تقييده لشهواته لاطمئنانه بالنجاة فيُكثر من المعاصي. إضافةً، فإن مثل هذا الشخص يتهاون بمحاسبة نفسه على أخطائها بسبب أنه يرى أنه نجى، وكأنه دخل الجنة بالفعل!

ومن جزم أنه سيدخل الجنة، فليحذر أنه قد يموت في أثناء معصية يرتكبها، فتكون له سوء الخاتمة، وهذا من مكر الله به إذ ربما يكون هناك فساد في قلبه يراه الله. فمن الأفضل أن نقتدي بالصحابة، الذين لم يرتاح لهم بالًا أنهم سينجون وماتوا على هذا، وفي واقعة يرويها إبراهيم بن عبد الرحمن أن أبيه (عبد الرحمن بن عَوْف، رضي الله عنه) أُتِيَ بطعامٍ وكان صائمًا، فقال: قُتِلَ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ وَهُوَ خَيْرٌ مِنِّي، كُفِّنَ فِي بُرْدَةٍ إِنْ غُطِّيَ رَأْسُهُ بَدَتْ رِجْلاهُ، وَإِنْ غُطِّيَ رِجْلاهُ بَدَا رَأْسُهُ، وَقُتِلَ حَمْزَةُ وَهُوَ خَيْرٌ مِنِّي، ثُمَّ بُسِطَ لَنَا مِنْ الدُّنْيَا مَا بُسِطَ (أَوْ قَالَ: أُعْطِينَا مِنْ الدُّنْيَا مَا أُعْطِينَا) وَقَدْ خَشِينَا أَنْ تَكُونَ حَسَنَاتُنَا عُجِّلَتْ لَنَا؛ ثُمَّ جَعَلَ يَبْكِي حَتَّى تَرَكَ الطَّعَامَ[3].

وكان عبد الرحمن (رضي الله عنه) قد اغتنى من غنائم الحرب، وفي رواية نوفل بن إياس أن الطعام كان خبزًا ولحمًا، فقد أصابه الهم باليُسر الذي ناله بعد مرحلة العسر التي كان عليها هو

---

[1] صحيح البخاري 3397.

[2] الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي لابن قيم الجوزية 41.

[3] صحيح البخاري 1196.

ومصعب (رضي الله عنه). فأشكل عليه ذلك حتى أنه ثَقُل عليه أن يأكل ذلك الطعام بسبب خشيته أن يكون قد مكر الله به فعجَّل له حسناته.

فأين أنا من هذا كله؟ سبحان الله، فإني أرى أن مصيري الجنة وعملي أدنى منهم بكثير (بل وأعصي الله أكثر منهم أيضًا) بالرغم من أنهم أنفسهم لم يأمنوا النجاة! ويجب أن نحذر من مكر الشيطان بالرجل الذي يسعى للصلاح، فإن من أحد مكايد الشيطان هي أن يُلح على الإنسان أنه بلغ مرحلة الصلاح والنجاة، فيقتنع الإنسان بهذا، فتنحدر أعمال المرء حتى يهلك. بل والأفدح من ذلك أن في بعض الأحيان يكون تسويل الشيطان للمرء أنه بلغ النجاة –بعمله الصالح– يكون في حقيقة الأمر أن عمل ذاك المرء المضلول فاسدٌ في الأصل، وزيَّنه الشيطان له على أنه عمل صالح، فيكون إضلالًا على مستويين. وذلك لمن هيأ نفسه –بنياته الخبيثة في التعامل مع الله ومع الناس– أن تكون فريسة للشيطان، فأوقع نفسه في كيد الشيطان وأصبح ممن شملتهم الآية {فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاَلَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ اللهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ} [الأعراف 30].

وأمثلة على من يرون أنهم على هدى بأفعالهم الباطلة والمُفسدة: الذين بسبب حُبهم للرياء يلجأون إلى قبور أناس صالحين ويتضرعون لهم بطلب الحوائج والنجاة وربما المغفرة أيضًا! أو قد يُقرِّب هديةً للمقام أو يطوف به ويظن أنه قد قدم عملًا غاية في الإحسان وبالغ الثواب، فيكون الشيطان بذلك بلغ مراده وأوقع العبد في النار. ومثالٌ آخر على أن خبث النيات قد تُفضي بالمرء إلى الضلال والهلاك هو من –بهواه– يطمع في أن تكون له سلطة على المسلمين، فيكذب ويُرشي ويَغُشّ ويُزَوِّر حتى يصل إلى المنصب المراد، حتى إذا قدَّم عملًا فيه منفعة لمن يحكمهم استعظم ذلك العمل وهو في الحقيقية عمل بسيط. بل وربما يكون عملًا مخالفًا للشريعة ولكن تزين له أنه فيه صلاح للناس، وفي نفس الوقت يستصغر تقصيره ومخالفاته لأوامر الله بينما تعظم عنده مُخالفة الناس له. فكل هذه النقط يجب أن يدركها ويحترس منها العبد، فمن احتاط فهو الرشيد، ومن لم يتورع فإنه ناقص الحكمة ولو اكتمل لديه الصلاح.

أما عكس ذلك فهو القنوط، وهذا مدروءٌ به في مُجمل الحديث (بما عند الله الرحمة لدرجة أن الكافر يأمل دخول الجنة) إذ إن القنوط صفة مذمومة أيضًا. الشخص القانط هو الذي ييأس من دخول الجنة بسبب أنه أدرك أن قدرته في المحافظة على العمل الصالح لا تكفي لدخول الجنة، أو قناعته أن ما اقترفه من معاصٍ يطغى على إمكانية نجاته، فيترك العمل الإصلاحي مُجملًا! وقد حذر الله من ذلك في قوله تعالى على لسان سيدنا إبراهيم (عليه السلام) {قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّآلُّونَ} [الحجر 56]، فالحديث يحث على الأمل كي لا يرجح القنوط عند أحدٍ من العباد.

والعجيب أن هذا الحديث يدعو لعدم القنوط من رحمة الله فيُنشِّط الأمل بالرغم من التحذير الشديد من عذاب الله، فسبحان الله. وهذا هو الأسلوب الذي فيه الصلاح للناس، بأن يجعلهم دائمي السعي وراء رضا الله ولكن دون اليأس، أي منهج الترغيب مع الترهيب الذي يستخدمه الله معنا كي تكون شخصية العبد المسلم مُتوازنة مُعتدلة، فيكون إنسانًا قويًّا راسخًا، غير متعالٍ ولكن غير مُحبَطٍ. فهذا الحديث شمل على الخوف من الله مع الرجاء بالرحمة والمغفرة، وهذا هو المنهج الذي يجب أن يتبعه كل داعٍ إسلامي، وكل آمرٍ بالمعروف ناهٍ عن المنكر. وكما قال سيدنا علي بن أبي طالب (رضي الله عنه): إِنَّ الْفَقِيهَ حَقَّ الْفَقِيهِ مَنْ لَمْ يُقَنِّطْ النَّاسَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَلَمْ يُرَخِّصْ لَهُمْ فِي مَعَاصِي اللَّهِ، وَلَمْ يُؤَمِّنْهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، وَلَمْ يَدَعْ الْقُرْآنَ رَغْبَةً عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ؛ إِنَّهُ لا خَيْرَ فِي عِبَادَةٍ لا عِلْمَ فِيهَا، وَلا عِلْمٍ لا فَهْمَ فِيهِ، وَلا قِرَاءَةٍ لا تَدَبُّرَ فِيهَا[1].

فلا يصح للإنسان أن يطمئن أنه داخل الجنة، ولكن الأصح أن يرجو دخول الجنة مع دوامه على العمل الصالح دون أن يقنط، وبذلك يكون قد أعطى فرصة نجاته حقها الكامل. ولو أن العبد علم مدى عذاب الله، لترك التفكير في دخول الجنة وأصبح همه أن يزحزح نفسه من النار فحسب. وكذلك العكس، أنه إذا أدرك العبد مدى متعة ما أعده الله له من اللذات لَتحوَّل كل همه إلى الارتقاء في درجات تلك اللذات لنيل أقصاها، ويكون عمله انعكاسًا لرغبته تلك ومؤشرًا على مدى صدقه، دون الاستسلام أو التراخي عن بلوغ القمة، ومن ثمَّ ينشغل عن التفكير في العذاب بإفراط.

وبهذه الطريقة، عندما يجتمع الخوف مع الرجاء في العبد فإنه يكون على أقصى درجات الاجتهاد في العمل الصالح، لأن الإنسان بطبيعته يمل ونفسيته تتغير، وكل إنسان له طبعٌ مختلف فيما يؤثر فيه، فكان التنوع في طريقة المخاطبة أكثر فاعلية مع الإنسان. فتارة يؤثر فينا الترهيب أكثر من الترغيب، وتارة أخرى يوثر فينا الترغيب والاستعطاف أكثر من الترهيب.

ولعل سائل يسأل، لماذا يخاف المسلم من عذاب الله مع أن هناك حديثًا عن النبي (صلى الله عليه وسلم) "مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ"[2]. وحقيقة الأمر أن الأرجح من مقصد الحديث المذكور أن ذاك العبد سيدخل الجنة عاجلًا أم آجلًا، ويمكن أن يكون هذا بعد قضاء العبد المذنب فترة في النار لتكفير ذنوبه وتنتهي عقوبته. حينئذ يبقى السؤال: هل تساوي متع الدنيا كلها لحظة في النار؟! فيجب ألا نتهاون بعذاب الله مثل أهل الكتب السابقة، الذين حملهم التهاون على أنهم بدّلوا دينهم ثم اجترأوا وزعموا بعد ذلك {وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاما مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} [البقرة 80].

---

[1] سنن الدارمي 299.

[2] صحيح مسلم 38.

فقد افتروا في أفعالهم في الدنيا وافتروا على الله في كلامهم أنه سيغفر لهم بالرغم من مخالفتهم –بل وتحريفهم– لأمر الله. فسبحان الله، يتعجب المرء عن كيفية وصولهم لتلك المرحلة من الجُرأة على الله والضلال، وكأن المغفرة بأيديهم {فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يِقُولُواْ عَلَى اللهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ} [الأعراف 169].

وقد جاء عن أبي العَالِيَةِ قوله عن مثل هؤلاء: يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ تَخْرُبُ صُدُورُهُمْ مِنَ الْقُرْآنِ وَلا يَجِدُونَ لَهُ حَلاوَةً وَلا لَذَاذَةً، إِنْ قَصَّرُوا عَمَّا أُمِرُوا بِهِ قَالُوا: إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ، وَإِنْ عَمِلُوا بِمَا نُهُوا عَنْهُ قَالُوا: سَيَغْفِرُ لَنَا إِنَّا لَمْ نُشْرِكْ بِاللَّهِ شَيْئًا؛ أَمْرُهُمْ كُلُّهُ طَمَعٌ لَيْسَ مَعَهُ صِدْقٌ، يَلْبَسُونَ جُلُودَ الضَّأْنِ عَلَى قُلُوبِ الذِّئَابِ، أَفْضَلُهُمْ فِي دِينِهِ الْمُدَاهِنُ[1]. المُداهن أي الذي يتظاهر أو يخدع الناس، ولعله يقصد أن من يراه عامة الناس أنه الأفضل بينهم في تطبيق الدين –بسبب خطأ تقييمهم الناتج عن تقصيرهم الشديد في الدين– هو في حقيقة الأمر يتظاهر للناس، فهو في الواقع عند الله من أسوأهم لأنه يُرائي، وذلك بابتغائه إعجاب الناس بعملٍ كتبه الله على الناس كي يحصلوا على رضاه هو في الأصل، مثل الصلاة، وتلك من الفتن العظيمة على الناس). فالحذر كل الحذر من الوقوع في نفس الفخ الذي وقعوا هم فيه من تأويل المغفرة لأنفسهم، ولا يقع في الفخ الذي حذَّر الله منه إلا سفيه.

تقوية الإيمان وتجديده. من فوائد تعزيز الإيمان هي زيادة صبر المرء في الدنيا على طاعة الله وعن معصيته، خاصةً عندما تشتد الأوضاع، وذلك يحدث لا محالة إذ قال تعالى {الم (1) أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (2) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (3) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاء مَا يَحْكُمُونَ (4) مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (5) وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} [العنكبوت 1–6].

هذه الآيات تبين لنا حكمة الله العظيمة في هذا الكون، وهذا بأن الله جعل درجات المؤمنين في الجنة بحسب أعمالهم بعد أن يتعرضوا للفتن، لذلك فُرضت علينا الحياة الدنيا كاختبار. إذا سألت أكثر الناس: "أتؤمن بالله واليوم الآخر" سيقولون "نعم"، ولكن إذا نظرت لعملهم ستجد أن عند كثيرٍ منهم أفعالهم تُناقض قولهم! فالعمل أدل من القول، وذلك ما نبَّأنا به تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (2) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ} [الصف 2–3]. وقد جاء في

[1] الزهد للإمام أحمد بن حنبل 1741.

مواضع كثيرة في القرآن ذكر العمل مقرونا مع الإيمان، وأن أولئك هم الذين لهم حسن الجزاء {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ} [لقمان 8]؛ {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ} [العنكبوت 7].

فالمؤمن باليوم الآخر يجب ألا يعصي الله لأنه على يقينٍ بأنه سيحاسب على عمله، ومؤشر إخلاصه في عمله لله مرتبطٌ بقدر يقينه وإيمانه بالله واليوم الآخر. فإن الإيمان يزيد بالاطلاع على العلوم الدينية والتأمل والتفكر والتساؤل في خَلق السماوات والأرض والكائنات المتنوعة التي كلها تدل وتشير إلى عظمة الله، ويكأن الكائنات تصرخ بصمتٍ "ألا ترى أنه لا إله إلا إله؟!"، فإنها رسالة خفية لا يراها إلا المُتأمل. فمثلًا، إن تصميم جناحت الفراشة بألوانها بهذا الجمال، والتطابق الشكلي (بين الجناح الأيسر والأيمن، وبين الفراشة ونسلها) مع تأدية وظيفتها أعظم من أن يكون صدفة. بل كل ذلك يشير إلى أن هذه الأشكال والألوان مقصودة ومخلوقة بعناية ودقة، ولا شك أن من خلقها أعظم من أن ندركه لأننا لا ندرك عظمة تركيبة المخلوق أصلًا!

ويزداد الإيمان أيضًا بالمراقبة لما يحدث حولك وبداخلك، ويفضل مع كل ذلك الامتناع عن الكلام الكثير، لأن كثرة الكلام يُشتت قدر بصيرتك ويُضيّع ما حصلته من الإيمان، وهو أشبه بالثقب في إربة المياة. فالتفكر لا بد أن يوصل الإنسان لإدراك الحق (وإن كان كافرًا)، لأن الصانع واحد فالمصنوع يعطي نفس النتيجة عندما يتعرض لعامل ثابت (لأننا كلنا في الأول والآخر إنسٌ بداخلنا فطرة واحدة). ولكن قد يتدخل الكبر والتعاظم والهوى فينكر الحقائق، كما في قول الله تعالى {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ} [النمل 14].

وكل حين نكتشف أشياء في الكون ثم ندرك أن القرآن أو السُنّة قد تكلمت عنها ولكننا لم نكن نفهمها، مثل قوله تعالى {وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا} [النمل 61]، فقد وجدوا أن ماء البحار لا تختلط في أماكن مُحددة وكأن بينهما حاجزًا؛ وقوله {فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاء فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ} [الرحمن 37]، فوجد علماء الفلك أن منظر انفجار النجوم البعيدة أشبه بالوردة. وللشرح تفصيليًّا يُنصح بالرجوع إلى الكتب المخصصة التي تربط بين العلم والقرآن.

وإني على يقين أن الآية {إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ} [يوسف 4] ليست معنوية فحسب، بل أن هناك أحد عشر كوكبًا يدور حول شمسنا فعليًّا ولكن لم نكتشفهم بعد، نظرًا لحدود إمكانياتنا الحالية، ولكن سيتم رصدهما عندما نتطور أكثر في المستقبل. وبالفعل، إن علماء الفلك مُعاصرًا وجدوا أدلة مؤكدة على وجود كوكب جديد وكبير في منطقة تقريبية، ولكنهم يبحثون عن مكانه بالضبط هذه الفترة. وهناك أيضًا عدد كبير من الأحاديث التي ينبئنا فيها الرسول (صلى الله عليه وسلم) بأحداث ستقع أو علاماتٍ ستظهر، أبرزها أشراط الساعة صغيرها وكبيرها، التي أنصح بشدة على قراءتهم للأهمية.

ومن الظواهر ما نبأنا بها (صلى الله عليه وسلم) مثل "صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا: قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلاتٌ مَائِلاتٌ، رُءُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ لا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ وَلا يَجِدْنَ رِيحَهَا، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا"[1]. كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ أي أن ثيابهن رقيقة أو شفافة فتصف ولا تستر الجسد؛ مُمِيلاتٌ أي مائلات لأكتافهن في المشي، وقيل مميلات لغيرهن بأن يُعلمنهن أفعالهن المذمومة؛ مَائِلاتٌ أي عن الحق أو مائلات في مشيهن بتبختر وميوعة؛ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ أي طوال الأعناق ويلففن رؤوسهن بشيء.

وكذلك الحديث الذي به عظات كبيرة "يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ –وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ–: لَمْ تَظْهَرْ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلا فَشَا فِيهِمْ الطَّاعُونُ وَالأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلافِهِمْ الَّذِينَ مَضَوْا، وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ الْمَئُونَةِ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنْ السَّمَاءِ وَلَوْلا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا، وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللَّهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ، وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلا جَعَلَ اللَّهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ"[2] (بِالسِّنِينَ أي القحط وربما المجاعة؛ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ أي تجبر واستقواء السلطان عليهم بالظلم؛ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ أي يقتتلون فيما بينهم). فإننا قد رأينا النساء الكاسيات العاريات في دول المسلمين، وقد ابتلينا بالأوبئة التي لم تكن في أسلافنا مثل "نقص المناعة المكتسبة" (الإيدز) وكورونا، وغير ذلك مما نجده في طعامنا حتى مثل جنون البقر، وأغلب ما ذُكر في الحديث رأيناه للأسف، مما يُفطر القلب ويُقَطِّع النفس حزنًا على حالنا حتى أصبحنا تبعًا لهيمنة الكفار.

بل بهذا المعدل الذي نحن فيه من تضييع الإسلام تدريجيًّا، سنجد قريبًا حالنا كما وصف رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "يَدْرُسُ الإِسْلامُ كَمَا يَدْرُسُ وَشْيُ الثَّوْبِ حَتَّى لا يُدْرَى مَا صِيَامٌ وَلا صَلاةٌ وَلا نُسُكٌ وَلا صَدَقَةٌ، وَلَيُسْرَى عَلَى كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي لَيْلَةٍ فَلا يَبْقَى فِي الأَرْضِ مِنْهُ آيَةٌ، وَتَبْقَى طَوَائِفُ مِنْ النَّاسِ –الشَّيْخُ الْكَبِيرُ وَالْعَجُوزُ– يَقُولُونَ: أَدْرَكْنَا آبَاءَنَا عَلَى هَذِهِ الْكَلِمَةِ 'لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ'، فَنَحْنُ نَقُولُهَا"[3] (يَدْرُسُ أي ضياع علمه ومحو آثاره؛ وَشْيُ الثَّوْبِ هو نقشته؛ وَلَيُسْرَى أي يُمَر). وفي لفتة جانبية، فإن الأعمال التي ذُكرت في هذا الحديث من الأمور التي تُساعد على تقوية الإيمان، مما يجعل العبد أكثر طاعةً وأقل معصيةً لله.

نقطة أخرى أريد ذكرها هي أن من أحبه اللهُ قد يبتليه، وإن لم يعصِ الله كثيرًا. وأبرز مثال لهذا هو النبي (صلى الله عليه وسلم) الذي هو أحبّ خلق الله لله، وقد ابتلاه الله بما لا نطيقه نحن،

---

[1] صحيح مسلم 3971.

[2] سنن ابن ماجه 4009.

[3] سنن ابن ماجه 4039.

ومن يقرأ السيرة النبوية سيعلم مدى الابتلاء، حتى أن الله ابتلاه حين مماته في سكرات الموت. فما رواه سيدنا عبد الله ابن مسعود (رضي الله عنه) فيه مفاد ذلك حين قال: دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يُوعَكُ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّكَ لَتُوعَكُ وَعْكًا شَدِيدًا، قَالَ "أَجَلْ، إِنِّي أُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلانِ مِنْكُمْ"، قُلْتُ ذَلِكَ أَنَّ لَكَ أَجْرَيْنِ؟ قَالَ "أَجَلْ ذَلِكَ، كَذَلِكَ مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذًى شَوْكَةٌ فَمَا فَوْقَهَا إِلا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا سَيِّئَاتِهِ كَمَا تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا"[1].

وقد قال النبي (صلى الله عليه وسلم) حين سأله سعد ابن أبي وقاص (رضي الله عنه): يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلاءً؟ قَالَ "الأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ، فَيُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ الْبَلاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ"[2]. فما بالنا لا نريد أن نُبتلى؟ إن الابتلاء يُميز المؤمن الصابر المحتسب من الذي يقول إنه مؤمن ولا يتخلق بما يدل على هذا، فعند الابتلاء لا يتزعزع المؤمن الحقيقي عن دينه. أما المُدّعي أنه مؤمن فيميل للباطل أو يدمج فيه كليًّا فلا تُميّزه من الباطل، أو قد يقول من الأقوال ما يُجلب سخط الله مثل "لماذا فعلت هذا يا بي يا رب؟" أو "لماذا أنا يا رب؟".

لو نعلم ما في البلاء من قيمة لرضينا به، بل وقد نطمئن به، بل ومن الصالحين من كان يفرح بالبلاء كما يفرح أحدنا بالرخاء. هذا لأن البلاء تخفيف عن العبد يوم القيامة من عبء الحساب، وأن البلاء يُقرّب العبد من ربه ويُبعده عن الافتتان بزينة الدنيا، وأن البلاء يدل على عدم مكر الله بالعبد إذا كان يُحسن في العمل. على الوجه الآخر، العبد المسيء الذي يجد أن الله يُنعم عليه فهو في استدراج وقد وقع في مكر الله، وأما العبد الذي يُسيء ثم يُبتلى ففيه أمل أكبر للنجاة إذ إن الله يُعاتبه ليرجع عما هو فيه.

فالبلاء ليس عذرًا للمعصية، بل بالعكس، البلاء امتحان من الله ليرى من سيعصيه، فكيف يكون الامتحان عذرًا لعدم الاجتهاد، بل وربما لارتكاب مخالفة؟! وهذا وضعٌ معكوس، كالطالب الذي لا يذاكر إذا لم يكن هناك امتحان، وإن كان هناك امتحان اتخذه عذرًا كي يغش، ففي الحقيقة إنه لن يُذاكر في كلتا الحالتين! فإني أوصي نفسي وإياكم، عندما يصبنا البلاء فلنصبر ولنحتسب ولنحمد الله، كما علمنا النبي (صلى الله عليه وسلم).

والعمل الصالح بعد الإيمان شاق، ولكن العمل هو الجزء التطبيقي من الإيمان والبرهان عليه، كما دل جزء من حديث لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) على أن الصلاة هي البرهان على الإيمان "يَا كَعْبَ بْنَ عُجْرَةَ: الصَّلَاةُ بُرْهَانٌ، وَالصَّوْمُ جُنَّةٌ حَصِينَةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ

[1] صحيح البخاري 5216.

[2] سنن الترمذي 2322.

النَّارَ"[1] (جُنَّةٌ حَصِينَةٌ أي حاجز وساتر يمنع المرء من المعاصي بكسر القوة والشهوة). ومعروف أن الحياة العملية تختلف عن الحياة النظرية، فالحياة العملية (الواقعية) تتدخل فيها جوانب كثيرة لم تكن في الحسبان أو لم يتم تقدير عبئها صحيحًا، مثل الهوى والعواطف والنيات الكامنة وقدرة الجسد والناس المحيطة بالمرء. ولذلك عندما يحين وقت العمل تجد أن كثيرًا من الناس قد لا يبادرون أو لا يُكملون الطريق، فقد وافق الإنسان على حمل أمانة التكاليف الشرعية بعدما أبت السماوات والأرض والجبال وأشفقن من الوفاء بحقها؛ وافق الإنسان نظريًّا ولكن كَثُر مَن أخفق عمليًّا. فبالعمل يُفَرَّق بين المؤمن والمنافق، والمؤمن القوي عن المؤمن الضعيف، ويُحَدَّد لكل واحد منهم منزلته في الآخرة.

وهنا يأتي سؤال مهم، لماذا يقدر فرد أن يصبر (بل وقد يتلذذ) على الطاعة ويبتعد عن المعصية بينما نجد فردًا آخر لا يصبر على الطاعة ولا هجر المعصية؟ والسؤال التابع هو كيف؟! الإجابة المُبسَّطة هي قوة الإيمان، ولكن ما معنى ذلك؟ معنى قوة الإيمان هو قوة اليقين بالله وبالملائكة وبالكتب وبالرسل واليوم الآخر (خاصة الحساب على الأعمال) والقدر.

وذلك بحسب ما جاء في الحديث النبوي المروي عن سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) قائلًا: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ، لا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ وَلا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنْ الإِسْلامِ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "الإِسْلامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتُقِيمَ الصَّلاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا"، قال الرجل: صَدَقْتَ. فقال سيدنا عمر: فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ. قال الرجل: فَأَخْبِرْنِي عَنْ الإِيمَانِ، قال "أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ"، قال: صَدَقْتَ، فَأَخْبِرْنِي عَنْ الإِحْسَانِ، قال "أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ". قال: فَأَخْبِرْنِي عَنْ السَّاعَةِ، قال "مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنْ السَّائِلِ"، قال: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا، قال "أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ". قال سيدنا عمر: ثُمَّ انْطَلَقَ، فَلَبِثْتُ مَلِيًّا ثُمَّ قَالَ لِي "يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنْ السَّائِلُ؟" قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ "فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ"[2] (أَمَارَتِهَا أي علاماتها؛ أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا أي أن تلد الأم بنتا تكون سيدتها ومالكتها؛ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ أي الفقراء من العرب والبادية؛ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ أي يبنون منشآت مرتفعة تفاخرًا وتباهيًا، بالرغم من فقرهم).

---

[1] سنن الترمذي 558.

[2] صحيح مسلم 9.

أما طُرق زيادة الإيمان فقد ذكرتها سابقًا من التزود بالعلم والتفكر والعمل الصالح وذكر الله. وخير النصيحة في هذا الموضوع هو ما أوصانا به رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قائلًا: "جَدِّدُوا إِيمَانَكُمْ"، فقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَكَيْفَ نُجَدِّدُ إِيمَانَنَا؟ قَالَ "أَكْثِرُوا مِنْ قَوْلِ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ"[1] (وهذا كله بالطبع بتوفيق من الله ومنّةً على من يشاء إذا سعى العبد واجتهد في إصلاح قلبه).

السؤال الثاني "كيف يُثَبِّت الإيمانُ المرءِ على الاستكثار من طاعة الله وتجنب معصيته؟" هو الذي يبقى. ببساطة، الإيمان مرتبط باثنين من المشاعر القوية لدى الإنسان، وهما الحب والخوف، وهما من أقوى المشاعر التي تدفع الإنسان للسعي لتحقيق غاية تراد، سواء للدنيا أم للآخرة. أما حالة حب الله، تجد العبد يريد أن يُفرح ويُرضي الله كي يرضى الله عنه ويُحبه، فيفعل ما يأمره الله ويُعرض عما نهاه عنه (كي لا يُغضب ربه عليه). وهذا شبيه جدًّا –من جهة الآليات– بتصرفات الرجل الذي يُريد الزواج من امرأة مُحددة، فإنه يسعى لإرضائها وإسعادها والظهور في أحسن صورته كي توافق عليه ويتزوجها.

أما الخوف من الله فتجد العبد يسعى لطاعة الله ويفر من معصيته خوفًا من سخط الله وغضبه وعقابه، ويدرك أنه لا يقدر أن يُتم عملًا (المعصية) إلا إذا لم يمنعه الله من فعلها، فيرتاب من هذا، مما يدل على أن هناك حسابًا وعقابًا مؤجّلًا لمن عصى الله. وإضافةً إلى ذلك فإنه يدرك أنه لا شيء أمام عظمة الله وقوته، أي أن لا حول ولا قوة له ولا لأي شيء أمام الله، فالله قادر عليه دون شك، وقد يعذبه أشد العذاب وبطرق مختلفة لا يتخيلها العبد. ولكن الحمد لله الذي حرَّم الظلم على نفسه، فإنه لا يُعذِّب إلا من يعمل سوءً، وقد عهد سبحانه وتعالى لنا بهذا رحمةً ورأفة بمخلوقاته، فهو الذي سنَّ على نفسه ذلك بالرغم من أننا نعصيه (بل والكافر يظلم ويُسيء إلى الله)، وما يجرؤ أحدٌ أن يسأله إذا شاء أن يُبطل ذلك العهد، بل وله مُطلق الحق في ذلك! أبعد عهده هذا معنا نستغل العهد بعصياننا إياه؟

فهذا العبد الذي يحب الله ويخاف منه هو المؤمن، ويظهر هذا في عمله فيفعل ما يُؤمر ويُعرض عما نُهي عنه، وتشبيهًا للوضع هو أن حب الله قوة جذب إلى العمل (تجعل العبد يتحرى ويُقبل على العمل)، والخوف من الله قوة دفع للعمل (تُغرز ضرورة العمل لدى العبد، وتنهاه عن تركه). وإني لأظن أن الحب لله أكثر فاعلية في حث العبد على فعل الطاعات، والخوف من الله أكثر فاعلية في الحث على ترك المعاصي، ولكن ليس لأحدهما تأثير خالص تجاه الطاعة أو المعصية، فالاثنان مهمان، ولا غنى لمؤمنٍ عن أحدهما. وقد يعلو الحب على الخوف لدى عبد والعكس لدى عبد آخر، أو أن عبدًا يؤثر فيه الخوف أكثر من الحب والعكس، فلا بأس في هذا، ولكن لا يخلو العبد من أحدهما ولا ينبغي أن يزعم ذلك، فإن حدث ذلك فإنه لن يَسلَم في الطريق.

[1] مسند أحمد 8353. وثقه أحمد شاكر والمنذري والهيثمي، ولكن ضعفه الأرناؤوط والألباني.

ذلك لأن المؤمن يحتاج إلى هذا أحيانًا وإلى ذاك أحيانًا كي يقوى على العمل حتى يصل إلى بر الأمان، وهو رضا الله ومن ثمَّ الفوز بالجنة، التي هي الدليل الملموس على رضا الله عن العبد. فالجنة محسوسة، فينبغي أن يكون الإيمان محسوسًا أيضًا (عن طريق العمل)، وهذا هو العدل.

ويجب أن يُشار إلى أن من زاد إيمانًا وعلمًا، وفَّقه الله إلى العمل الصالح وحال بينه وبين المعصية، وهذا أهم سبب في كيفية أن الإيمان يمنع مخالفة أمر الله، وهو عون الله وستره (والستر هنا هو عدم الوقوع في الخطأ بالرغم من عدم الاستعداد لتفاديه). وبعد ذلك هناك أسباب أُخرى، مثل أن من زاد إيمانه يمنعه ضميره من مخالفة أمر ربه، ومن زاد إيمانه منعه العلم الذي أدركه من أن يُناقضه، وأيضًا زاد همًّا وسعيًا لتفادي عواقب العمل السيئ، وهذا ما دل عليه جزء من حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "وَاللَّهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشَاتِ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَى اللَّهِ"[1].

كثرة ذكر الله والتأمل فيما خلق. قال تعالى {الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} [آل عمران 191]. سبحان الله، ما أجمل هذه الآية. هناك فئة من المسلمين يكون ذلك حالهم، يستغلون كل لحظة في طاعة الله وذكره، وأنا بخلافهم أعصي ربي وأنسى ذكر الله. أفأُساوى معهم في الجزاء؟ ما قدر هؤلاء عند الله كي يذكرهم في القرآن بالتكريم؟ هذا يدل أن الله يعظم تلك الأعمال. إنهم لا يطيعون الله ويذكرونه فحسب، بل بلغ حبهم لله أنهم يتفكرون في عظمته من خلال تعجبهم بمخلوقاته، مما يزيدهم يقينًا بالله وسائر ما نبأهم به الله عن الملائكة والكُتب والنبيين واليوم الآخر والقدر.

ومقام العالم عند الله أعلى من مقام العابد، كما جاء في (جزء من) الحديث الشريف "وَفَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ"[2]، لأن العالم أكثر إيمانًا بالله وأقل عُرضةً من أن يُفتَن عن دين الله، والعالم المتفكر أقوى إيمانًا من العالم الذي لا يتفكر لأنه عندما يتأمل في كل شيء مخلوق يجده يدل على عظمة الخالق المتفرد. والمتفكرون يرون أن كل هذه الأشياء مخلوقة بإحسان، وأن لها مقصدًا من دقة تفاصيلها، فلا يمكن أن يكون كل هذا صُدفةً أو هباءً، أو حتى عشوائيًّا، بل إن كل ذلك يشير إلى أنه أنه لا إله إلا الله، وأن هذا الرب عظيم وقدير بما يتعدى استيعابنا. والمتأمل طويلًا في مخلوقات الله يصل إلى مرحلة أنه يُدرك أن مُحصَّلة كل تلك الدلالات تقود إلى استنتاج واحد، وهو أن جميع المخلوقات مصيرهم الرجوع إلى الخالق يوم الحساب، وأنه ينبغي أن يُطاع.

---

[1] سنن ابن ماجه 4180.

[2] سنن الترمذي 2606.

أفلا أكون ممن ذكرهم الله في كتابه بالفضل؟ لماذا قبلت لنفسي أن أكون من العاصين لله؟؟ لماذا لا أستغل وقتي في طاعة الله بدلًا من معصيته بما أن الوقت ينقضي في كلتا الحالتين؟ المحزن في حالي أني حينما أعصي الله هناك شخص يذكر الله، يكسب الحسنات بينما أنا أجمع الذنوب في نفس اللحظة، ولو أني قعدت لا أفعل شيئًا لكان حالي أهون قليلًا لأنني لا أجمع السيئات حينما يكسب هو الحسنات، فأنا وهو متجهان في طرق متعاكسة تمامًا... أفلا أغار على ربي أن هناك أحدًا يتقرب إليه وينال رضاه بينما أنا ساهٍ في وضع الحواجز بيني وبين ربي؟!

من الصفات التي تقود إلى الهلاك:

هناك صفات وأفعال، إن وُجِدْن في المرء، إما يُزينَّ له المعصية أو يُيَسرن عليه ارتكابها بتجرئته على الحدود، وكثيرٌ منهن بأنفسهن ذنبٌ فادح. منهن:

إضاعة الصلاة واتباع الشهوات. قال تعالى {أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَن خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا (58) فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاَةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّا} [مريم 58–59]. هكذا يضيع الإيمان عبر الزمن، جيلًا بعد جيل، فنجد ما نجده عامةً أن الأجيال اللاحقة تبتعد أكثر عن الإسلام من الأجيال السابقة، والعامِلَان الرئيسيان لذلك هما إضاعة الصلاة واتِّباع الشهوات.

هذا لأن كل جيل يتخلى عن تطبيق مبدأ أو سُنَّة من الدين، ويأتي الجيل التالي ويفعل مثل ذلك في تطبيق مبدأ أو سُنَّةً أخرى، فيبهت تطبيق الإسلام عبر الأجيال حتى نصل إلى ما نراه في زمننا هذا، أن الإسلام العُرفي (المتداول بالسمع) يختلف عن الإسلام الحقيقي. ومثال لذلك هو أن كثيرًا من الناس يقتنعون أن أحكام الإسلام يجب ألا تدخل في سياسات الدولة بسبب تَبنِّيهم لما تلقَّونه.

ويجب بيان أن إضاعة الصلاة واتباع الشهوات لا يشترط أن يتلازما مع بعض، ولذلك ذُكر كل واحدة منهما، فقد نرى رجلًا يضيع الصلوات ولكن خُلُقه لا بأس به ويمتنع عن الشهوات والمفاسد، ولكن من الراجح وجود كلاهما لأن أحدهما يجر الآخر. والفرق في التوجه فيما يختص بكل نقطة هو أن إضاعة الصلاة تحتاج فقط إلى التكاسل عنها (أي عدم بذل الجهد)، ولكن اتباع الشهوات غالبًا ما تحتاج إلى سعيٍ لتحصيل المتعة، فكأن الشخص صرف مجهوده من الحفاظ على الصلاة إلى تحصيل المتعة، وهنا يتبين قبح الحال في ذلك الوضع.

وهناك عدة أدلة على أن درجة إيمان الأُمة تضعُف عبر الأجيال بخُذلانهم للإسلام في تَعَلُّمه وتطبيقه، فقد قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) "خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهَادَتُهُمْ أَيْمَانَهُمْ وَأَيْمَانُهُمْ شَهَادَتَهُمْ" (تَسْبِقُ شَهَادَتُهُمْ أَيْمَانَهُمْ وَأَيْمَانُهُمْ شَهَادَتَهُمْ مقصده أنهم يتهاونون بالشهادة واليمين)[1]. وضياع منهج الإسلام لا يحدث فجأة ولكن يحدث تدريجيًّا عبر الزمن، مما يعني أنه لا بد من التدرج عبر الأجيال ابتداءً من القرن الذي يلي الصحابة (رضي الله عنهم) وانتهاءً بالقرن الذي يُقام عليه الساعة.

وفي خلال تلك النقلة من أول إلى آخر قرنٍ يُصبح الحق باطلًا والباطل حقًّا لدى الناس تدريجيًّا، فمن يتمسك بالأصل يُتَّهم أنه مُتشدد ورجعي ويصبح موضعًا للسخرية والنقد من المجتمع، ومن اقتبس مفاهيم وتصرفات الغربيين (الذين نبذوا فكرة الدين وجعلوا المرجعية إلى منطق الإنسان المحدود) يكون متطورًا وأنيقًا وراقيًا بحسب زعم الناس، ويصبح موضعًا للفخر والإعجاب والتشريف. وهذا ما نبأنا به الرسول (صلى الله عليه وسلم) في قوله "بَدَأَ الإِسْلاَمُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ"[2]. فلا تحزن أيها الغريب ولا تلقِ بالًا لمعاناتك في الدنيا ونقد أو معايرة الناس لك ونبذهم لك، هذه الحياة ليست لك ولا هذه الدنيا دارك، فلا تبتئس.

والسكوت عن مبدأ يُنتهك يؤدي إلى رسوخه في الجيل الجديد على أنه غير مهم، حتى يصبح انتهاكه معتادًا –بل ومألوفًا– لأن القلب يتبلد بسبب شيوعه، مثل تبرج المرأة. ولتجنب حدوث ذلك فرض الله الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتخلي عن ذلك سبب في هلاك أمم ممن سبقت بعذاب الله، لأن الأمة التي تتقاعس عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ستكون بلا دين عاجلًا قبل آجلًا.

ومن العلامات الواضحة لتدهور حال الأمة الإسلامية أكثر وأكثر هي تَكَشُّف المرأة أكثر فأكثر عبر الأجيال، فما أن يخمد الناس ويألفوا بما تكشف المرأة من الجسد حتى يأتي الذين يلونهم فيكشفن ما هو أكثر استفزازًا، وتتكرر الدورة مجددًا. وهذا لا يزال يتكرر ويزداد الوضع تفاقمًا إلى أن نرى النساء الكاسيات العالريات المُميلات المائلات اللواتي نبأنا عنهن الرسول (صلى الله عليه وسلم) به.

ما أردت إبرازه من كل هذا الكلام هو أن التنازل عن مبدأ يؤدي إلى التنازل عن مبدأ آخر، ولعل هذا عقاب من الله لمن تخلى عن مبدأ من دينه عمدًا واستخفافًا به، وهو جزاء مُستحَق من جنس العمل. وهذه الظاهرة شبيهة بظاهرة أن السيئة تجر أختها، أي أن جزاء المعصية قد يكون معصية أخرى، وهذا من مكر وعقاب الله بالمخالفين، فلنحذر.

---

[1] صحيح البخاري 5949.

[2] صحيح مسلم 208.

عندما أعصي الله فإني أكون عِبئًا على الأمة الإسلامية، فأؤذيها ولو بشيء يسير، ومعصيتي عندما تتجمع مع معصية فلان وعلان فإن أثرهم يظهر بوضوح في جيلي وجيل أبنائنا، كما نرى من ذهاب الأخلاق والبركة في المكسب والمصرف، وظهور البدع والأمور الشاذة وغير ذلك. فالحذر كل الحذر، لئن لم نكن مُقصَّرين في الصلاة لما غرقنا في المعاصي، الصلاة التي وصَّانا بها الرسول (صلى الله عليه وسلم) أقصى الوصاية نظرًا لمِحوَرِيتها. وذلك فيما أشارت إليه السيدة أُمّ سَلَمَة (رضي الله عنها) زوج النبي (صلى الله عليه وسلم) قائلةً: كَانَ عَامَّةُ وَصِيَّةِ نَبِيِّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَ مَوْتِهِ "الصَّلاةَ الصَّلاةَ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ"، حَتَّى جَعَلَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُلَجْلِجُهَا فِي صَدْرِهِ وَمَا يَفِيضُ بِهَا لِسَانُهُ[1] (يُلَجْلِجُهَا أي يرددها فلا تخرج من فمه مفهومة، يَفِيضُ أي ينطقها بصعوبة فتختفي).

والصلاة عونٌ للعبد على ترك المعاصي وسلاحه في مدافعة المعاصي، كما جاء في كتاب الله عز وجل {اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ} [العنكبوت 45]. جاء في تفسير القرطبي (رحمه الله) للآية أن سيدنا أنس بن مالك (رضي الله عنه) قال: كَانَ فَتًى مِنَ الأَنْصَارِ يُصَلِّي مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلا يَدَعُ شَيْئًا مِنَ الْفَوَاحِشِ وَالسَّرِقَةِ إِلّا رَكِبَهُ، فَذُكِرَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ "إِنَّ الصَّلاةَ سَتَنْهَاهُ"، فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ تَابَ وَصَلُحَتْ حَالُهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ"[2]. وفي حديث آخر عن أبو هريرة (رضي الله عنه) قال: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: إِنَّ فُلانًا يُصَلِّي بِاللَّيْلِ فَإِذَا أَصْبَحَ سَرَقَ، قَالَ "إِنَّهُ سَيَنْهَاهُ مَا يَقُولُ"[3]؛ وفي رواية الألباني "إِنَّهُ سَيَنْهَاهُ مَا تَقُولُ"[4].

وربما أن هاتين الحالتين كان يعلم الرسول (صلى الله عليه وسلم) بما أوحاه الله إليه أن الصلاة ستأتي معهما بنتيجة، لأن ليس كل الناس تكون الصلاة لهم تأثير عليهم نظرًا لإهمالهم أوقاتها وتقضيتها دون مُحاولة الخشوع فيها، بل وربما انتكس غيرهما وترك الصلاة وازداد فجورًا. لكن مما لا شك فيه هو أن الصلاة تأتي بثمارها مع أغلب الناس، ومن السفاهة إنكار أنها عاملٌ فعَّالٌ بدرجة غالبة. فلا أقول إلا كما قال الرسول (صلى الله عليه وسلم): الصلاة الصلاة؛ وإني على يقين أننا لا ندرك أهمية الصلاة كاملًا، ولن نُقدِّر منفعتها حق تقديرها أبدًا.

---

[1] مسند أحمد 25278.

[2] تفسير القرطبي 320/13.

[3] مسند أحمد 9402.

[4] تخريج مشكاة المصابيح للألباني 1193.

عدم السعي في قضاء الدَينُ لله. كيف لي أن أعصي ربي وطبيعة الحال ليست في صالحي لأني مديون لله والعوامل ضدي؟ قال تعالى {ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ} [السجدة 9]، فمنذ ولادة الإنسان قد سبق وأنعم الله عليه، فوضعه الأَوَّلِي أنه عليه تأدية شكر تلك النعم لله. وبذلك يكون الله له دَين علينا، وهذا الدين يزداد كلما زاد عمر المرء، لاستمرار تفضُّل الله من رزقٍ وسترٍ وعافيةٍ وغير ذلك. فالسفاهة كل السفاهة أن أُضيّع وقتي في اللهو أو المعصية، فذلك يزيد من وضعي سوءًا، فقد لا أقضي الوقت في قضاء الدَين بل أزيد عليه من السيئات إضافةً!! حتى الشكر باللسان أنساه كثيرًا، فلست أُقلِّص ما على من دَين، فهو في زيادة مُستمرة. أهناك من يقضي دَينًا عليه باللهو؟ وكل لحظة أستمتع وأستعمل سمعي أو بصري أو فؤادي فهي محسوبة عليَّ.

إذًا قفوا معي لحظة الآن لأستفهم عن قناعتي أني داخلٌ الجنة... يوم الحساب، سأُلاقي دَين خَلقي ولم أؤدِّ لله حقه، ءأستحق أن أدخل الجنة؟ ثم، ماذا إذا أضفت لذلك سيئاتي التي ارتكبتها.... ءأستحق أن أدخل الجنة الآن إذًا؟؟؟ هذا الكم من الوزن على جنب، وعلى الجانب الآخر من الميزان هناك حسناتي، فأي المجموعتين أتوقع أنها أثقل؟ فعجبًا إن اقتنعت أني داخل الجنة، وعجبًا لاطمئناني بذلك، خاصةً أن الغرور باقتناعي أني ناجٍ من العذاب واستعظام النفس بأني أستحق التكريم هما صفات يبغضهما الله فيحُطّان من قدر العبد عنده تعالى. إذا كان الصحابة (رضي الله عنهم)، الذين أحاول أن أقتدي بهم، كانوا لا يأمنون مكر الله فكانوا لا يستيقنون لأنفسهم السلامة من دخول النار، هذا بالرغم من إيمانهم الراسخ وأعمالهم الصالحة البالغة (شاملةً نشرهم للإسلام) اللتين لا يستطيع أحدٌ من بعدهم أن يُعادلهما.

وكي أُدرك قدر بعض الصحابة، قد جاء عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنه قال في يوم "رأيتُ كأني أُعْطيتُ المَقاليدَ والموازينَ، فأما المقاليدُ فهي المفاتيحُ، فَوُضِعَتُ في كِفَّةٍ وَوُضِعَتْ أُمتي في كِفَّةٍ فَرَجَحْتُ لهم، ثم جيء بأبي بكرٍ فَرَجَح بهم، ثم جيء بعمرَ فَرَجَح بهم، ثم جيء بعثمانَ فَرَجَح، ثم رُفِعَتْ"، فقال له رجل: فأين نحن؟ قال "أنتم حيث جَعلتم أنفسَكم"[1] (المفاتيحُ أي مفاتيح أبواب الجنة). والمعنى أنه وُزِنَ إيمان وأعمال الأمة الإسلامية أمام كل واحد منهم بدءًا بالرسول (صلى الله عليه وسلم)، فرجح (أي مال الميزان في صالحه) هو بالطبع، ثم وُزن أبو بكر وعمر وعثمان (رضي الله عنهم) فكان كل واحدٍ منهم يرجح أمام سائر الأمة. وهذا منطقي، إذ إن أعمال الصحابة (والرسول صلى الله عليه وسلم قبلهم) قادت سائر الأمة إلى الهداية والعمل الصالح، ومن ثمَّ فإن لهم مثل ثواب أعمال الأمة تُضاف إلى ميزان حسناتهم.

[1] تخريج كتاب السنّة للألباني 1138، قال عنه: صحيح. الراوي: عبد الله بن عمر.

أما عن إيمانهم، فقد عاصروا الرسول (صلى الله عليه وسلم) وعاينوا المعجزات وخاضوا نشر الإسلام، وكل ذلك لا يمكن تحصيل مثله أو استيعابه إلا بمعايشته، ودل على ذلك رد سيدنا أبو بكر عندما قيل له (بعد أن أصبح خليفة وارتد جموع من الناس عن الإسلام ومنع آخرون عنه الزكاة): قَدْ نَزَلَ بِكَ مَا لَوْ نَزَلَ بِالْجِبَالِ لَهَاضَهَا، وَبِالْبِحَارِ لَغَاضَهَا، وَمَا نَرَاكَ ضَعُفْتَ! فَقَالَ (رضي الله عنه): مَا دَخَلَ قَلْبِي رُعْبٌ بَعْدَ لَيْلَةِ الْغَارِ، فَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا رَأَى حُزْنِي (أَوْ كَمَا قَالَ) قَالَ: لا عَلَيْكَ يَا أَبَا بَكْرٍ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ تَكَفَّلَ لِهَذَا الأَمْرِ بِالتَّمَامِ[1].

وخوفهم من مكر الله، بالرغم من حُسن إيمانهم وأعمالهم، كان ينبع من قوة إيمانهم واستيعابهم لكلام الله تعالى {أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلاّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ} [الأعراف 99]، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ} [محمد 33]. وأيضًا لأحاديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) مثل "فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى لا يَكُونُ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ إِلا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُ النَّارَ، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ إِلا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا"[2]؛ فكانوا يخشون أنهم قد لا ينجون من النار!!!

هذا بالإضافة إلى أن من يتفكر بحق، ويستوعب سُنن الحياة، يجد أنه لا يمكن أن يُوفِّي لله حقه، فلن يستطيع أن يعبده حق عبادته إذ إن شكر الإنسان وعبادته لله في حد ذاتهما نِعم من الله على العبد بتوفيقه لذلك! فهذا سردٌ لحال أناس (رضي الله عنهم) كانوا روَّاد نصرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) في إقامة الإسلام، وعانوا وجاهدوا وصبروا ورابطوا لنشر الدين الذي أُنزل على رجل واحد (الرسول صلى الله عليه وسلم)، حتى انتشر كما نراه الآن، فما بالى بموقفي؟! وكيف ينبغي أن يكون حالي في توقعي لمصيري!؟!

وقد قال أيضًا الرسول (صلى الله عليه وسلم) "لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ"، فقال الصحابة (رضي الله عنهم): وَلا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟! قال "لا، وَلا أَنَا إلا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَلا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ، إِمَّا مُحْسِنًا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَزْدَادَ خَيْرًا وَإِمَّا مُسِيئًا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَعْتِبَ"[3] (يَتَغَمَّدَنِي أي يصيبني أو يدركني؛ فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا تشير إلى التوسط في العمل دون إفراط أو تفريط، مع الاجتهاد في ذلك). فكيف أطمئن في حياتى وأركن إليها وقد علمت أن عملي ليس مقصوده المباشر هو إدخالي الجنة –بما أن قدره لن يوفِّي ثمنها–، ولكن مقصوده الفوز برضا الله ورحمته. أغنيٌ أنا عن رحمة الله إذًا!؟!

---

[1] منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية لأبي العباس تقي الدين ابن تيمية 455/8.

[2] صحيح البخاري 6900، جزء من الحديث.

[3] صحيح البخاري 5241.

فأنا مولودٌ مديونٌ إلى الله من البداية، ولا يزال يزداد ما دمت أتنفس، ويزداد ذلك الدين بمعدلٍ فاجع إذا تركت نفسي تفعل ما تشتهي فعصيت الله، ولقُدت نفسي إلى النار. قال الله تعالى {كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ} [آل عمرن 185]، فإذا كانت كل نفس تذوق الموت، لماذا أرتكب المعاصي؟ ما الفائدة وأنا أتيقن الموت؟ "وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ" وعدٌ مُقلق... لأن مهما فعلت من خير.. هل أني وفيت نعم الله عليَّ؟ هذا وبغض النظر عن سيئاتي أيضًا.

إني عاقل، وإني أعلم أن الحياة الدنيا لقصيرة لا تقارَن بالآخرة، فلماذا أعصي ربي؟ أرضيت بالحياة الدنيا؟ إن زُحزحت عن النار فحسب أكون قد فزت! وما نسبة ذلك الفوز مقارنة بأي فوز فزته من قبل أو يمكنني فوزه في الدنيا؟! والمعلوم أن المرء إذا أفلت زمام نفسه وتركها دون مانع فإنه يقع تحت طائلة هواه، يتبع شهواته إذ لا يمنعه مانع من نفسه، ومن ثمَّ من المُتوقع أن المرء إذا ترك نفسه انتهى به المآل إلى النار (لأن النار حُفت بالشهوات)، أما دخول الجنة فيحتاج إلى كبدٍ حتى يُزحزح المرء دربه من تجاه النار إلى تجاه الجنة.

وقال تعالى زاجرًا لمن يعصيه واسترجاعًا له {قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (17) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (18) مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (19) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (20) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (21) ثُمَّ إِذَا شَاء أَنشَرَهُ (22) كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ (23) فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ} [عبس 17–24]. يا نفس، إذا فشل معك كل شيء، وانقطع عنكِ السُبل التي تؤثر فيكِ، فلم تخضعي وأصررتِ على المعصية، فتذكري تلك الآيات.

تذكري أنك تجحدين بنعم الله عليك فتعصينه بعد أن أنعم عليك ورزقك، وتذكري من أين جئتِ وماذا كنتِ، وإلى أي شيءٍ ستصيرين، وماذا سيُفعل بكِ، ولن تجدي ما تشتهين عند الله حتى تقضي ما أمرك به. وإن أردتِ شيئًا ملموسًا كي تتأدبي، فانظري إلى طعامك الجميل، مَن أرسله ومما اشتُقّ، وكيف أنه خُلق خصوصًا لكِ، فالذي يقدر على أن يجعلك تسعدين بشيءٍ قد خلقه قادرٌ على أن يجعلك تجزعين، فإنه ليس بشيء ملموس أكثر مما يدخل في جوفك ويصبح جزءًا من تكوينك، فارضخي طوعًا اليوم أو ارضخي كرهًا ذاك اليوم.

وإلمامًا للصورة المجملة، فإن الدَين على عاتقي منذ أن خُلقت، ويزداد مع إنعام الله عليَّ، ويتفاقم الوضع أكثر عندما أعصي الله، ولكن أتعلمون أن لله دَينٌ على المؤمن يوم القيامة أيضًا؟ أليس عون الله للعبد في النجاة نعمة عظيمة من نعم الله؟ من الذي يُخفف على العبد ويغفر له وقت الحساب عندما لا تكون أعماله الموزونة في صالحه؟ من الذي يعين العبد على اجتياز جسر جهنم الذي يستحيل على أي مخلوق عبوره بمجهوده؟ وموقفنا رهيب لا يحتمل الاستخفاف به، فقد قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "يُوضَعُ المِيزَانُ يومَ القيامةِ فَلَوْ وُزِنَ فيهِ السَّمَاوَاتُ والأرضُ لَوَسَعَتْ، فَتقولُ الملائكةُ: يا رَبِّ لِمَنْ يزِنُ هذا؟ فيقولُ اللهُ تعالى: لِمَنْ شِئْتُ من خَلْقِي، فَتقولُ

الملائكةُ: سبحانَكَ ما عَبَدْناكَ حقَّ عِبادَتِكَ. ويُوضَعُ الصِّرَاطُ مِثْلَ حَدَّ المُوسَى فَتقولُ الملائكةُ: مَنْ تُجِيزُ على هذا؟ فيقولُ: مَنْ شِئْتُ من خَلْقِي، فَيقولونَ: سبحانَكَ ما عَبَدْناكَ حقَّ عِبادَتِكَ"[1].

الملائكة الذين يعبدون الله ويُسبّحونه منذ أن خلقهم ولا يعصونه أبدًا يقولون "سبحانَكَ ما عَبَدْناكَ حقَّ عِبادَتِكَ"، وهذا الكلام يشير إلى أن معاينة الملائكة لعظمة خلق تلك الأشياء، وأن المعافاة من خوض فرز العباد (الصالح من الفاسد) من خلال تلك المراحل المهيبة، جعلتهم يدركون أن الله يستحق أن يُعبد أكثر مما قَدَّموه، فماذا أقول أنا وقد عصيت ربي؟ أضمنت أن أدخل الجنة؟ ومن أين ينبع الغرور –غير المتناسب مع حجمي في الكون ولا مع أعمالي– الذي بداخلي؟ فمهما بلغت ما أبلغه في الدنيا من جاه، حتى لو أنني أصبحت سلطانًا كبيرًا وكنت في غنى عن أي أحد، فكيف أستغنى عن ربي عندما أعبر صراطًا تتعجب الملائكة من أن يجتازه أحد! أفيعبره عاصٍ لربه؟! أفيعبره من لا يرضى عنه الله؟! أيعبره من نسيه الله، أو غضب عليه؟

فحقيقة الوضع بين الله وبيننا هي علاقة الرب مع عبده، علاقة تفضُّل دائم وغزير بحث لا يمكن للعبد أبدًا أن يُوفّي حق نعم الرب عليه؛ فهذا هو الله وهكذا يُحب أن تظل علاقته بعباده ما دام لا يستغلون إحسانَه. وعدم استغلال إحسانه يكون بأن ينوي العبد أن يقضي أكبر قدر ممكن من دَينِه لله، ثم تجسد هذه النية في صورة العمل بطاعة الله وتجنب عصيانه.

عدم التفقه في الدين. إن المرء إذا جهل عن دينه فكيف يُحافظ عليه بإقامته؟ وكيف يدافع عنه من اعتداء المعتدين ورد الشُبه من الحاقدين؟؟ ومن لم يتعلم أوشك أن يضل ويستهويه غرور المغرورين، فيُصدِّقهم ويتبعهم ولا يكتشف خداعهم له إلا عندما يلقى الله، فيكتشف أنهم قد استجهلوه واستسفهوه فغَرَّروه. والمصيبة الأكبر هو كيف يجيب من لم يتعلم قوانين دينه (الذي هو قد قَبِلَه وارتضى به) سؤال الله له عندما يسأله لماذا لم يسعَ لتعلمه، خاصةً لو بلغ من العمر مبلغًا! والداهية الأكبر والأكبر إذا كان عالمًا في علوم الدنيا، مجتهدًا فيها، فبلغ الاحتراف في مجاله ومعه شهادات رفيعة المستوى ولكنه لم يُكلِّف نفسه عناء التعلم عن دينه... وقدر العلوم الشرعية –ومن ثمَّ العالم الشرعي– يُوَضَّح لنا في الكتاب والسُنة، مثلما في الآية {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء} [فاطر 28، جزء من الآية]، وقول سيدنا محمد (عليه الصلاة والسلام) "مَنْ يُرِدْ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ وَاللَّهُ يُعْطِي، وَلَنْ تَزَالَ هَذِهِ الأُمَّةُ قَائِمَةً عَلَى أَمْرِ اللَّهِ لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ"[2].

---

[1] السلسلة الصحيحة للألباني 941.

[2] صحيح البخاري 69.

وإلمامًا لهذا الموضوع عن طريق بيان عاقبة عدم تعلم العلوم الشرعية، أذكر حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "لا تَكُونُوا إِمَّعَةً، تَقُولُونَ: إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنَّا وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا؛ وَلَكِنْ وَطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا، وَإِنْ أَسَاءُوا فَلا تَظْلِمُوا"[1] (إِمَّعَةً أي من يُقلد غيره في القول أو العمل، خاصةً لو بسلبية أو عميانًا). ففي الحديث دلالة على أن الرجل الإمعة يموج بحسب سير اتجاه الناس، سواء كانوا على الحق أم الباطل، ولكن تلك ليست الظاهرة الوحيدة في الشخص الإمعة، فإنه فوق ذلك ليست له شخصية فلا يُعارض الناس إذا أفسدوا وعصوا الله، بل يتبعهم لأنه ترك عقله خاويًا من العلم فأصبح عُرضة لسُمّ كل ناعق.

جاء في تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي: وَقَالَ صَاحِبُ الْفَائِقِ: هُوَ الَّذِي يُتَابِعُ كُلَّ نَاعِقٍ وَيَقُولُ لِكُلِّ أَحَدٍ: أَنَا مَعَك؛ لأَنَّهُ لا رَأْيَ لَهُ يَرْجِعُ إِلَيْهِ. وَمَعْنَاهُ: الْمُقَلِّدُ الَّذِي يَجْعَلُ دِينَهُ تَابِعًا لِدِينِ غَيْرِهِ بِلا رُؤْيَةٍ وَلا تَحْصِيلِ بُرْهَانٍ (اِنْتَهَى كَلامُهُ). قَالَ الْقَارِي بَعْدَ نَقْلِ هَذَا الْكَلامِ عَنْ الْفَائِقِ مَا لَفْظُهُ: وَفِيهِ إِشْعَارٌ بِالنَّهْيِ عَنْ التَّقْلِيدِ الْمُجَرَّدِ حَتَّى فِي الْأَخْلَاقِ فَضْلًا عَنْ الاعْتِقَادَاتِ وَالْعِبَادَاتِ... ثم جاء: وَالْمُرَادُ هُنَا مَنْ يَكُونُ مَعَ مَا يُوَافِقُ هَوَاهُ وَيُلائِمُ إِرْبَ نَفْسِهِ وَمَا يَتَمَنَّاهُ (انتهى بتصرف). وعادة ما يكون المرء هكذا بسبب قلة تفقه في العلوم الشرعية، إذ إنه لو تعلم لازداد خشيةً من الله فلم يجرؤ على أن يفعل مثل ذلك، وهو أن يكون ضعيفًا فيجعل دينه بحسب دين الناس، وأن يتَّبع كل متفاخر متكبر مغرور يدعو إلى اتباع الهوى ونبذ الأحكام الإسلامية، وأن يظلم الناس، فكل تلك السمات من تبعات الجهل الفقهي.

وهناك أسئلة صريحة كثيرة حول هذه القضية تضع الذي لا يتفقه عن دينه، عند الإجابة، في موضع مُخجل أو يصعب عليه الإجابة دون مُخالفة المنطق، منها: إذا كان المرء يرتكب فعلة طوال حياته ثم يكتشف عند الحساب أنها مُحرَّمة، فمن الذي يُلام ويقع عليه الوزر؟ وإن كانت فيها مظلمة لشخص فظل يتأذى منها، فهل للمظلوم حسنات تعويضًا على عنائه أم أن حقه ضاع، فإن كان له فممن يأخذها؟ ولو أن الفرد، التارك للتفقُّه، يُحافظ على صلواته في المسجد ولكنه اكتشف يوم القيامة أنه كان يترك شيئًا واجبًا للطهارة (مثل الاستنجاء بعد التبول أو شمل الكفَّين في غُسل اليدين عند الوضوء)، هل يرى أن تُحسب له صلواته؟ إذا لم يتفقه المرء في الدين بحيث يعي أساليب غير المسلمين في المُكايدة على الإسلام والمسلمين، ثم نتج عن هذا أنهم استطاعوا غزو بلاد المسلمين، فهل يُحسب أنه قصَّر في الدفاع عن الإسلام؟ مثل هذه الأسئلة تكاد تكون لا نهاية لها.

[1] سنن الترمذي 1930.

الاجتهاد في تعلم علوم الدنيا دون السعي في تعلم فقه الدين. إذا كان المرء يُهمل في تفقه أساسيات الدين فهذا تصرفٌ خطير، أما إن كان يُهمل في تعلم تلك العلوم ومع ذلك يجتهد بشدة في تعلم علوم الدنيا فذلك تصرف أقبح، فهو بمنزلة من آثر الدنيا على الدين. هذا لأن المرء له موارد طاقية وزمنية محدودتان، فإن وظَّفهما في تعلم علوم الدنيا دون علوم الدين فهو بمنزلة المؤثر للدنيا على الآخرة، فماذا يُقال عن العالم الفذ في فرعٍ من علوم الدنيا ومع ذلك لا يُحسن قراءة القرآن أو لا يدري فقهيات طهارة الجسد؟ فلا مانع في تعلم علوم الدنيا والترفع فيها (بل وذلك مطلوبٌ منه مع تعلمه عن دينه) ما دام أن ذلك ليس ذلك على حساب تعلم أساسيات العقيدة والفقه، والتي يحتاجهم المرء في حياته اليومية.

قال تعالى {يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ} [الروم 7]. يخبر تعالى عن أكثر أحوال الناس أنهم يعلمون أمور الدنيا من زراعة وتجارة وبناء وغير ذلك، وهي ظاهر المراد من الدنيا، ويغفلون عن الغاية الحقيقية من الدنيا وسبب خلقهم: عبادة الله. فترى من الناس من بلغ في علم إدارة المال حتى يصبح نبيهًا وماهرًا وغنيًّا، فيتخذه الناس قدوةً، ولا يعلم من أمور الآخرة إلا القليل ولا يعمل لآخرته. وتُلاحظ في الحقيقة أنه يفتقد إلى الحكمة والمنطق، فيكون إنجازه في أمور الدنيا هباءً عليه في المحصلة، لأن قلة حكمته أضاعت قيمة ما لديه من نعم إذ إنها لا تُحسب لصالحه في الآخرة، بل قد تكون عليه عبئًا إن اكتسبها أو أنفقها في مُحرمٍ أو لم يؤدِّ شُكرها.

وهذا تمامًا مثل الذي بنى قصرًا على شفا جبل ينهار، أو ينحت شيئًا من ثلج أو يبني بالرمال، فإنهم يضيعون ساعات من المجهود الشاق الذي مصيره إلى الفناء المحتوم في خلال لحظات، كالمثل الذي ضربه الله في الكفار {وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} [النحل 92]. فأما الكافر فكل عمله يصبح هباءً، وأما المسلم العالم في دنياه المتكاسل في دينه فالذي كان من عمله الصالح ليس لله فيه شيء يجعله الله هباءً.

وقد قال الحسن البصري (رحمه الله): وَاللَّهِ لَبَلَغَ مِنْ أَحَدِهِمْ بِدُنْيَاهُ أَنَّهُ يَقْلِبُ الدِّرْهَمَ عَلَى ظُفْرِهِ فَيُخْبِرُكَ بِوَزْنِهِ، وَمَا يُحْسِنُ أَنْ يُصَلِّيَ[1]. وهذه مصيبة كبيرة لأن الشيطان قد انتصر عليهم وجعلهم يُرصفون طريقًا في الإتجاه الخاطئ، ولا يدركون ذلك إلا في منتهى الطريق. وليست الحياة طريقًا يُرصف إذ إن الطريق قد يُعدَّل أو يُهدَم ويُعاد وضعه، ولكن الحياة فرصة واحدة فحسب، خابت أو صابت.

[1] تفسير ابن كثير 305/6؛ تفسيرًا لآية سورة الروم.

فالضياع كل الضياع لمن جمع علم الدنيا مع الجهل بعلم الدين، لأن من جمع فقط الدنيا يغتر بما وصل إليه من إنجاز، ويتأول في أمور دينه ظنًّا أنه يصيب في دينه بمهارته. بل منهم من يرى أنه حتى إن أخطأ في أمور دينه، فإن ما قدَّمه من فوائد في علوم الدنيا يرفع عنه أخطاءه وتقصيره في أمور دينه! ولكني أسأل كل عالم في علوم الدنيا، هل يمكن لمن يتعلم فقط علوم الدين أن يُصيب رأيه عندما يُفتي في تفاصيل علوم الدنيا مثل الطب والهندسة وغير ذلك؟

الذي يجمع علوم الدنيا دون علم دينه تتعاظم نفسه لما يراه من مدح الناس له، ورغبتهم وإعجابهم بما بلغه ومحاولتهم الامتثال به، فيصعب عليه قبول الموعظة والنصيحة لأنه يرى أنه أفضل من كثير من الناس، ومن ثم يسُد على نفسه فُرَص الرجوع إلى أصل الهدف من الدنيا، وهي التفقه والعمل للآخرة. فكيف لهذا الشخص أن يرضى بالخوض في مجالٍ لن يكون متميزًا فيه أمام الآخرين لأنه جاهل فيه (أمور الآخرة)، وقد تعودت نفسه على الريادة والتألق والشُهرة ومدح الناس له بسبب تميزه في علوم الدنيا؟

والمُحزن أن في بعض الدول الإسلامية تُدَرِّس المدارس مواد علوم الدنيا وتترك أو تتهاون بقيمة مواد الدين فلا تدرِّسه أو لا تُدخله في المجموع التقييمي، وهذا يُهيئ الطلبة أن يسيروا على هذا النمط في حياتهم! والنتيجة أن من يسقط في هذا الفخ لن يبالي كيف يُحَصِّل دنياه، أمن حرام أم حلال. العقبة في الأمر أنه قد أمضى أمدًا طويلًا ومجهودًا كثيفًا في تعلم علوم الدنيا، منذ أن يدخل المدرسة حتى يُكمل دراساته العُليا بينما لا يزال يجهل أهم ما في الحياة، ويظل عليه بذل الجهد لتعلم علوم دينه. وفي خلال هذا المشوار لا يدرك أهمية التعلم عن أمور دينه وربما حتى لا يكترث، ولكن أين عذره عندما يبلغ من العمر ما بلغ ولم يتفقه بعد، خاصةً أن المجهود المطلوب لتعلم العلوم الأساسية في الدين ليس مثل المجهود المطلوب لتعلم علوم الدنيا.

المصيبة الكبرى هي أن هذه الصفة قد تفيض بالشخص إلى أن يغتر بما حصَّله من علوم الدنيا، ومكانته عند الناس، وتمكُّنه من الدنيا، إلى حد أنه يرى أن لا داعي من تطبيق الدين ويتّبع دعوات غير المسلمين في فصل الدين عن جوانب الحياة العملية، ويبدأ بانتقاد بعض أحكام الإسلام، كما سنتكلم عنه تفصيليًّا قريبًا إن شاء الله. هذا الشخص قد وضع نفسه تحت طائلة الأسئلة التي يسألها الله للمُكذّبين بآياته {وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ (83) حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (84) وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ} [النمل 83-85].

هؤلاء لا يجدون ما يقولونه لله إذ لا حُجة لهم، ولذلك يسكُتون، ويعرفون أنهم افتروا وعاندوا، فأي شيء سيقولونه سيُورِّطهم أكثر، فلا يُجيبون، إذ ماذا سيقولون؟ هل سيقولون 'لم يكن عندنا وقت كاف في الدنيا' بينما بلغوا من العمر ما بلغوا؟ هذه مُخادعة. أم سيقولون 'لم يُرشدنا أحد

إلى العلم الشرعي' حينما اعترضهم ونصحهم كثير من المسلمين فيما يقولونه ويفعلونه؟ فهذا كذب. أم سيقولون 'لم يكن عندنا الجهد الكافي للتعلم عن الدين' وهم قد احترفوا علمًا من علوم الدنيا بينما يعلمون أنهم خُلقوا أساسًا لعبادة الله؟! وهذه من أقبح الأعذار التي قد تُقال. إن موقفهم عصيب، ينبغي للمرء منا أن يحترس من وضع نفسه فيه.

عدم العمل بما تعلمه من العلوم الشرعية. كان أبو الدرداء (رضي الله عنه) يقول: إِنَّ أَشَدَّ مَا أَخَافُ عَلَى نَفْسِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ يُقَالَ لِي: يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ، قَدْ عَلِمْتَ، فَكَيْفَ عَمِلْتَ فِيمَا عَلِمْتَ؟[1]. واعلم أخي، أن عدم العمل بما يعلمه المرء يُمرض القلب، وأدعى أن ينزع الله منه العلم، فإن كان ذلك نهج عامة الأمة، رفع الله العلم عن الأمة (وذلك يحدث في آخر الزمن). فالحقيقة أننا مُكلفون بالعمل، لأننا نحتاج إلى علوم الإسلام كي نعيش على الأرض، وهي نعمةٌ عظيمة، ولكن لتلك النعمة حقٌ على المرء بعد تحصيلها، وهو العمل بها، ومن ثَمَّ يكون الوضع أننا نحتاج إلى العمل، لأن البديل هو عدم التعلم إذا لم نُرد أن نعمل ومن ثَمَّ السير في الأرض ضالّين.

فضعف التمسك بشرائع الله وقلة تطبيقها من الأفعال المتناقضة، إذ إن المرء يحتاج إلى تلك العلوم ولكن لا يُفعِّلها، فأنى الفائدة الملموسة وأين ثمار ما تعلمه؟ إنك إذا سألت عامة الناس هل يرون أنفسهم يؤدون ما يكفي من دينهم في معظم أحوالهم سيجيبون بنعم، وغالبًا نجد أن تلك هي إجابتنا أيضًا في قرارة أنفسنا إذا سألنا أنفسنا ذلك السؤال، وإن لم نتفوه بها صراحةً. الإنسان بطبعه دائم الإعلاء من قدر نفسه حتى إن كان مُقصِّرًا، فإنك قلَّما تجد شخصًا يُقر أنه مُفسد في الأرض أو فاجر.

ولنتجنب الوقوع في ذلك الفخ، فإن المرء يجب أن يُقَيِّم الوضع بموضوعية، ينظر لنفسه كأنه يُقيّم رجلًا غريبًا، فينظر إلى الأدلة والمؤشرات العملية ولا يلتفت إلى النيات والظنون والمشاعر والمُبررات. كثُر من يتكلم كلامًا جميلًا ولكن أفعاله تُناقض ذلك، مثل من قال الله فيه {وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (204) وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ (205) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ} [البقرة 204-206].

وذلك مثل الذين يقولون إن إيمانهم قوي ومع هذا يرتكبون كثيرًا من الآثام في أفعالهم، بل وقد تُعادي بعض أفعالهم الإسلام أو المسلمين، فقد خدعوا أنفسهم لأن العمل هو انعكاسٌ لباطن المرء. وتفسير أنهم يَدَّعُون التقوى بينما أعمالهم تناقض التقوى من غضب الله هو أن بداخلهم جزءًا

[1] الجواب الكافي لابن القيم 41.

محسنًا وجزءًا باطلًا، ولسانهم قد يتكلم بالجزء المحسن ولكن الجزء الباطل قد غلب في قلوبهم ولذلك ظهر في العمل. والسؤال المنطقي هو: لو كان حقًّا تقيًّا فما هي العقبة التي يراها تُعيقه من أن يُصلح عمله حتى يتوافق مع كلامه؟ ولو كان قلبه ممتلئًا بالإيمان فلماذا يصعب عليه ترك المعاصي إذًا؟

وبعد كل هذا الكلام عن تقييم المرء لنفسه فلننظر بحيادية الآن على معيار منهم، فما كل هذه البلاءات من أمراض وسراعات داخلية بالقتال والفتن المُبعدة عن الدين وضعف الأمة الإسلامية والتأخر العلمي والاقتصادي وجُرأة الأمم الكافرة علينا وهيمنتهم على الأمة الإسلامية؟ كل ذلك ليس له معنى آخر إلا أن أغلب الناس مُقَصِّرون في التمسك بكتاب الله، أي أننا لا نتمسك بكتاب الله ما يكفي لنيل رضاه عنا فتركنا، بل وأنزل علينا بأسه في صيغة فتنٍ ومشقَّاتٍ وذلةٍ وضيق معيشة لعلنا نتضرع إليه ونستقيم، وتلك هي الحقيقة المؤلمة.

ويا أخي، لا تنظر حولك، فتلك المحن التي فيها الأمة الإسلامية أنا وأنت لنا يدٌ فيهن بتقصيرنا، فلا داعي أن نبحث بعيدًا فيمن حولنا لنلقي عليهم اللوم. فلنكن صريحين مع أنفسنا، ولو أن كُل واحدٍ قال هذا مُقصِّر وهذا مُقصِّر فلن يُصلح نفسه لأنه يرى نفسه أنه على ما يرام وفعل ما عليه، وهذه هي الطريقة التي وصلنا بها لما نحن فيه الآن من انحدار في المقام الأول! وفي أحسن الافتراضات، إن كان بيني أنا وأنت من هو صالحٌ كما ينبغي، فقد أعذر نفسه أمام الله مما يقع على الأمة من ابتلاءات، ولكن على الأقل هل نأمر بالمعروف وننهى عن المُنكر أم تركناه فهي علةٌ واحدةٌ من بين العلل التي فينا يا أخي؟

وإذا نظرنا إلى حالنا وحال الذين سبقونا سيتضح لنا لماذا نحن فيما نحن فيه، فإنهم كانوا يتحملون الأمرَّين كي يُمكِّنوا هذا الدين في الأرض ولو على حساب أنفسهم. أما أنا وبالرغم من أني في رخاء، وعاصرت الإسلام وهو معروف ومنتشر في الأرض، فإني لا أعمل به حق عمله فخذلته، بل وهذا الجهد أبذله في ترتيب المعاصي! هذا وقد روى لنا خَبَّاب بن الأَرَتّ (رضي الله عنه) عن حال الإسلام والمسلمين قبل انتشاره وعُلُوّه (وكان هذا في فترة ما قبل الهجرة من مكة، حين كان يلقى القلة الذين أسلموا أذًى كثيرًا من مشركي قريش) قال: شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بُردةً له في ظل الكعبة قلنا له: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو الله لنا؟ قال لهم النبي (صلى الله عليه وسلم) "كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهِ، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ. وَاللَّهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لا يَخَافُ إِلا اللَّهَ أَوْ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ"[1].

---

[1] صحيح البخاري 3343.

لا إله إلا الله. هذا الحديث يثير غضب وغيرة المسلم لما كان يُفعل مع المؤمنين عبر الأزمنة، إذ كان يفعل بالمؤمن ما ذُكر فقط لأنه يشهد أنه لا إله إلا الله، ومع هذا لا يتنازل عن دينه. أما الآن بالمقارنة، نجد من يبيع دينه لغرض من أغراض الدنيا الزائلة، مُقبلًا على ذلك بإرادته، وربما يكون ذلك الغرض تافهًا أيضًا حتى بمعايير الدنيا (مثل لسمعة أو رضا أحد الناس عنه أو لمبلغ يسير من المال)، بل وقد يفرح بتلك الصفقة لأنه يرى أنه المغتنم منها!

بل هناك من يبيع دينه (ومن ثم آخرته) لدنيا غيره، مثل الذي يشهد شهادة الزور كي يُبرئ قاتلًا، أو كالذي يجاري صديقه أو رئيسه أو حاكمه على الظلم كي ينال رضاه، أو الفقيه الذي يُبرر الباطل بتحريف تأويل الأدلة كي يمضي السلطان في فجوره. فكل هؤلاء يتشابهون في الفعلة مع القاتل (إن لم يكونوا مثله بالفعل، فإن من العلماء المفتيين للسلطان من تسببت كلمتهم في سفك دماء أفواج من المسلمين) الذي قال فيه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "يَجِيءُ الرَّجُلُ آخِذًا بِيَدِ الرَّجُلِ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ هَذَا قَتَلَنِي، فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: لِمَ قَتَلْتَهُ؟ فَيَقُولُ: قَتَلْتُهُ لِتَكُونَ الْعِزَّةُ لَكَ، فَيَقُولُ: فَإِنَّهَا لِي؛ وَيَجِيءُ الرَّجُلُ آخِذًا بِيَدِ الرَّجُلِ فَيَقُولُ: إِنَّ هَذَا قَتَلَنِي، فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: لِمَ قَتَلْتَهُ؟ فَيَقُولُ: لِتَكُونَ الْعِزَّةُ لِفُلانٍ! فَيَقُولُ: إِنَّهَا لَيْسَتْ لِفُلانٍ؛ فَيَبُوءُ بِإِثْمِهِ"[1].

وخاصةً فيما يتعلق بالفقيه الذي يُلوي مقاصد النصوص لتُناسب سلطانه، قد ورد عن مالك بن أنس أنه قال: قال لي أستاذي ربيعة (رضي الله عنهما): يا مَالِك، مَن السَّفِلَةُ؟ قَالَ: من أكل بدينه، قَالَ: فَمنْ سَفِلَةُ السَّفِلَة؟ قال: من أصلح دُنْيَا غيره بفسادِ دينه، قَالَ: زِدْ، صَدَقْتَني [أي أقرّ بكلامه][2]. ولا شك أن مثل هؤلاء وكل منافق عليم اللسان، وربما شريحة من الرويبضة أيضًا، لهم صنفٌ خاص بهم من العذاب عند الله لاستهزائهم بعلوم الدين بعد أن تعلموها، ولتهاونهم بعقاب الله، ولتوريطهم جموع المسلمين في المهالك.

فهناك من العلماء (وللأسف) من يُفتي فتوة تُناسب الحاكم لإرضائه ولبلوغ مكانة عنده. وفي بعض النماذج رأينا من يُصدر فتوةً تكون مُعاكسة وبشدة لما كان يُفتي به من قبل، حين كان يُفتي بالصواب لعدم تأثير أحد من الناس على فتواه، فهذا أيضًا ممن باع دينه لدنيا يصيبها غيره. بل هو أسوأ لأنه خان أمانات عظيمة، إذ أخذ الله ميثاق الذين أوتو العلم أن يُبيّنوه للناس، وإذ يثق الناس في فتواه ويعتمدون عليه ليدلهم على الشرائع الحق، ويعملون بها بسبب تفوقه عنهم في علوم الدين، ولكنه في النهاية ابتغى بذلك مصلحة شخصية. وقد جاء عن عبد الله بن مَسعُودٍ (رضي الله عنه) قال: لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ صَانُوا الْعِلْمَ وَوَضَعُوهُ عِنْدَ أَهْلِهِ لَسَادُوا بِهِ أَهْلَ زَمَانِهِمْ، وَلَكِنَّهُمْ بَذَلُوهُ لأَهْلِ الدُّنْيَا لِيَنَالُوا بِهِ مِنْ دُنْيَاهُمْ فَهَانُوا عَلَيْهِمْ، سَمِعْتُ نَبِيَّكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ "مَنْ جَعَلَ الْهُمُومَ هَمًّا

[1] سنن النسائي 3932.

[2] الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي المعافى لابن زكريا 218.

وَاحِدًا: هَمَّ آخِرَتِهِ، كَفَاهُ اللَّهُ هَمَّ دُنْيَاهُ؛ وَمَنْ تَشَعَّبَتْ بِهِ الْهُمُومُ فِي أَحْوَالِ الدُّنْيَا لَمْ يُبَالِ اللَّهُ فِي أَيِّ أَوْدِيَتِهَا هَلَكَ"[1].

هؤلاء أوشكوا أن يكونوا مثل الذين قال تعالى فيهم، إن لم يكونوا بالفعل أصبحوا مثلهم، {وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [آل عمران 78]؛ {فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ} [المائدة 13، جزء من الآية]. فمع النعمة البالغة (العلوم الشرعية) بالإضافة إلى المسؤولية عن مُهمَّة جوهرية (عهد الله عليهم ببيان العلوم للناس) تأتي معهما عقوبة شديدة عند الإخفاق عمدًا.

وها هنا لا أستطيع ألا أذكر واقعة للإمام البصري (رحمه الله)، لما فيها من عظة غالية، وقراءة واضحة للوضع، وحكمة بالغة في التعامل مع الموقف، وإيمانٌ قوي وثابت حتى في المواقف العصيبة، وخلاصة الكلام النافع الذي فيه تقوى لله نفتقر إلى مثلها. هذه الواقعة هي حين دعا عمر بن هُبيرة (وكان واليًا على العراق، قد ولَّاه أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك) كُلًّا من الحسن البصري وعامر بن شراحبيل (المعروف بالشعبي) وقال لهما: إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ [يزيد بن عبد الملك] يُنْفِذُ كُتُبًا أَعْرِفُ أَنَّ فِي إِنْفَاذِهَا الْهَلَكَةَ، فَإِنْ أَطَعْتُهُ عَصَيْتُ اللَّهَ، وَإِنْ عَصَيْتُهُ أَطَعْتُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، فَهَلْ تَرَيَا لِي فِي مُتَابَعَتِي إِيَّاهُ فَرَجًا؟ فَقَالَ الحسن: يَا أبا عمرو أَجِبِ الأَمِيرَ. فَتَكَلَّمَ الشَّعْبِيُّ فَانْحَطَّ فِي حَبْلِ ابْنِ هُبَيْرَةَ (أي جاراه؛ وفي رواية جاء أنه قال: أنت مأمور، والتبعة على من أمرك[2]) فقال: مَا تَقُولُ أَنْتَ يَا أبا سعيد؟ فَقَالَ [البصري]: أَيُّهَا الأَمِيرُ قَدْ قَالَ الشَّعْبِيُّ مَا قَدْ سَمِعْتَ، قَالَ: مَا تَقُولُهُ أَنْتَ يَا أبا سعيد؟! فَقَالَ: أَقُولُ يَا عُمَرُ بْنَ هُبَيْرَةَ يُوشِكُ أَنْ يَنْزِلَ بِكَ مَلَكٌ مِنْ مَلائِكَةِ اللَّهِ تَعَالَى فَظٌّ غَلِيظٌ لا يَعْصِي اللَّهَ مَا أَمَرَهُ، فَيُخْرِجُكَ مِنْ سَعَةِ قَصْرِكَ إِلَى ضِيقِ قَبْرِكَ (حيث لا تجد هناك يزيد، وإنما تجد عملك الذي خالفت فيه رب يزيد[3])، يَا عُمَرُ بْنَ هُبَيْرَةَ إِنْ تَتَّقِ اللَّهَ يَعْصِمْكَ مِنْ يزيد بن عبد الملك، وَلا يَعْصِمُكَ يزيد بن عبد الملك مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. يَا عُمَرُ بْنَ هُبَيْرَةَ لا تَأْمَنُ أَنْ يَنْظُرَ اللَّهُ إِلَيْكَ عَلَى أَقْبَحِ مَا تَعْمَلُ فِي طَاعَةِ يزيد بن عبد الملك نَظْرَةَ مَقْتٍ فَيُغْلِقَ فِيهَا بَابَ الْمَغْفِرَةِ دُونَكَ، يَا عُمَرُ بْنَ هُبَيْرَةَ لَقَدْ أَدْرَكْتُ نَاسًا مِنْ صَدْرِ هَذِهِ الأُمَّةِ كَانُوا وَاللَّهِ عَلَى الدُّنْيَا وَهِيَ مُقْبِلَةٌ أَشَدَّ إِدْبَارًا مِنْ إِقْبَالِكُمْ عَلَيْهَا وَهِيَ مُدْبِرَةٌ، يَا عُمَرُ بْنَ هُبَيْرَةَ إِنِّي أُخَوِّفُكَ مَقَامًا خَوَّفَكَهُ اللَّهُ تَعَالَى فَقَالَ {ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ}، يَا عُمَرُ بْنَ هُبَيْرَةَ

---

[1] سنن ابن ماجه 253.

[2] تاريخ الإسلام للإمام الذهبي 207/7.

[3] صورة من حياة التابعين لعبد الرحمن الباشا 17.

إِنْ تَكُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى فِي طَاعَاتِهِ كَفَاكَ بَائِقَةَ يزيد بن عبد الملك، وَإِنْ تَكُ مَعَ يزيد بن عبد الملك عَلَى مَعَاصِي اللَّهِ وَكَلَكَ اللَّهُ إِلَيْهِ[1].

وفي رواية أخرى جاء أنه قال أيضًا: يا ابن هبيرة، خف الله في يزيد ولا تخف يزيد في الله. يا بن هبيرة، إن الله مانعك من يزيد وإن يزيد لا يمنعك من الله. يا بن هبيرة، لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، فانظر ما كتب إليك فيه يزيد فاعرضه على كتاب الله تعالى، فما وافق كتاب الله تعالى فأنفذه، وما خالف كتاب الله فلا تنفذه؛ فإن الله أولى بك من يزيد، وكتاب الله أولى بك من كتابه[2].

فسبحان الله، فمن الموقف نستشعر أن عمر بن هيرة كان يريد منهما من ينهاه عن طاعة الأمير في الباطل، وكان ضميره يئن عليه، ويدل على ذلك استشارته إياهم بدلًا من مُضيّه في إنفاذ ما أُمِرَ به مع تجاهل الرأي الفقهي، ويتبين أكثر في صيغة كلامه وأنه بعد الواقعة قرَّب الحسن البصري منه وأبعد المُفتي الأول. وقد أوشك أن يقضى المفتي الأول على ذلك الرمق عند الوالي حين جاراه فيما يبدو أنه مجبور على فعله، ولكن الإمام البصري وقف له بالحق، فأعان الوالي على الحق ولم يزُجَّه إلى الباطل.

وجاء في رواية أن الآذن تبع الإمام البصري بعد مواجهته الوالي بكلامه الصريح الثقيل، وتعجبًا من جُرأته مع الوالي فسأله: أيها الشيخ، مَا حملك على مَا استقبلت به الأمير؟ قَالَ: حملني عليه مَا أخذ الله على العلماء من الميثاق فِي علمهم؛ ثم تلا {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ}[3]. وفي آخر الواقعة جاء أن عمر بن هيرة أُعجب بالإمام البصري وقرَّبه إليه ولم يطمئن للمفتي الأول، وفي ذلك مثال على تحقيق كلام الرسول (صلى الله عليه وسلم) "مَن التمَس رضا اللهِ بسخَطِ النَّاسِ رضِي اللهُ عنه وأرضى النَّاسَ عنه، ومَن التمَس رضا النَّاسِ بسخَطِ اللهِ سخِط اللهُ عليه وأسخَط عليه النَّاسَ"[4].

ورجوعًا إلى أصل الموضوع، كان المؤمن يُعذب لأن الكافر لم يكتفِ بأن يكفر وحده، ولكنه أراد من الناس أن تقتنع وتعتنق مبدأ الكفر كي يستمر في التمتع بالدنيا كما يشاء ويسعد بأن هناك أناس كثيرين معه، ووجود من يعتنق الحق ويُحبه كان يغيظه ويُعكِّر صفوة تمتعه، ويشيط عندما يُبين المؤمن أن ما يفعله الكافر هو باطل وإفساد، وذلك من شدة فجوره. ويظل يُعاند بتثبته على ذلك الطريق حتى وإن لزم الأمر أن يُجبر الناس على الفكر قهرًا بالتعذيب، واشتدت رغبته في نصرة للباطل إلى أنه قد يقتل من يتشبث على الحق، وهكذا يعمدوا للقضاء على دعوة أنه لا إله إلا الله التي تُهدد

[1] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء للأصبهاني 2/149-150.

[2] العقد الفريد لأحمد الأندلسي 1/44.

[3] تاريخ دمشق لابن عساكر 19/161.

[4] صحيح ابن حبان 276.

علوهم في الأرض، لأنها تزلزل مبدأ الشرك من جذعه وتقضي على مبررات الإفساد في الأرض بالمنطق. أما الآن، هناك أناس من المسلون يذهبون بأنفسهم إلى الكفار ويتخلون عن قطعة من دينهم لهم من أجل غرض يريدونه من الكفار، كمن يضحي بحجاب زوجته أو ابنته كي يتكيف معهم في بلدهم ابتغاء الدخل المادي المرتفع في بلادهم.

أو أسوأ من ذلك، كمن ينتقد حكم من أحكام الشريعة في الوسط الإعلامي علانيةً من أجل أن يُعلي من قدر نفسه في أعينهم، ولكي يُريهم أنه يتوافق مع منهجهم وأنه متحضر مثلهم، واستجابةً لمرض قلبه بأنه عزيز مثل غير المسلمين المُتقدمين في فكرهم. والمُناخ مُهيّأ لمثل هذا الشخص لأنه شاع في كثير من البلاد الزعم الباطل أن الدين يُقيّد الحرية، ويدعو إلى العنف وعادات جاهلية ينبغي التحرر منها، وأنه يُعيق التطور ويُكبح عقل الإنسان!

يرون أن فصل الدين عن الحياة (مثل عن السياسة) هو سمة التحضر والتقدم والرُقي، فيا للمصيبة عندما تنقلب الموازين ويصبح الحق باطلًا والباطل حقًّا بهذا الشكل، إذ إن ترك تحكيم الشريعة يؤدي حتمًا إلى التخلف وهلاك المجتمع ولو بعد أمدٍ مُمتد. ولكنهم قد عكسوا المفاهيم، فمَثَلُ الذي يترك دينه ليتمتع في دنياه بحرية مطلقة مثل الرجل المريض الذي يُعجزه مرضه عن التنعم بالحياة (التي تُمثِّل الآخرة) ولكن في نفس الوقت يرفض الدواء المؤدي للمعافاة لأنه يرى أن طعمه مريرًا! هؤلاء أورطوا أنفسهم في الهلاك واستحقوا قول الله فيهم {قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ} [إبراهيم 30، جزء من الآية].

ومهما تكلمت في هذا الموضوع فلن أوفيه حقه، فلا أملك إلا أن أقول اللهم اهدنا واهدهم إلى طريق الرشد، وفقِّهنا وإياهم في الدين، ولا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا، واغفر لنا التقصير في تطبيق ديننا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همّنا ولا مبلغ علمنا، واكفنا شرور من أبى الهداية ونقض الأحكام وعليك به كيف شئت وبما شئت، وعافنا من أن نُفتتن فنصبح مثلهم. السؤال المهم هو لنفسي: أين تمسكي بديني؟ لماذا نُعظِّم الدنيا في أعيننا، ولماذا أصبح الإسلام هينًا لدينا، ولماذا نبتعد عنه بالرخيص من الدنيا، والدنيا كلها رخيصة... فمن يبيع دينه قطعًا قطعًا من أجل الدنيا أذكره بالآية التي تُحذِّر من أن يضع المرء نفسه في هذا الموقف من بين عدة مواقف يوم القيامة {أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ} [الزمر 56].

حقًّا، يا حسرتي على ما فرطت فيه من ديني، وكما جاء في الحديث عن النبي (صلى الله عليه وسلم) "مَنْ اضْطَجَعَ مَضْجَعًا لَمْ يَذْكُرْ اللَّهَ تَعَالَى فِيهِ إِلا كَانَ عَلَيْهِ تِرَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ قَعَدَ مَقْعَدًا لَمْ يَذْكُرْ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ إِلا كَانَ عَلَيْهِ تِرَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ"[1] (تِرَةً أي منقصة وحسرة). هذا الحديث

[1] سنن أبي داود 4400.

ينبئ أن من لم يفعل هذه الطاعة سيتحسر، فما بال من فعل معصية كذا وكذا؟! اللهم إن حبيبك وحبيبنا (صلى الله عليه وسلم) الذي اصطفيته أنت يقول "اللهم سَلِّم سَلِّم" مرارًا وتكرارًا حينما نعبر الصراط فوق جهنم يوم القيامة، فيقع منا من يقع وتهبش الكلاليب منا من تهبش، فلا يعلم أحدٌ مدى مأساة ذلك اليوم وفجاعة ذلك المشهد إلا أنت سبحانك. ولا أجد منفذًا أو عذرًا أو نجاةً لنفسي إذ إني أُدرك أني سأُلاقيك حاملًا قليلًا من الطاعات وجبالًا من المعاصي معتمدًا على رحمتك أن تصيبني كفرصة نجاتي الوحيدة، فلا أقول إلا كما يقول حبيبك: اللهم سَلِّم سَلِّم، اللهم سَلِّم سَلِّم، اللهم سَلِّم سَلِّم؛ من الآن....

التهرب من مواضع وأجواء الهداية. قد يستثقل العبد الإقبال على عمل صالح، ولكن هذا خلاف من يتعمد تجنب مواضع وأجواء الهداية مثل المساجد أو مجالس العلم، وهذا سلوكٌ أخطر. فهناك من يكون ذلك عادته ومبدأه، وهذا أكثر قابلية للانحدار من الشخص الذي يتكاسل عن الإقبال ولكن إذا أُتيحت له فرصة مناسبة أقبل على الهداية. ذلك لأن من يتخذ التهرب منهجًا تُمنع عنه الهداية من الوصول إليه أيضًا، لأن بإعراضه يُغلق أبوابًا على مَن حوله مِن الصالحين مِن الوصول إليه، إضافة إلى أنه قد يبلغ مرحلة أن الله يصرفه عن الهداية وإن أقبل عليها في نهاية المطاف.

وهذا ما يحدث للمنافقين، إذ كانوا يُعرِضون عن الهدى {قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [النور 63]، فكانت عاقبتهم أنهم أصابتهم الفتنة. والفتنة التي أصابتهم أنهم حتى إذا سمعوا كلام الرسول (صلى الله عليه وسلم) لم يفهموه ولم يتمكن من قلوبهم فاستهزأوا بالعظات {وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ} [محمد 16].

وهذا أيضًا مآل البعض الآخر حتى كفروا، كما في قول الله تعالى {وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَل لِّلّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَن لَّوْ يَشَاء اللّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللّهِ إِنَّ اللّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ} [الرعد 31]. هذه الآية نزلت عندما قال المشركون للرسول (صلى الله عليه وسلم) أن يُسَيِّر الجبال (مثل سيدنا داود عليه السلام) ويُفَجِّر عيون الأنهار (مثل ما سُخّر الرياح لسيدنا سليمان عليه السلام) ويبعث الموتى (مثل سيدنا عيسى عليه السلام)، فنزل قول الله في ذلك.

وفي هذه الآية دليل على أنه لا يهتدي من لا يريد أن يهتدي، وإذا لم يهدِه الله فلن يهتدي مهما أصرَّ وحاول الناس معه ومهما كثروا، أي أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) والمؤمنين لا يستطيعون أن يهدوهم ولو اجتمعوا على ذلك. ذلك بالإضافة إلى ما يُبين الله لنا أن الله وحده يملك هدايتهم إن شاء، ولكن عدم هدايته لهم تدل على مدى سوئهم، فتلك سنّة الله في الكون معهم، إذ لا يهدي من يجحد الحق فيصير هناك مؤمن وكافر.

فيا أخي، خذ هذه الآية عظةً ولا تُعرض عن أجواء الهداية، لأنك مع قبولك مبدأ اغتنام فُرص الهداية قد يهديك الله حتى وإن لم تغتنم كل فرصة، كجلسة ذكر أو صلاة نافلة، لظرف مانع مثل العمل. أما إذا كان مبدأُك الإعراض عن فرص الهداية، لاكتفائك بالمستوى الذي أنت عليه من الهداية مثلًا، فقد لا يستطيع أحدٌ الوصول إليك مهما فعل إذ إنك أغلقت الأبواب على نفسك. وتلك مسألة خطيرة، إذ نحتاج جميعًا بين الحين والآخر لمن يُعيننا من الإخوة، بأخذ أيدينا لفرصة هداية وتشجيعنا على اغتنامها. وإضافةً إلى هذا، من أعرض عن التزود في الهدى قد يجعل الله يمنع الناس من أن يهدوه، لأن الله لن يُمكِّنهم من الوصول إلى عقل المُعرض ولا التأثير على قلبه.

وهذه الصفة، التهرب من أجواء الهداية، قد تندرج تحت صفة أعم وأخطر، ألا وهي التهرب والتنصل من الواجبات والمسؤوليات. وهذا يتمثل في أفعال مثل التنصل من الجهاد، أو بعد معرفة الحكم الشرعي في مسألة ولكن يتم تجاهله ويُقبل المرء على تلبية هواه في مُحرَّم، أو التماس الأعذار والحُجج الضعيفة –أو حتى الزائفة– للتقاعس عن الصلاة المكتوبة في المسجد أو عن دفع الزكاة، أو التخاذل عن الالتزام بعهده ووعده أو بحُكم من تم الاختصام إليه، أو بهجر بِر الوالدين، أو التهاون في التربية والإنفاق على رَعِيَّته مثل زوجته وأولاده. فالحذر الحذر.

تجاهل الحق وهو يحدق في عينيك. قال تعالى {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ} [النمل 14]. هكذا حال الكفار عندما تأتيهم آيات الله، ونلاحظ أن الجحود والتكبر والظلم أفضى بهم إلى الخلود في جهنم، هذا وقد استيقنتها أنفسهم، ما يدل على أنها استقرت في النفس وأثَّرت فيها فأدركوا أنها حق، أفلا يستحقون العذاب إذًا؟ أولئك أعرضوا عن الحق، وكانت نتيجة إعراضهم أنهم أصبحوا مفسدين في الأرض، فانظر كيف كانت عاقبتهم.

أما من الجهة الأخرى، ما حال من عرف الحق ثم تخاذل عن العمل به مع الإيمان بالله ربًّا وحده؟ هذا الذي يعصي الله مع إيمانه، ما مصيره؟ إن ارتكب من المعاصي ما يكفي أن يكون مفسدًا في الأرض أيضًا ألا يستحق النار عدلًا وردًّا للحقوق لأصحابها؟ فما مصيري إن كنت عاصيًا أكثر مما كنت مُحسنًا؟ اللهم إنا نسألك أن تجعل حالنا على ما تحبه وترضاه، وأن نُقِرَّ بالحق كلما عرفناه

وتُعيننا في العمل به، ونسألك الرأفة والرحمة يوم الحساب. واللهم إنا نسألك أن تمنعنا من ظُلم الآخرين، وأن توفقنا لرد المظالم لأصحابها في الدنيا قبل فوات الأوان إن كنا ظلمنا أحدًا، فإن عجزنا فأنت مولانا ووكيلنا في أن تقضي عنا مظالمنا من سعة مُلكك دون أن تُنقص من أجورنا، فإننا عبادك ونجتهد في تجنب ظُلم أحد من عبادك.

جاء في كتاب الله أيضًا {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ} [الأعراف 179]. ما فائدة السمع إذا لم أسمع به الحق؟ ما فائدة البصر إن لم أُبصر به الحق؟ وما فائدة القلب إن كان منكوسًا مُعرضًا عن الحق، لا يبحث عنه ولا يَقبله؟ بل ما فائدة الأفئدة إن لم تُستخدم في الحق؟ إنه لأمرٌ مُحزن ومُخذل أن يُعرض المُسلم عن تطبيق الحق ويُكثر من عصيان الله، وهذا لأنه بلغ درجةً من الوهن أنه لا يستطيع نصرة الدين والأمة الإسلامية، وأرجو الله ألا نكون منهم ونحن لا نشعر.

كيف ينصرون الأمة وقلوبهم لاهية؟ فبدلًا من العمل الجاد والشاق لرفع الأمة، والتأهب لمُدافعة أعداء الله والإسلام والمسلمين، اختاروا الطريق السهل والممتع... طريق الهوى والشهوة الشخصية، ولا يلقوا بالًا لأوامر لله ولا لمن حولهم. أرضينا بالذل؟ يا إخواني أفيقوا... فإن لم نفِق ونحمل هذا الدين نصبح هينين وأذلاء عند الله فلا يُبالي لبقائنا في الدنيا، كما قال {وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْما غَيْرَكُمْ ثُمّ لاَ يَكُونُوَاْ أَمْثَالَكُم} [محمد 38]، {إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (16) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ} [فاطر16-17]، وهذا دون حساب الآخرة!

فواقع الحال هو أن الذين لا يسعون للحق ليطبقوه عبئًا على الأمة الإسلامية، ويجب أن نصدق مع أنفسنا في هذا. إن فردًا وحده لا يستطيع أن يُغير حال أمة، فإنه يحتاج إليَّ وغيري، وأنا أحتاج إلى عون إخواني في نهوض الأمة، ولكن بمعصيتي لله لا أكون قد حذفت نفسي من الأمة فحسب... بل وقد أُحبط مجهود أخي للأمة!

والدليل على ذلك التاريخ، ألم تبدأ الدعوة الإسلامية برجل واحد لم يملك أي أرض -الرسول صلى الله عليه وسلم-، ثم كان من الفتوحات ما شاء الله بعد التفاف الأتقياء -الصحابة رضي الله عليه- حوله ونصرتهم له، وظلت الفتوحات في عهد الخلفاء أبي بكر وعمر وعثمان وعلي (رضي الله عنهم)؟ قولوا لي أين القدس الآن؟ وأين الأندلس (إسبانيا)؟ وأين العراق وسوريا وغيرهم؟ كانوا في أيدي المسلمين حتى أقبلنا على الدنيا، فعصوا الله وعصيناه، وتركنا عزته تعالى وتشبثنا بمتاع الدنيا وتفاخرنا بألقابها. فالأفعال بدأت تقترب من أفعال الكفار والمنافقين الذين قال تعالى لهم {كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ

مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [التوبة 69].

تنافسنا على الدنيا، فأصبحنا نختلف مع بعضنا إلى حد الفرقة، وكثيرٌ لا ينظر إلا لمصلحة دولته دون نصرة جاره المسلم. وأدى هذا إلى أننا الآن مذلولون خاضعون لرغبات الأمم غير المسلمة "المتقدمة"، وفريسة لمكرهم، ونسير على القواعد التي يضعونها، لأننا هُنَّا على الله من أن يَنصُرنا حتى، بما أن حدوده تعالى أصبحت هيِّنة عندنا.

حقًّا يا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إنك لا تنطق بالهوى... فقد قال "يُوشِكُ الأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا"، فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ "بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمْ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ الْوَهْنَ"، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ "حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ"[1] (تَدَاعَى أي تجتمع؛ قَصْعَتِهَا هو إناء فيه طعام؛ كَغُثَاءِ السَّيْلِ أي ما يحمله السيل من زبد ووسخ). أتعلمون لماذا نخاف الموت، بسبب ذنوبنا النابعة من حب الدنيا، كما حدث للذين كانوا يعصون الله عندما لقوا أعداءهم في الحرب ففروا {إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ} [آل عمران 155].

فالذين لا يبحثون عن الحق يجعلون أنفسهم كالأنعام، لأنهم لا يعلمون الحق يقينًا فيظنون الظنون ويتبعونها، فيُخطئون ويُصيبون، ويكونون فريسة لمن يدعو بفكرٍ باطلٍ لأنهم يتعاطفون مع مزاعمه ويُسحَرون بها، أو ببساطة يتبعون ما هو شائع في المجتمع بمنتهى السلبية! إن هم كالأنعام لأن العقل، الذي سنُحاسب عليه، هو المُميز الأساسي للإنسان على الحيوان، فمن دون العقل الاثنان يأكلون ويشربون وينامون ويتناسلون ويتبعون شهواتهم دون تمييز ولا ضوابط، وتلك الأشياء تصبح غايتهم في الحياة، فما الفرق بينهما! ما دام أن الله أنعم عليَّ بعقل، فلماذا لا أستعمله وأستنفع منه؟!؟

إني إن أتيت باختراعات واكتشافات علمية بينما لم أبحث عن الحق ولا أعلمه، فعندما أموت سأكون عشت حياة الأنعام، لأن كل ما حققته من إنجازات في الدنيا وتعمير للأرض وتطوير في المعيشة سيتلاشى عندما تُدك الأرض دكًّا يوم القيامة {كَلا إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا} [الفجر 21]. وحقيقة لِمَ خُلقت، وإلى أين أنا ذاهب في طريقي هذا، وما هدف هذه الحياة إذ إن الأشياء المادية ستصير هباءً، وما الذي سيخلد من عملي وما الذي سيفني عاجلًا أم آجلًا، هو ما وجب استخدام عقلي فيه، فكل ما يفني للأبد فلا معنى له!

[1] سنن أبي داود 3745.

ومما هو يفنى للأبد هو العمل الصالح دون إيمان بالله لأنه يصبح باطلًا، أي يجعله الله هباءً لأنه ليس له، وذلك الذي يجب علينا أن نُدركه جميعًا. فالذين حالهم كذلك لا قيمة لهم يوم القيامة عند الله ومن ثمَّ عند أحد، وإن كانت لهم قيمة عظيمة في الدنيا، فمعايير الله الموضوعة في ذلك اليوم لتقييم الناس هي التي تسود فوق الكل ويخضع لها الجميع.

قد يتساءل البعض كيف للمرء أن يُعرض عن الحق وهو واضحٌ أمامه، أو لماذا. هذا لأن المعرضين قد جعلوا أهواءهم أولى من شريعة الله، فما تعارض مع هواهم تجاهلوه، ومع تكرار فعلتهم تلك المُهلكة ومُكثهم عليها أمدًا من الزمن تصبح عادةً عندهم، ولا يزالوا يزدادون تَجَرُّؤًا على قوانين الله وتحديًا لها حتى يختم الله على قلوبهم مكرًا بهم ليزدادوا ضلالًا على ضلالتهم. هؤلاء عندهم السمع والبصر والعقل، ولكن ليس للحق، فجوارحهم سَخَّروها لتلبية شهواتهم أساسًا، فهم كما قال الله عنهم {أَمْ تَحْسَبُ أَنّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلّ سَبِيلًا} [الفرقان 44]، فقد ألهتهم أهواؤهم كالأنعام.

فعندما تهوى أنفسهم للأكل يأكلون، وعندما يشتهون أن يناموا ينامون، وعندما يشتهون أي شيء يفعلونه دون مراعاة للضوابط الشرعية وربما حتى الضوابط الإنسانية. وقد قال الله في مثل هذا السلوك {ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} [الحجر 3].

أما ما عليهم من مسؤوليات كالصلاة مثلًا أو قراءة القرآن وما لا تشتهيه أنفسهم يتركونها، ومقابل ذلك يفعلون ما تشتهي أنفسهم دون تأجيل وإن كان بها حرمانية. أولئك لا يحتاجون إلى عقل، فإنه لا نفوذ له على الجسد في الحق، فهم كالأنعام، تحركهم أطماعهم فحسب. وبالتأكيد لا يرغب أحدنا أن يكون هكذا، بل نريد أن أكون متميزين عند الله، مُبصرين مُنصتين حُكماء. يجب أن نكون جديرين بما منحه الله لنا من كرامة وشرف حين جعل الملائكة تسجد لأبينا آدم (عليه السلام) تكريمًا له، ونحن من نسله، فلنُنَزِّه حالنا بألا نُذل أنفسنا عن طريق ترك الإصرار على المعصية، واتباع الهوى يفيض بالعبد إلى المعاصي.

وقال الله عز وجل {وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [فصلت 17]. العمى الذي ذُكر هو عمى البصيرة عن الحق المتعلق بالكفر، وهذا العمى إرادي، كالذي يرى الطريق المضيء ثم يسلك الطريق المظلم عمدًا –طريق الضلال–. وهذه الصفة (اختيار العمى بعد رؤية النور) من أعلى مراتب السفه، إذ إن الجاهل قد يُعذر أنه في الظلام، ولكن من رأى النور واختار الظلام فقد قبِل تحمل نتائج قراره، وفي هذ الحالة هي المهانة والعقاب، وقد أزال العذر الذي يمنع من أن ينساه الله يوم القيامة إذ تناسى العبدُ هدى الله.

وقياسًا على ذلك يتبين لنا أن العمى عن الحق درجات، فإن معصية المسلم لله نوع من أنواع استحباب العمى (أي ظلمة المعصية) على الهدى (أي نور الحق بطاعة الله)، ولكن كل الدرجات ناتحة عن اتباع الشهوة واختيار المعصية. فأعلى درجة العمى تكون عند من لا يؤمن بالله، يليها من يشرك بالله، وأدناها في المراتب هي لمن أسلم وارتكب صغيرةً من المعاصي وهو مُوقنٌ أنه على خطأ. ومعصية المسلم لله ليست كفرًا، ولكن قد تؤدي إلى ذلك إذا أسرف فيهن، فمن المنطقي أن كثرة المعاصي –خاصة إذا كانت تشمل كبائر– قد تُفضي إلى الكفر، لأن ذلك الاستكثار من المعاصي هو تراكم للعمى حتى قد يُعمي عن هدى "لا إله إلا الله".

ذلك لأن من يخرج من ظلمة ويدخل في ظلمة وراء أخرى، أي يقع في معصية وراء معصية، أدعى أن يتيه عن الطريق، مما لا يُسلم عقباه، ينتهي حيث يُنتهي به لأنه خرج من تحت مظلة وقاية الله. وفي بداية الانحدار قد لا يجد المرء صعوبة في الرجوع إلى ما كان عليه من الإيمان، ولكن كلما أطال على المعاصي تقلصت احتمالية رجوعه لأن ذلك يتطلب منه مجهودًا أكبر، بسبب تعوده على المعصية. فمن المعلوم كمبدأ عام أن بتر الأمر من أوله يجعل الرجوع فيه أيسر، فأنصحكم وإياي بألا نُتابع في المعاصي وبعدم تأجيل الرجوع عن المعصية أو التوبة.

وقال الله عز وجل أيضًا {إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [فصلت 40]. الإلحاد في الآيات يكون سواء بالتكذيب أم بالإعراض أو بالمعاندة أم بالمُكاء والتصدية عند سماعهن حسب قول المفسرين. ومما لا شك فيه أن الملحد ليس بمسلمٍ لأنه لا يؤمن بصدق وحقيقة الآيات، ولو كان يزعم أنه مسلم. وقد توعدهم الله بقوله "لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا" لأنه عليمٌ بأقوالهم وأفعالهم بل وبما يكتمون، وسواء جهروا بذلك أو واروه عن الناس سيعذبهم الله عليه. وهذا فيه إنذار لفئة يدّعون إسلامهم ليمكروا به عمدًا، أو يظنون أنهم على الحق بقبولهم فكرة الإسلام مع الاعتراض على بعض أحكامه وسنن الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وبفعلهم هذا يقعون في شمول هذه الآية.

أما عموم الآية فهي تنطبق على من يُعارض آيات الله، وهذا يشمل أحكامه، ولو ادَّعى أنه مسلمٌ؛ أي المنافقون وفئة من الذين لا يتَّصِفون بسيمات الإسلام إذ لا يتفقهونه ولا يُطبقونه –نفورًا وليس كسلًا–. فمَن أسرف في المعاصي وجهر بها حتى أصبح فاجرًا فهو عبء على الإسلام، وقد لا يدري هذا، إذ إنه يكون غنيمةً للمتربصين بالإسلام بتسويل للناس أن ذلك النموذج هو الإسلام، فيكون فتنة لهم بأن يأخذوا انطباعًا مغلوطًا عن الإسلام ثم يُعرضون عنه. وبذلك يظنون أن العيب في الإسلام، ولكن العيب ليس في الإسلام وإنما هو في ذاك الشخص الذي يزعم أنه يُمثل الإسلام، وكل ذلك دون ذكر أثر معاصيه على مجتمع المسلمين نفسه إذ يُثقله عن الارتقاء.

ويجب التفرقة بين صنفين من الناس يُجادلان في الحق مع قولهم إنهم مسلمون، أولهما الذي ذكرناه للتو –وهو أقرب للنفاق–، فأفعاله تعمد إلى تخريب الإسلام (سواء عمدًا أم تلقائيًّا بسبب معاندته للحق واتباعه لهواه)، والثاني هو الذي يُجادل في الإسلام ولكن عن جهلٍ بفقهيات الإسلام. والصنف الثاني إذا علم الحق انتهى عن المُجادلة بصورة دائمة وعامة، وأما إن استمر في مُجادلة الأحكام بعد أن نُقِلت إليه الحقائق فهو من الصنف الأول واقعيًّا، فالفرق بين الصنفين هو سلوكهما بعد معرفة الحق. الثاني يُرجى منه الصلاح إذ يُدرك أن ما كان يفعله يُسبب ضررًا كبيرًا فيحتاط عامةً ألا يقع في ذلك ثانية وينصاع إلى الحق، بالإضافة إلى احتياجه لتوبة، وهذا بخلاف الصنف الأول الذي حتى إن علم أين الحق أعرض عنه.

والذي يُجادل وهو ينتسب للإسلام، من الصنف الثاني، بأن يجهل أنه يُعارض شريعةً من شرائع الإسلام ثم يموت على ذلك فهذا أمره إلى الله يُحاسبه كيف يشاء. ولكن هذا لا يعني أن من عاش على جهل بسبب إهماله في أن يتفقه ويفعل كذلك يكن معذورًا، لأن الإهمال في العلم بما يؤدي إلى فعل الكبائر على أمد من الزمن ليس بُعذر، بل يُصنَّف أنه على تقصير. وهذا قد يقع فيه من دخل الإسلام حديثًا، إذ قد يُعذر (بحسب نية المرء) في عدم القناعة ببعض الشرائع، وهذا بسبب عدم اكتمال إيمانه بعد، أما إذا طال عهده في الإسلام فلا عذر له في فعل ذلك. ولكن للأسف نجد في هذا الزمن من هو ينتمي إلى الإسلام منذ ولادته ومع ذلك معلوماته الفقهية قريبة من حديثي العهد بالإسلام، وهؤلاء أمرهم إلى الله يحكم فيهم.

وقول الله "أَفَمَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ" يُفرض علينا أن نسأل أنفسنا ماذا نختار، والاختيار يتطلب قرارًا ثم تطبيقًا، فحقًّا إنه لتوضيح للأمور من الله لنا وضوح الشمس مع التبسيط والتلخيص. وهذا الجزء من الآية ينطبق على الذي يُسلم ولا يجادل في أحكام الله، إذ إن الذي يأتي آمنًا يوم القيامة قيل إنه المؤمن بحسب بعض أقوال المفسرين، فيجب أن نغتنم هذه المنحة من الله. والأمن يوم القيامة، بما أنه أُتيح لنا من الله، ينبغي أن نغتمه، وضياعه تكون خسارة فادحة. وعلة عدم إدراك الأمن يوم القيامة ينتج من أحد أمرين، إما عن جهل عن مدى أهمية الأمن يوم القيامة، وإما عن خلل في التطبيق بألا يقوم بالعمل الكافي لبلوغ استحقاق الأمن.

الجهل عن أهميته فيُمكن أن يُعالج بالعلم والتفكر، فمثلًا من منا لا يدرك قيمة الأمن في الدنيا الذي قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) أنه أحد ثلاثة مُقومات النعيم في الدنيا "مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ، مُعَافى فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا"[1]. ومن الأمن أن تكون في بيتك مطمئن أنه لن تقع عليك قذيفة من الظالمين فتودي بحياتك وعائلتك مثل ما يحدث لإخواننا في فلسطين وسوريا (أعانهم الله ونصرهم على أعداء الإسلام)، أو من أن لا يقتحم بيتك

[1] سنن الترمذي 2268.

اللصوص أو المُغِيْرون. وذلك كله الأمن في الدنيا، فما بالنا بالأمن في الآخرة، من عذاب القبر ومناقشة أعماله في أثناء الحساب ومن النار وغير ذلك، الذي لا شك فيه أنه أثمن من أمن الدنيا.

وبعد العلم يبقى علينا الاجتهاد في التطبيق مع طلب العون من الله، وهذا ما يخفق فيه أغلب المسلمين، إذ إنهم لو عملوا بما علموا لما كان حال الأمة الإسلامية ما هو عليه الآن. وخلل التطبيق يحدث عندما تكون هناك نية لنيل أمن يوم القيامة ولكن يضعف المرء حين التطبيق بسبب زلته لهواه، فيترك الطاعات ويُقبل على المعاصي، وهذا يمكن معالجته بزيادة الإيمان والتضرع إلى الله رجاء عونه. ويساعد على هذا استيعاب حقيقة الحديث القدسي عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "قال اللهُ عزَّ وجلَّ: وعزَّتي لا أَجْمَعُ لعبدي أَمْنَيْنِ ولا خَوْفَيْنِ، إنْ هو أَمِنَنِي في الدنيا أَخَفْتُهُ يومَ أَجْمَعُ فيهِ عبادِي، وإنْ هو خَافَنِي في الدنيا أَمَّنْتُهُ يومَ أَجْمَعُ فيهِ عِبادِي"[1]. فأُشدد ثانيةً، ما بقي على من يعلم إلا التطبيق، وهو تفعيل كلام الله في ختام الآية "اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ"، ففيه تحذير مع الوعيد للمكذبين، ولكن فيه تحذير مع اللطف للمسلمين.

وقد يكون الوضع كذلك في بادي الأمر، أي أن الإعراض يكون اختياريًّا، ولكن مع تكرار هذا من العاصي وطول مكوثه على المعارضة يشرب قلبه ذلك الطبع حتى لا يستطيع اتباع الحق، فيصبح إعراضه جبرًا لا اختياريًّا لأن التزامه بالحق وتصحيح أخطائه يكون غاية في الثقل عليه إذ قد تراكم السواد في قلبه. وذلك من عقاب الله إذ ختم الله على قلب ذلك العبد، كما هو حال أصحاب الآية {سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ} [الأعراف 146]، فلا أمل في نجاة مثل هؤلاء.

وأود أن ألفت الانتباه إلى حقيقة، أن ما جاء في الآية الأخيرة المذكورة يجعل المرء يتعجب أن المُتكبر قد يبلغ هذه الدرجة من الضلال بأن يتصدى للحق صُدودًا بينما يلين للباطل لينًا، ولكن عندما يرى ذلك بأم عينه يتعجب أكثر. فعندما نرى شخصًا تُعرض عليه حقيقة وراء حقيقة وآية وراء آية ولا يهتدي، بل وربما يظل يُجادل في كل واحدة تلو الأخرى، ويختلق مخرجًا من كل حقيقة، بينما يَقبل الباطل بمنتهى الاستسلام ويراه منطقيًّا، حينئذ لا يسعنا إلا أن نتعجب: كيف بلغ هذا الشخص هذه المرحلة، ولماذا يفعل ذلك؟! فاحذر أخي من أن تصبح مثل هؤلاء.

نُكران الأحكام التي تُخالف الهوى أو منطق الفرد. الفرق بين هذا الفصل والذي قبله هو أن نُكران أحكام الله هي درجة أقبح وأدهى من تجاهل الأحكام فحسب، إذ إن الشخص الذي يتجاهل الحُكم قد

[1] السلسلة الصحيحة للألباني 742.

يكون مُقِرًا بصحته بالرغم من أنه لا يعمل به، ولكن الإنكار يعني رفض صحة الحُكم، وهذا وضع أخطر إذ فيه إلحاد بآيات الله وكُفر. قال تعالى {لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ} [الزخرف 78]، وهذا ما يقال لأصحاب النار عندما يطلبون من خازن جهنم أن يقضي عليهم الله كي لا يُعانوا من العذاب أكثر من ذلك. وفي الكلام بيانٌ لحقيقة، أن أغلبهم للحق كارهون.

ولكني سأذكر حقيقة أعمَّ قد تجعل كثيرًا من الناس يستاءون، ويحزنني أنه الواقع، ولكنها الحقيقة المريرة، وأن أتقبلها ثم أُقر بها كان ثقيلًا جدًّا عليَّ، ولكن هذا ما لاحظته فيما رأيته، والإقرار بالحقائق شرط أساسي في السبيل إلى النجاة. هذه الحقيقة هي أن أغلب الإنس، شاملًا فئة من المنتسبين للإسلام، كارهون للحق، مع العلم أن كره الحق درجاتٍ، فمن المعلوم أن الكافر يكره حقيقة أنه لا إله إلا الله، ولكن المسلمون –مع أنهم يُقرّون بحقيقة أنه لا إله إلا الله– فإن منهم من قد يكره حقيقة تحريم الخمر، أو الزنا، أو مصافحة الرجل للمرأة باليد، أو المعازف؛ وكلما صغر (في أعين الناس) الأمر التحريمي تجد أناس أكثر يكرهونه.

فالكافر يُنكر الحق جُملةً، أما في المسلمين فتجد أناس يكرهون شرائع مُحددة لأنها لا تناسب منظورهم لقواعد الحياة (المُختلقة) أو تتعارض مع منطقهم، أو تمنعهم من فعل بعض الأشياء التي يستهوونها. وهذه إشكالية كبيرة، إذ قد تُفيض بالمسلم إلى الكفر جملةً إذا أنكر تحريم أمرٍ لا خلاف في تحريمه بين العلماء الثقات، لأن حقيقة إسلام المرء هو التسليم التام لأحكام الله، ويجب الدخول في الإسلام جُملة وعدم تجزئته بقبول بعضه ورفض بعضه الآخر.

فقد قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً} [البقرة 208، جزء من الآية]، وقال سبحانه أيضًا {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا} [النساء 65]. ومثال على ذلك في الربا، وبالرغم من أن أناس كثر يُسمُّونه بغير اسمه (الفوائد) كي يستحلونه، فإن هناك فئة لا يرون أنه بحرام لأنه يتوهم أن فيها منفعة كبيرة للمجتمع والعياذ بالله! وقد ذكرت سابقًا حديث سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) عن أنه سيكون من أُمَّتِه من يستحلون الحر والحرير والخمر والمعازف.

وإذا قيل لأحدهم إن هذا منهيٌّ عنه تنوعت الردود، فمنهم من يقول إن هذا تشدُّد، ومنهم من يقول إنه لا يمكن أن يكون هذا حرامًا، احتجاجًا بأن كثيرًا من الناس يفعلونه مثلًا، أو لأنه يفعله منذ زمنٍ، أو لأنه لا يرى الضرر فيه، أو أنه رأى آباءه يفعلونه فقبول تحريمه يعني الإقرار أنه وآباؤه كانوا على خطأٍ، خاصة لو كان آباؤه قد انتقلوا من هذه الدنيا فالإقرار يكون أصعب على النفس. أو يقول إنه مذهب من المذاهب ولعله يكون في جهل من الآراء المذهبية وكيفية الأخذ بها، أو يُبررون أن حالتهم استثنائية أو أنه مفروض عليهم، أو غير ذلك من الحجج أو المجادلات. وأيضًا هناك من يدَّعي أن هذا لا يوافق –أو حتى يُعيق– التقدم والرُقي في العصر الحديث، مثل حجاب المرأة وعدم

تزينها وتعطرها خارج البيت، وفوق أن هذا القول فيه جهالة فإنهم خُلقوا لهدف عبادة الله وطاعته وليس لتطوير الأرض، فما الذي ينبغي أن يوافق الآخر؟! ومنهم من يزعم أن زمن الاحتياج لتطبيقه وَلَّى وقد أصبح أمرًا باليًا. وفي كل ذلك قد حكَّموا أهواءهم على الشريعة، نسأل الله العفو والعافية والسلامة والرشد والهداية لنا ولهم.

يدافعون عن رأيهم، وفي بعض الأحيان يتعصبون، بأساليب شتى من المكر أو السخرية أمام جمع من الناس مثلهم، أو بالإعراض أو غير ذلك. ذلك لأن قلوبهم شربت المعصية واستحكمت شهواتهم عليهم، وعقولهم تريد إنكار تبعات الاعتراف، لأن الإقرار بالحقيقة عادةً ما يكون فيه تكليف ومشقة وترك للشهوات. وقد نسوا روح الإسلام أنه يدعو إلى تقديم إرادة الله على إراداتهم، وحكم الله على حكمهم، ولنبذ المعتقدات والعادات المخالفة لحكم الله؛ أي أن روح الإسلام هو التسليم التام لأمر الله في الصغيرة والكبيرة سواء بمعرفة أسباب الحُكم أم دون معرفتهن. وإني لا أُنكر أن هذا التسوَّل يحدث معي أحيانًا، ولكني في النهاية أُسلِّم لحكم الله، فماذا أقول، إنها لطبيعة النفس الأمارة بالسوء ووساوس الشيطان، والله المستعان، نستغفره ونتوب إليه، وأرجو من الله أن تكون العبرة بالعمل النهائي (أي الخضوع في نهاية الأمر)، والله أعلم.

وقال عز وجل أيضًا {وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ} [النور 48]. هذه الآية تكلمت عن الذين أعرضوا عن التحاكم إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عندما يتخاصمون مع أحد. وهذا التصرف شبيه بما نراه اليوم –سبحان الله على كيفية تكرار تحقيق كلامه– لمن أراد فسادًا في الأرض وهو يزعم أنه مُصلحٌ، فلا يريد إحكام شريعة الله في الأرض حقيقةً. فترى من يقول إنه لا علاقة للدين بالسياسة، كي يعيش الناس في الباطل مثله ويُدفن الإسلام، وترى من يقول إن اتباع شرائع الإسلام يكون فقط لما هو وفقًا "للتحضّر"، فمثلًا يقولون إن منع الاختلاط –بل والخلوة والمُصافحة– بين الرجل والمرأة أمرٌ مُخجل. مثل هؤلاء جعلوا أحكام الله السباقة تبعًا لأحكام أهواء الناس التي تبدو لهم مناسبةً!

وهناك من يُطبِّق نفس المبدأ التقييمي لأمور الدنيا في تقييم أحكام الدين (الأحكام وليس الاستنباطات)، ألا وهو مبدأ تحكيم المنطق وإعلاء نتيجة التجربة. ومع أن ذلك المبدأ مُفيدٌ في أمور الدنيا، مثل تطوير علاجٍ لمرض عن طريق الأبحاث العلمية أو إيجاد أفضل طريقة للتكسب في التجارة، فإنه لا يصلح ولا يجوز فيما يتعلق بالأحكام الدينية، فما مجال المناقشة في أصل الصلاة أو الزكاة أو الحج أو حجاب المرأة؟ ثم إن تلك الأحكام هي خلاصة العلم مع الحكمة لأنها تأتي من الحكيم العليم، وقبل هذا فوضع الأحكام حق الله الخالق على مخلوقاته، وبالرغم من هذا كله فإن هناك أناس يخوضون في تلك الثوابت ويطرحونها كقضايا قابلة للجرح والتعديل، وهذا يكون نتاجًا إما عن عنادٍ لأحكام الإسلام وإما عن جهلٍ بالفقه.

فأما المُعاند فإنه يسعى لتحريف هذا الدين ليوافق هواه مثلًا، أو ابتغاء مرضاة غير المسلمين، أو بسبب كرهه للإسلام –وهو المنافق–، وهذا مصيره معلوم إذ إنه يعاند الأحكام مع علمه بها فيكون بمنزلة من لم يقبل الإسلام جُملةً، فأخذ بعضه ويترك بعضه. وفي هذا الصنف من الناس قد سخر الله من فعلتهم وتَوَعَّد لهم كما جاء {أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} [البقرة 85].

وأما الجاهل الذي ينتقد أحكام الله، فهذا موقفه خطير. وقد يكون معذورًا إن يعلم الله صدقه أنه سيعدل ويكف عما يفعله إذا أدرك الحقيقة، بخلاف من يُجادل بعد اكتشافه الحقائق، أو يتهرب من معرفة الحقائق، فذاك هو الصنف الأول وهو المُعاند. ولكن، بالرغم من أن هناك احتمالية ضئيلة أن شخصًا من الصنف الثاني قد يكون معذورًا في افترائه على الإسلام، فإنه ينبغي أن يُرد عليه بحسم ويستحق العقوبات أن تطوله، وأدخل نفسه في إطار السفاهة، فإن من السفاهة: أن يُجادل المرء فيما يجهله؛ أي أن يخوض بحماسة في موضوعٍ قبل الإلمام بالمعلومات المرتبطة بالمسألة. ذلك لأنه قد يقود نفسه إلى المهالك بذلك الطبع، فقد يتهجم مثلًا على حكم حرمانية السلام باليد بين الرجل والمرأة لأنه لا يعلم حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الدال على ذلك، والسؤال المتبقي هو: ما موقفه بعد أن يكتشف أنه كان مُخطئًا؟

ويقال غير ذلك من الافتراءات والتعديات –بل والتهجم– على الإسلام والرسول (صلى الله عليه وسلم)، وللأسف قد يصدر ذلك من أناس مثقفين ومتمكنين في أمور الدنيا بدرجة عالية ولهم مكانة لدى الناس، إما بسبب علمهم أو سلطتهم أو ثرائهم في المجتمع. وقد يرتكبون تلك المصائب عن جهل في بعض الحالات وليس عن قصد، ولكن المصيبة أنهم قد بلغوا من العلم والعمر ذلك القدر ولا يزالون جُهَّالًا عن دينهم الذي ينتسبون إليه. فيُضِرُّون الإسلام أكثر بكثير مما ينصرونه، وأين يكون عذرهم آنذاك وقد مدَّ الله في عمرهم وأمهلهم إمهالًا ومع ذلك لم يُقبلوا عليه بعد، ولم يسعوا للتفقه في دينهم بالرغم من انكبابهم على علوم الدنيا.

هؤلاء يتَّبِعهم فريقٌ من الذين ضعف فقههم عن هذا الدين، وغالبًا ما يكونوا أدنى منهم حظًّا في الدنيا فيرون أن أولئك الزاعمين نماذج للامتثال ويُفضّل تطبيق نصائحهم لبلوغ ما بلغوه، فتتفشى الفتنة في المجتمع. ولا أرى ما أقوله في الذين هم علماء الدنيا ولكن جهلاء الدين إلا {وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (204) وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ} [البقرة 204–205]. فاللهم لا تجعلنا منهم ولا مثلهم، ولا تجعل نصيبنا من الدنيا فتنة لنا فنتكبّر، فاللهم مهما بلغنا من علم أو غنى أو سلطة أو جاه لن نزداد شرفًا أكثر من كوننا عبادك.

والبعض الآخر بلغ من العصيان لله، والإعراض عن شرائع الدين، لدرجة أنه يُعلن رفضه لبعض الأحكام كي لا يَخرج مما هو فيه من نشوة ولا يُخرجه أحد، بل للناس أن تأتي إلى معتقداته وتفعل مثله. وذلك لأنه وضع لنفسه قوانين ومبادئ باطلة تتعارض مع الشريعة في المقام الأول، فيلتزم بمبدأه بدلًا من الشريعة، كي يكون (كما تسوله نفسه له) صريحًا وصادقًا في رأيه الذي يطرحه على الناس بدلًا من التواضع لله والإقرار أنه كان مُخطئًا (وذلك بسبب كبره وغروره)، ويُثبّته أكثر على غروره كونه يمتلك حظًا وفيرًا من زينة الدنيا. ومثال على ذلك هو من يُصر على أن جمع المال يتطلب القسوة في التعامل مع الناس وعدم تقييده بالأحكام الشرعية التي تُحرّم بعض وسائل تحصيل المال (أي أن الغاية تُبرر الوسيلة)، ومن الصعب عليه أن يأتي بعد زمنٍ ويُقرُّ أنه كان مخطئًا ليخرج من دائرة احترافه ومجال تمكُّنِه، فقد أغرق نفسه في مستنقع أنشأه هو!

بل منهم من لا يرضى أن تقتصر العلة على نفسه فحسب، بل يريد لتلك العلة (التي هو يتوهم أنها صلاح) تنتشر وسط جموع الناس، وهذا شبيهٌ بقوله تعالى {الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ} [الحديد 24]. فاحذر أخي، إن رأيت نفسك ترتاب تجاه حكمٍ من أحكام الشريعة (في سرّك) أو أن مبدأ عندك تعارض مع شريعة من شرائع الله فاعلم أن المعاصي قد تمكنت منك، وبدأ هواك يُسيطر على عقلك، ووجب عليك الخروج من ذلك المأزق. وأنصحك أن دائمًا أبدًا تُسلِّم نفسك لحكم الله، واجعل نفسك تخضع للحكم (عندما تتأكد أنه صحيح وكنت تجهله) كي تنجو من هذه الدنيا الغارقة، وإلا فستغرق معها بثقل المعاصي.

ونصيحة للقارئ أدركتها هي أن من أكثر الأساليب الفعَّالة التي تجعل النفس تخضع لحكم الله هي الإقرار بالحق والاعتراف بأنك مخطئ إذا بيَّن لك أحد خطأك، أمامه أو أمام صديق دون الحياء من ذلك أو تأجيل؛ أي لا تنفي أمامه أنك أخطأت ثم تُقر أنك أخطأت بينك وبين نفسك. ولكن يجب التفرقة بين اعتراف المرء أنه كان على خطأٍ أمام الناس وبين البواح (المجاهرة) بمعصية أمام الناس، فالأول اعتراف بخطأٍ في المبدأ مع الندم بينما الثانية فيها قبول للخطأ مع الافتخار.

وأثر إعلان أنك كنت مخطئًا في مبدأٍ أمام الناس هو كسر نفسك، إذ إنها تكره الاعتراف بالخطأ أمام غيرها، وكسر ذلك الحاجز يجعلها تصبح طيّعةً لما يُمليه العقل من الحق عليها. وأريد التوضيح أن هناك فرقًا بين أن يُبين لك أحدٌ خطأك بلطفٍ لبلوغ المصلحة الأكبر (إصلاح حال الأمة عن طريق النهي عن المنكر)، وبين من يتتبع أخطاءك أو ينتقد أفعالك لغرضه الشخصي أو ليفضحك وينتقص منك أمام الناس، فتلك الأوضاع لها تعامل آخر.

وقال عز وجل {لَا تَجْعَلُوا دُعَاء الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاء بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [النور 63]. هذا تحذير لمن يُخالف أمر رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، ويُقصد به المنافقون تحديدًا.

ولكن هذا قد ينطبق على مسلمٍ فتح على نفسه بابًا لا يطيق ما سيجلبه عليه من هلاك، وذلك بإدخال الهوى في الإعراض عن أمر من أوامر الرسول (صلى الله عليه وسلم). ويحدث ذلك عندما يَحُطُ من شأن أمر مهم قد حث عليه الرسول (صلى الله عليه وسلم)، كحضور خطبة صلاة الجمعة (وهو موضوع هذه الآية في ذكر التسلل).

والتهاون بأهمية أمرٍ كهذا يترك المرء معرضًا للإصابة بالفتن، ومن تلك الفتن أن يُختم على قلبه أو أن تتزين له معصية تلو الأخرى، ويعشقهم قلبه فلا يستطيع مقاومتهم، فيتسلسل في المعاصي. وكل أمر في الإسلام له حكمة، وكذلك كل نهيٍ، ومن حِكم صلاة الجمعة أنها جامعة للمسلمين فتقيهم مكايد الشيطان والتأثر منه، لأن الشيطان لا يستهدف جموع المسلمين كما يستهدف المنفردين منهم. هذا بالإضافة إلى أن الله يقي المجتمعين أكثر من المنفردين بسبب طاعتهم له، فالجماعة معصومة أكثر من الأفراد المتناثرين.

وهذا ما يدل عليه حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ الشَّيْطَانَ ذِئْبُ الإِنْسَانِ كَذِئْبِ الْغَنَمِ يَأْخُذُ الشَّاةَ الْقَاصِيَةَ وَالنَّاحِيَةَ، فَإِيَّاكُمْ وَالشِّعَابَ، وَعَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ وَالْعَامَّةِ وَالْمَسْجِدِ"[1] (الْقَاصِيَةَ أي المتفردة البعيدة عن الجماعة؛ وَالنَّاحِيَةَ أي التي تتخذ جانبًا، ربما لأنها تُحب العزلة؛ وَالشِّعَابَ هو مفترق الطرق، وظاهر المعنى التشعب من الجماعة أي التفرق أو الانقسام عنهم). فالجماعة والاتباع هو منهج تطبيق الدين، وهذا بخلاف منهج الدنيا الذي يُحَبذ فيه الابتكار (الابتداع لتطوير علاج الأمراض وأسلحة الدفاع وزيادة إنتاج المحاصيل والتربح وغير ذلك)، كل منهجٍ في مكانه.

تقديم أي جانب بشري على شريعة الله فيُجعل أولى من أحكام الله. مثال على هذا هو تقديم المنطق البشري فوق حكمة الله في أحكامه، فيُعمل العقل في مكانٍ لا يحق للعقل أن يحكم فيه، كأن يُفرِض الله شعائر الحج مثل رمي الجمرات ثم يأتي أحدٌ ويقول أنه لا منطق ولا فائدة من فعل ذلك، واستنتاجه ذلك نتيجة منظوره القاصر الذي لا يرى به إلا الأمور الظاهرية أو الملموسة. ولكن هناك علة أخرى تحدث للعقل حتى في إطار ما يراه من منظوره القاصر، وهي تأثير الهوى على العقل حتى يكاد يُلغيه في بعض الأحيان، ووقوعنا في المعاصي من أكبر الأدلة على هذا. فقد يرى المرء بعض الدلالات التي تقود بالمنطق إلى تحريم أمرٍ ما نظرًا لضرره، ولكن بسبب هواه يعمى أو يتجاهل أو حتى يُطيح بكل تلك الأدلة ويُبرر عدم تحريمه للأمر.

وحقيقة الأمر هو أن ذاك الشخص يُقدّم هواه على حُكم الله في المسألة بالرغم من زعمه أنه يُحَكِّم العقل، إما متعمدًا بالمعاندة وإما مخدوعًا بعدم إدراك تأثير الهوى على العقل. وأمثلة على ذلك

[1] مسند أحمد 21020.

هو من يعشق الخمر أو الزنا فيُحلُّها، هذا وبالرغم من أنه يرى كثيرًا من أضرارها، ولكن يطيح بكل تلك النقاط مقابل رغبته في إرساخه مبدأ "حرية الإنسان" في التصرف. ولو كان صادقًا أو مُحقًّا في رأيه وجب عليه تأييد أن السارق أو القاتل لا ينبغي أن يُعاقَب، لأنه فعل فعلته من باب الحرية أيضًا.

ولكنه سيُقر أنه ينبغي معاقبتهم، وهذا يعني أن مبدأ تقييد حرية الإنسان بما يُحافظ على كيانه وكيان من حوله ينبغي أن يُفرض، وإن قال إن الموقف يختلف إذ إن السارق والقاتل يعتديان على شخص مُعترض بينما الزاني والزانية يتوافقان، فأين حق الأب وأخ الزانية الذين يرفضون أن يُزني بها؟ أليس لهما حقوق عليها ومن ثمَّ أصبح لهما حقوق من الذي زني بعشيرتهما؟ فبما أن مبدأ تقييد حُرية الإنسان ضروري -للحفاظ على حقوق ومصالح عامة البشرية-، فمن البديهي أن الذي يُحدد تلك الحريات والحدود هو من يُحيط بكيان الإنسان، أي العليم الحكيم، وهل هناك من هو أعلم ممن خلق الإنسان والكون، وهل هناك أحكم ممن حرَّم الظُلم على نفسه؟ فهذا هو الذي له الحق في وضع الأحكام لنا، إضافةً إلى أن كل حكمٍ وضعه تعالى هو أصوب وأنسب حُكمٍ قد يتوصَّل إليه الإنسان.

وقد قال الله فيمن يُصمم على أن يُحكِّم هواه على شرع الله {أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا} [الفرقان 43]، مما يدل على أن من يتخذ شرع الله منهجًا قد صدق في قوله إن الله هو إلهه، لأن على الوجه الآخر من يتخذ هواه كالمُشرِّع له قد جعله إلهه. وهنا يثبت مبدأ، وهو أن من اتبع شيء بكثرة أصبح لها عبدًا، وأصبح هذا الشيء إله المُتَّبِع، ففي هذه الآية إشارة إلى أن الذين يفعلون بكثرة ما تشتهيه نفوسهم... كأنهم أنعام يُساقون. ذلك لأنهم لا يُلزمون النفس بمنهجٍ ولا يمنعونها عن شيءٍ ترغب فيه، أهواؤهم تقودهم فهي الدافع لهم للتحرك والذي يكون في تلبية شهواتهم، والنتيجة أن حتى إذا أرادوا كبحها في يوم من الأيام لن يقدروا عليها لأنها تأسَّدَت!

فما تهوى أنفسهم يفعلونه، ولو أن أنفسهم مالت إلى شيء في تلك اللحظة سعوا في إرضائها فورًا، وأما إذا ظهر لهم شيء من واجبات الحياة -إما عبادة الله أو قضاء طلبٍ للوالدين مثلًا- وهي ثقيلة وكريهة لأنفسهم غالبًا ما تركوها وتحججوا؛ أنانية بحتة. فقولوا لي، هل هؤلاء يستحقون الجنة بأنانيتهم؟ هكذا أصبحت نفوسهم آلهة وحلت مكان الله في قلوبهم، وأولئك ما لحياتهم سعادة مع أنهم يتخيلون هذا، كما قال تعالى {وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا} [طه 124، جزء من الآية]. وكما قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ وَالْقَطِيفَةِ وَالْخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ"[1].

[1] صحيح البخاري 5955.

هذا الذي أصبح عبدًا للوصول إلى غايته ما زادته الدنيا إلا ذلًّا وهوانًا، ولن يُحَصِّل إلا ما كتبه الله له. ذلك لأن اتباع أي إله ذُلٌ للعبد إلا اتباع الله العزيز المُعِزِّ، فإن اتباعه عزًّا وراحةً للنفس وطمأنينةً لأننا ما نحن إلا عباد له، وهو يُعِزُّ فقط من يُطيعه، وهذا هو الواقع مهما وافق أو أنكر أي مخلوق {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ} [المنافقون 8، جزء من الآية]. نحن عباد الذي له المُلك ومُدبِّر سير كل الأمور، وكل من خُلق خُلق بخصوصية من الله ولكن دون ظُلم ولا إهمال ولا نسيان بالرغم من كثرة مخلوقاته.

فكم عبد يقضي الله له رزقه في اليوم؟ بل وكم حيوان أيضًا؟ وكم نباتٍ؟ بل حتى من يكفر به يدبر الله له رزقًا! قد قال تعالى {وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (20) وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ} [الحجر 20-21]؛ {وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا} [هود 6، جزء من الآية]. فهو تعالى الذي يُدّبر أمر رزقي في كل لحظة، أفأعصيه!؟! وإن عصيته ومهما تماديت في معصيته فإنه لا يمنع عني رزقي إلى أن يحين أجلي! اللهم عاملنا بما أنت أهله، ولا تعاملنا بما نحن أهله... سبحانك اللهم ربنا وبحمدك تنزَّهت عن تعجيل عقوبتنا لعلنا نتوب، فاللهم إنا نستغفرك ونتوب إليك، لا إله إلا أنت، فاقبل توبتنا، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت.

وعلى الصعيد الآخر، إذا تركني الله لأُدبِّر شؤون نفسي من رزق وشفاء وحل الكروب وغير ذلك، لقدت نفسي إلي الهلاك لأني لن أستطيع تولي شؤون نفسي، فإني لا أستطيع أن أُدير جهازي الهضمي حتى، فكم أنا ضعيف؟! ومع هذا لم يمنعني ضعفي من أن أعصي العظيم الجبار! وإن الله لم يوكل مسؤولية الرزق حتى لأحد من ملائكته نظرًا لأهمية وعِظَم الأمر، فهو الذي يدبر لي رزقي بذاته العُلى، ولهلكنا لو وَكَّلَنا لغيره أن يرزُقنا! حينئذ سأُدرك أنه شرف لي -ومصالحي تكمن في- أن أكون عبدًا لله، الذي يتولى أمري وأمر كل الناس وأمر كل شيء. والحمد لله أن الله هو رب العالمين، ووكيل كل شيء لأنه هو القادر على الحفاظ على حقوق من في الكون وتنظيم الكون، مع الصبر عليهم.

فالحمد لله الذي اتَّصف بصفات الكمال، والحمد لله على صفاته العُلى التي تشمل الرحمة والعدل والصبر. بهذا الإدراك سأتوصل إلى استنتاج أن لو خُيِّر لي أن أعبد الله ويتولاني هو أو أن لا أعبده وأتولي أنا كل تفاصيل متطلبات معيشتي مقابل ألا يكون عليَّ المحاسبة، لاخترت العبادة مع توليه هو أمور نفسي وأن يكون وكيلًا عليَّ. فإن عجزي ليس ظاهرًا في عدم مقدرتي في تولي تفاصيل شؤون نفسي فحسب، بل بلغ عجزي لحد أنه واضح حتى في عبادتي لله بعد أن تكفل بكل احتياجاتي لأتقوى؛ أولست عاجزًا عن عبادة الله حق عبادته؟ وهذا قبل وضع في الحُسبان معصيتي له!

ومثل ذلك النمط في خلط الأولويات من يدّعي أن الدين منفصلٌ عن السياسة، فقد أدخل عقله (مؤسسٌ على جهل عن دينه) وهواه معًا في أمرٍ وجب فيه سؤال أهل العلم عنه. وذاك الشخص وجب تثقيفه أن الإسلام لم يَفصل نفسه عن السياسة، وأن الرسول (صلى الله عليه وسلم) –وكونه قائد هذه الأمة من المدينة المنورة– قد حكَّم شرع الله في كل صغيرة وكبيرة من تعاملاته. وإن كان الزاعم يبتغي الحق ومصلحة الأمة فليأتِ بدليل من القرآن أو السُنّة على أن الإسلام فصل نفسه عن الحياة السياسية (أو أي جانب من جوانب الحياة)، خاصةً أن هناك أدلة فيهما يُبطلان هذا الزعم الافترائي مثل {قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الأنعام 162].

فإن أصّر على ذلك بعد هذا كله فليُصنَّف على أنه شخصٌ قَدَّم السياسة على الإسلام ويُعلَن عن نفسه هكذا، ولا ينطبق عليه كلمة "مسلم" حقًّا لأنه لم يُسَلِّم وينقاد لأمر الله، ولأن إذا قادته السياسة إلى أمر نهى الإسلام عنه اتّبع الأمر السياسي وخالف الإسلام، وهذا منهج خطير لأنه يُفسد في الأرض. وليس هناك مانع إن قدّم السياسة على الإسلام، لأن هذا يندرج تحت حرية الإيمان أو الكفر الذي نُختبر عليه، ما دام يُصنِّف نفسه كذلك ويُعلِم الناس بذلك ولا ينسب نفسه للإسلام حتى لا يكون فتنة للمسلمين، لأنه آنذاك يكون مثل الذي يُقدّم النصرانية أو اليهودية على الإسلام. وتلك الفئات ليس ولاؤهم للإسلام، إنما ولاؤهم للنصرانية أو اليهودية أو الطاغوت أو السياسة أو فُلانًا أو عِلّانًا.

ولكن مفسدتهم تأتي عندما يقول أحدهم إنه مُسلم وإنه يُقدم الإسلام فوق كل شيء ولكن وجب فصل الدين عن السياسة، فأنّى المنطق في ذلك؟! إن أراد السياسة فليذهب إليها ويتخذها دينًا، وإن أراد الإسلام فليأخذه كما هو، وله الحرية حتى أن يُنشئ دينًا جديدًا إن أحب وحسابه على الله، ولكن ليس له أن يُغيّر الإسلام وفق رؤيته. ويزداد الضرر من فساده عندما يسعى لنشر مبدأه ذلك ويدعو جموع المسلمين لإرساخ وتمكين ذلك المبدأ في الأرض، وبسبب رفضهم إعلانهم أنهم لا يُقدِّمون الإسلام كمنهج فوق باقي المناهج وجب فضحهم أنهم ليسوا بمسلمين، كي لا يكونوا فتنةً للمسلمين الحقيقيين.

فسيماهم أنهم يرفعون شأن أحكام دستورهم الذي وضعه عقول بشرية فوق شأن حُكم رب البشر، واستندوا إليه كالمرجع الأساسي وقدَّسوه، ويغضبون وينتفضون لمخالفة الدستور أكثر من غضبهم واستنكارهم لمخالفة القرآن. فيا للتناقض بين أقوالهم وأفعالهم، وبين أقوالهم بعضها بعض، وخبثهم في الاستخفاف بعقول الناس، فلهم مطلق الحرية في أن يُسلموا ويقولوا إنهم مسلمون أو أن يكفروا ويقولوا إنهم ليسوا بمسلمين، ولكنهم أبوا إلا أن يكفروا مع تمسكهم بأن يكون عنوانهم "مسلمون"!

يتحايلون فيقولون أنهم سيضعون دستورًا للدولة وفيه نص أن أحكام الإسلام هي المرجع الأساسي، وهذا بسبب قوة مقاومة المسلمين لهم فيضطرون وهم كارهون، بينما إذا تمكنوا فسقوا وقهروا وخانوا وأزالوا ذلك النص من دستورهم {كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ} [التوبة 8]، يُحاربون الإسلام بتدرج –على مراحل– . فأفعالهم تُخالف ما يقولونه، ثم يُلقون الأعذار إذا تم مواجهتهم، وبهذا نعرفهم. أما في طيات كلامهم، وفلتات ألسنتهم، وسرائر نواديهم، يظهر منهم بغضهم للشرائع الإسلامية ورغبتهم في طمس الإسلام، فهم مثل من حذرنا الله في قوله {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ} [آل عمران 118] (لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا أي لا يُقصِّرون في جلب الشر والفساد عليكم؛ وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ أي تمنوا لكم الإصابة بأضرار شديدة).

هذا وقد قال الله {إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَاء فَلاَ تَخْشَوُاْ النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ} [المائدة 44]. وقد جاء عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) "بُعِثْتُ بِالسَّيْفِ حَتَّى يُعْبَدَ اللَّهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي، وَجُعِلَ الذِّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي، وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ"[1].

فيجب تطبيق حكم الله في الأرض، والحقيقة أن مَن فَصَل الدين عن السياسة قد خالف أمر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أيضًا، لأنه كان قائد المسلمين من المدينة وكان يحكم بحكم الله، ويأخذ قراراته (للحرب وللسِلم وللمعاهدات وللعقوبات) مستندًا بأحكام الله وما يُمليه الله عليه في الرؤى. والرسول (صلى الله عليه وسلم) هو قدوة أي مُسلِم حقيقي، ومن رغب عن منهج سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) فليس يرتبط به وليس من أُمَّتِه، كما نبَّهنا في الحديث "فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي"[2].

إضافة إلى ذلك، من يفصل الدين عن السياسة فقد تشبّه بمنهج الأجانب الذين تخلوا عن دينهم (والتشبّه ينقسم إلى قولٍ أو عمل، وظاهري أو باطني)، وهذا يعني أنه منهم، أي أنه يُحشر معهم يوم القيامة ولا يُحشر مع الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين. فالحذر كل الحذر من سلك ذلك الفكر المُهلِك.

فمثل هذا الشخص نموذج لمن يتّبع من يشرد عن سبيل الله ويدعو إلى الإعراض عن الله، إذ إن دعوة فصل الدين عن الدولة هو مبدأ أصحاب الكتب السابقة بعدما ضلوا فغدروا بكُتُبِهم، كما اتَّبع

---

[1] مسند أحمد 4868.

[2] صحيح البخاري 4675، جزء من الحديث.

الناسُ فرعونَ بالرغم من وضوح فساده من الكفر والتكبر وظُلم طوائف من قومه {إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ} [القصص 4]؛ {قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ} [غافر 29]. أما ما وصل إليه فرعون من كبر فهو طبع الإنسان إلا من عافاه الله بأن يجمح النفس، أنه إذا مُكّن في الأرض وأُنعم عليه انشغل بما عنده من متاع، بل وقد يعرض عن ربه أيضًا ويتناساه غدًا، ثم يبلغ الذروة عندما ينتفش غروره إلى حد أنه يتحدى الخالق في الأُلُهيَّة! وكما جاء في هذه الآية، قد بلغ فرعون من الغرور لدرجة أنه يرى أن رأيه صائبٌ راشدٌ وليس هناك رأيٌ أصوب، بل وليس لقومه إله غيره، فوجب على الناس اتباعه.

وهذا ما حدث في الواقع إذ ضل قومه بكبره وغروره، كما جاء في أكثر من موضع في القرآن {وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى} [طه 79]، ويوم القيامة يكون قائدهم أيضًا {يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ} [هود 98]، فقد ضل قومه في الدنيا والآخرة. ثم يوم القيامة يختصمون {وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاء لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ} [غافر 47]، ثم يتبرأ قومه منه لأن كل من كفر يلوم من قاده لذلك {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ} [سبأ 31].

وعندما يُقضى بهم إلى جهنم يرفض المتكبر حمل العذاب عمن اتَّبعه بعد أن أخلص التابع له في الدنيا، وتتعدد الحجج مثل {وَبَرَزُواْ لِلّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاء لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللّهِ مِن شَيْءٍ قَالُواْ لَوْ هَدَانَا اللّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاء عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ} [إبراهيم 21]. وجاء أيضًا {قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ} [سبأ 32]. ثم يحدث التلاعن كما هو حال من كذّب بأيات الله {قَالَ ادْخُلُواْ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّن الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاء أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ} [الأعراف 38].

المراد من سياق هذا الموضوع هو إبراز أن المرء سيحاسب وحده لأفعاله، ولا مجال لرمي الأوزار على الغير إذا لم يكن مجبرًا عليها بمعنى الكلمة، ويحكم على ذلك العليم الحكيم إذا كان المرء مُجبرًا بحق أم يتحجج. والأساس هو أنه لا يمكن للمرء أن يُلقي ولو بسيئةٍ واحدةٍ على غيره {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى} [فاطر 18، جزء من الآية]، ولكن إذا كان للمستكبر يد في حث المستضعف على السيئة فإنما يُلقى عليه نُسخة من وزر

المستضعف دون نقل الحمل نفسه من على المستضعف إلى المستكبر. فلماذا إذا رَبْطِ نفسك بغيرك في الدنيا إذا أدركت أنه على خطأ، فهو كالمركب التي تغرق؟!

اعلم أخي أنه لا شيء يلزمك اتباع غيرك على الباطل، ولن تُدقق في كل عاملٍ إلا وجدته اختياريًّا، ولكن إما النفس ذاتها هي التي تشتهي المعصية وتُسكِّن نفسها بإلقاء اللوم على غيرها أنه يُجبرها عليها، وإما أن مقاومة الباطل ستجلب مشقة أو أذى على النفس، ولذلك يبدو للمرء أنه إجباري. فمثلًا، المنصب أو المال أو السمعة أو المتعة أو رفع الشأن لدى شخص مهم بنيل إعجابه ورضاه هن من العوامل التي تجعل التخلي عن المعصية يثقل على النفس؛ والازدراء أو التهكم أو التعذيب من العوامل التي تجعل مُعارضة المعصية تثقل على النفس. والحقيقة أن العامل يكون إجباريًّا في حالة إذا يؤدي العامل إلى تلف حياة المرء، مثل الذين عُذِّبوا إلى حد مشارف الموت في بداية عهد الإسلام كي يَسُبّوا الرسول (صلى الله عليه وسلم)، فرضخوا للمعتدين المتكبرين. ولكن عفا الله والرسول (صلى الله عليه وسلم) عنهم {مَن كَفَرَ بِاللهِ مِن بَعْدِ إيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَـكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [النحل 106].

وليُعلم أن بالرغم من تلك المحنة، فإن قد قاوم سيدنا بلال (رضي الله عنه) حتى كاد أن يموت، لأنه هانت عليه نفسه لله وللرسول (صلى الله عليه وسلم)، فلم يُجيب الطُغاة إلى ما أرادوا، فما بالنا بمن يبيع دينه لغرضٍ من الدنيا لاسيما أنه لم يتعرض للتعذيب حتى؟! فاعلم أن من الصحابة، وممن قبلهم، وممن بعدهم، رجال لم يرضخوا للتعذيب الذي وصل إلى حد القتل في كثير من الأحوال، التعذيب الذي كان المراد منه هو إرغامهم على الإقبال على مخالفة الخالق، ولكن خشيتهم من مخالفة الخالق وعقوبته أشد عندهم من خشية تنكيل المتكبرين بهم.

فوجب على المرء، حتى ولو كان في حاجة ماسة إلى ذلك العامل (مثل المال)، أو حتى يحق له (مثل منصبٍ)، ألا يُخالف أمر الله من أجل ذاك العامل تحت عذر أنه مرغم على ذلك، وأن يُدرك أن عفو الله يكون فقط للمجبور بحق. ولو أن العبد اتقى الله حق تقاته وترك ذلك العامل كي لا يُخالف أمر الله (إلا إذا كان له حق فيه فله، أو حتى يجب، أن يُطالب بحقه بالطرق المشروعة)، وإن كان هذا العامل من حقه ولكن ممكن التخلي عنه، فإن الله سيُعوِّضه بأخير مما فاته، إما في الدنيا وإما في الآخرة أو في الاثنين معًا. ويجب على المرء أن يكون مستيقنًا بذلك، فقد قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "من تركَ شيئًا للهِ، عوَّضهُ اللهُ خيرًا منه"[1].

ويجب أن تستوعب أخي أنك ستُحاسب وحدك، وأن فلانًا الذي قد يُجبرك على مخالفة الله سيتبرأ منك مهما بلغت ما بينكما من علاقة، فوصيَّتي لك أخي هو أن لا يهمك الناس أولًا، ويكون

[1] حجاب المرأة للألباني 49؛ قال عنه: صحيح.

همّك هو الله أولًا ثُم الناس، فكم من شخصٍ منعه رأي الناس من تطبيق الحق أو تصحيح مظلمة؟ ويحدث ذلك خاصةً بمعايرة الناس له إذا أراد عمل الصواب، بأن يقولوا له إنه رجعي أو سيبدو ضعيفًا أو مُهانًا أو صغيرًا أو غير منطقي أو أنه سيخذلهم أو غير ذلك من الانتقادات، أو أكثر من ذلك تطاولًا مثل أن يقولوا عليه مُتخلف أو متطرف أو مريض.

فلا تأبه لهم وخذ تفاصيل شريعتك التي تجهلها من المصادر الموثوقة والعلماء الأتقياء، ولا تتبع آراء علماء الدنيا الجهلاء للدين ولا علماء الدين المُشتاهين للدنيا، الذين للأسف كثروا في هذا الزمن. ذلك لأنك إن أخذت الشرائع من عامة الناس أو جهلاء المفكرين ستضل، لأنك ستجد نفسك تتبع أهوائهم وتخميناتهم كما حذرنا ربنا {وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ} [الأنعام 116]، ولا تلومن إلا نفسك حينئذ.

أيرى أحدٌ نفسه إذا مرض يذهب إلى النجار ليكتب له دواء، ثم عندما تسوء حالته يلوم النجار؟! كذلك الحال في هذا الدين، إذا أردت العلوم الشرعية اذهب إلى أهل علم الإسلام الثقات وليس لأهل علوم الدنيا، لأن كثيرًا من علماء الدنيا يفتون بغير علم في الشريعة، يُدخلون في ذلك ظنّهم ومنطقهم وعاداتهم وما تبغيه أهواؤهم كما دلت الآية المذكورة أخيرًا. والعجيب أن منهم من يستنكف ويسخر من عالم الدين الذي يتكلم في أمور الدنيا –مثل السياسة أو الاقتصاد– كي يُعطي فتوى شرعية حول الأمر، فقد أباحوا لأنفسهم الإفتاء في الدين الذي يجهلونه بينما يريدون منع علماء الدين من التكلم في أمور الدنيا!

وقد أصبح هؤلاء الدعاة للباطل ضحايا أنفسهم، إذ سوّلوا لأنفسهم الشر واستحسنوا صنيعهم نتيجة سلسلة من اختياراتهم وقراراتهم السيئة التي لم يتّقوا الله فيهن. ذلك بالإضافة إلى إعراضهم عن ذكر الله بأنواعه، فعاقبهم الله بالضلالة، فضلوا وأضلوا، وأصبح الشيطان وليُّهم فزين لهم الشر {وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (36) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ} [الزخرف 36–37].

فترى الرجل الجاهل أو السفيه قد تخلى عن الإسلام، بينما يتلقب به، بجداله وانتقاصه من أحكام مُحددة، ويتلهف لتبني نهج الكافرين والفاسقين والمبتدعين في الدنيا بدلًا من تحكيم الشرع كما هو، فيتبع كل داعٍ ينعق بالباطل، والداعي الوحيد الذي لا يتبعه هو الداعي لتطبيق شرع الله كما نزل، ويعتنق بكاد كل إشاعة ضد الدين، بل ويُروجها! قد قال الله عن هؤلاء أيضًا {وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ} [الحج 3].

فسبحان الله على آياته التي تصف بدقة حالهم وما يصدر منهم ونراه بأعيننا، فإنهم قد اغتروا بما حَصّلوه في الدنيا لدرجة أنهم لَيَحُثون الناس على اتّباعهم لبلوغ ما بلغوه، مع أن فيه صدًّا

عن سبيل الله، ويحسبونه دعوة لسبيل الله، ويُصدِّقون أنهم مُهتدون هادون مُصلحون مُطوِّرون لحال الناس! فاجعل هدفك يا أخي –رضا الله عنك في الآخرة– نُصب عينيك، واترك الشوائب –المعاصي واتباع الهوى والجهلاء– التي تُعكِّر رؤية الهدف، وذلك كي لا تنسى أو تضل أو تنشغل عن هدفك الأساسي، ولا تلتفت لغير ذلك ولو للحظة لعله يُشَتِّت انتباهك عن غايتك، واسأل الله أن يُعينك وإيانا.

والعجيب هي فعلة من يتخذ شريعته ليس من الرجل الصالح حتى –فمن الصالحين من ليسوا بفقهاء في الدين–، بل من رجل أعمالٍ ناجحٍ مثلًا أو من ذي سلطانٍ جاهلٍ عن دينه، أو حتى من متجبرٍ في الأرض ظالمٍ للناس يُفتي بحسب هواه. فهذا الفعل يُفضي إلى مهالك لا تخطر على بال المرء، ومثال على ذلك من يعبد الأصنام، فإنهم اتخذوا شرائعهم من آبائهم وقَدَّموا الهوى على العقل والحق البَيِّن، حتى انتهى بهم المطاف أنهم يجدون أنفسهم في موقف عصيب يوم القيامة بأن يُقال لهم {وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ} [القصص 84].

فهذه الآية تتكلم عن محاسبة الذين أشركوا بالله، وأنهم يؤمرون أن يأتوا بمن جعلوه شريكًا لله، وهو توبيخ للمشرك وخذي وذل لهم لأن الشركاء يتبرأون من أتباعهم يوم القيامة. وظاهر الآية أنها لا تتعلق بالمسلمين، ولكن هناك جانب خفي قد يصدر من بعض المسلمين عن جهل، إذ قد يُشركون (الشرك الأصغر) بالله شيئًا دون دراية لأنهم يستجيبون لذلك الشيء بأهوائهم. والدليل على هذا الكلام هو قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) "أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا هَذَا الشِّرْكَ فَإِنَّهُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ"، فَقَالَ قائل: وَكَيْفَ نَتَّقِيهِ وَهُوَ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ "قُولُوا: اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ نُشْرِكَ بِكَ شَيْئًا نَعْلَمُهُ وَنَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا نَعْلَمُ"[1]. ومثال على ذلك من كان عبدًا للدرهم أو الدينار كما نبأنا الرسول (صلى الله عليه وسلم).

والأسلوب الذي يقع به ذلك الشرك لا يُشترط أن يكون بالإقرار اللفظي ولكنه بالعمل الدال عليه، مثل ما بيَّنه لنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) فيما نقله عدّي بن حاتم الطائي (رضي الله عنه) قائلًا: أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفِي عُنُقِي صَلِيبٌ مِنْ ذَهَبٍ فَقَالَ "يَا عَدِيُّ اطْرَحْ عَنْكَ هَذَا الْوَثَنَ"، وَسَمِعْتُهُ يَقْرَأُ فِي سُورَةِ بَرَاءَةٌ {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ} [التوبة 31]، قَالَ "أَمَا إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَحَلُّوا لَهُمْ شَيْئًا اسْتَحَلُّوهُ وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ شَيْئًا حَرَّمُوهُ"[2]. ومعنى هذا أن أتباع أولئك الأحبار والرهبان أصبحوا في منزلة المشركين إذ اتخذوهم بمنزلة الأرباب، فقد جعلوا مع الله من يُحلّل ويُحرّم بخلاف ما حكم الله به، وهذا حقٌ لله وحده إذ هو الذي خلق المخلوقات فأصبح حقه وحده أن يُحِل ويُحَرِّم عليهم ما يشاء.

[1] مسند أحمد 18781، حسنه الألباني وضعفه الأرناؤوط.

[2] سنن الترمذي 3020.

أما في الإسلام فإنه لا يوجد أربابًا ولا رهبانًا، ولكن تجد في هذا الزمان الرويبضة، وهم كما قال عنهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّهَا سَتَأْتِي عَلَى النَّاسِ سِنُونَ خَدَّاعَةٌ، يُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ وَيُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ، وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ وَيُخَوَّنُ فِيهَا الْأَمِينُ، وَيَنْطِقُ فِيهَا الرُّوَيْبِضَةُ"، قِيلَ: وَمَا الرُّوَيْبِضَةُ؟ قَالَ "السَّفِيهُ يَتَكَلَّمُ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ"[1]. والسفيه لا يُشترط أن يكون نكرةً في المجتمع، وذلك من الفتن الكبيرة، ولكن السفيه هنا يُقصد به السفيه في أمور الدين. فقد رأينا العالم المشهور الفذ في فرع من فروع علوم الدنيا وهو جاهل في دينه، يتكلم في وسائل الإعلام يقول: إن ذلك لا ينبغي أن يكون حرامًا، أو يقول: إني أرى أنه يجب تحريم ذلك الأمر (مثل تعدد الزوجات)، وللأسف يكون له مؤيدون وأتباع، بل وهناك من يُعظمونه.

وكذلك نرى من الناس من بلغ في السلطة ما بلغ حتى أصبح معروفًا في المجتمع ثم ينتقد الصالحين في أفعالهم، لأنهم يطبقون الشريعة بحذافيرها، وهو يرى أن ذلك "تزمت" أو "تشدد" أو حتى "تطرف"، ولا يستهوي ذلك التصرف، غالبًا لأنه لم يستطِع الالتزام نظرًا لثقل هذا على هواه، أو بمعنى أدق: لم يرغب، أن يلتزم بالقدر الذي هم فيه. فمثل هذا قد يُخطط في ذهنه على إبطال أمر من الإسلام أو سنّة من سنن النبي (صلى الله عليه وسلم)، ويبني أفعاله على ذلك الأساس، وللأسف له أتباعٌ أيضًا.

والمشكلة تكمن في أن كثيرًا من الناس لا يدركون أن من بلغ في الدنيا من علم أو سلطة هو شأنٌ منفصلٌ عن مستوى علم المرء في أمور الدين وإيمانه، ولكن ينخدع الناس بما بلغه في الدنيا، أو تُسوّل لهم أهواؤهم أنه على حق ونجاح في جميع الأمور وليس فقط في مجاله! وذلك لأنه بما بلغه ذلك المرء من علم أو سلطة يجعل الناس تثق فيه وفي قراراته، وقد تصل تلك الثقة إلى درجة العمى إذ تكون أفعاله تُفسد في الأرض وهم لا يقتنعون بذلك، أو حتى إن أفعاله تُناقض أقواله ولا يزالون يدعمونه إلى النهاية بدلًا من الاعتراف أنه أخطأ أو أنهم خُدعوا.

ومن هذا المنطلق يتبعه فريق من الناس على أساس إما ثقتهم فيه وإما عن هوى (للمنفعة الشخصية مثلًا)، وهذا الفاسق قد أحل حرامًا أو فنَّد سنّة من السنن، فيكون الأمر شبيهًا بهؤلاء الذين ذكروا في آية سورة التوبة (الذين اتخذوا أحبارهم أربابًا). فإياك يا أخي أن تتخذ فردًا كمصدرٍ مُسَلَّمٍ لأحكام الدين غير الرسول صلى الله عليه وسلم، ولكن استمع من عدة علماء ثقات لأن حتى العالم قد يُخطئ زللًا في الإفتاء على مسألة، واقرأ عن الذين سبقونا من الصحابة والعلماء والصالحين عما كانوا يقولونه ويفعلونه في أمور الدين، ثم سيتبين لك الصواب بإذن الله. وذلك المنهج أدعى لإصابة الرأي الصحيح ويُلغي أثر زلة أحدٍ، لئلا تتبع أحدًا عميانًا فتجد نفسك يُقال لك يوم القيامة مثل ما جاء في آية سورة القصص المذكورة وأنت لا تدري كيف وقع هذا.

---

[1] مسند أحمد 7571.

والأسوأ من ذلك من يُجاري ويُداهن، بل ويتذلل إلى أصحاب الحظوظ من الدنيا ويتَّخذهم مَثَلَه الأعلى، مع أن كثيرًا منهم ليسوا أهلًا لتلك الثقة فيهم، بدلًا من جعل الرسول (صلى الله عليه وسلم) هو قدوته. وذلك يؤدي إلى حالٍ شبيهٍ بالذين قيل عنهم في الآية {إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى} [النجم 23]. تلك هي الحقيقة وواقع الحياة، أن كثيرًا من الناس يتبعون الظن وما يتلقونه من آبائهم أو قرنائهم عوضًا عن الحق المُثبت (خاصة في تفاصيل الشرائع)، وما يتلقونه من الناس قد امتزج به أهواؤهم وظَنّهم والنسيان والتخمين والالتباس، فيزداد الأمر سوءًا.

وكما قال الله أيضًا {وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ} [الأنعام 116] (يَخْرُصُونَ أي يكذبون)، وقد أظهر الله الأمر بأن الظن لا يمط للفلاح بصلة إذا لم يكن مرجعيته العلم {وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا} [النجم 28]. فوجب على المرء أن يتحرى الأصل والأدلة في الأمور المهمة في الحياة، ويشمل هذا العلوم الدينية، وفي الآية الأخيرة إرشادٌ من الله وتحذيرٌ من الضلال لمن يُخالف ذلك، فهل أستنفع بها؟ فهل يَغُرَّني الرجل العالم (في علوم الدنيا) ذو الشهرة والسلطة والمكانة على أن أضل عن الحق، وهذا بأن يبوح بظنه الذي يتّبعه في أمور الدين ويحُثني على اتِّباعه، وكل ذلك بسبب كبره أو جهله عن الدين؟ فإنه لن يساوي شيئًا عند الله يوم القيامة، وكل الناس سيتخلون عنه –دون استثناء– يومئذ.

بل وحتى الذين اتَّبعوا المُضلين قد يتخلون عنه ابتداءً من الحياة الدنيا، كما يتبين في الآية عن قارون لاحقًا. وهذا خاصةٌ عندما يشتد الحال بالمُضِل أو المُضَل، فالأفضل تركه حتى وهو في ذروة نجاحه في الدنيا لأنه لا يبتغي وجه الله {فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا} [النجم 29]. وهذه نصيحة عامة لنا، أنه إذا رأى المؤمن من كان سعيه وهدفه وهمّه الأساسي تحصيل الدنيا كان أصون له أن يُعرض عنه.

وما أكثر من آثر الدنيا في هذا الزمن، ولا يزالون يزدادون، فترى الرجل يبلغ ما بلغ من الدنيا وهو يجهل فقهيات أساسية في الإسلام، وقد بلغ من العمر ما بلغ. وعلى إثر ذلك فإنه يدعو بدعوة الجاهلية بالتخلي عن تعاليم الإسلام مقابل ما يُعارضها من العادات والتقاليد والآراء الشائعة في العصر الحالي، وما ذاك إلا بسبب جهله عن أمور الآخرة مع حبه الشديد لتحصيل الدنيا. هؤلاء سلم من أعرض عنهم ولم يتبعهم، ولكنهم فتنة من فتن هذا الزمان لضعاف القلوب، كفانا الله إياهم وثبتنا على الدين، والله المستعان على ألا يُختم لنا مفتونين.

وبما أن هؤلاء الرموز البرَّاقة الفارغة فتنة لضعاف الإيمان الذين يبتغون متاع الدنيا لجهلهم عن سُنن الله (أن متاع الدنيا يُنسي الآخرة)، وجب على الفقهاء والحكماء المثقفين فضحهم كي لا

يُفتنوا الناس. والحمد لله أن فتنة رموز الضلال لا تمتد للذين يتعلمون علوم هذا الدين لما فيه من مواعظ وحِكَم وتحذيرات، ولكن بخلاف ذلك يزدادون إيمانًا بالله وخبرةً برؤية فيهم ما نبأنا الله به.

وضعاف الإيمان يرتدون إلى الصواب والرشد، ولكن عادة ما يكون هذا بعد خمود بريق الفاتنين، ويكون قد فات المستضعفين فرصة الفوز بثواب اليقين في الله واتّباعه. هذا كما بيّنت الآيات التي تعطي نموذجًا على هاتين الفئتين (الجُهلاء والمتفقهين) {فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (79) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (80) فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ المُنتَصِرِينَ (81) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ} [القصص 79-82].

وفي تداول صريح لقضية صفة ضعاف الإيمان في اتباع المنكر بما لا يقبل الخلاف، جاء عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو يتكلم عمن شرب قلبه الفتن التي تُعرض عليه قائلًا "وَالآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا، لا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلا يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ"[1] (أَسْوَدُ مُرْبَادًّا أي شِدَّةُ الْبَيَاضِ فِي سَوَادٍ؛ الْكُوزُ مُجَخِّيًا أي مَنْكُوسًا، وهو الكوز المقلوب، فيقع كل ما في داخله من ماء ولا يدخل فيه الماء بعد ذلك، كناية على أن الماء هو الخير). ففي الحديث دليل قاطع على أن العاصي يصل إلى مرحلة أنه يتبع المنكر الذي يُعرَض عليه، وأن هوى ذلك المرء هو الذي يقوم بتحديد الشرائع له وأنه مصدر قراراته. إضافةً إلى ذلك، فإن الحديث يدل على أنه قد يُقر معروفًا أو يُنكر منكرًا مذكورًا في الشرع من باب المصادفة فحسب مع هواه، وليس أساسه هو ما يمليه شرع الله، فتجد أن المعروف والمنكر يختلطان فيه بطريقة عجيبة.

فترى رجلًا يرتكب كثيرًا من المعاصي ولكن لا يقرب معصيةً واحدة مُحددة، وينفر منها نفورًا بسبب أن هواه يأنف منها، مثل الذي يزني ويشرب الخمر ولكنه يكره لبس الحرير كرهًا لأنه يرى أن ذلك فيه تشبه بالنساء. وقد رأيت تقريرًا إخباريًّا عن امرأة تُروِّع الناس وتتعدى عليهم بالسلاح وعندها استعداد للقتل حتى وكل ذلك بالأُجرة، ولكنها ترى أن المرأة الزانية قد ارتكبت جُرمًا كبيرًا وأنها في انحرافٍ فادحٍ وأن ليس عندها شرفًا ولا أخلاقًا!

وختامًا لهذا الموضوع، إن الذين يُقدمون شرائع وآراء من يُجلّونهم على شرائع الله فهم يتشابهون بالمشرك إن لم يكن منهم من قد أشرك بالفعل، وذلك لأنه يُعَظِّم من قدر شخصٍ حتى جعله أولى من الله عنده، بالرغم من أن الله هو الذي خلقه وأنعم عليه! ومَثَل هذا قريب من المثل الذي

[1] صحيح مسلم 207، جزء من الحديث.

ضربه لنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) في وصاياه لنا "أَوَّلُهُنَّ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَإِنَّ مَثَلَ مَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اشْتَرَى عَبْدًا مِنْ خَالِصِ مَالِهِ بِذَهَبٍ أَوْ وَرِقٍ فَقَالَ: هَذِهِ دَارِي وَهَذَا عَمَلِي فَاعْمَلْ وَأَدِّ إِلَيَّ؛ فَكَانَ يَعْمَلُ وَيُؤَدِّي إِلَى غَيْرِ سَيِّدِهِ، فَأَيُّكُمْ يَرْضَى أَنْ يَكُونَ عَبْدُهُ كَذَلِكَ؟"[1].

ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. قال تعالى {يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ} [النحل 111]. لمثل ذلك اليوم وجب العمل، فالمرء يجادل بالأعذار ويلقي باللوم على من يجده كي ينجو من أفعاله، يبحث عن من يُحَمِّله المسؤولية، والمُجرم يقذف أوزاره ولو على أبيه أو أمه أو زوجته أو ابنه أو قرينه، حتى يحمل ذاك الشخص الذنوب عنه. فذلك همّ كل واحد منا ذلك اليوم: النجاة من النار؛ ويصل قبح هذا الاختصام إلى ذروته بين المشركين حتى إن الابن يعترف أن أبيه كان مُبطِلًا وأنشأه على هذا فيجب تحميله هو كل العبء {أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ} [الأعراف 173].

وأريد الإشارة إلى نقطة مهمة هنا، وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبالأخص النهي عن المنكر، لأن المرء الذي يرتكب معصية في الدنيا ثم يراه أخوه ولا ينهاه يُصبح فريسة للعاصي، وذلك بأن العاصي يمسك فيه يوم القيامة ويقول لله: هذا رآني ولم يُعرّفني أنها معصية! أو: إنه لم يُعينني بنُصحه وينهاني! وكيف نجادل في تلك النقطة إذا كان معه حق في تقصيرنا، وإنه ليجادل عن نفسه ليتبرأ من معصيته ويلقيها على أحدنا!

ومثال على ذلك ما كثر في الآونة الأخيرة من مشي الصبي مع الفتاة (ولا تربطهما علاقة شرعية)، وربما مسك أيادي بعض –أو أكثر من هذا– أمام أعين الناس، فذاك الشخص يستمتع بما ناله من الزنا ثم يأتي يوم القيامة ويرمي كل حمل خطيئته عليك قائلًا إنك قصّرت في نهيه. وربما يقول أيضًا إنه لم يكن يعلم أن ذلك حرام، سواء كذبًا أم صدقًا، فتجد نفسك تورطت إن لم تكن لك حُجَةٌ قاطعة. فذاك الشخص يريد أن يستمتع قدر المستطاع في الدنيا بلذة تلك المعصيته، ثم يسعى يوم القيامة في أن يُحمِّل غيره كامل وزر ما ارتكبه، فاعذر نفسك وانهه عن المنكر، أو تأكد أن هناك عُذرًا لك على عدم نهيه مثل أن هناك أمرًا يحيل بينك وبين نهيه.

ولا تخشَ في الله لومة لائم في ذلك النهي، ولا تتحرج أو تخاف من أحد أو تستصغر نفسك أو ما تفعله من نهي، وبَرِّئ نفسك من هذا الشخص أمام الله، لأن ما قاله الرسول (صلى الله عليه وسلم) يُحذر المرء من مُساءلة الله له وحُجَّة الله عليه، فقد جاء بسندٍ ضعيف أنه قال "لا يَحْقِرَنَّ أَحَدُكُمْ نَفْسَهُ أَنْ يَرَى أَمْرًا لِلَّهِ عَلَيْهِ فِيهِ مَقَالا ثُمَّ لا يَقُولُهُ، فَيَقُولُ اللَّهُ: مَا مَنَعَكَ أَنْ تَقُولَ فِيهِ؟ فَيَقُولُ:

[1] سنن الترمذي 2790، جزء من الحديث.

رَبِّ خَشِيتُ النَّاسَ! فَيَقُولُ: وَأَنَا أَحَقُّ أَنْ يُخْشَى"[1]. فعواقب الوقوف أمام الله دون عذر أشد من عواقب مواجهة ذاك الشخص، فأيٌ أحق أن نخشى من بطشه، الله أم ذاك العاصي؟

ثم اعلم أخي أن عدم الاكتراث للومة لائم في الله صفة من صفات ذوي الإيمان الراسخ، كما جاء في قول الله {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [المائدة 54]. وجاء عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "مَنْ الْتَمَسَ رِضَا اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللَّهُ مُؤْنَةَ النَّاسِ، وَمَنْ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ وَكَلَهُ اللَّهُ إِلَى النَّاسِ"[2] (وَكَلَهُ اللَّهُ إِلَى النَّاسِ أي سلَّط الله عليه الناس، فيؤذونه ويُهينونه ويظلمونه)، وهذا الحديث أعم إذ يشمل أمور أخرى مثل طلب الرزق والالتزام بشرائع الله التي تخالف عادات أغلب الناس وهواهم، ولكن يشير إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أيضًا.

ويجب أن نتذكر أن ذلك نهج الأنبياء، قول كلمة الحق ولو أمام ملك الملوك المعلوم بطشه وظلمه، فقد عصمهم الله من أذى الناس. وجاء على ذلك عدة أمثلة في القرآن {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} [المائدة 67]. وهذا سيدنا موسى (عليه السلام) عندما أُمِر أن يذهب إلى فرعون (فكم من الناس لا يرى أنه سيُبطش به لا محالة خاصة أن عليه قصاص نفس قتلها بالخطأ؟) {قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (12) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ (13) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (14) قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ (15) فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الشعراء 12-16].

أما الصالحون الذين أصابهم البطش فهذا من أمر الله الذي هو نافذٌ لا محالة، وهؤلاء الصالحون لم يضيع عليهم أجورهم عند الله بما تكبدوه من أذى، وسوف يُعوَّضون بأفضل منه بلا شك، كما أنهم تبرأوا أمام الله من عدم قولهم كلمة الحق. وبما أن من ينهى عن المنكر تكره نفسه فتح باب قد يصل إلى الخصومة واضطهاد الناس له، وتكره نفس المُخطئ (عادة بسبب الكبر وعزة النفس) من أن يُعدِّل عليه شخصٌ غريب ويُبين له خطأه ويُملي عليه ما ينبغي فعله، فإن النهي عن المنكر من الأمور الشاقة ولكنه يجلب رضا الله، فلا ينبغي الخجل أو الخوف مِن فِعله.

وقد حث الله على أن يكون المرء إيجابيًا في الحق مهما بلغ من يُعارضه، كما جاء {الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا} [الأحزاب 39]. ومثال آخر

---

[1] مسند أحمد 10825.

[2] سنن الترمذي 2338، الحديث مرفوع منقطع ولكن صححه الألباني.

لتملص العاصي عن وزره يوم القيامة هو للفتاة التي تخرج من بيتها متبرجة، ثم تمسك بأبيها يوم القيامة تحمل عليه قائلة: هذا رآني ولم يمنعني؛ ومعها حق إذا أخفق في توجيه ابنته وهو راعيها!

والتقصير في النهي عن المنكر سببٌ رئيسيٌ في تفشي المعاصي والفواحش علنًا، وذلك مما لا يُسلم عقباه لكلا الطرفين: العاصي والصامت. بل وإن تفشى أكثر آذى الملتزم الذي ينهى أيضًا، لأنه إذا نهى عن المنكر مع كثرة صمت الناس المُشاهِدة سيتجرأ العاصي على الناهي بالاعتداء. يُضاف إلى ذلك أن كثرة العصاة، مع نجاحهم بقبح صنيعهم في الدنيا –بل وربما يُمدحون على تلك المعصية وتكون مصدر فخر لهم عافانا الله–، تكون فتنة للمُتمسك بكتاب الله.

واستفاضة في مبادئ النهي عن المنكر، من صميم القواعد ألا تبحث عن الذين يعصون الله ولا عن معاصيهم، ولكن إذا قَدَّر الله أن يجعلك ترى شخصًا وهو في معصية فحينئذ عليك النهي. أما البحث عن من يعصي الله أو عن مكان فيه معاصٍ فذلك مذموم (إلا لمن كانت هذه وظيفته يأخذ عليها أجرًا) لعدة أسباب، أولها أن ذلك فيه اتباع لزلّات الناس، وهو اتباعٌ لعورات الناس وفيه إرصادٌ لهم، وقد نهى الرسول (صلى الله عليه وسلم) عن ذلك في قوله "يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يَدْخُلْ الإِيمَانُ قَلْبَهُ، لا تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ وَلا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنْ اتَّبَعَ عَوْرَاتِهِمْ يَتَّبِعُ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ يَتَّبِعْ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ فِي بَيْتِهِ"[1].

بل إن من صميم استيعاب مقاصد الإسلام هو أن تستر أخاك إذا عصى الله وتنهاه عن ذلك لعله يتوب، ولا تفضحه أو تفتن عنه ليُقام عليه الحد، إلا أن يكون بمعصيته المتكررة تلك يُحدث ضررًا بالغًا للمسلمين ولا يقبل النصيحة. وقد دلت عدة أحاديث على حث الرسول (صلى الله عليه وسلم) على ستر المسلم لأخيه، مثل قول "الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لا يَظْلِمُهُ وَلا يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"[2].

وفي واقعة لرجلٍ اسمه مَاعِز يتبين ذلك أكثر، حين ذهب إلى النبي صلى الله عليه وسلم فَأَقَرَّ عنده أَربع مرَّاتٍ أنه زنى، فأَمَر بِرَجْمِهِ وقال لرجلٍ اسمه هَزَّالٍ "وَاللَّهِ يَا هَزَّالُ لَوْ كُنْتَ سَتَرْتَهُ بِثَوْبِكَ كَانَ خَيْرًا مِمَّا صَنَعْتَ بِهِ"[3]، وفي رواية أخرى "لَوْ سَتَرْتَهُ بِثَوْبِكَ كَانَ خَيْرًا لَكَ"[4]، فستره كان خيرًا لهما الاثنين. وخلفية الواقعة أن ماعزا أقر أربع مرات مُتفرقة، حيث كان يأتي الرسول (صلى الله عليه وسلم) ويقول له ما صنع فيُعرض عنه الرسول (صلى الله عليه وسلم) لعله يُراجع ويستر نفسه

---

[1] سنن أبي داود 4236.

[2] صحيح البخاري 2262.

[3] مسند أحمد 20885.

[4] سنن أبي داود 3805.

ويتوب. ولكن بعد إصراره وجب أن يُقام عليه الحد، فقال الرسول (صلى الله عليه وسلم) لهزَّال أن ستره لماعزٍ كان أفضل لكليهما، لأن هزال كان يحث ماعزا أن يُفصح للرسول (صلى الله عليه وسلم) عما فعله.

ومن مساوئ البحث وتتبع أصحاب المعاصي أنها تُمرض قلب المُتتبع، لأن تتبغه يؤدي إلى استعظام النفس والتكبر على الناس بالرغم من أنه هو نفسه يقع في المعاصي أحيانًا، وازدراء العصاة بدلًا من الشفقة على ما هم فيه من فتنة مع رجاء شفاؤهم وهدايتهم والوجل من أن يصيبه ما أصابهم فيصبح مثلهم. وقد يتعدى الباحث أو يتجاوز حقه في بحثه عن العصاة، كأن يدخل مكان لم يؤذن له بدخوله فيُصبح مقتحمًا، فيُبغض هذا الباحث (وحقٌ عليه أن يُبغَض على خُلُق اقتحامه). وقد يُساء الظن في الإسلام بتلك الفعلة لأنه قد يظن الجاهل خطأ أن ذلك الشخص يُمثل ما أمر به الإسلام، مع أن الخطأ في سلوك الفرد وليس هذا ما أمر به الإسلام.

وفيه أن المتّبع يفضح العاصي، فلعل عاصيًا يستتر من الناس ثم يفضحه الباحث، والعاصي ما دام يستتر ففيه أمل أكبر أن يندم ويتوب وأن يغفر الله له، إضافة إلى أن ذلك يعنى أنه ما زال لديه حياءٌ والحياء قد يقوده إلى التوبة. وهذا بخلاف موقف المجاهر الذي يتباهى بالمعصية –بل وقد يحث الناس عليها– فيكون أبعد من الله، فقد حوّل الباحث حال العاصي المستتر إلى مجاهر سواء عمدًا أم بغير عمد، لأنه قد فضحه. إضافة إلى ذلك أن بعد الفضح، قد ييأس العاصي وتضعف عزيمته في ترك المعصية، أو يُعاند، إذ قد ازداد وضعه سوءًا.

فوق هذا، إذا تتبع المرء العُصاة وتحرى عن معاصي الناس ثم وجد المُنكر، آنذاك يزداد عليه وجوب النهي عن المنكر. كيف وضع من يفعل هذا ثم لا يستطيع أو يخجل عن النهي عندما يلقى المنُكر؟ قد كلّف نفسه مسؤولية ووضع على نفسه حملًا ربما لا يكون قادرًا على الوفاء به، فما عُذره أمام الله إذ بحث عن حملٍ يُحمّله نفسه ثم لم يَحمله عندما وجده؟

ثم إن المعصية ما دامت بين العبد وربه فهي لله أن يتعامل مع صاحبها وحده، إما أن يعفو عنه وإما أن يُعاقبه، كما دل عليه الرسول (صلى الله عليه وسلم) حين وضع شروط المبايعة والحدود "فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْهَا شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَسَتَرَهُ اللَّهُ فَهُوَ إِلَى اللَّهِ إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ"[1]. أما إن كانت جهرًا فعلى من يراها دور أن ينهى عنها، أو إقامة السلطان للحد إن استوجبت ذلك.

هذا وكثيرٌ ما يستر الله عباده عندما يعصونه، فمن نحن وما شأننا حتى نفضحهم ونكشف ستر الله عنهم؟ وذلك خاصة أننا أنفسنا يسترنا ربنا ونطمع في ستره علينا، فكيف نطمع فيه لأنفسنا

[1] صحيح البخاري 4515، جزء من الحديث.

ولا نتركه لغيرنا؟ والحذر كل الحذر لأن الناهي المتتبع سينال جزاؤه يوم القيامة من جنس العمل، إذ قد يفضحه الله كما كان يفضح إخوانه المسلمين، فمن الناس من يُنصب لهم ألوية غدرٍ يوم القيامة يراها جميع الخلق.

وتتبع العصاة لنهيهم أيضًا فيه حمل النفس بما لا تطيق، فقد يترك المرء النهي عن المنكر من الملل أو الإجهاد من كثرة رؤيته للمنكر أو تأذّيه ممن ينهاهم. هذا بالإضافة إلى تعريض نفسه لأمراض قلبية، لأن كثرة رؤية المعاصي والفواحش يُضعف القلب، وقد يترك أثرًا عكسيًّا بأن تُصبح رؤية المعصية لدى المُتتبع معتادة، حتى يألفها ثم يُفتتن بها ويرتكبها هو نفسه! وكما ذُكر سابقًا، المؤمن فيه طرفا الطيف من كثير من الصفات، وهذا مثالٌ آخر، أنه شديد البُعد عن تتبع العصاة، ولكنه شديد الغيرة على حدود الله فلا يصمت إذا رآها تُنتهك، فالموازنة الموازنة.

وقد جاء وعيدٌ صريحٌ من الله على سلبية غض الطرف عن انتشار الفساد في الأرض {وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [الأنفال 25]، ففي الآية تحذيرٌ للمسلمين أنه قد يصيبهم فتنة لا تقتصر على الظالمين فحسب، بل تَعُمّهُم جميعًا، وذلك يحدث إذا انتشر المنكر بينهم ولا يُنهى عنه. ودل على ذلك عدة أحاديث عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لا يُعَذِّبُ الْعَامَّةَ بِعَمَلِ الْخَاصَّةِ حَتَّى يَرَوْا الْمُنْكَرَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِمْ وَهُمْ قَادِرُونَ عَلَى أَنْ يُنْكِرُوهُ فَلا يُنْكِرُوهُ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَذَّبَ اللَّهُ الْخَاصَّةَ وَالْعَامَّةَ"[1]. ويرجى ملاحظة الشرط "وَهُمْ قَادِرُونَ عَلَى أَنْ يُنْكِرُوهُ فَلا يُنْكِرُوهُ" أي لن يُعاقبوا إذا لم يستطيعوا أن يُنكروه.

وجاء أيضًا عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "إِذَا ظَهَرَتْ الْمَعَاصِي فِي أُمَّتِي عَمَّهُمْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ"، فقالت السيدة عائشة (رضي الله عنها): يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمَا فِيهِمْ يَوْمَئِذٍ أُنَاس صَالِحُونَ؟ قَالَ "بَلَى"، قَالَتْ: فَكَيْفَ يَصْنَعُ أُولَئِكَ؟ قَالَ "يُصِيبُهُمْ مَا أَصَابَ النَّاسَ، ثُمَّ يَصِيرُونَ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ"[2]. لاسيما أن ترك المعاصي تنتشر حتى تشيع علنا يجعلها مألوفة، حتى للذي يُنكر فعلها لأنه يراها كثيرًا، فتكون فتنة له في مرحلة من المراحل حتى إنه هو نفسه قد يوشك أن يُقبل عليها، فإذا وقع الناهون فيما ينهون عنه فأي نكسةٍ تلك على الأمة؟!

وإجابةً على من قد يحتج بالآية {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ} [المائدة 105] بأنه ما عليه إلا نفسه ولن يضره غيره من المفسدين، فقد جاء في التفاسير عدة أقوال، منها أن هذا هو الحال بعد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أي أنهم لا يضرون المؤمنين إذا خالفوهم بعد الأمر والنهي. ويدل على ذلك خُطبة سيدنا أبي بكر (رضي الله عنه) للناس

---

[1] مسند أحمد 17057 (مرفوع منقطع) وإسناده حسَّن، وقال ابن كثير في تفسيره: فيه رجل مبهم، وحسنه ابن حجر العسقلاني، ولكن ضعَّفه الألباني.

[2] مسند أحمد 25382.

قائلًا: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تَقْرَءُونَ هَذِهِ الآيَةَ {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ} (إِلَى آخِرِ الآيَةِ) وَإِنَّكُمْ تَضَعُونَهَا عَلَى غَيْرِ مَوْضِعِهَا، وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ "إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الْمُنْكَرَ وَلا يُغَيِّرُوهُ أَوْشَكَ اللَّهُ أَنْ يَعُمَّهُمْ بِعِقَابِهِ"[1]. وفي رواية أخرى: وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ "إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمْ اللَّهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ"[2].

وهناك دليلٌ آخر، وهو فيما نقله أبو أُمَيَّة الشَّعبَانِيّ (رضي الله عنه) قائلًا: أَتَيْتُ أَبَا ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيَّ فَقُلْتُ لَهُ: كَيْفَ تَصْنَعُ بِهَذِهِ الآيَةِ؟ قَالَ: أَيَّةُ آيَةٍ؟ قُلْتُ: قَوْلُهُ تَعَالَى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ}، قَالَ: أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْهَا خَبِيرًا، سَأَلْتُ عَنْهَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ "بَلْ ائْتَمِرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنَاهَوْا عَنْ الْمُنْكَرِ، حَتَّى إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا وَهَوًى مُتَّبَعًا وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ وَدَعْ الْعَوَامَّ، فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامًا الصَّبْرُ فِيهِنَّ مِثْلُ الْقَبْضِ عَلَى الْجَمْرِ، لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلًا يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِكُمْ"، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَجْرُ خَمْسِينَ مِنَّا أَوْ مِنْهُمْ؟! قَالَ "بَلْ أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ"[3].

وأعمال هؤلاء مُضاعفة لأنه لا يجدون أعوانًا لهم على الخير، بل ويُقاوَمون لإرادتهم الالتزام بالشرع، ويكون المنكر منتشرًا بفجاجة. وجاء في رواية أخرى عنه (صلى الله عليه وسلم) "حَتَّى إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا وَهَوًى مُتَّبَعًا وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ وَرَأَيْتَ أَمْرًا لا يَدَانِ لَكَ بِهِ فَعَلَيْكَ خُوَيْصَةَ نَفْسِكَ"[4]، وقوله "لا يَدَانِ لَكَ بِهِ" أي لا قدرة لك في دفعه، مما يؤيد مبدأ أنه يشترط أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يأتي بنتيجة كي يتم العمل بهذه الآية. فآنذاك يُفضِّل التركيز على نفسه فحسب، ولعل تلك النصيحة هي لينفذ الصالح سالمًا ناجيًا من الفتنة، وذاك الاحتمال له مسلك إذ قد تكون الفتنة شديدة لدرجة أن الاحتكاك بها قد يفتن المرء أو يتسبب في قتله (إذا اختلط بالمفتونين والفُجَّار والمُتجبّرين ليأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر).

وقد سأل رجل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حول هذه النقطة تحديدًا، فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَتَى نَتْرُكُ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنْ الْمُنْكَرِ؟ قَالَ "إِذَا ظَهَرَ فِيكُمْ مَا ظَهَرَ فِي الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ"، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا ظَهَرَ فِي الْأُمَمِ قَبْلَنَا؟ قَالَ "الْمُلْكُ فِي صِغَارِكُمْ، وَالْفَاحِشَةُ فِي كِبَارِكُمْ، وَالْعِلْمُ فِي رُذَالَتِكُمْ"[5]. الْمُلْكُ فِي صِغَارِكُمْ أي أن الملوك يكونون صغار السن ليس عندهم خبرة، أو أنهم ضعاف

---

[1] مسند أحمد 16.

[2] سنن الترمذي 2094.

[3] سنن الترمذي 2984.

[4] سنن ابن ماجه 4004.

[5] سنن ابن ماجه 4005.

العقل؛ وَالْفَاحِشَةُ فِي كِبَارِكُمْ أي أن الزنا ينتشر إلى حد أن حتى المُسنّين يرتكبونه؛ وَالْعِلْمُ فِي رُذَالَتِكُمْ أي يكون مع الفُسّاق، لا يعملون به لأنهم لا يريدون به الآخرة، إنما يريدون مكاسب الدنيا به.

وبناء على الأحاديث المذكورة آنفًا فهناك تفسيرٌ آخر للآية، وهو أن تأويل هذه الآية لم يأت بعد، فليس وقت تطبيقها في هذا الزمن ولكن في المستقبل. وتوضيحًا لذلك ما جاء عن عبد الله ابن مسعودٍ (رضي الله عنه) عندما حدثت واقعة بين رجلين أوشكا على أن يتخاصما، فقال رجُلٌ من الجالسين معه: أَلا أَقُومُ فَآمُرَهُمَا بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَاهُمَا عَنِ الْمُنْكَرِ؟ فَقَالَ آخَرُ إِلَى جَنْبِهِ: عَلَيْكَ بِنَفْسِكَ، فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ} (الآيَةَ)، فَسَمِعَهَا ابْنُ مَسْعُودٍ فَقَالَ: مَهْ، لَمْ يَجِئْ تَأْوِيلُ هَذِهِ بَعْدُ، إِنَّ الْقُرْآنَ أُنْزِلَ حَيْثُ أُنْزِلَ وَمِنْهُ آيٌ قَدْ مَضَى تَأْوِيلُهُنَّ قَبْلَ أَنْ يَنْزِلْنَ، وَمِنْهُ آيٌ قَدْ وَقَعَ تَأْوِيلُهُنَّ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، وَمِنْهُ آيٌ قَدْ وَقَعَ تَأْوِيلُهُنَّ بَعْدَ النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بِيَسِيرٍ، وَمِنْهُ آيٌ يَقَعُ تَأْوِيلُهُنَّ بَعْدَ الْيَوْمِ، وَمِنْهُ آيٌ تَأْوِيلُهُنَّ عِنْدَ السَّاعَةِ عَلَى مَا ذُكِرَ مِنَ السَّاعَةِ، وَمِنْهُ آيٌ يَقَعُ تَأْوِيلُهُنَّ يَوْمَ الْحِسَابِ عَلَى مَا ذُكِرَ مِنَ الْحِسَابِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَمَا دَامَتْ قُلُوبُكُمْ وَاحِدَةً وَأَهْوَاؤُكُمْ وَاحِدَةً وَلَمْ تَلْبَسُوا شِيَعًا وَلَمْ يَذُقْ بَعْضُكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ فَأْمُرُوا وَانْهُوا، فَإِذَا اخْتَلَفَتِ الْقُلُوبُ وَالأَهْوَاءُ وَأُلْبِسْتُمْ شِيَعًا وَذَاقَ بَعْضُكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ فَامْرُؤٌ وَنَفْسُهُ، عِنْدَ ذَلِكَ جَاءَنَا تَأْوِيلُ هَذِهِ الآيَةِ[1].

وهذا معناه أن العمل بالآية لم يأن بعد ولكن سيكون ذاك وضعها في آخر الزمن، إذ إن الناس لا يستجيبون للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهي مواساة للمؤمنين أن العصاة والمنافقين والكافرين لن يضروهم ما دام المؤمنون يُحافظون على تقواهم لله. وهذا الكلام يتَّفق مع سياق النبوءات عن الحال في آخر الزمن، إذ إن الصورة المجملة أن الزنا يظهر في الطرقات العامة، ومن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر هم قِلةٌ ويفعلون ذلك باستحياء، ولكن بالرغم من ذلك فإن الله لن يُهلك المؤمنين آنذاك وسيبعث ريحًا طيبة تقبض أرواح المؤمنين، ثم تقام الساعة على شرار الناس.

وفي تفسيرٍ آخر للأية، قيل إنها تُخاطب المؤمنين فيما يخص الكافرين، أي أن الكافرين لا يضُرُّونهم ما دام المسلم مُهتديًا، وهذا معنى أيضًا له تطبيقه إذ إن المسلمين إذا اتقوا الله فإنه تعالى يمنع الكافرين من أن تصل أيديهم إليهم إذ إن الله يُدافع عنهم، أي أن الكافرين لا يستطيعون ضرَّ المؤمنين لتمسكهم بشرع الله. ويدل على ذلك أيضًا ما جاء عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، وهو ينصح أحد الصحابة لتغيير أمرٍ منكر رآه الصحابي، فقال "يَا أَبَا عَامِرٍ أَلا غَيَّرْتَ؟"، فَتَلا (الصحابي) هَذِهِ الآيَةَ {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ}، فَغَضِبَ

[1] تفسير ابن كثير 3/213-214؛ رواه ابن جَرِيرٍ.

رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ "أَيْنَ ذَهَبْتُمْ؟! إِنَّمَا هِيَ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ –من الكفار– إِذَا اهْتَدَيْتُمْ"[1] (أي أين ذهبتم بتأويل هذه الآية، إنما معناها كذا).

ويتضح لنا مدى الفساد الذي يترتب، وداهية ترك النهي عن المنكر، من الآيات {لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (78) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} [المائدة 78–79]. وهنا، يتبين لنا جليًّا مدى قُبح وبُغض الله لتلك الصفة السلبية، إذ إنها تُظهر انعدام الغيرة والغضب لدى العبد عند انتهاك حرمات ربه، وتتسبب في نشر الفساد سريعًا في الأرض.

ورجوعًا للموضوع الأصلي، فإن خطورة ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يؤول إلى إعراض الله عنا في الدنيا، بل وربما إرسال عذابه الذي يشمل الصالحين الذين لا ينهون عن المنكر، بالإضافة إلى معاتبة الله لنا في الآخرة. حتى وإن لم يقع علينا العذاب الذي يعُمَّ في الدنيا، فأين الأمل حينئذ وأين النجاة وما فائدة مكوثنا في الدنيا إذا تخلى عنا ربنا بسبب انتشار ذنوبنا، فإنه سيتخلى عنا إلى حدٍ نبأنا به الرسول (صلى الله عليه وسلم) في قوله "يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: مُرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَوْا عَنْ الْمُنْكَرِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَدْعُونِي فَلا أُجِيبُكُمْ، وَتَسْأَلُونِي فَلا أُعْطِيكُمْ، وَتَسْتَنْصِرُونِي فَلا أَنْصُرُكُمْ"[2].

التكبر عن تقبل الموعظة/النصيحة، أو على الاعتراف بالخطأ. قال تعالى {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ} [الزمر 32]، فمن سمات الكفار أنهم كانوا يكذبون بآيات الله، وسبب ذلك هو الكبرياء واتباع الهوى، الهوى الذي جعلوه له الأولوية على طاعة الله. فأما الكبرياء فيتمثل في انكارهم أن هناك من هو أكثر منهم حكمة أو صوابًا، فالاعتراف بالحق يجعلهم يُقرّون أن هناك من هو أصوب وأسمى منهم (النبى صلى الله عليه وسلم)، وأن هذا الرجل هو الذي على الحق وهم على الخطأ أو الباطل. ثم إن اتباعه سيجعلهم يتركون الشهوات ويتواضعون بأن يُخالطوا ضعفاء ومساكين القوم الذين يستصغرهم كثير من الناس، وهم لا يريدون أي علاقة بهم بسبب عزة أنفسهم بالإثم. فهم يعلمون الحق، بل واستيقنوا أنه الحق، ولكن يُكذبونه كما نبأنا الله {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ} [النمل 14].

وقال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [غافر 56]. هذه الآية تشير إلى الذين كفروا

[1] السلسلة الصحيحة للألباني 127/6.

[2] مسند أحمد 24094.

وجادلوا في الله، أي أنكروا ما يقوله الرسول (صلى الله عليه وسلم) عن الله، جحودًا عن الحق ليتجنبوا إقرارهم بخطئهم وتظل معهم العزة، وما هم ببالغين تلك العزة بالرغم من فعلتهم. وأود أن أبين الصلة بين فعلهم هذا وما يصدر من بعض المسلمين على مستوى أقل من الجحود الكلي، وهو الجحود ببعض الأشياء التي لم يكونوا سمعوها من قبل وهم صغار مثلًا، أو أن ما سمعوه يتعارض مع أهوائهم أو مصالحهم أو عاداتهم أو حياتهم... فيُنكرونه.

مثال على ذلك هو أن كثيرًا من الناس يُنكرون حرمانية المعازف بأساليب شتى مع وجود نصوص قاطعة وفتاوى لعلماء، مثل حديث سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) الذي ذُكر سابقًا أنه ليكونن من الأُمّة من يستحل المعازف. وصدق الرسول (صلى الله عليه وسلم) إذ قد تحقق ما نبأنا به.

إن من أعظم نعم الله عليَّ الذين هداهم أنهم يدركون الحقيقة ثم يُقرّون بها، والبشرى كل البشرى للذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه {الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ} [الزمر 18]، أما من يُجادل ولو في حُكمٍ واحد فذلك يوشك أن ينزع الله منه الهُدى. والاعتراف بالحق من التواضع لله، ومن تواضع لله رفعه (كما في الحديث) "ما نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ رَجُلًا بِعَفْوٍ إِلا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلا رَفَعَهُ"[1].

أما عكس ذلك فهو الكبرياء، وهو ذنب عظيم لأن من تكبر أعرض عن الحق وأقبل على الباطل، ونازع الله فيما ليس لعبد! والحديث القدسي لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) يحذر من التكبر "قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلّ: الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ"[2]. فلا تجد متكبر علي طريق الهدى الصحيح، ولذلك عُرِّف التكبر بأنه بطر الحق وغمط الناس (أي ازدرائهم). ولتعلموا إخوتي، أن من يكسر طبع الكبرياء فيه باستمرار، وهذا سلوك يُخالف هوى النفس، تواضعًا لله والتزامًا بشرعه كان حق له على الله أن يزيده هُدى.

فكي أكون مهتديًا يجب أن أتخلص من كل ذرة من كبرياء، وأكون مُقرًّا بالحق مُتبعًا له. هذا يتحقق عندما أسأل وأقرأ بحثًا عن الحقيقة، ثم أتحقق من صحة هذا الكلام... وأفكر فيه (بعيدًا عن تأثيرات الهوى والشهوات)، ثم أُطبّقه عندما أُدرك أنه من عند الله. أما التأكد مما سمعته من علمٍ فهذا حق لكل شخصٍ، بل وواجبٌ عليه؛ فحقه من جهة أن يعرف عنه المزيد وينظر إن كان هناك مذاهب مثلًا، وواجب عليه التحقق منه قبل نشره وتطبيقه لقول الله تعالى {يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوَاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوَاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىَ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ} [الحجرات 6]، إذ إن المُبَّلغ قد

---

[1] سنن الترمذي 1952.

[2] سنن أبي داود 3567.

يكون مُخطئًا أو فاسقًا. وإذا تم تطبيق المعلومة المسموعة قبل التحقق منها وهي في الواقع باطلة، يصبح المرء بذلك ضالًّا مُضلًّا، فبالتحقق أُحافظ علي ديني من التحريف والإساءة.

أما التفكر في الأمر فله فوائد، أولًا للتعلم، فالعالم أتقى لله وأكثر إيمانًا من الجاهل، لأن العالِم أثبت على دينه من الجاهل، ويستوعب أن الله ينصحنا بالطيبات ويُحرم علينا الخبائث، فلا بد أن كل أمر حُث عليه فيه نفعٌ للإنسان وإن كنا لا نعلمه، ولا بد أن كل أمرٍ نُهي عنه فيه ضرر على الإنسان وإن كنا لا نراه. ثانيًا، التفكر يزيد الإنسان تقربًا إلى الله بما يدركه من نعم الله عليه من شرائع الإسلام المرجعية للمخلوقات، والتي تحافظ على الإنسان وحقوقه، فالتفكير يزيد المرء اقتناعًا ويقينًا بالحق.

والتفكر في الشرائع ليس بعيب ولا محظور، إنما العيب في الجحود والتكبر والعناد، أو الخوض فيما ليس للمرء به حق. بل إن التفكر في الشرائع مُحبذ وممدوح، ويُحب الله أن يتفكر عباده في خلق السماوات والأرض، كما جاء في قوله تعالى {إِنّ فِي خَلْقِ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ الّلَيْلِ وَالنّهَارِ لاَيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ (190) الّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاما وَقُعُودا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكّرُونَ فِي خَلْقِ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبّنَآ مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النّارِ} [آل عمران 190–191].

إن التفكر الموضوعي، أي غير المنحاز للهوى والآراء الشخصية، لا بد أن يؤدي إلى استنتاج الحقيقة وإيجاد طريق الصلاح. وبما أن الإسلام هو الدين الحق، فإنه لا يُخشى من طرح الحقائق عليه مهما كانت شائكة، لأنه إذا عُرض عليه الحق فسنجد أن الإسلام يحتويه، مثل العجائب الكونية التي يكتشفها العلماء بين الحين والآخر ثم يجدون أن القرآن قد وصفها من قبل! وإن وُجد أمرًا يُعارض الإسلام فإنه لا يمضي أمدٌ حتى يكتشف العلماء أنهم هم الذين فسَّروا المعلومات خطأ، ثم يصِلون إلى الصواب، ثم يُدركون أنها توافق القرآن (مثل النظريات الباطلة أن الإنسان أصله قرد، أو أن الأرض ثابتة والكون يدور حولها بينما كل في فَلَكٍ يسبحون). ويُقاس على ذلك كل الحقائق الأخرى، مثل طبائع الإنسان وتركيبة جسده.

ومن ذلك أيضًا أننا لا نخاف كمسلمين أن نقارن كتابنا بأي كتاب آخر، ويُثبت ديننا دائمًا أنه مُحكَم لا يدع نقطة ماء أن تنفذ منه، لأن نتيجة طرح أي قضية عليه يؤدي إلى تفسيرها بالمنطق والتجانس مع باقي القضايا، وهذا من إدلال أنه الحق! هذا يتبين جليًّا في القرآن نفسه الذي يحث مواجهة الباطل بالحق، فهو يطرح حُجج الذين يُخاصمون القرآن ثم يُواجههم ويرد بالحُجة الدامغة، فالمبدأ هو {بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ} [الأنبياء 18]. بالأمثلة، هناك الآيات {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا} [النساء 82]، {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [يونس 38].

فعندما نقارن الحق (القرآن) بأي كتاب مُشَّرِع، لا نزداد إلا يقينًا واقتناعًا بحقيقة وحكمة ما في القرآن، لِما نجد في باقي الكتب من أباطيل وما تستنكره الفطرة السليمة بسبب تدخل الآراء البشرية فيهن. نجد فيهن إما تنقيصًا في الله أو رُسُلِه أو ملائكته، أو استحلال شرائع تؤدي للفساد والظُلم والهلاك في الأرض، أو تضييع لحق الإنسان أو الانتقاص من قدره، أو تناقض بين أجزائه، وغير ذلك.

وبذلك ندرك قدر نعمة الله علينا بالإسلام الذي فيه تصويب لأمورنا وسكينة للنفس وللعقل. خلاصةً، إن المُفكر أتقى لله لأنه يتبع الشرع اقتناعًا ويقينًا به وحبًا له، وأما العابد الذي لا يُفكر يُلزم نفسه بالأحكام دون أن يستوعب مدى أهميتهن وقدر أبعاد الحكمة فيهن... فتارة يصيب وتارة يُخطئ في أفكاره وأفعاله، وتارة يلتزم بها وتارة يتراخى، وربما يدخل عليه الوساوس والشكوك أو مَن يُجادله بالباطل فيضل.

وقال الله عز وجل {قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (49) فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [القصص 49-50]. هذه الآية جاءت في سياق نكران الكفار للقرآن الكريم، فأمر الله رسوله (صلى الله عليه وسلم) أن يحاججهم بأن يأتوا بكتابٍ من عند الله يدعو إلى الهدى أكثر من القرآن والتوراة. وكان الحسم من الله أنه عرّف رسولة علة هؤلاء، إذ إنهم إن لم يأتوا بشيء فهذا دليل على أنهم يتبعون أهواءهم ويجادلون فحسب.

وعلاقة هاتين الآيتين بموضوع الكتاب هو أن مع أن نفس ذلك السلوك قد يقع فيه المسلمون مع اختلاف النوع والقدر، إذ إن اتباع الهوى في عدم الإيمان بالقرآن كُفرٌ بيّنٌ ولكن اتباع الهوى في معصية الله لا يُخرج المسلم عن دينه. فالفئتان وقعا في نفس الخطأ (وهو اتباع الهوى) مع الفارق الجسيم في النوعية، لأن المسلم إن تاب قُبل منه ولكن الآخر توبته تحتاج إلى اعتناقه الإسلام في المقام الأول. وفي الآيتين المذكورتين دليلٌ أيضًا على أن من اتبع هواه يصل إلى مرحلة أن ظلمه يطول من حوله إذ قال الله فيهم "إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ"، وهذا بالإضافة إلى الظلم الذي يقع من المشرك لإشراكه بالله. فالذي يتبع هواه أكثر قابلية للتمادي في الظُلم حتى يطال الناس أيضًا كي يُلَّبي هواه بأي وسيلة، بعدما كان يظلم فقط نفسه بالمعصية.

وكلتا الفئتان ظالمة بمستويات مختلفة، ومع أن الآية المذكورة تتحدث عن الذين لم يؤمنوا، فإن الجملة الأخيرة تنطبق على الناس عامةً، والعبرة من ذلك أن المُتبع هواه، الظالم لمن حوله، قد يجلب لنفسه الختم على قلبه. ومعلوم أن للظلم تصنيفات وهن: ظلم الله أو الناس أو النفس، ولكل منهم درجات. فأعظم ظلم لله هو الكفر أو الشرك، ومعصية الله ظُلمٌ أيضًا ولكن أدنى من الشرك

بكثير. وأعظم ظلم للناس هو القتل، وأعظم ظلم للنفس هو الكفر أو الشرك بالله أيضًا لأن النفس قد قادت نفسها للخلود في النار، فيتحمل الجسد والنفس عواقب اتباع الهوى.

هناك من الأعمال ما يجمع أنواع من الظلم أو جميعهم كالقتل مثلًا، فإنه ظُلم للمقتول، وظُلم لله إذ إن هذه النفس ملك لله وقد تعدى عليها القاتل، وظُلم للنفس إذ إن القاتل قد جلب على نفسه عذاب النار بإرادته. وملخص الكلام هو أن الله لا يهدي الظالم، ويحتمل وقوع ذلك على مسلمٍ في بعض الأحوال، مثل الذي يؤذي كثيرًا من الناس بيده ولسانه، فلماذا يسلم من عذاب الله وهو لم يُسلم عباد الله من أذاه؟ ولماذا يهديه الله ويُدخله جنته وهو قد آذى كثير من عباده، ولو أدخله الله الجنة دون أن يُعذب أولًا فسيكون ذلك ظلمًا للمظلومين، والله حرم على نفسه الظلم بأي قدر.

فإياك يا أخي معصية الله، خاصةً بظُلم الناس، فإنها أسوأ من معصية الله وحده، لأن الله قد يتجاوز بسبب غناه عنا ومُطلق قدرته علينا وهزلنا أمامه، وأننا لا نضره بمعاصينا ولكن نُغضبه لمُخالفة أوامره، وأيضًا لأنه يُحب أن يرحم ويرأف على من خلقهم، وأن ظُلمنا له لا يُنقص منه شيء. ولكن على الوجه الآخر، كيف تجد أحدًا من الناس يعفو يوم القيامة ويترك حسنات يستطيع ضمَّها إلى رصيده، وإذا تركها يُحتمل أن يدخل النار بسبب ذلك التخلي إذ إن رصيده لم يؤهله لدخول الجنة، وهن من حقَّه في الأساس، فالوضع أحرج من أن يعفو. فتجنَب ظلم الناس بما أوتيت من قوة، وإن أخطأت وظلمت أحدًا فأسرع في رد المظلمة إلى ذاك الشخص وصالحه إن أمكن، وكمبدأ عام، الأفضل أن تكن مظلومًا ولا تكن ظالمًا في أي موقف.

وهناك حديث لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) يدل على أن الكبر وقسوة القلب وظلم الناس بينهم صلة، وذلك في قوله "أَلا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ: كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعِّفٍ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لأَبَرَّهُ؛ أَلا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ: كُلُّ عُتُلٍّ جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ"[1] (عُتُلٍّ أي الجافي الشديد الخصومة بالباطل؛ جَوَّاظٍ أي الفظ الغليظ المتكبر في مشيته). ولفظ "مُتَضَعِّفٍ" يدل على أن المرء لا يثأر لنفسه عندما يُظلَم وهو قادرٌ على ذلك (وإنما ينتقم إذا انتهكت محارم الله أو أُصيب حدًّا أو أن الظالم بالغ في ظلمه)، حرصًا ألا يظلم إضافة إلى اتصَّافه بصفة العفو التي يجزي الله عليها الكثير. فاحذر أخي من أي واحدة من تلك الصفات، فإنها توشك أن تجر أُختها.

الكذب. إن الكذب يتناقض مع الإيمان لأن المؤمن بالله، الذي سلَّم أمره إلى الله ويعلم أن مجرى الأمور في يده تعالى، لا يخاف من التوكل على الله بقول الحق وتبعات هذا. وعلى الوجه الآخر، فإن الكذب أحد مؤشرات النفاق كما جاء في حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ

[1] صحيح البخاري 4537.

كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ"[1].

الأضرار والعواقب الناتجة من الكذب كثيرة، وبه يُفتح أبواب معاصي أُخَر، ويُيسِّر على المرء الإقبال عليهن. ومن الأمثلة: الغدر والإيقاع بين الناس وخداع الناس عن أموالهم. بل وقد يبلغ الكذَّاب إلى أنه يشترك في قتل النفس التي حرَّم الله، بأن يشهد زورًا على مظلومٍ، أو يُشجِّع ظالمًا على قتل مظلوم.

قد يتمادى المرء في الكذب حتى يهلك بأن يستحق دخول النار، كما دل قول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ، فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا. وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ، فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا"[2]. وما أقبح أن يُكتب المرء عند الله كذَّابًا؟

بل الأدهى والأدهى أن الكذب، إذا صدر في الموضع والوقت السيئ، قد يسوق المرء إلى الخروج من الإسلام والخلود في النار –إن لم يتب–، وهناك مثلٌ على هذا في عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم). ذلك عندما كانت غزوة تابوك، فأمر الرسول (صلى الله عليه وسلم) الرجال أن يتجهَّزوا ليخرجوا معه، حتى حان الموعد فخرج الرجال إلا المنافقون والضُعفاء، وثلاث من المؤمنين الذين لم يكن لهم عذر. وعندما عاد الرسول (صلى الله عليه وسلم)، أقبل المنافقون على الرسول (صلى الله عليه وسلم) ليطرحوا عليه الأعذار في تخلفهم عنه. فلم تكن المعضلة فقط أنهم كذبوا في سبب تخلفهم، بل وأن كذبهم كان على رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، وفي وقت الجهاد لإقامة الإسلام أيضًا. في أثناء هذا، جاء الثلاثة المؤمنون وصدقوا مع الله ومع رسوله إذ اعترفوا أنهم لم يكن لهم عذر، منهم سيدنا كعب بن مالك (رضي الله عنه)، فنجوا بأن تاب الله عليهم لصِدقِهم.

يروي لنا سيدنا كعب (رضي الله عنه): فَلَمَّا بَلَغَنِي أَنَّهُ تَوَجَّهَ قَافِلًا، حَضَرَنِي هَمِّي وَطَفِقْتُ أَتَذَكَّرُ الْكَذِبَ وَأَقُولُ بِمَاذَا أَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ غَدًا، وَاسْتَعَنْتُ عَلَى ذَلِكَ بِكُلِّ ذِي رَأْيٍ مِنْ أَهْلِي. فَلَمَّا قِيلَ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ أَظَلَّ قَادِمًا، زَاحَ عَنِّي الْبَاطِلُ وَعَرَفْتُ أَنِّي لَنْ أَخْرُجَ مِنْهُ أَبَدًا بِشَيْءٍ فِيهِ كَذِبٌ... ثم يروي: جَاءَهُ الْمُخَلَّفُونَ فَطَفِقُوا يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ وَيَحْلِفُونَ لَهُ، وَكَانُوا بِضْعَةً وَثَمَانِينَ رَجُلًا، فَقَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَانِيَتَهُمْ وَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ، وَوَكَلَ سَرَائِرَهُمْ إِلَى اللَّهِ. فَجِئْتُهُ فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَيْهِ تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ الْمُغْضَبِ ثُمَّ قَالَ "تَعَالَ"، فَجِئْتُ أَمْشِي حَتَّى جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ لِي "مَا خَلَّفَكَ، أَلَمْ تَكُنْ قَدْ ابْتَعْتَ ظَهْرَكَ؟" فَقُلْتُ: بَلَى، إِنِّي وَاللَّهِ لَوْ جَلَسْتُ عِنْدَ

[1] صحيح البخاري 33.

[2] صحيح مسلم 4721.

غَيْرِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا لَرَأَيْتُ أَنْ سَأَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ بِعُذْرٍ، وَلَقَدْ أُعْطِيتُ جَدَلًا وَلَكِنِّي وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ لَئِنْ حَدَّثْتُكَ الْيَوْمَ حَدِيثَ كَذِبٍ تَرْضَى بِهِ عَنِّي لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يُسْخِطَكَ عَلَيَّ، وَلَئِنْ حَدَّثْتُكَ حَدِيثَ صِدْقٍ تَجِدُ عَلَيَّ فِيهِ إِنِّي لَأَرْجُو فِيهِ عَفْوَ اللَّهِ، لَا وَاللَّهِ مَا كَانَ لِي مِنْ عُذْرٍ، وَاللَّهِ مَا كُنْتُ قَطُّ أَقْوَى وَلَا أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ.

ثم أكمل أنه بعدما فات خمسون يومًا على هذا الموقف: وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ {لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (117) وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (118) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ}، فَوَاللَّهِ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ نِعْمَةٍ قَطُّ بَعْدَ أَنْ هَدَانِي لِلْإِسْلَامِ أَعْظَمَ فِي نَفْسِي مِنْ صِدْقِي لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ لَا أَكُونَ كَذَبْتُهُ فَأَهْلِكَ كَمَا هَلَكَ الَّذِينَ كَذَبُوا، فَإِنَّ اللَّهَ قَالَ لِلَّذِينَ كَذَبُوا حِينَ أَنْزَلَ الْوَحْيَ شَرَّ مَا قَالَ لِأَحَدٍ، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى {سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (95) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ}[1].

الكذب في هذا الموقف وحده كفيل بأن ينقل رجلًا إلى دائرة المنافقين، ولكن المنافقون كان لهم مواقف غير هذا خذلوا الإسلام فيهن. فالحذر الحذر من الكذب.

هناك نقطة إضافية قد يجهلها البعض، وهي أن المرء قد يقع في الكذب، بل ويُكثر منه، وهو لا يعي. ذلك إذا تكلم بكل ما سمعه من الناس، لأنه لا يدري ولن يستطيع أن يتحرى عن كل الأخبار التي نُقلت إليه، ولا شك أن جزءًا من هذا الكلام المنقول سيكون خاطئًا، ومن ثمَّ فسيكثر ما يُحسب عليه من الكذب حين ينقله. وهذا الأمر أشار إليه سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) مباشرةً بقوله "كَفَى بِالْمَرْءِ كَذِبًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ"[2].

ثم ليُعلَم، أن الكذب مذموم بصفة عامة، حتى في المُزاح، ربما لأنه قد يورث الشحناء والبغضاء بين الإخوة ويتسبب في التباسات، مما يؤدي إلى أذية الناس وفساد في الأرض، أو لأنه قد يسوق تدريجيًّا إلى الكذب في الجد أيضًا. قد جاء عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "وَيْلٌ لِلَّذِي يُحَدِّثُ بِالْحَدِيثِ لِيُضْحِكَ بِهِ الْقَوْمَ فَيَكْذِبُ، وَيْلٌ لَهُ، وَيْلٌ لَهُ"[3]. وعلى الوجه الآخر، قد رغَّب (صلى الله عليه وسلم) في ترك الكذب مزاحًا "أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا،

[1] صحيح البخاري 4066، جزء من الرواية.

[2] صحيح مسلم 6.

[3] سنن الترمذي 2237.

وَبِبَيْتٍ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْكَذِبَ وَإِنْ كَانَ مَازِحًا، وَبِبَيْتٍ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ لِمَنْ حَسَّنَ خُلُقَهُ"[1] (زَعِيمٌ أي ضامن وكفيل؛ رَبَضِ أي أطرافها؛ الْمِرَاءَ أي الجدال).

لكن ليُعلَم أيضًا أن الكذب مُباح في مواقف ثلاثة، وفقط ثلاثة، لأن المصلحة تغلب الضرر فيهن. قد ذكرهن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في قوله "لَيْسَ الْكَذَّابُ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ وَيَقُولُ خَيْرًا وَيَنْمِي خَيْرًا"، قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: وَلَمْ أَسْمَعْ يُرَخَّصُ فِي شَيْءٍ مِمَّا يَقُولُ النَّاسُ كَذِبٌ إِلَّا فِي ثَلَاثٍ: الْحَرْبُ، وَالْإِصْلَاحُ بَيْنَ النَّاسِ، وَحَدِيثُ الرَّجُلِ امْرَأَتَهُ وَحَدِيثُ الْمَرْأَةِ زَوْجَهَا[2].

والتعريض بالكلام (وهو الكلام الذي يُحمل على معنيين) ليس بكذب، ولكن ليُستخدم عند الضرورة وفي أقل قدر ممكن كي لا يحسبه الناس على المؤمن كَذِبًا، وحتى لا يسوقه إلى الكذب الصريح. مثالًا على التعريض في الكلام هو أن يقول للظالم الذي جاء ليستولي على بضاعته "ليس في يدي بضاعة"، فالقائل يقصدها حرفيًّا أن يداه فارغتان، ولكن يفهمها الظالم أنه لا يملك بضاعة.

البخل والشح. قال تعالى {قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ وَكَانَ الإِنسَانُ قَتُورًا} [الإسراء 100]، فالحمد لله أنه المتحكم في كل الخزائن وحده، وأنه الكريم. أما الإنسان فطبعه الحرص على ما يملكه خشية الفقر، بل ويطمع فيعمد لتخزين ما فوق احتياجاته، بل وأكثر وأكثر، فمن الناس من يظل يجمع أموالًا تفوق قدرته على إنفاقها طوال حياته ولو حاول. فلو أن أمور رزق العبد كانت متعلقة بعطاء الناس من حوله لهلك، ولكن الرزق بيد الله وحده، وإنما الناس وسيلة من وسائل إيصال ذلك الرزق إلى العبد، والحمد لله على هذا. وطبع حرص الإنسان على المال نراه على أرض الواقع في الفجوة التي بين ضيق الفقراء وترف الأثرياء، فترى فئة أثرياء جداً ومع ذلك لا يؤدون الزكاة، لاسيما الصدقة، ولو أنهم دفعوا الزكاة لما وُجد شديدي الفقر في المجتمع.

ولكن الحمد لله الذي لا يترك أحدًا من المسلمين يهلك جوعًا، فيرزقهم من حيث لا يحتسبون، حتى وإن لم يُنفق عليهم أحد. والغريب أني قد أعصي ربي وهو الذي يرزقني، وكأن لا يطرأ ببالي أنه قد يقطعه، ولكن الحمد لله فوق الحمد، فهو الذي يصبر عليَّ بعد أن رزقني ثم عصيته.

وهذه الصفة، صفة القَتر (أي الإمساك) لدى الإنسان، هي صفة أخرى يجب الانتباه لها والحرص منها، لأنها تتدخل في أمور أخرى غير الإنفاق، مثل التعبد إلى الله. فقد يبخل المرء مع الله

---

[1] سنن أبي داود 4167.

[2] صحيح مسلم 4717.

في شيء وهو لا يدرك، يتمثل عامةً في أن المرء يحد من الوقت أو المجهود الذي يقضيه في طاعة الله. فمن الناس من قد لا يُصلّي النوافل، أو قد ينقر صلاة النافلة، أو يُسرع في أثناء قضاء شيء من طاعة الله كقراءة القرآن مثلًا لأنه يتلهف إلى الانتهاء. وهناك حديث للرسول (صلى الله عليه وسلم) يشير إلى أن البخل يمكن أن يكون في التصرفات، فيُروى أنه قال لرجل "بِعْنِي عَذْقَكَ الَّذِي فِي حَائِطِ فُلَانٍ"، قَالَ: لَا، قَالَ "فَهَبْهُ لِي"، قَالَ: لَا، قَالَ "فَبِعْنِيهِ بِعَذْقٍ فِي الْجَنَّةِ"، قَالَ: لَا، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "مَا رَأَيْتُ الَّذِي هُوَ أَبْخَلُ مِنْكَ إِلَّا الَّذِي يَبْخَلُ بِالسَّلَامِ"[1] (عَذْقَكَ هو غصن نخلة؛ حَائِطِ هو البُستان). هنا يتبين أن من يتقاعس عن السلام على إخوانه –أو رد السلام– هو من البُخلاء، إذ السلام يكاد لا يتطلب مجهودًا ومع ذلك فإن الأجر عليه عظيم.

وهذا البخل –بالتكاسل– عن طاعة الله يؤدي إلى ضعف الإيمان، ومن ثَمَّ يزيد من نسبة الوقوع في المعصية على الجانب الآخر، مما يزيد من نقصان الإيمان أكثر. والعكس صحيح، فمن احترس من تلك الصفة يصبح بيده ميزة، لأنه يستوعب أن طريقة من طرق محاربة المعصية هي بمقاومة الكسل عن الاستزادة من طاعة الله (ولو بالإجبار أحيانًا كحل أخير لتهذيب نفسه، مع الحذر من إجهاد النفس)، وحينئذ يستطيع أن يتفادى آثار ذلك الطبع فيه.

والواضح أن الشح من الصفات المُهلكة (الشح أشد من البخل إذ فيه حرص على جمع المزيد)، كما نبأنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "ثلاثٌ مُهلِكاتٌ، وثلاثٌ مُنجِياتٌ، وثلاثٌ كفَّارَاتٌ، وثلاثٌ دَرَجاتٌ. فأمّا المهلِكاتُ: فشُحٌّ مُطاعٌ، وهَوًى مُتَّبَعٌ، وإعجابُ المرْءِ بنفْسِهِ. وأمّا المنْجياتُ: فالعدْلُ في الغضَبِ والرِّضا، والقصْدُ في الفقْرِ والغِنى، وخشيةُ اللهِ تعالَى في السِّرِّ والعلانيةِ. وأمّا الكفَّاراتُ: فانْتظارُ الصلاةِ بعدَ الصلاةِ، وإسْباغُ الوُضوءِ في السَّبَرَاتِ، ونقلُ الأقْدامِ إلى الجماعاتِ. وأمّا الدَّرجاتُ: فإطْعامُ الطعامِ، وإفْشاءُ السلامِ، والصلاةُ بالليلِ والناسُ نِيامٌ"[2] (والقصْدُ هو التوسط في الأمور، دون إفراط ولا تفريط؛ السَّبَرَاتِ أي في البَرد).

يُضاف إلى هذا أن الشُح يسوق الرجل إلى أخلاق ذميمة أخرى وأشد حتى يهلك، مثل سفك الدماء واستحلال المحارم. فينبغي لنا مقاومة الشُحّ، وهذا عملًا بوصايا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "إِيَّاكُمْ وَالشُّحَّ، فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، أَمَرَهُمْ بِالظُّلْمِ فَظَلَمُوا، وَأَمَرَهُمْ بِالْقَطِيعَةِ فَقَطَعُوا، وَأَمَرَهُمْ بِالْفُجُورِ فَفَجَرُوا. وَإِيَّاكُمْ وَالظُّلْمَ، فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَإِيَّاكُمْ وَالْفُحْشَ، فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفُحْشَ وَلا التَّفَحُّشَ"[3] (وَأَمَرَهُمْ بِالْقَطِيعَةِ أي قطع صلة الأرحام). ومنها قوله (صلى الله عليه وسلم)

---

[1] مسند أحمد 13992. حسَّنه الألباني في صحيح الترغيب 2716. قال المنذري: إسناد أحمد لا بأس به.

[2] صحيح الجامع للألباني 3045.

[3] مسند أحمد 6502.

"لَيْسَ لِأَحَدٍ فَضْلٌ إِلَّا بِالدِّينِ أَوْ عَمَلٍ صَالِحٍ، حَسْبُ الرَّجُلِ أَنْ يَكُونَ فَاحِشًا بَذِيًّا بَخِيلًا جَبَانًا"[1] [حَسْبُ الرَّجُلِ أي من الشر أو الهلاك].

أما من لا يقمع صفة البخل، خاصة في ماله بألا يؤدي الزكاة، فقد حذرنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) من مآل هذا قائلا "مَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ مُثِّلَ لَهُ مَالُهُ شُجَاعًا أَقْرَعَ لَهُ زَبِيبَتَانِ يُطَوَّقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَأْخُذُ بِلِهْزِمَتَيْهِ (يَعْنِي بِشِدْقَيْهِ) يَقُولُ: أَنَا مَالُكَ، أَنَا كَنْزُكَ"، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ {وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [آل عمران 180][2]. ومعاني الحديث: مُثِّلَ لَهُ أي صُوِّر له وأتاه في هيئة كذا؛ شُجَاعًا هو الثُعبان الكبير؛ أَقْرَعَ أي انحسر شعر رأسه من كثرة سُمِّه؛ لَهُ زَبِيبَتَانِ أي نقطتان سوداوان فوق عينيه أو بجانب فمه، أو ربما هما نابان؛ يُطَوَّقُهُ أي يلتف حوله ويَضُمَّه؛ الشِدقَين هما زاوية الفم من تحت الخَدَّيْنِ وباطِنِهما.

تسليم عجلة قيادة النفس إلى الهوى. من أقوال الذين ضلوا {قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ} [المؤمنون 106]. هذا قول الذين لم يؤمنوا بآيات الله في الدنيا، إذ أدركوا أن لا ملجأ من عذاب الله بالكذب فيبوحون بأخفى وأقبح أسرارهم بوضوح لعل هذا يُنجيهم، ولكن أنى ذلك. ومع أن ذلك حالهم الذي أقروا به، أن أهواءهم ولذاتهم جعلت إرادتهم لا تتبع الحق، فهو حال شتى منازل الناس، بدا بالكافرين إلى المسلمين الذين يُسرفون في المعاصي مع الفرق في درجة الضلال. وفرق الدرجة في تمكين الهوى على النفس يتمثل في أن المشرك لا يقر بالله وحده بسبب شهواته، ولكن المسلم يقع في الذنوب عندما تغلب عليه شهوته مع إقراره بالتوحيد. فهذا فيه عبرة لنا جميعًا، أن الدرجة قد تفرق ولكن المبدأ واحد والمسلك هو هو بعينه –أن شقاوة أهوائهم غلبت التزامهم بالحق–، ولكن الفرق في نقطة الانتهاء، إما إلى زلة فحسب يتبعها توبة، أو إلى إسراف في المعاصي، أو إلى نفاق أو كفر.

فلنحذر لأن كثرة المعاصي الصغيرة قد تؤدي إلى الكبائر، والكبائر التي دون الشرك قد تؤدي إلى الشرك الأصغر دون أن يدرك المرء لأنه يكاد يكون خفيًّا. وبعد الشرك الأصغر قد ينكب المرء على الشرك الأكبر مع أنه كان في الأصل مؤمنًا، فنسأل الله أن يقينا من الوقوع في الشرك الأصغر ونحن لا ندرك، ولنُكثر من الدعاء: اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ نُشْرِكَ بِكَ شَيْئًا نَعْلَمُهُ، وَنَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا نَعْلَمُ.

---

[1] مسند أحمد 16675، جزء من الحديث.

[2] صحيح البخاري 4199.

إيثار الدنيا على الآخرة. قال تعالى {بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (16) وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى} [الأعلى 16-17]. لماذا نكون كذلك؟ لا إجابة إلا أن الإنسان ضعيف. ههنا يُرشدنا ربنا بالسعي للأخرة وإيثارها على الدنيا، وما زلت لا ءأخذ بنصيحته، فما بي؟ هل هذا بسبب ضعف يقيني أن الآخرة أفضل، أم ضعف يقيني أن الحساب لا يشمل كل صغيرة وكبيرة؟ أمّا إن كانت حُجتي أن الهوى يَجُرّني إلى حب الدنيا أو أني أضعف أمام الشهوات فعليَّ أن أحترس، فإن تمكن الهوى على النفس يؤدي إلى ضياع الإيمان ومجادلة الحق ثم إنكاره، وأن كثرة حب الدنيا واللهفة لجَمعِها يُنسي الآخرة. فلماذا أترك نفسي تنسى الآخرة تدريجيًّا حتى تصبح الدنيا هي مقصد حياتي... الآخرة التي أعلم أني سأندم على كل لحظة أضعتها في الدنيا دون طاعة لله، فما بال ندمي على ارتكابي المعصية؟!

ومن العوامل المؤدية إلى إيثار الدنيا على الآخرة هو طبع العجلة عند الإنسان، أي أنه يستعجل تحصيل المتاع فلا يصبر عن متاع الدنيا، فيخوض فيها ويؤجّل التفكر والتعامل مع وضع الآخرة، وقد قال تعالى {خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ} [الأنبياء 37]. الإنسان بطبيعته عجول، وهذه صفة لها فوائدها وعيوبها، فمن الحكمة معرفة أبعادها للاستفادة من مزاياها ومعالجة عيوبها. هذه الآية تحذيرٌ للذين يسخرون من آيات الله، لأنهم يستعجلون العذاب ويتحدون الرسول (صلى الله عليه وسلم) ويسخرون بالرسالة جملةً، وذلك لأنهم لا يريدون أن يتركوا ما هم عليه من لهو إلى الإسلام الذي يُكلّفهم الأعمال ويُهَذِّب تصرفاتهم وشهواتهم. وفي هذه الآية عظة للمسلمين أيضًا، لأن الإنسان في طبعه العجلة، فلا يصبر عن متاع الدنيا لينال متاع الآخرة، بل يريد الاستمتاع في التو، فيجد نفسه قد وقع في الذنب.

وقد لا يلقي الإنسان بالًا لحاله لما يراه (في نظره) من أنه تجاوزٌ قليلٌ، فيقع في معصية وراء معصية دون توبة، لأن أحاسيسه وضميره قد تبلدا مع تكرار ارتكاب المعصية ومع مرور الزمن وهو مواظبٌ عليها (وهذان عاملان يستنزفان قابليته لمقاومة المعصية، التكرار ومرور الزمن)، مع قلة محاسبة نفسه ومعاتبتها. ولكن لا شك في شيء، أنه عندما يرى الإنسان النار أمامه يوم القيامة، وهي آية من آيات الله، فإنه يُبصر الأمور على حقيقتها كائنٌ من كان، فيدرك يقينًا أنه كان يجب عليه أن يصبر مهما كان العناء، ويُقرُّ أنه لم يكن مُرغمًا على ارتكاب المعصية في الحقيقة، وأن تجاوزاته لم تكن قليلة كما يُقنع نفسه.

إذًا لماذا لا نتعظ فنصبر بدلًا من استعجال متعة الدنيا على متعة الآخرة، مما قد يؤدي إلى فوات متعة الآخرة علينا. ولمن وجد نفسه قد زل فليتب ويعاود كرة الصبر دون يأس أو استرخاء، لأن هذا هو صميم هدف الامتحان الحقيقي -الإنابة بعد الإخفاق أم لا-، وقبل أن نرى آيات الله في الآخرة التي لا شك أنها موجودة وأننا سنراها لا محالة، فآنذاك سيكون قد فات الأوان ولا ينفع العمل

الصالح! وذاك الوضع قد يجد المسرف نفسه فيه، كما حذر الله المشركين منه {هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيهُمُ الْمَلآئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انتَظِرُواْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ} [الأنعام 158].

وقال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا وَرَضُواْ بِالْحَياةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (7) أُوْلَـئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ} [يونس 7-8]، فيُحذر من مغبة اتخاذ ذلك المسلك، فكل ما ذُكر في الآية الأولى أعراضٌ مترابطة لمرضٍ واحد، وهو إيثار الدنيا على الآخرة. ومع أن تلك صفة، وهي عدم رجاء لقاء الله (أي لا يطمع في ذلك أو لا يأمله)، من المفترض أن تكون في الكافر لأنه لا يؤمن بالآخرة، إلا أن هناك من المسلمين من لا يضع المحاسبة في حساباته عندما يُقدم على أمر. وذلك يتَّضح في تصرفاته وخوضه في الدنيا كأنه لن يُحاسَب، إذ لو أن قلبه كان يستحضر أنه سيُحاسَب على أفعاله لمنعه هذا من الجرأة في العصيان، ولكنه لا يستحضر الحساب فترى أعماله تشبه أعمال من ليسوا بمسلمين.

ما أردت أن أشير إليه في الآية الأولى هو الكلمات التي اختارهن الله لوصف حالهم "وَرَضُواْ" و"وَاطْمَأَنُّواْ"، لأنهما تدلان في سياق الآية أنهم استقروا وسعدوا بالأدنى من الخيارين (أي بين الدنيا والآخرة) {وَفَرِحُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ} [الرعد 26، جزء من الآية]. وهذا التعبير فيه تهكم على حالهم، لأنهم اطمأنوا فوق أنهم رضوا بذلك الوضع، أي اقتنعوا بالأدنى لدرجة أنهم سكنوا إليه وأسسوا عملهم على أنه شيءٌ مضمون ومُسَلَّم وكل شيء (وكأن هي حياتهم في الدنيا دون وجود للآخرة). وهذا التعبير فيه إذلالٌ لهم أيضًا، إذ يبرز سفاهتهم وتفاهتهم في اختيارهم للأسوأ مع وضوح أيهما أفضل، بالإضافة إلى تهلُّلِهم بالأدنى وشوقهم له، مما يُبين مدى ضلالهم!

فيا أخي، لا تكن مثلهم وتسكن للدنيا وتأمن المعصية، فإن رضانا بالدنيا أدنى مما يريده الله لنا، وانحدارٌ عن المنزلة الكريمة التي هيأنا لها وهي سجود الملائكة لأبينا آدم (عليه السلام)، فبذلك نصبح على وزن الذي قال عنه الله {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (175) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَـكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [الأعراف 175-176] (أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ أي سكن لها ورضي بها). فلماذا نُسَفِّه شأننا ونحطّ من قدرنا؟ وبالطبع هذا النهج المعيشي لا يليق منا تجاه الله، واعلم أنك إذا أحببت الدنيا بمعاصيها فإن لها غدرٌ بك في الدنيا والآخرة. فرؤية العاصي في الدنيا كأنك ترى الرجل الكبير الحكيم ذا الوقار والمظهر الحسن يخرج من بيته ليلعب في الوحل!

وإيثار الدنيا على الآخرة يتمثل بانشغال المرء عن الطاعة والإقبال على المعصية، أي الانشغال بالوسائل عن الغاية، بالنِعَم عن المُنعِم، وهو خلطٌ صارخ للمقاصد والأولويات. قال تعالى

{اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ (1) مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (2) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّواْ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ} [ألأنبياء 1-3]. تتكلم الآيات عن الذين لم يؤمنوا برسالات الله، وإذا نظرنا إلى أوصافهم، نجد من تلك الصفات في الذين لا يطبقون الإسلام كما ينبغي... فأوصافهم كالذين لا يؤمنون ولكن على درجة أقل (يلعبون، معرضون، لاهون). أولئك لا يقيمون شرائع الدين ولا يُحافظون على الإسلام بحمله على أكتافهم، فمثلًا لا يقرأون القرأن، أو لا يُنفِّذون أحكامه في حياتهم ولا في الدولة، أو يتهاونون ويتساهلون إن انتهكت حدود الله.

وهذا لأنهم غرقوا في المعاصي، فهم في غفلة معرضون عن إقامة الدين والحفاظ عليه؛ وهم عن الذكر لاهون. فقليلًا ما يأتون الصلاة إلا كسالى (بعد تأجيلها لآخر لحظة) إن أقاموها في وقتها، وقليلًا ما يذكرون الله على ألسنتهم لقلة تذكرهم لله، ويلهيهم أي نوع من اللهو عن دينهم. وإذا ذكروا الله عادة يكون ذلك تعودًا لا بصدق النيات وصدق العمل، فمثلًا يقولون "إن شاء الله" و"الحمد لله" في عامة كلامهم مع تقصيرهم الشديد في عملهم الصالح مع كثرة أذيتهم للناس، بل ومنهم من يقول "الحمد الله" أو "وفقني الله" في أمرٍ أصابه وهو في الحقيقة مُحرَّم، ويقول "إن شاء الله سأفعل 'كذا'" بينما يتكلم عن معصية!

هؤلاء وقعوا في مأزق قد وضعوا أنفسهم فيه إذ إنهم إذا ذُكّروا أعرضوا، وإذا عصوا الله غالبًا ما ينسون الاستغفار، فيقعون في مثل ما وقع فيه من كان قبلهم {أَوَلاَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لاَ يَتُوبُونَ وَلاَ هُمْ يَذَّكَّرُونَ} [التوبة 126]. تتكلم هذه الآية عن المنافقين، ومعنى يُفْتَنُونَ أي يُختبرون، وكانوا يخفقون في ذلك ولا يتوبون ويرجعون عما هم فيه، فازدادوا وزرًا. وذلك حالهم لأنه كما قال الله تعالى عليهم {اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [المجادلة 19]، فهؤلاء يقدمون اللهو عن ذكر الله، الله الذي خلقهم ومنحهم الحياة. فما ظني بمصيرهم وجزاؤهم يوم القيامة؟ ثُم مع العلم، أن مصيري يقترب من مصيرهم كلما عصيت ربي.

وكثيرًا ما تُلهي الإنسان الشُعَبُ عن المقصد، مثل أن الذي يغتني يلهيه المال عن ذكر الله، أو أن الذي يُعطي سلطانًا على الناس لا يستخير الله في قراراته، أو أن الذي لديه بسطة في العقل أو الجسد يغتر بما يُنجزه بهما وينسى فضل الله وتوفيقه له في الأمور. وهذا يُستدل به من الحديث عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) "نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ: الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ"[1] (مَغْبُونٌ أي عدم استعمالهما فيما ينبغي، ومن ثَمَّ فوات الأجر الحسن منهما، فهي الغفلة عن استخدامهما بالنفع،

[1] صحيح البخاري 5933.

والمقصد هو عدم توظيفهما في طاعة الله). هذا يُضاف إلى قول الله تعالى {وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مّا تَشْكُرُونَ} [الأعراف 10].

فهذا حال أغلب الناس، إن بسط الله في أجسامهم أو مكنهم في الأرض نسوا الله، ولم يشكروه! فيا للعجب. والتناقض الأعجب هو عندما يمرض أو يعجز أو يضيق الحال على المرء بانقطاع السُبل، حينئذ يتذكر الله ويُنيب إليه تائبًا، مطيعًا لربه تقربًا إليه وناجيًا ومُلحًّا عليه، مُخلصًا له في كلامه ونياته، فسبحان الله على ما نحن فيه. ولذلك كان بعض الصحابة يخشون المال الفائض ويتصدقون به إذا جاءهم لأنهم يرون حقيقة المال أنه فتنة وبلاء، أكثر من أنه نعمة. ذلك لأنهم يعلمون أنهم سيُسألون وسيُحاسبون عليه يوم القيامة، وسيشغلهم عن عبادة الله في الدنيا.

ففتنة الضرّاء عندهم أهون من فتنة السراء، وأحبوا أن يُبتلوا بالضراء بدلًا من السراء لأنهم كانوا يخشون فتنة السراء أكثر من فتنة الضراء، وأكثر الناس الآن رغبتهم عكس هذا وأنا منهم. فأين أنا من الصحابة ومنهم من قال (وهو سيدنا عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ رضي الله عنه): ابْتُلِينَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالضَّرَّاءِ فَصَبَرْنَا، ثُمَّ ابْتُلِينَا بِالسَّرَّاءِ بَعْدَهُ فَلَمْ نَصْبِرْ![1] وهذا النمط السلوكي يرتبط بما قاله الرسول (صلى الله عليه وسلم) عن أشد الناس بلاءً بعد الأنبياء "ثُمَّ الصَّالِحُونَ، إِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيُبْتَلَى بِالْفَقْرِ حَتَّى مَا يَجِدُ أَحَدُهُمْ إِلا الْعَبَاءَةَ يُحَوِّيهَا، وَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيَفْرَحُ بِالْبَلاءِ كَمَا يَفْرَحُ أَحَدُكُمْ بِالرَّخَاءِ"[2]. وقال الإمام الحسن البصري (رحمه الله) في رجالٍ كهؤلاء قد عاين أحوالهم: أَدْرَكْتُ نَاسًا مِنْ صَدْرِ هَذِهِ الأُمَّةِ كَانُوا وَاللَّهِ عَلَى الدُّنْيَا وَهِيَ مُقْبِلَةٌ أَشَدَّ إِدْبَارًا مِنْ إِقْبَالِكُمْ عَلَيْهَا وَهِيَ مُدْبِرَةٌ![3]

وقال تعالى مُحذرًا {وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مّن نَّاصِرِينَ (34) ذَلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللهِ هُزُوا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدّنْيَا فَالْيَوْمَ لاَ يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ} [الجاثية 34-35]. هذه الآية تتكلم عن الذين نسوا (أي أهملوا) طاعة الله وعبادته، فينساهم الله (أي يتخلى عنهم كما تخلوا عن آياته)، والآية تتكلم عن الذين لم يؤمنوا بالآخرة ولكن لها وجه تطبيق على من آمن جُملةً ولكن لم يعمل بآيات الله. وحال نسيان الله مع النعم لم يكن غريبًا عليَّ، فإني أدرك كم أكون متذللًا ومتقربًا إلى الله في أوقات ضعفي، متضرعًا منيبًا إليه، بخلاف حالي وأنا في السراء، وحين ما يُفرّج الله عني الكرب ويكرمني ويزيدني من النعم والعزة، أنسى شكره وقد أهمل في عبادته وألهو بما رزقني من النعم، وربما حتى أعصيه بما أفاض به عليَّ.

---

[1] سنن الترمذي 2388.

[2] سنن ابن ماجه 4014، جزء من الحديث.

[3] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء للأصبهاني 2/149-150.

فالسؤال هو، لماذا زادني الله من النعم مع علمه أنها ستشغلني؟ ذلك لأن الله يبتلي المرء بالفتن، إما بالضراء أو بالسراء، ويراقب كيف أفعل أنا وأنت وهذا وذاك في كلٍ من الحالتين {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ} [الأنبياء 35]. عندما تأتيني النعمة ثم تُلهيني عن الله، حينئذ تصبح نقمة وسأُسأل عنها يوم القيامة، وذلك لأن الله ابتلاني لينظر ءأشكر أم أنسى شُكر واهِبِها. وأيضًا كي يُبين الله لي كم أنا ضعيف العقل والكيان، لأن الإنسان بطبيعته لا يخضع إذا أحس أنه قوي وأنه عظيم وأنه ذو سلطة ومال وله سمعة، فحينئذ يتملكه الكبر والغرور وتأخذه العزة بالباطل فلا يخضع للخالق والوهاب، وفي أخف الدرجات ينسى ذكر ربه، فسبحان الله. فما هذا الكائن الضعيف الهيّن الذي ينسى الرازق بعد الرزق بسبب الرزق، بل وقد يتمادى المرزوق فيعصي الرازق بالرزق بسبب شهواته! عجبًا عليك يا ابن آدم.

والآيات الدالة على ذلك كثيرة، منها: {وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مّنّا مِن بَعْدِ ضَرّآءَ مَسّتْهُ لَيَقُولَنّ هَذَا لِي وَمَآ أَظُنّ السّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رّجِعْتُ إِلَىَ رَبّيَ إِنّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىَ فَلَنُنَبّئَنّ الّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنّهُمْ مّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (50) وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسّهُ الشّرّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ} [فصلت 50-51]؛ {هُوَ الّذِي يُسَيّرُكُمْ فِي الْبَرّ وَالْبَحْرِ حَتّىَ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلّ مَكَانٍ وَظَنّوَاْ أَنّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنّ مِنَ الشّاكِرِينَ (22) فَلَمّآ أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقّ يَأَيّهَا النّاسُ إِنّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىَ أَنفُسِكُمْ مّتَاعَ الْحَيَاةِ الدّنْيَا ثُمّ إِلَينَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [يونس 22-23]؛ {فَإِذَا مَسّ الإِنسَانَ ضُرّ دَعَانَا ثُمّ إِذَا خَوّلْنَاهُ نِعْمَةً مّنّا قَالَ إِنّمَآ أُوتِيتُهُ عَلَىَ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ} [الزمر 49].

ولكن إن بالغت في نسيان حق الله مع كثرة النعم... قد أكون من الذين شملتهم تلك الآيات يوم القيامة. والطامة الكبرى أني قد أحسن الظن في مصيري، أي أقنع نفسي أن الله سيرحمني فأدخل الجنة بالرغم من تركي للعمل الذي هو من متطلبات دخول الجنة ويجلب رحمة الله، وعندما ألقى الله قد أُفاجأ بقول ربي لي "الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَذَا". فأين الأمل إذا بعد هذه المقولة، بعد أن يكون قد تركني ربي. وقد شبَّه ابن القيم (رحمه الله) من يرجو رحمة الله والدرجات العُلى في الجنة دون اجتهاد في العمل كالذي يزرع الحبوب في الأرض ثم لا يرويها ولا يرعاها، ثم يأتي بعد أمد ويُفاجأ أنها لم تطرح.

وللعلم، أغلب الناس هذه الأيام يقعون في هذا الفخ، أنه يحسن الظن في مصيره بالرغم من أن عمله الصالح قليل وأعماله المُفسدة كثيرة. والدليل على أن وضع أغلب الناس كذلك هو حال الأمة الهين مقارنة بغير المسلمين، إضافةً إلى إصابتنا بالابتلاءات والفتن العظيمة.

جاء ذلك في حديث عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "مَا مِنْ قَوْمٍ يُعْمَلُ فِيهِمْ بِالْمَعَاصِي، هُمْ أَعَزُّ وَأَكْثَرُ مِمَّنْ يَعْمَلُهُ، لَمْ يُغَيِّرُوهُ إِلَّا عَمَّهُمْ اللَّهُ بِعِقَابٍ"[1]. نستطيع أن نستنتج أن المعصية يُجهر بها ولا يتم النهي عنها فقط في حالة إذا كان أغلب الناس يألفونها على الأقل، لأنهم إن لم يألفوها لاشمأزوا منها فأنكروا على من يفعلها. ويُرجى الانتباه إلى لفظ 'يألفونها' وليس 'يرتكبونها'، فمغزى الكلام أنه لا يُشترط وقوع أغلبهم فيها، بل يكفي التقصير في النهي عن المنكر كما دل الحديث، وبذلك يكونون لهم يدٌ في انتشار المعصية وظهورها علنًا بكونهم سلبيين.

وقد رأينا من لا يتمسك بشرائع الله ويرتكب كثيرًا من المُحرمات يَتَكلم بالروحانيات العالية والمشاعر الفائضة عن الإسلام، بينما هو جاهل في دينه وربما حتى يختار الضلالة بتعمدٍ، وكأنه عالم في الإسلام. فذاك الشخص أشبه بمن قال الله فيهم {وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (204) وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ (205) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ} [البقرة 204-206].

ومن تناقض الأوضاع التي نراها الآن مع اقتراب آخر الزمن أننا قد نرى مثل ذلك الشخص يتكلم كأنه عالمٌ مُلمٌ بالإسلام لينتقد شيخًا عالمًا أو داعيًا مُخلصًا في نياته، قد قُلبت الأوضاع. فأصبح من ليس أهلًا للكلام عن الإسلام بسبب جهله ينتقد من هو أهلٌ للكلام، وهذا بالقليل الذي حصَّله من علم، وتلك فتنةً عظيمة، خاصةً إذا كان متميزًا في فرع من فروع الدنيا (أي غني أو عالمٌ في علوم الدنيا) أو أن لديه موهبة في التكلم بطريقة تكون جذابة وتُليّن عقول الناس، نسأل الله العافية والسلامة، والله المستعان.

العاصي لربه المقتنع أنه سينجو من العذاب يندرج تحت أحد ثلاثة معتقدات. الأول يعصي لأنه لا يؤمن بالحساب فيغتنم شهوات الدنيا دون أن يُلقي بالًا للحساب، وذلك هو الكافر. والثاني يؤمن بالآخرة ولكن يعصي ويتكبر لأنه قد غرق في شهواته وعَظَّم نفسه في ذات الوقت (مع التناقض الواضح في ذلك)، يُسَوّل لنفسه أن ما أنجزه من الأعمال (في نظره) يكفي أن يُدخله الجنة مقابل سيئاته الهيّنة مقارنةً، وقد يستدل على قناعته بأن ما عنده من جاه وسلطان ومال يدل أن الله يُحبه وسيُكافئه بدخول الجنة أيضًا، وذلك هو المغرور المُجازِف. والثالث يُذنب ولكن يرى أن ذنوبه ستُغفر فلن تضره بشيء، وذلك المغرور المُتمني.

وتوضيحًا لنقطة، الفرق بين الفئة الثانية والثالثة هو أن المرء من الفئة الثانية يستهين بأثر معاصيه وعواقبهن، سواء على الناس في الدنيا أو عليه هو في الدنيا وحين يُحاسب عليهن في

[1] مسند أحمد 18433.

الآخرة، فيرى أنه سيُجازى عليهن ولكنهن لن يبلغوا حد أنهن يُستوجبوا له النار. لكن المرء من الفئة الثالثة يستهين بالمعصية كُليةً، أي يرى أنها ستُمحى فلن يُعاقب عليها بتاتًا.

والفئة الأولى دلت عليها آيات في القرآن {وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مّنّا مِن بَعْدِ ضَرّآءَ مَسّتْهُ لَيَقُولَنّ هَذَا لِي وَمَآ أَظُنّ السّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رّجِعْتُ إِلَىَ رَبّيَ إِنّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىَ فَلَنُنَبّئَنّ الّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنّهُمْ مّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ} [فصلت 50]، {وَمَآ أَظُنّ السّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رّدِدتّ إِلَىَ رَبّي لأجِدَنّ خَيْرا مّنْهَا مُنْقَلَبا} [الكهف 36]. فالموقف المبدأي لمثل هذا أنه يكفر بالآخرة، ولكنه يتطاول ويتأول على سبيل الجدل أنه إذا كانت هناك آخرة فإنه يستحق الجنة (وذلك بسبب قصر رؤيته للأمور). فكأنه أخذ من الله عهدًا أنه سيدخله الجنة استنادًا إلى أن الله أسبغ عليه النعم في الدنيا، ويقتنع بذلك بالرغم من كفره بالله وبالآخرة. وقد يغتر الذي يؤمن بالآخرة بفكرة أن إسباغ الله النِعَم عليه يدل على الحُب، ولكنه يكون من الفئة الثانية، أعاذنا الله من هذا الضلال الفكري.

قد غفل أصحاب هذا الفكر عن حديثٍ لرسول الله (صلى الله عليه وسلم)، ضعيف الإسناد، "إِنَّ اللَّهَ قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَخْلاقَكُمْ كَمَا قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَرْزَاقَكُمْ، وَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لا يُحِبُّ، وَلا يُعْطِي الدِّينَ إِلا لِمَنْ أَحَبَّ، فَمَنْ أَعْطَاهُ اللَّهُ الدِّينَ فَقَدْ أَحَبَّهُ. وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لا يُسْلِمُ عَبْدٌ حَتَّى يَسْلَمَ قَلْبُهُ وَلِسَانُهُ، وَلا يُؤْمِنُ حَتَّى يَأْمَنَ جَارُهُ بَوَائِقَهُ" قَالُوا: وَمَا بَوَائِقُهُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ؟ قَالَ "غَشْمُهُ وَظُلْمُهُ، وَلا يَكْسِبُ عَبْدٌ مَالا مِنْ حَرَامٍ فَيُنْفِقَ مِنْهُ فَيُبَارَكَ لَهُ فِيهِ، وَلا يَتَصَدَّقُ بِهِ فَيُقْبَلَ مِنْهُ، وَلا يَتْرُكُ خَلْفَ ظَهْرِهِ إِلا كَانَ زَادَهُ إِلَى النَّارِ، إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لا يَمْحُو السَّيِّئَ بِالسَّيِّئِ وَلَكِنْ يَمْحُو السَّيِّئَ بِالْحَسَنِ، إِنَّ الْخَبِيثَ لا يَمْحُو الْخَبِيثَ"[1].

وتفسيرًا للحديث: يُعْطِي الدِّينَ أي يُعطي الإيمان؛ وَلا يَتْرُكُ خَلْفَ ظَهْرِهِ أي ما يتركه للورثة بعد موته، في بيان على أيًّا ما يفعله المُكتسب للمال الحرام فهو هباء –سواء استخدمه أم تصدق به أو ادَّخره–. وسبب هذا هو كون المال لا بركة فيه إذا أنفقه على نفسه، ولا يُقبل عند الله إذا تصدَّق به إذ إن الله لا يقبل إلا طيبًا ولا يمحو سيئات العبد بالسيئ من المال، فمحو السيئات يكون عن طريق الصدقة الحلال الطيب، وإذا ادَّخره ينتهي إلى الورثة ولا يزال يحمل وزر المال. ومعنى: إِنَّ الْخَبِيثَ لا يَمْحُو الْخَبِيث أي أن النجس لا يطهر بنجاسةٍ أخرى، بل بالطهور، وهذا بيانٌ بالمثال سبب أن المال الحرام لا تُقبل منه الصدقة ولا يُمحَى به الخطايا.

وفيما يخص الفئة الثانية فإنهم مثل الفاجر الذي قال فيه سيدنا بن مسعود (رضي الله عنه) "إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ، وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ

[1] مسند أحمد 3490، ضعيف.

عَلَى أَنْفِهِ فَقَالَ بِهِ هَكَذَا" (قَالَ أَبُو شِهَابٍ: أي أشار ابن مسعود بِيَدِهِ فَوْقَ أَنْفِهِ، والمراد أن الفاجر يُحقَّر من قدر ذنوبه)[1].

والمعتقد الثالث هو ما يقع فيه كثير من المسلمين (الأقلية هم الذين يقعون في المعتقد الثاني). ولكن الأمثلة أوضح في الفئات الأخرى مثل اليهود والنصارى، الذين يؤمنون بالآخرة ولكن في إيمانهم عِللٌ عقائدية، فإنهم يعلمون أن المعصية خطأٌ وأنها حمل، ولكن يَصرفون هَمَّ حسابها بتبرير أنها سيُعفون منها فستصبح هباءً. فالنصارى يزعمون أن المسيح هو الله أو ابن الله وأنه يُحب كل مخلوقاته، وأن صَلبِ المسيح فيه من العناء ما يكفي لحمل وتكفير ذنوب أتباعه، وما عليهم إلا أن يؤمنوا بأن المسيح هو ابن الله وذنوبهم ستُغفر! فهم يشركون بالله ويزنون ويقتلون غيرهم ظُلمًا ويشربون الخمر ويعثون في المحرمات ويُفسدون في الأرض، ويرون أنهم سيُغفر لهم، أي لهم الجنة بعد كل ذلك!

والمسلمون الذين يندرجون تحت الفئة الثالثة يرون أن سيئاتهم لن تحول بينهم وبين الجنة إذ إنهم شهدوا شهادة الحق فلن يدخلوا النار ولو فاضت معاصيهم، تحت استيعابٍ خاطئٍ لحديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "لَنْ يُوَافِيَ عَبْدٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَقُولُ 'لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ' يَبْتَغِي بِهِ وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ النَّارَ"[2]. فمن ضمن ما قاله العلماء في الحديث هو أن الكلام حول الخلود في النار وليس دخولها.

ولكن المسلم المُفلح هو الذي عندما يقع في المعصية بعد مجاهدة النفس يُسارع في التوبة والإنابة إلى الله، ويخشون أن ما قدَّموا من أعمالٍ صالحة قد لا تكفي أو لا يُقبل بعضها، فقلوبهم وجلة، فأؤلئك في أخير حال وأدعى لهم النجاة إذ قد تواضعوا لله. ونمطهم هذا دليلٌ على تواضعهم لدرجة أنهم يخافون عدم النجاة بسبب معاصيهم (وإن قلَّت، خاصة مع رؤيتهم أنهن قد يُحبِطن عملهم الصالح)، فهم ليسوا ممن يرتكبون المعاصي وهم مستيقنون أنهم ناجون.

فالمسلم الذي أخفق بقوله لنفسه: ما دمت قلت "لا إله إلا الله" فإني داخل الجنة حتمًا، استنادًا بالحديث المروي عن سيدنا معاذ بن جبل أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له "يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ"، قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ، قَالَ "لا يَشْهَدُ عَبْدٌ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ ثُمَّ يَمُوتُ عَلَى ذَلِكَ إِلا دَخَلَ الْجَنَّةَ"، قُلْتُ: أَفَلا أُحَدِّثُ النَّاسَ، قَالَ "لا، إِنِّي أَخْشَى أَنْ يَتَّكِلُوا عَلَيْهِ"[3]. قيل في معنى يَتَّكِلُوا: أي يسيروا في الطريق دون الأخذ بالأسباب، وهي الأعمال التي تدخلهم الجنة وبالبُعد عن المعصية، بمعنى آخر أنهم يعتمدوا على علمهم بها فلا يقوموا بغيرها (أي الشهادة). وقد تم نقاش –في باب

[1] صحيح البخاري 5833.

[2] صحيح البخاري 5943.

[3] مسند أحمد 21002.

لحظات صدق مع النفس– نقطة أن المعنى قد يكون أن العبد يدخل الجنة عاجلًا أو آجلًا، ولا يمنع ذلك أنه قد يمكث في النار زمنًا.

فإذا أصر العبد ومضى على ذلك النهج، فإنه سيُفاجأ يوم القيامة أن الله يُعرض عنه. ولندرك مصيبة هذا فلنُقيسه بحال العبد في الدنيا، فعندما تصيبه مصيبة كبيرة ويُدرك أن ليس هناك أحدٌ من الناس يستطيع مساعدته، يتخلى عن كل الناس ويتعلق بالله وحده يدعوه آملًا أن ينجيه، ويسلِّم نفسه لله ويضع كل شؤونه وآماله على الله وحده. فإذا كان ذلك حاله في الدنيا، فكم يكون هالكًا يوم القيامة إن قال له المُنَجّي "الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَذَا"، فأين الأمل؟ أين الملجأ؟! أين المفر وإلى من؟!؟! وإلى من الرجاء في كشف طامات الآخرة؟ فإلى من ألجأ سوى الله... وقد نسيني... أتدري يا أخي ما معنى أن ينسى الله شيء هو خلقه، حتمًا الضياع والهلاك وانهيار هذا الشيء.

إن السماء والأرض يستمران في سريانهما لأن الله يُمسكهما (أي يُقيمهما حفظًا لهما)، فماذا لو تركهما؟ {إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} [فاطر 41]. حينئذٍ يزولان ولا يحفظهما أحدٌ من بعد الله، وعلى هذا الأساس نقيسه على الإنسان، فإن جسم الإنسان يحتاج إلى حفظ الله كي يسير دون عطلة ولا فوضى ولا تصادمات. فسيران الدم في الأوعية وعمل الأعضاء باستمرار وبتناسق هو من حفظ الله ألا يزولوا، ومن تركه الله فقد تتضارب وتتعطل وظائف جسده الداخلية، ويحتمل أن يكون هذا نوعٌ إضافيٌ من العذاب الداخلي الذي يعانون منه ويشعرون به في جهنم، آلام تعطيل أعضائهم. فلا أريد أن أكون منسيًّا من الله، فلماذا إذًا لا أسعى في طاعة الله؟

إذا كانت عندي نعمة الصحة، فلماذا لا أقوم الليل مثلًا لأُثبت لله أني عبد شكور؟ لماذا عندي نعمة المال ولا أنفقه بكثرة في سبيل الله؟ لماذا كذا ولماذا كذا، ولماذا أنا راكدٌ ومتكاسلٌ هكذا وسلبيٌ؟ فقد وقعت فيما حذّر منه الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهو الغبن في نعمة الصحة والفراغ، بل وأصبحت في غبنٍ في نعمة المال والعلم أيضًا، وربما غيرهم.

هل غرَّتني الحياة الدنيا بزينتها السطحية المؤقتة على ترك سبيل الله؟ فقد قال الله في الدنيا {إِنّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمّا يَأْكُلُ النّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتّىَ إِذَآ أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازّيّنَتْ وَظَنّ أَهْلُهَآ أَنّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَاهَآ أَمْرُنَا لَيْلا أَوْ نَهَارا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدا كَأَن لّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكّرُونَ} [يونس 24]. وحذرني الرسول (صلى الله عليه وسلم) من الدنيا في أحاديث كثيرة، منها "إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا

فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ"[1]، والحديث "إِنِّي فَرَطُكُمْ وَأَنَا شَهِيدٌ عَلَيْكُمْ، إِنِّي وَاللَّهِ لأَنْظُرُ إِلَى حَوْضِي الآنَ وَإِنِّي قَدْ أُعْطِيتُ خَزَائِنَ مَفَاتِيحِ الأَرْضِ، وَإِنِّي وَاللَّهِ مَا أَخَافُ بَعْدِي أَنْ تُشْرِكُوا وَلَكِنْ أَخَافُ أَنْ تَنَافَسُوا فِيهَا"[2] (فَرَطُكُمْ أي السابق والمتقدم؛ تَنَافَسُوا فِيهَا أي تتلهفوا على تحصيل الدنيا).

إن من قوة التعبير في الآيات المذكورة لسورة الجاثية هو قوله سبحانه "وَلاَ هُمْ يُسْتَعَتَبُونَ"، فإن الشخص يعاتب شخصًا إن كان يحبه، وهذا بخلاف وضع التوبيخ، وهو إلقاء اللوم أو محاسبة شخص كي يؤنّبه، والفرق في النية، فالمُعاتِب يريد الصلح، أما المُوبخ فإنه يريد عقاب الذي يوَّبخه وليس همَّته الصُلح. هذا يكون إذا ظلم أحد شخصًا، فالمظلوم إن كان يحب أو يهتم لأمر الظالم، أو حريصٌ على علاقته بمن أخطأ فيه، عاتبه (مثل ما يفعل الأب مع ابنه)، لأنه إما يريد منه اعتذارًا أو تصليحًا لما صدر منه أو الارتقاء إلى الطريق الصحيح لتجنب تكرار المظلمة.

ففي هذه الآية يبين الله أنه لا يعاتبهم لأنه لا يأبى لهم ولا لمصيرهم، ولا يُلقي لهم اهتمامًا، وأن ليس لهم قيمةٌ ولا وزنٌ إطلاقًا، فإن الله لا يحبهم ولا يريد منهم اعتذارًا ولا إصلاح لما فعلوه، ولا أن يُقوّموا أنفسهم إلى ما يرضاه الله لأن الآخرة دار حساب وفات أوان العمل. وهذا زيادة في تعذيبهم وتحسيرهم لأن الله يريهم أنهم لم ولن يضروه أبدًا، وأنه هو الغني عنهم ولا يكترث لأمرهم لدرجة أنه لا فرق عنده إن كانوا على رضاه أم لا، بالرغم من شدة رغبتهم في إرضائه حينئذ! ذلك لأنهم رضوا بالحياة الدنيا عما عند الله واتبعوا أهواءهم، فأصبحوا لا يساوون شيئًا لأنهم رضوا بذل أهوائهم، فلا قيمة لهم.

والدليل على أن الله يُعاتب من أحبَّه هو أن الله عاتب النبي (صلى الله عليه وسلم) بلُطفٍ عندما عبس في وجه الأعمى –عبد الله بن أم مكتوم رضي الله عنه– الذي جاء ليطلب الإرشاد. فقد كان عند الرسول (صلى الله عليه وسلم) أشرافٌ من قريش أراد أن يهديهم، وجاء ابن أم مكتوم في ذلك التوقيت يسأل الهدى من الرسول (صلى الله عليه وسلم)، فأعرض (صلى الله عليه وسلم) عنه وكلح وجهه لما هو فيه من انشغال. حينئذ نزلت فواتيح سورة عبس تُعاتب الرسول (صلى الله عليه وسلم) على إعراضه عن من أقبل على الهُدى وحرصه على من ينفرون من الهدى، ففي ذلك دلالة على أن الله يُعاتب مَن يُخفق ممن يُحبهم. فقولوا لي، ماذا بقي لشخص لا يُعاتبه الله؟!؟! أمرٌ مرعبٌ حقًّا.

وقال تعالى {قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبّ إِلَيْكُمْ مّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبّصُواْ حَتّىَ

[1] صحيح مسلم 4925.

[2] صحيح البخاري 3329.

يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} [التوبة 24]. إن الذين يُحبون الدنيا يغرقون فيها، فيكرهون الرحيل منها بالجهاد في سبيل الله، أي الانتقال من الراحة والمتعة إلى المشقة وربما الموت. فكيف أكون منغمرًا في لذَّات المعاصي وأقول لنفسي إن فُتِحَ باب الجهاد وأُتيحت لي الأسباب سأقاتل بضراوة؟

من حكمة الله أنه يذكر أقيم الأشياء للإنسان في هذه الآية، لأنها تؤثر في الإنسان عندما يتفكر في الذهاب للجهاد، فقد يأبى الذهاب حرصًا على الأهل والأملاك ولعدم رغبته مفارقتهم. وقد ينسى المرء التوكل على الله، فكيف الله بفاعل بأهل امرئ تركهم في حفظ الله للمجاهدة في سبيله تعالى؟ أسيخزيهم الله ويُخزي المرء؟! لا شك أن رعاية الله لشيء أضمن من رعاية الشخص بنفسه على شيء.

لذلك من أحب أهله وماله أكثر من الله، وهذا يظهر بالصورة العملية بأن يتخلى عن الجهاد حرصًا على متعلقات الدنيا، فلينتظر أمر الله... وهو الموت. وقد حذرنا رسولنا الكريم (صلى الله عليه وسلم) من هذا الموقف في الحديث "إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لابْنِ آدَمَ بِأَطْرُقِهِ، فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الإِسْلامِ فَقَالَ: تُسْلِمُ وَتَذَرُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ وَآبَاءِ أَبِيكَ؟ فَعَصَاهُ فَأَسْلَمَ؛ ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْهِجْرَةِ فَقَالَ: تُهَاجِرُ وَتَدَعُ أَرْضَكَ وَسَمَاءَكَ، وَإِنَّمَا مَثَلُ الْمُهَاجِرِ كَمَثَلِ الْفَرَسِ فِي الطِّوَلِ؟! فَعَصَاهُ فَهَاجَرَ؛ ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْجِهَادِ فَقَالَ: تُجَاهِدُ فَهُوَ جَهْدُ النَّفْسِ وَالْمَالِ فَتُقَاتِلُ فَتُقْتَلُ فَتُنْكَحُ الْمَرْأَةُ وَيُقْسَمُ الْمَالُ! فَعَصَاهُ فَجَاهَدَ"، ثم أكمل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَمَنْ قُتِلَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَإِنْ غَرِقَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ وَقَصَتْهُ دَابَّتُهُ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ"[1].

كَمَثَلِ الْفَرَسِ فِي الطِّوَلِ أي الفرس المُقيَّد إلى وتدٍ بحبلٍ طويلٍ، والمقصد أنه مُتعلقٌ بأرضه الأصلية يشتاق إليها ولا يشعر بالراحة في مكان الغربة مثل ما في موطنه الأصلي؛ وَقَصَتْهُ دَابَّتُهُ أي قتلته، ربما بالرفص أو إسقاطه من عليها. فإن كان الموت واقعًا لا محالة ولا بُد منه، فلمَ لا أكون أنا المتحكم في الطريقة باختيار الجهاد في سبيل الله؟!

ومن المعلوم أن من آثر الدنيا فأحبها وسكن إليها خشي الموت وزوال استقراره في الدنيا إلى حالٍ هو يجهله، ففي الواقع إنه يكره لقاء الله لما هو فيه من سوء الحال مع فساده، ومن ثمَّ ما عليه من أوزار. وهذا بخلاف من سعى في رضا الله وطاعته، رجلًا حمل المسؤولية المُكلف بها من الله، فإنه يرى الدنيا على حقيقتها أنها دار مشقةٍ وعناءٍ، فيتلهف للقاء الله كي يَلقى مُكافأة حُسن الاستقبال وينال المتعة البالغة الطيبة، ويرتاح من مشقة التكليف في الدنيا. فحال الكاره للقاء الله

[1] سنن النسائي 3083.

والمُحب للقاء الله مُلَخصٌ في الحديث عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ"[1].

وهنا نستنتج نقطة مهمة، أن كل عاصٍ... هو محب للدنيا، لأنه فضَّلَ الدنيا على طاعة الله. وكل محب للدنيا... ضعيف الإيمان (مع اختلاف الدرجات)، لأن من جوانب كمال الإيمان هو الإيمان أن لذَّات الجنة أمتع من لذَّات الدنيا، وبما أن أحدهما ينفي الآخر عامةً فينبغي ترك لذَّات الدنيا للفوز بلذَّات الجنة. وكل ضعيف الإيمان ضعيف الجهاد، لأن الجهاد مشقة، وبداية الحرب تكون مع هوى النفس وليست مع أعداء الإسلام، فليس راجحًا أن من لم يستطِع الانتصار على نفسه أن ينتصر على غيره. فالمرأة المتبرجة سبب في ذلة وهزل المسلمين، والشاب المطلق بصره سبب في ضعف وهوان المسلمين، والمرتشي والزاني والسارق والكذاب وشاهد الزور والمُجاهر بالمعصية وغيرهم مما نراه بأنفسنا من أمراض في المجتمع سبب مباشر وغير مباشر في احتلال بلاد المسلمين من الأعداء.

وهذه هي الرؤية الواقعية الشاملة للدين الإسلامي، أن أمراض الأفراد تصبح أمراض مجتمع، وأمراض المجتمع تصبح أمراض أمة، الأمة الإسلامية. هذا لأن المسلمين في ترابطهم كالجسد الواحد، ولو ترك الأعضاء عضوًا واحدًا يفسد، لهلكت الأعضاء كلها ثم لهلك الجسد. وهذا لب موضوع الحديثين عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "تَرَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادِّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى عُضْوًا تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ جَسَدِهِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى"[2]، والآخر هو "مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْمُدْهِنِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ فِي الْبَحْرِ فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاهَا وَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا يَصْعَدُونَ فَيَسْتَقُونَ الْمَاءَ فَيَصُبُّونَ عَلَى الَّذِينَ فِي أَعْلاهَا، فَقَالَ الَّذِينَ فِي أَعْلاهَا لا نَدَعُكُمْ تَصْعَدُونَ فَتُؤْذُونَنَا، فَقَالَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا فَإِنَّا نَنْقُبُهَا مِنْ أَسْفَلِهَا فَنَسْتَقِي، فَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ فَمَنَعُوهُمْ نَجَوْا جَمِيعًا، وَإِنْ تَرَكُوهُمْ غَرِقُوا جَمِيعًا"[3] (وَالْمُدْهِنِ أي المُضيّع للحدود ولا ينهى عن المنكر، اسْتَهَمُوا هو الاختيار العشوائي على من يكون في الأعلى ومن يكون في الأسفل؛ نَنْقُبُهَا أي نثقبها). فالمُسرف في معصية ربه له دور في أسباب الأزمة الفلسطينية، وباقي أزمات الأُمة الإسلامية، بدرجات متفاوتة.

ويكأن الذي لا يجاهد (أو لا ينوي الجهاد بصدق) ليس له هدفٌ سامٍ في حياته، ويصبح الحدث الأبرز في حياته الذي يترتب عليه سائر أحداث حياته (أي تحققهم من عدم تحققهم) هو الموت، فذاك الشخص ينتظره حتى يأتي أينما وحينما وكيفما يشاء الله. وهذه حياة الأنعام التي تأكل

---

[1] صحيح البخاري 6027.

[2] صحيح البخاري 5552.

[3] سنن الترمذي 2099.

وتشرب وتنام وتتكاثر منتظرة الموت، ليس لها هدف تسعى له سوى تلبية الهوى والبقاء حيًّا في الدنيا. فأين المعنى في حياة مثل هذه؟ أين تأثيرها بعد أن تفنى؟ أين بصمتها في الآخرة؟ هؤلاء الناس أهون الناس في الأرض، وإن يبلغ ما بلغ من الإنجازات العلمية والاجتماعية والاقتصادية، فهو هين لأنه تخلى عن دوره الذي خُلق له في الدنيا: أن يكون عبدًا لله. وإضافةً قد تخلى عن قيمته بكونه سلبيًّا في الدفاع عن نفسه ضد المعتدين، ومن لم يعطِ نفسه قيمة فلن يعطيه الناس قيمة، لأنه قد يأتي معتدٍ فيسلبه كل ما أنجز في الحياة.

وإن لم يحدث هذا فإن الأرض فانية بالإنجازات التي تمت عليها، والأعمال المُسَجَّلة تخلد بصاحبها، إما جنةً وإما نارًا. والغريب أن الأنعام قد ترى، بالخطأ، أختها التي كانت تأكل معها تُذبح أمامها ولا تُحاول الهروب! أصبحت دون عزة نفسٍ ولا جُرأة ولا نخوة، وبلغت من السلبية في رد الفعل لدرجة أن لا يُلقي أحدٌ لها بالًا ولا يُوضع لها اعتبارٌ كبير. فكأن أهم هدف لها في حياتها هو أن تُذبح فتصبح طعامًا للإنسان، ولكن هكذا قدَّر لها الله بأنه سخَّرها لنا بجعلها سلبية، ولكن قد قدَّر الله للإنسان شأنًا أعظم من الأنعام، فهل من مُلبٍّ؟ هل من مرتقٍ؟

ولكن للأسف، يأبى كثير من الناس إلا أن يعيشوا عيشة الأنعام فيتساوون معهم، ومنهم المتخلي عن جهاد أعداء الإسلام (ولو بالنية)، فهو يعيش حياة الذل والمهانة حتى يأتي الأعداء ليأخذوه عندما يُقررون أنه حان دوره، بل ويرون أنه حقٌ لهم أن يفعلوا ذلك به دون أن يعترض أو يقاوم! ويكفيني استدلالًا على كل ما قلته ما جاء عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ وَلَمْ يُحَدِّثْ نَفْسَهُ بِغَزْوٍ مَاتَ عَلَى شُعْبَةِ نِفَاقٍ"[1].

وقد يجادل البعض أو تأخذهم الحمية أن هذا الكلام ليس صحيحًا، أن العاصي لا دور له في احتلال الدول المسلمة، فدعوني أشرح كيف. إن الإنسان غير المطيع لله قد يكون مُتقنًا لعمله ولكن قد يكون كذابًا، وتجد آخر لا يُتقن في عمله ولكنه يكره الكذب، كلٌ يمشي بحسب ظنّه وهواه. ذلك لأن الذي لا يتبع قواعد الدين إنما يضع لنفسه قواعده وقوانينه للحياة، فيسمح لنفسه بأشياء ويمتنع عن أشياء، ومن ثمَّ يُخطئ ويصيب في تقديراته إذ إن هواه هو مصدر توجيهه وليست أحكام الله.

وبناء على اعتقاداته وقناعاته الشخصية، يفترض من الناس أن تكون قاعدتهم مثله في الاعتقادات وأن يروا العالم كما يراه هو، فيكونوا خاطئين إذا فعلوا أمرًا هو يُنكره (والعكس صحيح)، مع أن ما فعلوه قد يكون مباحًا –بل ومُستحبًّا– وهو المُخطئ، مثل الصلاة مع ارتداء الحذاء. هذا كمثل الذي يرى أن مصافحة النساء ليس بحرام وإنما هي مشكلة نفسية في التفكير، وآخر يرى أن

[1] سنن أبي داود 2141.

المعازف "فن وارتقاءً"، وآخر يرى أن الوساطة (أي المحسوبية ومُحاباة المعارف في مناصب ليسوا أهلًا لها) لا شيء فيها مع أنها مشكلة كبيرة كما سيأتي إن شاء الله.

وكلٌ يُدافع ويُحارب عن اعتقاداته وكأن الذي يرى غير ما يراه يكون شاذًّا. فهم لا يرون أخطاء استنتاجاتهم، لأن اعتقاداتهم ومبادئهم تقع تحت طائلة أهوائهم تارة، وعلمهم أو رؤيتهم القاصرة تارة، وموقف استثنائي قد تعرض له تارة، وخبرة ينقصها تارة، وتارة يصيب بعقله، ولكن لا يُسَلِّم لأحكام الإسلام لأنه يراها قاسية أو لا تصلح في هذا الزمان أو تتعارض مع كثير من أفكاره التي يعتز بنفسه عليها، وغير ذلك من الأعذار.

والنتيجة أنه يتشتت الأفراد بمعتقداتهم الشخصية ولا يكون هناك انسجام ولا تَوَحُّد في المجتمع، فتتناثر طاقة المجتمع الكامنة ويضيع المجتمع بين هذا وذاك، وتظهر بالصورة العملية في ضياع الأخلاق والاقتصاد والدماء والحقوق وأراضي المسلمين وغير ذلك. فقد يعمل آلاف العاملين ويجنون كثيرًا من المال ثم يأتي السفيه ذات منصب فيُبدد ما جنوا على أشياء تافهة وبطريقة فجة، أو يأتي سارق ذات دهاء فيسلبهم ما جمعوا، وكل هذا لأنهم لم يستطيعوا تمييز الفاسد بينهم (بناء على جهل عن تعاليم الإسلام) أو لا ينهون العاصي عن معصيته إلا بعد فوات الآوان.

لذلك كان الدين هو قاعدة الأساس المشتركة التي تربط بين أفراد ويُبنى عليها المجتمعات، فإذا ذهب الأساس أو أصبح مائلًا، انهدمت المباني واحدًا تلو الآخر عاجلًا أم آجلًا. فالحمد لله الذي أنزل لنا الإسلام ليكون لنا راحةً في البال وسلامًا في النفس واستقرارًا في الأرض ونورًا في البصيرة ومرجعًا للحق توفيرًا علينا مشقة استِبيان الأمور، فيُعرف الحق من الباطل، فيكون الحق حقًّا والباطل باطلًا في أعيُن الناس جميعًا ودون شك. الحمد لله الذي يجعل باتباع هذا الدين أن النفس تهدأ وتستقر، ولا تصطدم أمواج العقل مع الهوى في داخل الفرد إذ إن كل شيء أصبح بيّنًا بالحلال والحرام، ويفهم الإنسان طبيعة الأوضاع والأحوال مع الأَدِلَّة، فلا تختلف النفس مع نفسها والذي يؤدي إلى اضطرابات نفسية ومعاناتها.

هذا الدين، والحمد لله، يجعل النفس تهدأ وتستقر وتكون في سلام مع نفسها، ويجعل السكينة والاستقرار تتوطن حتى يكون المرء أكثر سلامة في نفسه وأكثر توافقًا مع من حوله وأكثر كفاءةً في الإنتاج للمجتمع. والفرد العاصي يُخِلّ ذاك التوازن في نفسه وكفاءته في المجتمع (بل يُصبح عبئًا على المجتمع وثغرةً فيه)، حتى إن كان ناجحًا في الدنيا قد جمع مالًا كثيرًا مثلًا، فإنه صورة جميلة دون مضمونٍ صلبٍ، مثل اللؤلؤة المُفرَّغة. وقد يكون الفرد العاصي وحده لا يضر المجتمع، ولكن الواقع أن العاصي عادةً ما يجر عصاة خلفه بأن يُزين لهم المعصية ويُجرِّئهم على انتهاك الحدود، فعاصي هنا وعاصي هناك يصبحون شعبًا... عاصيًا. بل والعاصي ربما يتعاون مع أو يكون أداة لأعداء المُجتمع، فيتخللون إلى المجتمع ويُضعفونه أكثر من خلال ذاك العاصي.

وضعف معظم الأمم الإسلامية الآن من الناحية الاقتصادية هو بسبب ابتعادهم عن الدين، فتضيع الأمانة في العمل، والإتقان، والحِرص، والصدق، والإخلاص، ويضيع المنصب من الذي يستحقه والأكثر كفاءةً إلى الذي هو مُضيِّعٌ لرعيته المهدر لحقوقهم بسبب تميزه فقط بمعرفة من له سلطة (المُحاباة/المحسوبية). ثم إن ضياع الأمانة يجعل الذي يمسك أمانةً يخون، ويراه غيره فيُفتتنون بما يفعله –خاصةً لو يتفلت بفعلته– فيُقلِّدونه. والخائن للأمانة يؤْثِر لنفسه من المال الذي هو مسؤول عنه بأن يأخذ من الفائض، مكافئًا لنفسه بنفسه لما يراه من إحسانه في عمله، وأنه يستحق أكثر مما هو مُقررٌ له رسميًّا، فقد تلاشت معايير الحيادية في تقدير ما يستحقه بسبب تجاهل أحكام الله.

وهذا شبيهٌ بموقفٍ حدث مع الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلا أنه كان علنًا آنذاك فكانت فيه عبرة وتحذير، ولكن منطقيًّا كلما زاد عدد الذين يُضيعون الأمانة كان مُحصِّلة السرقات الخفية أعظم. الحدث هو أن النبي صلى الله عليه وسلم استعمل (أي كلَّف) ابن الأُتَبِيَّة على صدقات بَني سُلَيْم، فلما جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وحَاسَبَهُ قال: هَذَا الَّذِي لَكُمْ وَهَذِهِ هَدِيَّةٌ أُهْدِيَتْ لِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "فَهَلَّا جَلَسْتَ فِي بَيْتِ أَبِيكَ وَبَيْتِ أُمِّكَ حَتَّى تَأْتِيَكَ هَدِيَّتُكَ إِنْ كُنْتَ صَادِقًا؟" ثُمَّ قَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَخَطَبَ النَّاسَ وَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ "أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَسْتَعْمِلُ رِجَالا مِنْكُمْ عَلَى أُمُورٍ مِمَّا وَلَّانِي اللَّهُ فَيَأْتِي أَحَدُكُمْ فَيَقُولُ: هَذَا لَكُمْ وَهَذِهِ هَدِيَّةٌ أُهْدِيَتْ لِي؛ فَهَلَّا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ وَبَيْتِ أُمِّهِ حَتَّى تَأْتِيَهُ هَدِيَّتُهُ إِنْ كَانَ صَادِقًا، فَوَاللَّهِ لا يَأْخُذُ أَحَدُكُمْ مِنْهَا شَيْئًا بِغَيْرِ حَقِّهِ إِلا جَاءَ اللَّهَ يَحْمِلُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَلا فَلأَعْرِفَنَّ مَا جَاءَ اللَّهَ رَجُلٌ بِبَعِيرٍ لَهُ رُغَاءٌ أَوْ بِبَقَرَةٍ لَهَا خُوَارٌ أَوْ شَاةٍ تَيْعَرُ"، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ حَتَّى رَأَيْتُ بَيَاضَ إِبْطَيْهِ "أَلا هَلْ بَلَّغْتُ؟"[1] (رُغَاءٌ وخُوَارٌ وتَيْعَرُ يُمثِّل الصوت الذي تصدره كل واحدةٍ من تلك الدواب).

وإذا فعل هذا في الخفاء فإنه يُعتبر سرقةً صريحةً، وربما يندرج تحت الرشوة. والسرقة –أو الرشوة– تُذهب بالبركة من السارق وبالمنفعة من المسروق، إذ إن السرقة استنزاف للموارد حتى تصبح كالعدم وإن كثرت، فإنه لا يصل منها إلا القليل إلى مُستحقيها. وضياع الأمانة (وهو التفريط في ما وُلِّي عليه المرء) أمرٌ لا يُسلم عُقباه، وهو من علامات الساعة، إذ قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) "إِذَا ضُيِّعَتْ الأَمَانَةُ فَانْتَظِرْ السَّاعَةَ" قال أبو هريرة (رضي الله عنه): كَيْفَ إِضَاعَتُهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ "إِذَا أُسْنِدَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرْ السَّاعَةَ"[2]. فالمُحاباة دون استحقاق هو من إسناد الأمر إلى غير أهله، والمكافائات التي يمنحها المرء لنفسه في الخفاء من المال الذي ليس ملكه فذلك من إسناد الأمر إلى غير أهله، لأنه بأخذ ذلك المال قد حرَم مُستحقيه (وهم أهله) من ذلك المال.

---

[1] صحيح البخاري 6658.

[2] صحيح البخاري 6015.

ثم إن إسناد الأمر لغير أهله عادة لا يخلو من أحد أمرين إن لم يكن كلاهما: سرقة المال المُستأمَن عليه أو ضياع مصالح الرعية. وبذلك يكون كُل من الطرفين غدارًا، ذا السلطة التي أعطى منصبًا لمن يألفه بدلًا من الذي ذي كفاءة ويستحق المنصب، وأيضًا الذي قبل المنصب بالوساطة لأنه سيُهدر مصالح رعيته (سواء عمدًا أم بغير عمدٍ بسبب ضعف كفاءته)، فيُضَيّع رعيته ولو بفارقٍ بسيطٍ مقارنةً بالذي كُفء للمنصب. وعواقب ذلك الغدر أنهما يُنصب لهما لواء تلك الغدرة يوم القيامة ليعلم كل الناس كيف غدروا وفي ماذا، كما في الحديث عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُعْرَفُ بِهِ، يُقَالُ: هَذِهِ غَدْرَةُ فُلانٍ"[1] (لواء أي راية). فما بالنا بمصير الذي ليس له لواء واحد يوم القيامة بل يرفع عُصبة من الألوية؟!

هذا من الناحية الواقعية لعواقب ذلك المنهج، أما ما أعد الله لمن يضع الناس في مناصب المسؤولية بسبب المُحاباة لمصالحه الشخصية، دون اعتبار للكفاءة، فإن له سوء الجزاء إضافة إلى فضحه بنَصب له الألوية يوم القيامة. وذلك الجزاء مذكور في حديث (هو ضعيف الإسناد) منقول عن يزيد بن أبي سفيان قائلًا: قال أبو بكر رضي الله عنه حين بعثني إلى الشام: يا يزيد، إن لك قرابة عسيت أن تؤثرهم بالإمارة وذلك أكبر ما أخاف عليك، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال "مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ شَيْئًا فَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ أَحَدًا مُحَابَاةً فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ، لا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلا عَدْلا حَتَّى يُدْخِلَهُ جَهَنَّمَ، وَمَنْ أَعْطَى أَحَدًا حِمَى اللَّهِ فَقَدْ انْتَهَكَ فِي حِمَى اللَّهِ شَيْئًا بِغَيْرِ حَقِّهِ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ (أَوْ قَالَ: تَبَرَّأَتْ مِنْهُ ذِمَّةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ)"[2] [مُحَابَاةً أي الاختصاص والتفضيل الشخصي، فليس التفضيل لكفاءته؛ حِمَى أي محارم أو حدود الله].

وإن كان الحديث المذكور آنفًا ضعيف الإسناد، فإن هناك حديثًا صحيحًا يؤيد معناه "مَا مِنْ وَالٍ يَلِي رَعِيَّةً مِنْ الْمُسْلِمِينَ فَيَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لَهُمْ إِلَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ"[3]، والمُحاباة بغير استحقاق هو مِن غش الرعية. وعندما تقع هذه المُمارسة تقل كفاءة الهيئة، وانتشار فقدان كفائة الهيئات يؤدي إلي ضعف المجتمع وتفريط حقوق عامة الناس، وكل هذا بسبب الابتعاد عن منهج الله. فمُلخصًا، كل عاصٍ تارك لأوامر الله ينتهي إلى:

1- حب الدنيا وكراهية الموت (الوهن) لسببين، أولهما أنه يريد البقاء لرغبته في عدم ترك ما يحبه في الدنيا وما اعتاد عليه من الشهوات إلى عالم يجهله (الآخرة). وثانيهما أنه لا يريد أن يموت فيُحاسَب على ما حصده من آثام، بل يريد الإمهال حتى يُصلح حاله فيلقى الله صالحًا، وواقع حاله ينطق أنه يريد حدوث الهداية تلقائيًّا ومن دون جُهد ولا

[1] صحيح مسلم 3269.

[2] مسند أحمد 21.

[3] صحيح البخاري 6618.

تضحيات، وهذا حقيقةً أشبه بالإجبار على الهداية مما يُنافي الهدف من امتحاننا في الدنيا، فعلى ماذا يأخذ أجرًا؟ فلنُصارح أنفسنا، لو تركنا الدنيا ولذّاتها ما كنا لنتغافل ونسكت عما يحدث لإخواننا في بلاد المسلمين من قِبَل أعداء الإسلام، وما كنا هينيين راضخين صامتين كما نحن الآن.

2- ضعف المساهمة بالنفع للمجتمع، ومن ثَمَّ ضعف قوة المجتمع ككيان دولي له اعتباره ووزنه، وضعف اقتصادي يُعطل النمو لأن الفرد لا يرعى الابتعاد عن المعصية، فلا يرعى حق عمله كما ينبغي، وهذا يتناسب مع درجة عصيانه. نرى هذه الظاهرة في كثير من بلاد المسلمين، حيث إن الرزق وفير لكنه يضيع بسبب تعيين الأقل كفاءة في المناصب المهمة، وسوء استخدام أو توزيع الموارد، فتتبدد المحاصيل. وهذا شبيهٌ بالإربة المثقوبة، مهما دخل من الماء فيها فلن يمكث، حتى إن زاد مُعدل ضخ المياة داخله فإن الثقب يتَّسع بسبب ضغط المياه فتنفذ منه أكثر. هذا بالإضافة إلى أن الله لا يُبارك في الموارد بسبب معصية عباده له.

وفي قوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ} [التوبة 38] دليل على أن من أحب متاع الدنيا كره المجاهدة في سبيل الله. فالمؤمن غني عن الدنيا، كما أنها سجن له لما فيها من التكليف كما جاء في الحديث "الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ"[1]، فإنه لا يرضى بالسجن خصوصًا مقابل التضحية الجنة. وكلما كان الإنسان عاصيًا أكثر (مغمور في الدنيا) تمسك بالحياة الدنيا أكثر، ولذلك ليس الطبيعي أن يكون الشخص عاصيًا وعندما يحين وقت الجهاد يتوب ويجاهد. هكذا يخدع الشيطان أتباعه، يزين ويسول له المعاصي ويُمنّي ويُأمّل الإنسان بتوبة عندما يحين وقت الجهاد، أو الهرم، أو الموت، ثم يستزلهم عند اللحظة الحاسمة.

فالحذر كل الحذر من كلمة "سوف"، فهذه الكلمة تطيل الأمل في الدنيا وتفتح أبواب استحقاق مكر الله كالموت الفجأة أو الانجرار من هذه المعصية إلى معصية أعظم، أو غير ذلك من كيد الله للعاصي، فيمكر له بما لا نعرفه ولا نستوعبه ولا نتخيله. وكلمة "سوف" تجعل العبد يؤجل ترك المعصية والتوبة، فتفتح الباب إلى إشراب القلب بالمعاصي، فلا يستطيع المرء ترك المعصية بسبب التعود عليها، وكلما طال الزمن في المعصية كان تركها أصعب، فالتأجيل إنما هو زيادة للحِمل. وهناك مثل مُعبرٍ يقول: من شَبّ على شيءٍ شاب عليه؛ أي أن من تعود على شيء وهو في شبابه فإنه يَهرم وهو ما زال يفعله، وفيه إشارة إلى أنه لا يستطيع تركه، بل وربما يستزيد منه.

---

[1] صحيح مسلم 5256.

بل وقد يسوء الوضع أكثر من ذلك، بأن يعتاد المعصية حتى يكبر، وبسبب كثرة ارتكابها وتقدم عمره لا يجد لذة في ارتكاب تلك المعصية، ولكنه يفعلها من باب التعود لأنه إذا تركها يشعر بالفراغ. حينئذ يكون مخدوعًا مغبونًا لأنه يتحمل إثم المعصية دون أن يستلذ بها، خسارةً على خسارةٍ، لأنه يرتكب المعصية من باب العادة لا من باب الشهوة. ذلك مثل المُدخِّن الذي يُكثر من التدخين مع مرور الزمن، حتى تذهب متعة التدخين ولا يبقى منها إلا العادة والإدمان، ويصل الأمر إلى أنه حتى لو أراد أن يُقلع عنها وكرهها وعزم على تركها غالبًا يعجز عن ذلك، ويبقى معه تراكم إثم المعصية المتكررة دون التمتع بلذة المعصية إلا قليلًا.

في تلك الحالة، الأرجح أن هذا الشخص سيموت قبل أن يتوب من تلك المعصية، بل والأسوأ أن هناك احتمالًا أنه قد يموت في أثناء معصيته إذا اختار الله أن يمكر به، فيُبعث على الوضعية التي مات عليها، أي يُبعث وهو يفعل المعصية التي كان فيها، فأي فضيحة له تلك وما الأمل له في النجاة حينئذ إذ قد قدَّر الله له خاتمة سوء؟! ودل على ذلك الحديث عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ"[1]. فيكون قد خُتم له بسوء الخاتمة، فالزاني يُبعث وهو يزني، والسارق يُبعث وهو يسرق، وهكذا، فقد فاز الشيطان وبلغ مراده مع ذاك الشخص. هذا هو كيد الشيطان.

إن الإنسان يتثاقل إلى الأرض عندما يحب الدنيا ويكره الآخرة. ونِعم الكلام ما قاله الحكماء، فقد جاء في كتاب فتح الباري تحت باب 'في الأمل وطوله':- قَالَ عَلِيّ (رضي الله عنه): إِنَّ أَخْوَف مَا أَخَاف عَلَيْكُمْ اِتِّبَاع الْهَوَى وَطُول الأَمَل، فَأَمَّا اِتِّبَاع الْهَوَى فَيَصُدّ عَنْ الْحَقّ، وَأَمَّا طُول الأَمَل فَيُنْسِي الآخِرَة. وَمِنْ كَلام عَلِيّ أَخَذَ بَعْض الْحُكَمَاء قَوْله: الدُّنْيَا مُدْبِرَة وَالآخِرَة مُقْبِلَة، فَعَجَب لِمَنْ يُقْبِل عَلَى الْمُدْبِرَة وَيُدْبِر عَلَى الْمُقْبِلَة. وَقِيلَ إِنَّ قِصَر الأَمَل حَقِيقَة الزُّهْد، وَلَيْسَ كَذَلِكَ بَلْ هُوَ سَبَب؛ لأَنَّ مَنْ قَصُرَ أَمَله زَهِدَ.

وَيَتَوَلَّد مِنْ طُول الأَمَل: الْكَسَل عَنْ الطَّاعَة، وَالتَّسْوِيف بِالتَّوْبَةِ، وَالرَّغْبَة فِي الدُّنْيَا، وَالنِّسْيَان لِلآخِرَةِ، وَالْقَسْوَة فِي الْقَلْب، لأَنَّ رِقَّته وَصَفَاءَهُ إِنَّمَا يَقَع بِتَذْكِيرِ الْمَوْت وَالْقَبْر وَالثَّوَاب وَالْعِقَاب وَأَهْوَال الْقِيَامَة، كَمَا قَالَ تَعَالَى {فَطَالَ عَلَيْهِمْ الأَمَد فَقَسَتْ قُلُوبهمْ}. وَفِي الأَمَل سِرّ لَطِيف لأَنَّهُ لَوْلا الأَمَل مَا تَهَنَّى أَحَد بِعَيْشٍ وَلا طَابَتْ نَفْسه أَنْ يَشْرَع فِي عَمَل مِنْ أَعْمَال الدُّنْيَا، وَإِنَّمَا الْمَذْمُوم مِنْهُ الاسْتِرْسَال فِيهِ وَعَدَم الاسْتِعْدَاد لأَمْرِ الآخِرَة، فَمَنْ سَلِمَ مِنْ ذَلِكَ لَمْ يُكَلَّف بِإِزَالَتِهِ. لَهُ فِي أَثَر عَلِيّ: فَإِنَّ الْيَوْم عَمَل وَلا حِسَاب، وَغَدًا حِسَاب وَلا عَمَل (انتهى).

[1] صحيح مسلم 5126.

وفي الآية {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدَّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلا} [النساء 77] دليل آخر على أن من أحب الدنيا كره المجاهدة في سبيل الله، لأن الجهاد فيه تخلٍّ عن رخاء متاع الدنيا. فلما قال هؤلاء تسويفًا "رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ" كان الرد الشافي لحالهم "قُلْ مَتَاعُ الدَّنْيَا قَلِيلٌ"، ما يدل أن الله يعلم أنهم انغمسوا في متاع الدنيا مما جعلهم يكرهون تركه. ومع أنه لا يشترط أن كل من أحب الدنيا يكون عاصيًا، ولكن يُمكن الجزم بأن كل عاصٍ يُحب الدنيا، ومن ثمَّ فإن المعاصي تُثقل المرء عن مجاهدة أعداء الإسلام.

ولكن الواقع أن المعصية صادرة منا لا محالة بسبب ضعفنا، فينشأ السؤال: أين الفيصل إذًا؟ أولا يجب إدراك أن القضية عند الله ليست فقط إذا كنا سنقع في المعصية أم لا، بل إن القضية تشمل أن الله يريد أن يرى ماذا سنفعل بعد المعصية، فقد أفلح من استغفر وتاب.

وقد جاء عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "مَا أَصَرَّ مَنْ اسْتَغْفَرَ، وَإِنْ عَادَ فِي الْيَوْمِ سَبْعِينَ مَرَّةٍ"[1]، أي وإن تكررت منه المعصية سبعين مرة في يوم ما دام يُلازم الاستغفار بصدق، أي ينوي بحق ترك المعصية المرة القادمة، بأن يتخلص من متعلقات المعصية مثلًا. ومع أن قوة الحديث فيه خلاف، فإن الحديث القدسي عن الرجل الذي يُكرر الذنب ثم يدعو الله أن يغفر له فيُغفر له يؤيد مضمون هذا الحديث. وهذا منطقي لأن من أكثر الاستغفار، وإن كثرت معاصيه، فلا يزال في قلبه خير، أما إن كان قلبه مريضًا فإن الله يحول بين ذاك الشخص وكثرة ذكره لله، أي أنه لا يستطيع أن يُكثر من ذكر الله من يُبغضه الله، استدلالًا بعموم معنى الآية {وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاء اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ} [المدثر 56].

ثم لا جدال في أن العصيان درجات (بحسب مُعدَّل ونوع المعاصي)، فإن كانت المعاصي لا تمنع المرء من فعل الخير في أغلب أحواله فذلك يُرجى له النجاة، إذ إنه لم يبلغ مرحلة أن الله يمنعه من العمل الصالح، مع احتياجه للاستغفار والاحتراس الدائم من تدهور حاله بالطبع. ولكن إذا بلغت المعاصي أنها تُثبّط المرء عن الأعمال الصالحة فحينئذٍ يكون به علة وقد دخل في نطاق الخطر. فليس الذي يزال يُعينه الله على العمل الصالح كالذي يمنعه الله من العمل الصالح، ويشمل هذا الجهاد بالطبع.

---

[1] سنن أبي داود 1293؛ الراوي: أبو بكر الصديق (رضي الله عنه). سكت عنه أبو داود إذ فيه انقطاع، ولكن قال إن ما سكت عنه فهو صالح؛ وذكر مثله الترمذي قائلًا: قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ إِنَّمَا نَعْرِفُهُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي نُصَيْرَةَ وَلَيْسَ إِسْنَادُهُ بِالْقَوِيِّ. والحديث حسنه ابن كثير في التفسير 106/2 والعسقلاني في فتح الباري 137/1، ولكن ضعَّفه السيوطي في الجامع الصغير 7822 والألباني في السلسلة الضعيفة 4474.

والانشغال عن الله بنِعَمِه صورة من صور الجحود، فقد قال تعالى {إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (6) وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ} [العاديات 6-7] (لكنود: بنِعَمِ ربه لَكفور مُنكر). إن الإنسان بطبعه كنود، وصيغة تلك الصفة عند المسلم أنه قد يُقصِّر في شكر الله، أو أنه يتمادى أكثر من ذلك فيستعمل النعمة في معصية الله. وهناك طباع أُخرى لدى الإنسان تجعله كنودًا، مثل أنه يتذمر مما يصيبه من البلاء بينما لا يُقدِّر النعم التي عنده، أو أنه يدعو ربه عند الشدة وينساه عند الرخاء، فمثل تلك الصفات تجعل الإنسان كنودًا لربه. وكلها صفات وجب علينا التعرف عليها وتمييزها لمواجهتهن وعلاجهن، ولا شك أنهن يحتجن إلى جهاد مستمر لأن جميعنا نضعف فنقع في المعصية، وارتكاب المعصية غالبًا ما يُستعمل فيها نعمة من نعم الله لإتمامها، وذلك صيغة من صيغ الكنود.

ما نملكه هو مجاهدة تلك الصفة بعد أن عرَّفنا الله إياها، بالشكر المستمر لله على نعمه، وتجنب استخدام نعم الله في معصية، والاستغفار الدائم على ما زلت أنفسنا إليه من معصيته تعالى. وفي قول الله تعالى "وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ" قال أكثر المفسرون إن الله هو الذي يشهد على ذلك، وهناك من قال إن الإنسان هو الذي يشهد على نفسه بما يراه مما يصدر منه، وبأن الإنسان هو في نفسه الدليل على ذلك بأفعاله. وكون أن ذلك الطبع خلقه الله فينا فهو من حُكْمِ الله، وإرادته منا أن نقاومه هو من حكمته سبحانه، ولذلك نحن في الاختبار الذي نحن فيه الآن، فلنكن ممن حققوا إرادة الله من الذين استخلفهم في الأرض. وأليس شُكر الله في هيئة طاعته والبُعد عن معصيته وفاءً على نعمه علينا؟

ومن عواقب اللهفة على متاع الدنيا هي أن المرء يتساوى عنده الحرام والحلال، فيقبل على الحرام وتكثر ذنوبه، ومع ذلك فإنه يُبرر لنفسه ما يفعله، بأن يقول لنفسه إنه واقعيٌ في الدنيا بأن ينال منها ما يُتاح له، أو بأن كثيرًا من الناس يفعلون ذلك أيضًا، فيُقنع نفسه أن ذنوبه تلك ليست بذنوب، أو يرى أن معه عذر فلن يؤاخذ عليهن. وسبق وذكرنا قريبًا كيف أن الفاجر يرى ذنوبه كأنها ذبابة وقفت فوق أنفه لحظة ثم صَرَفَها، بينما يرى المؤمنُ ذنوبه كأنها جبل يوشك أن يقع عليه. فهذا حال الفاجر وهذا حال المؤمن، وقد كان الصحابة يخشون الهلاك في الآخرة بسبب (ما يرونه) تقصيرًا منهم مع الإسلام أو ذنوبٍ لهم في الجاهلية، وأما حال الفجار فإنهم يتمنون على الله الأماني. ففي أي الفريقين أجد نفسي؟

وختامًا، أذكر ما قاله سيدنا عثمان بن عفان (رضي الله عنه) في آخر خطبة ألقاها للمسلمين: إِنَّ اللَّهَ إِنَّمَا أَعْطَاكُمُ الدُّنْيَا لِتَطْلُبُوا بِهَا الآخِرَةَ، وَلَمْ يُعْطِكُمُوهَا لِتَرْكَنُوا إِلَيْهَا. إِنَّ الدُّنْيَا تَفْنَى وَالآخِرَةَ تَبْقَى، لا تَبْطَرَنَّكُمُ الْفَانِيَةُ، وَلا تُشْغِلَنَّكُمْ عَنِ الْبَاقِيَةِ، آثِرُوا مَا يَبْقَى عَلَى مَا يَفْنَى، فَإِنَّ الدُّنْيَا مُنْقَطِعَةٌ، وَإِنَّ الْمَصِيرَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. اتَّقُوا اللَّهَ وَالْزَمُوا جَمَاعَتَكُمْ وَلا تَصِيرُوا أَحْزَابًا، {وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ

فَأَنقَذَكُمْ مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [آل عمران 103][1] (تَبْطَرَنَّكُمُ أي تجعلكم تطغوا وتُغالوا في المرح والزهو وتستخفوا بما كُلِّفتم به من الله، ويتم تجاوز الحدَّ تكبرًا).

تأجيل التوبة والمُضي في الإسراف بالمعاصي. قال تعالى {وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ} [يونس 88]. اللهم عافنا، هكذا دعا سيدنا موسى (عليه السلام) على فرعون وملؤه، إذ دعاهم إلى الهدى مرارًا وتكرارًا وأراهم الأدلة بآيات الله، فما كان ردهم إلا بالاستهزاء والتكذيب، بل ومحاربة سيدنا موسى (عليه السلام) ومن تبعه. فلما يئس سيدنا موسى (عليه السلام) من أن يؤمنوا لمحاربتهم دين الله ومن آمن به دعا عليهم تلك الدعوة الغليظة، إذ يظهر لنا كم يفقه سيدنا موسى (عليه السلام) في أمور الدنيا والآخرة في تلك الدعوة لأنها تجمع ذروة العقاب في الدنيا والآخرة.

وذلك إن دل على شيء فهو يدل على مدى أذية فرعون للمؤمنين ومحاربته لدين الله وأخيرًا لنفس سيدنا موسى (عليه السلام)، لأنها دعوةٌ مُهلكة صدرت من أصبر عباد الله على البلاء (الأنبياء). وهذا يبين لنا أن هناك مرحلة لا رجعة منها في العمل، فكما خُتم لفرعون أنه لا يؤمن أبدًا، كذلك قد يُختم لمن تهاون بالمعاصي وأسرف فيها –خاصةً إذا كانت المعاصي تشمل ظُلم عباد الله–. ولا يشترط أن يُختم للمرء بعدم الإيمان جُملةً ولكن قد يُختم له بعدم التوبة، فلا يَلقي الله إلا وعليه ما ارتكبه كُله من معاصٍ، ويُقضى منه معصية معصية.

فالحذر كل الحذر يا أخي من التهاون بآثار المعاصي وتبعاتها، وتأجيل التوبة. ومع أن المرء قد سمع كثيرًا عظة أنه قد يُقبض في أي لحظة لدرجة أنه قد يتعود على العيش مع تلك الفكرة ولا تمنعه من العصيان، فإنه يجب أن يُدرك أن الحياة محاولةٌ واحدة إما صابت وإما خابت. فقد كانت فرصة واحدة لمن مات شابًّا وهو لم يكن يتخيل أن يصيبه هو خاصةً أجله مُبكرًا، فما الذي يحول أن يحدث ذلك لأحدنا ونحن نَظُن مثله؟

التمني على الله من غير أساس، وهو الأمل في النجاة من النار ودخول الجنة مع التهاون في العمل. إن المرء قد يألف ويُبرر المعاصي التي يرتكبها إلى أن يعجز عن تركها، فتنشأ أفكار مُضلة تأقلُمًا لوضعه الذي هو فيه، فيبدأ أن يقتنع أنه قد يظل على معاصيه ولا يزال يفوز بالجنة مباشرةً وينجو

[1] الزهد لابن أبي الدنيا 210.

من النار. وذلك فيه تواكل وليس توكلًا لأنه لا يجتهد في العمل، وزيَّن لنفسه النجاة على ذلك الحال، فقد فَصَّل القوانين لتتناسب مع نمط حياته ولم يُفصِّل حياته لتتناسب مع قوانين الله، حتى قد يُفاجأ يوم القيامة أن مصيره النار.

قال تعالى {وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ} [الزخرف 76]. هذه نقطة مهمة يجب أن ننتبه إليها، وهي أن كل من شمله عذاب الله فقد استحقه العبد وجلبه على نفسه، ويكأنه هو الذي قاد نفسه للنار بقدميه. والعجيب أن معظم من يدخل النار يومئذ لم يكن يظن أنه سيكون من أصحابها حين كان في الدنيا، فإنك إذا بحثت عن أحدٍ يرى أن مصيره النار وهو في الدنيا فلن تجد إلا القليل، بالرغم من أن معظم الناس على الأرض في سهوٍ أو تجاهلٍ أو حتى تكذيبٍ. والدليل على هذا هو جزء من الحديث القدسي "يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: يَا آدَمُ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، فَيَقُولُ: أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ، قَالَ: وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَ مِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ"[1]، أي أن أكثر الناس يقعون في التمني وخداع النفس.

إن المشرك يُقنع نفسه، بطريقة أو أخرى، أنه يستطيع أن يُلبي شهواته في هذه الدنيا ويفوز بالجنة، فوزٌ على فوزٍ وراحةٌ على راحةٍ، فاليهود يقولون إنهم شعب الله المختار والجنة خالصة لهم وإن لهم أن يفعلوا ما بدى لهم في غيرهم، والنصارى تقول إن المسيح سيحمل كل أوزارهم بسبب أن معاناته في صلبه أصبحت تكفيرًا لذنوب تابعيه. أما الملحدون فيُنكرون وجود خالق، ومن ثمَّ ينكرون البعث والحساب ليتمتعوا وبالهم مرتاح، بل ومنهم من بلغ من الجُرأة أنه يرى إذا اكتشف في الآخرة أن هناك إلهًا وحسابًا فإنه ما زال سيدخل الجنة، بناءً على أن معه حجة قوية بأن الله لم يُظهر نفسه عيانًا وهذا سبب أنه لم يؤمن، والعدل الآن يقتضي أن يدخل الجنة. وهناك من يرى أنه هو سيلوم الله على ما حدث له من شدائد وما يقع في الأرض من شرور، وكأنه هو الذي سيكون معه الحق أمام الله ومن ثمَّ لا يستحق عذاب الآخرة، وغير ذلك من القناعات المُنحرفة في باقي المُعتقدات.

وحتى بين المسلمين، وممن ينسب نفسه للإسلام، قد ظهرت مثل تلك العلل الفكرية لتبرير اتباع الشهوات، فمن المسلمين من يتّكل على أنه قدّم أعمالًا صالحة فائقة فله أن يعصي ربه كيفما شاء، بل ويجزم أن له الجنة. وهناك من يميل إلى طائفة الجَبرِّية، الذين يرون أن العبد مجبور على كل أفعاله وليس بيده الاختيار، أي مُسَيَّر في جميع أفعاله، فيرون أن المعاصي التي يرتكبها العبد لا يُلام عليهن، ومن ثمَّ هذا الفكر يؤدي إلى الاسترسال في المعاصي مع اعتقاد أنه لن يؤاخذ عليهن وسيدخل الجنة لأنه يؤمن بالله. وهناك من يتبنى أفكار الشيعة، ثم يتخذ هذا المُعتقد ذريعة لتقتيل المسلمين السُنّة والتنكيل بهم كي يمحو السُنَّة الصحيحة ويسود الفكر الشيعي، ويرى أن له الجنة مع أنه يعلم {وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى

[1] صحيح البخاري 3099.

وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} [النساء 115]، {وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا} [النساء 93].

الذي يتواكل تكون تصرفاته في منتهى التناقض إذ إن شهادة التوحيد مقتضاها هو طاعة الله وليست تُجيز عصيانه. وبما أن أناس كثيرين يقعون في هذا التمني والأمل الكاذب فيجب ألا نأمن منه إذ أصاب أغلب الناس، فما يدريني أنه لم يصبني وأنا لا أشعر؟ فأوصي نفسي وإياكم بالصدق مع النفس، بالرغم من مشقة هذا لأنها تكره الاعتراف بأخطائها وخوض عناء سَلك الطريق الصائب، ولكن هذا هو سبيل النجاة.

اليأس والجزع عند الإصابة بالبلاء مع الاعتراض وكثرة الشكوى، والفخر والاستعلاء عند السراء. تلك صفتان في المرء يجعلانه يُقدم على المعاصي، وإنه لأمرٌ عجيب إذ يُتوقع أن يكون مبتعدًا عن معصية ربه إما في الرخاء وإما في الشدة على الأقل، ولكنه يعصي الله في الشدة لأنه ييأس فيُقبل على المعصية ليُسري عن نفسه أو فقدانًا للأمل، ويعصي الله في الرخاء أيضًا إذ يفتخر ويتكبر بما معه! فالواقع هو أنه سينكب على العصيان في كل الأحوال ويُنشئ عُذرًا دائمًا، ولكن أنى تُعجِز الله عنك يا ابن آدم؟! قال تعالى {وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ (9) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاء بَعْدَ ضَرَّاء مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (10) إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ} [هود 9-11].

فهذا طبع الإنسان. وأريد أن أُركِّز على نقطة، وهي ضعف الإنسان عندما يصاب ببلاء بعد نعمة. إن المرء كي يتفادى الجزع والاعتراض بعد البلاء يجب أن يكون قوي الإيمان وزاهدًا عن الدنيا، وهذا يعين المرء على الجهاد أيضًا لأن النفس تكون عُوِّدَت على ضيق الحال، فتضعف في الاعتراض على مشقة الجهاد. أما الذي يتعلق بمتاع الدنيا فإنه يضعف بتركها، فإذا حان عليه وقت الجهاد -بأنواعه-، إما أنه لن يترك متاع الدنيا فيُعرض عن الجهاد، وإما يتركه قليلًا حتى ينفد صبره، وخاصةً إذا اشتدت وطأة الحرب أو الرباط فإنه ييأس ويستسلم لأن إصابته بالبلاء وهو بعيد عن متاع الدنيا يزيده جزعًا.

فمن البديهي أن الذي لا يقدر على ترك الرفاهية في الرخاء لن يقدر أن يصبر عنها في الشدة، ولا على مشقة الجهاد ولا الرباط. الهدف من هذا الكلام أن نصل إلى استنتاج أنه من أراد أن يعلم قوة تحمله وبأسه في الجهاد والرباط، والذي مبنيٌ على الصبر، فليختبر قوة تحمله وصبره على ترك شهواته التي يعصي الله بها. فلتجرب ولتتعرف على نفسك، وتعلم أين أنت.

إن طبيعة الإنسان أنه ينسى فضل الله عليه، ويرمي لوم أي مصيبة تصيبه على غيره، ويفخر بنفسه لأي فضل أصابه مدعيًا أنه الذي جلبه لنفسه. وهذه الطباع تبرز عند من لا يُهَذِب نفسه بأخلاق الإسلام، ويقع في كيد إبليس فلا يكون شاكرًا لله {ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ} [الأعراف 17]. هذا لأن الإنسان الذي ليس بتقيٍ لا يُقدِّر نعم الله، وأيضًا لا يرضى بما قسمه الله عليه من الابتلاءات، فلا يكون شاكرًا في كلتا الحالتين (السراء أو الضراء). أما صفات المؤمن فهي عكس ذلك، يكون شاكرًا حامدًا لله في السراء والضراء، ويليه في المنزلة من يشكر الله في السراء دون الضراء.

والإنسان بطبعه يفعل أكثر من عدم شكر الله على نعمه، فإنه قد يستعمل نعم الله في معصيته تعالى! والمفارقة تكمن في أن الإنسان يحتاج إلى نعم الله لكي يعصي الله، فالإنسان السليم جسديًا والغني ماديًا أكثر ارتكابًا للمعاصي من الإنسان المريض العاجز والفقير. فمثلًا، إن الإنسان يحتاج إلى نعمة البصر كي ينظر ويدرس الوضع، ويحتاج إلى عقله ليخطط كيف يرتكب المعصية، ويحتاج إلى يديه ورجليه كي يسعى في تحصيل المعصية، ويحتاج إلى المال كي يذهب إلى مكان المعصية أو يشتري أداة المعصية (كالخمر). ويبقى السؤال: هل أنا ضمنت أني داخل الجنة حتى أستعمل نعم الله في معصيته؟ أم أن هذه النعم مُنحت لي كي أُرضي شهواتي؟ فهذا ليس منطقيًا! فمن الذي يتصرف بهذا الشكل الغريب؟! للأسف، هو الإنسان.

قد يتساءل البعض: لماذا كل هذا السرد والكلام عن طباع الإنسان؟ الإجابة هي أن الإنسان إذا علم وفهم طباعه كان أكثر كفاءة في معالجتها وأكثر حظًا في تجنب سلبياتها، لأنه يعلم مواضع الضعف في نفسه التي يجب أن يميل عليها حتى يُصلح نفسه، ويعلم متى تظهر فينتبه، ويعلم ما العوامل التي تثيرها فيتجنبها، وهذه بعض المفاتيح لمعالجة النفس العاصية لله. إضافةً إلى هذا، من تعرَّف على نفسه نظر إليها بموضوعية أكثر وأصلح فيها أكثر، وكان أقل عُرضة للوقوع في المعصية لأن الله يُعينه لاجتهاده في تهذيب تلك الطباع فيه، ويصبح ذاك الشخص أقل تكبرًا وغرورًا، فلا يُقبل على المعاصي لأنه يُدرك مكانه في هذا الكون: أنه عبد لله.

التضرع والإناية إلى الله في أوقات الضراء دون أوقات الرخاء. بعد أن ينكسر ويجزع المرء لبلاء أصابه يبدأ باللجوء إلى ربه بعدما كان مُقصِرًا في حقه، ولعل بعد أن يفك الله كربه يرجع المرء إلى انشغاله عن ربه بل وربما حتى عصيانه تعالى. قال تعالى {وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ} [الروم 33]، فهذا طبع الإنسان في العموم إلا من عافاه الله، نسيان ربه عندما يُكرمه والتضرع إليه عند الشدة. فليحذر كل منا من هذا

الطبع، فإن الناكر للإحسان أو الذي لا يُقدِّر الإحسان إليه هو الذي ينسى ربه، لأنه يظن أنه جلب هذه النعم لنفسه فقط بمجهوده أو أن هذه النعم لا تكفي لاستحقاق الشكر.

ولتجنب الوقوع تحت طائلة ذاك الطبع البشري يجب علينا أن نذكر الله في السراء قبل الضراء، لأن هذا من الأدب مع الله، وهو أصلح للقلب، ومن لم يفعل ذلك أظلم قلبه وأصبح قاسيًا، حتى يصبح متكبرًا ولا يملك الحكمة. ذلك لأن من تهاون بشكر الله لن يكون مُمتنًّا لله، ومن ثمَّ لن تنزجر نفسه من التجرؤ على عصيان الله، ومن عصى الله فقد فتح على نفسه بابًا من الأبواب التي تؤدي إلى الغرق في شتى المعاصي، حتى تعتاد نفسه على المعاصي ويبررها لنفسه كما بَرَّرَ لنفسه الفضل في جمع نعم الله عليه، فيصبح متكبرًا فاسقًا.

وفي موضع آخر جاء {إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ} [الدخان 15]. جاءت تلك الآية في أهل مكة إذ لم يؤمنوا بدعوة الرسول (صلى الله عليه وسلم) فبعث الله عليهم عذابًا في الدنيا حتى أُجهدوا، ثم عاهدوا الرسول (صلى الله عليه وسلم) أنه إذا دعا الله فانكشف العذاب ليؤمنُن بالله ورسوله. وفعلًا دعا الرسول (صلى الله عليه وسلم) وانكشف العذاب، ولم يؤمنوا بالرغم من وعدهم كما نبأ الله. وهذا مثال آخر للمتضرعين لله عند الشدة ونسيانه عند الرخاء.

وقد جاءت الإشارة إلى تلك الصفة في عدة مواضع أُخر في القرآن الكريم، مثل قوله تعالى {وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [يونس 12]. وهذه الصفة تتفاوت في الدرجات عند الناس، فمن الناس من يطلق لها العنان فتتطور حتى تتحكم فيه وتسوقه إلى الكفر، ومن الناس من يسمح لها بالظهور ولكن بحدود إذ إنه يؤمن بالله ولكن يعصيه في الرخاء ويتوب عند البلاء. ولكن أفضلهم هو من يجاهد تلك الصفة، فتجده طائعًا شاكرًا لله في السراء والضراء على حدٍّ سواء أو بدرجة متقاربة.

وهذا النموذج الأخير هو ما يجب علينا تطبيقه، لأن من الوفاء لله والإحسان في العبادة أن يتساوى العبد في طاعته لله في الرخاء والشدة. قد قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) في وصاياه لعبد الله ابن عباس (رضي الله عنهما) حين قال له "يَا غُلامُ (أَوْ يَا غُلَيِّمُ)، أَلا أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِهِنَّ؟"، فَقُلْتُ: بَلَى، فَقَالَ "احْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظْ اللَّهَ تَجِدْهُ أَمَامَكَ، تَعَرَّفْ إِلَيْهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ، وَإِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلْ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ. قَدْ جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ، فَلَوْ أَنَّ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَرَادُوا أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ اللَّهُ عَلَيْكَ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ، وَإِنْ أَرَادُوا أَنْ يَضُرُّوكَ

بِشَيْءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ اللَّهُ عَلَيْكَ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ. وَاعْلَمْ أَنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرًا كَثِيرًا، وَأَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا"[1].

هذه وصايا قَيِّمة من الرسول (صلى الله عليه وسلم) جزاه الله عنا كل الخير، وما يتعلق بموضوعنا وصيته بالتعرف على الله في الرخاء فيعرفنا في الشدة، وهذا منطقي إذ إن الجزاء من جنس العمل، وذلك هو العدل لأن العبد الذي يفعل ذلك يكون له حقٌ على الله أن يُعينه في الشدة. وذلك مؤكدٌ عليه في حديث آخر عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) "مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَسْتَجِيبَ اللَّهُ لَهُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ وَالْكَرْبِ فَلْيُكْثِرْ الدُّعَاءَ فِي الرَّخَاءِ"[2]. يُضاف إلى هذا أن الله يُحب العبد الذي يشكر في السراء أكثر من العبد الذي لا يشكر الله في السراء، إذ إن كثيرًا من الناس يغفلون عن شكر الله –بل وذِكرِه تعالى– في السراء، فهذا العبد يشكر الله في حال يغفل الناس فيه، ولذلك هو أولى عند الله أن يُستجاب له وأن يشرع الله في إغاثة عبده المحبوب.

أما معصية الله في الرخاء ثم التوسل إليه في الشدة لا يستلزم كشف الشدة من الله، ولكن قد يستجيب الله له تكرمًا منه تعالى ورأفةً وتقرُّبًا إلى عبده، وإعذارًا للعبد. وعدم كشف الشدة قد تكون لأنه لم تكن هناك صلة قوية في الأصل بين العبد وربه، إذ إن ذاك العبد لم يكن شاكرًا وفيًّا مع الله، وإنما يتقرب إلى الله فقط لحاجة يريدها أن تُقضى له. وذلك مبدأ متاجرة، وقد خسر من تعامل مع الله بتجارة الوحدة –أي أُعطي الله هذا مقابل أن يعطيني ذاك–، إذ إن ما عند الله أعظم بكثير مما قد يُقدمه العبد، ويُنال بالعمل اليسير (بفضل الله وكرمه) مقارنة بالجائزة شريطة أن يكون العبد نيته طيبة وعمله طيب.

فإن لم يكن كذلك وتعامل مع الله بالمتاجرة بالوحدات، ففي أحسن الأحوال أن العبد سينعم في الدنيا ولكن في الآخرة لن يكون له شيء إذ استنفد كل طلباته، فلو عاملنا الله بتجارة الوحدة لهلكنا. فمن السفه التعامل مع الله بتلك الطريقة وقد عرض علينا الوفير بالعمل اليسير، وعبادته في السراء والضراء ونحن في الدنيا يسير مقارنة بالآخرة، ومقارنة بالجائزة وهي الجنة وطول مكوثنا فيها. فأُوصي نفسي وإياكم بعدم الإقدام على المعاصي حين الرخاء، لأنه حين الشدة سنرجع إلى الله بالتضرع والطاعة لا محالة، وهذا التعامل مع الله يدعو للخجل لأنه لا يليق بالله، فالله يستحق منا أفضل من ذلك.

وقال عز وجل {وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُورًا} [الإسراء 67]. هذه الآية تكلمت عن حال المشركين وطباعهم، ولكن هذا الطبع يوجد في عامة الناس بدرجات متفاوتة إلا من عصمه الله. ذلك بأن الإنسان إذا كان في

---

[1] مسند أحمد 2666.

[2] سنن الترمذي 3304.

ضيق أو كرب تقرب إلى الله نظرًا لحاجته الناتجة عن عجزه وفقره، وإذا كشف الله ذلك الكرب لهى الإنسان بمتاع الدنيا.

وقد قيل في التفاسير إن قوله تعالى "وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُورًا" قد يُحمل على طبع الإنسان، أي أن الإنسان لا يؤدي نعم الله عليه. وهذا منطقي إذ إن الإنسان عامة لا يستطيع أن يوفي حق نعم الله عليه، بل وقد يعصي المُنعِم أيضًا. والأدلة على وجود هذا التقصير كثيرة، منها الحديث الشريف عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ"، قَالُت الصحابة: وَلا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ "لا، وَلا أَنَا إِلا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَلا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ إِمَّا مُحْسِنًا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَزْدَادَ خَيْرًا وَإِمَّا مُسِيئًا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَعْتِبَ"[1]. ومن البديهي أن الذي راقب أفعاله وأفعال الناس بموضوعية يعرف أن عمل العباد فيه تقصير تجاه ربهم دون شك.

وهذا ما يجب أن ندركه، أن أعمالنا لن توفي حق الله علينا، بالإضافة إلى أننا بطبعنا نزيد الدَينَ علينا بمعصيتنا لله في الرخاء، وإدراك ذلك هو أول خطوة في معالجة تلك الصفة في طباعنا والتغلب عليها بالاحتراس منها. ففي هذه الآية معنى كلمة كفور قد تحمل على أنه الجحود عن نعمة الله، فالكافر يجحد كُليًّا بأن الله سبب ذلك النعم، والمسلم قد يجحد ولو بغير قصد إما عن طريق عدم تقديرهن أو عدم الاجتهاد في الوفاء بحق النعم أو حتى بمعصية الله.

والدليل الواقعي على أن ذلك طبع في الإنسان أنك ترى نسبةً أعلى للمصلين في المساجد في المناطق البسيطة عن المناطق الميسورة الحال. وهناك أدلة في السنّة أن الفقراء يتقربون إلى الله أكثر من الأغنياء بسبب ذلك الطبع في الإنسان، منها قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) "اطَّلَعْتُ فِي الْجَنَّةِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الْفُقَرَاءَ، وَاطَّلَعْتُ فِي النَّارِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ"[2].

ومنها أيضًا الحوار الشائق الذي دار بين أبي سفيان (رضي الله عنه) وهرقل ملك الروم، عندما أراد هرقل أن يعاين أخبار الرسول (صلى الله عليه وسلم) ويعلم أهو حقًّا رسول أم مُدَّعٍ. فمن الأسئلة التي سألها لأبي سفيان هي: فَأَشْرَافُ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ؟ فقال أبو سفيان: بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ. وفي نهاية الأمر رد عليه هرقل قائلًا: وَسَأَلْتُكَ أَشْرَافُ النَّاسِ اتَّبَعُوهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ فَذَكَرْتَ أَنَّ ضُعَفَاءَهُمْ اتَّبَعُوهُ، وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ[3]. وفي ذلك دليل آخر على أن الفقراء والمساكين أكثر اغتنامًا للآخرة.

---

[1] صحيح البخاري 5241.

[2] صحيح البخاري 3002.

[3] صحيح البخاري 6، انظر للحوار كاملًا فيه أو في كتب سيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم).

ويمكن أن نستنتج أن الفقراء أقرب إلى الله لعدة أسباب، أولهم أن الفقير ربما يتضرع إلى الله بسبب ضيق حاله. ثانيهم هو أن الفقير لا يلهيه متاع الدنيا نظرًا لأنه لا يملكه، وثالثهم أن الغني قد يستعمل ماله في معصية الله أحيانًا فتجره إلى الأسفل، وأما الفقير فإنه يُسرف المال في احتياجاته أساسًا. هذا بالإضافة إلى أن المال عبء في الحساب يوم القيامة إذ إن المرء يُسأل عن ماله سؤالان: مما اكتسبه وفيما أنفقه، وبحسب الحال يكون إما مكسبًا وإما عبئًا.

وذلك أحد أسباب أن الفقراء يدخلون الجنة قبل الأغنياء، وهو أن حسابهم عن مالهم أقل، كما يتبين لنا عندما كان يدعو الرسول (صلى الله عليه وسلم) قائلًا "اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مِسْكِينًا وَأَمِتْنِي مِسْكِينًا وَاحْشُرْنِي فِي زُمْرَةِ الْمَسَاكِينِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"، فَقَالَتْ السيدة عَائِشَةُ (رضي الله عنها): لِمَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ "إِنَّهُمْ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ قَبْلَ أَغْنِيَائِهِمْ بِأَرْبَعِينَ خَرِيفًا، يَا عَائِشَةُ لا تَرُدِّي الْمِسْكِينَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، يَا عَائِشَةُ أَحِبِّي الْمَسَاكِينَ وَقَرِّبِيهِمْ فَإِنَّ اللَّهَ يُقَرِّبُكِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"[1]. ومن هذا الحديث يمكن أن نستدل أيضًا أن من الأفضل للمسلم ألا يطمح في تحصيل من المال أكثر بكثير من احتياجه، لأن ذلك يشغل باله عن طاعة الله ويُكَرِّس وقته لتحصيل المال، ذلك بالإضافة إلى لهوه في المال عندما يأتي، وقد تُفسد قلبه رغبة جمع المال الوفير.

فيا أخي، وصاياي إليك أن تتقرب إلى الله في الرخاء شبيهًا بتقربك إليه حين البلاء إن لم يكن كمثله، واتباعًا لوصية الرسول (صلى الله عليه وسلم) التي ذُكرت قريبًا "تَعَرَّفْ إِلَيْهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ"، وألا تطمح ولا تُشغل قلبك بجمع مال وفير إذ إن الله ذم هذا في كتابه الكريم {وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا} [الفجر 20]. وإذا أكرمك الله بمالٍ كثيرٍ بالرغم من عدم حرصك على جمعه، وهذا هو الفوز الحقيقي بحيث إن قلبك لم يتأثر وعندك ما يفيض من المال –من فضل الله وكرمه–، أوصيك أن تستعمل المال وأنت تتقي الله، ولا تستخدمه في معصيته أبدًا، ولا تنسَ شكر الله ولا نصيب من هم أقل حظًّا منك في المال.

أختم هذا الفصل بمبدأ عام، نفلح إن اتخذناه منهجًا: لا تعطي الله أردأ ما عندك. فلا تخصص أردأ مالك للصدقة، ولا تعطي أردأ وقتك لذكر الله مثل فقط وقت ضجرك، ولا تعطيه أردأ جهدك بأن تصلي في آخر الوقت وتخطفها، ولا أردأ أحوالك فتتوب فقط عندما تكون في مأزق وتبتغي من الله فائدة. في تعاملك مع الله ينبغي ألا يكون حالك هو الاستياء، لأن هذا لا يليق بعظمته سبحانه، فليكن تعاملك مع الله مثلما تحب أن يُعاملك هو: أفضل ما يمكن.

[1] سنن الترمذي 2275.

عدم التضرع والإنابة إلى الله في البلاء! قد تكلمنا عن الذي يتقرب إلى الله في أوقات الشدة دون أوقات الرخاء وكيف أن هذا سلوكٌ قبيح، ولكن هناك ما هو أقبح من ذلك، وهو من لا يلجأ إلى الله حتى في الضراء. إن العبد عندما يدخل هذه الدنيا يكون في نعيم من الله، وإلا لم يكن لينجو المولود في الدنيا إذ إنه عاجز عن إطعام وإكساء نفسه، وهذه النعم تكون في صورة رعاية الوالدين له وما بُسط له من رزقٍ وصحة الجسد {وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [النحل 78]. ثم عندما يبلغ الحُلُم يُكلَّف بالوفاء والشكر لله متمثلًا في طاعة المولى عز وجل والإقرار بنعمه عن طريق شكره {فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ حَلالا طَيِّبًا وَاشْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ} [النحل 114]. وفي مخالفة هذا جلبٌ لسخط الله على العبد، كما دلت الآية {وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ} [النحل 112].

إن لم يفعل العبد ذلك فإن الله يبتليه ليعود إلى رشده وينكسر لله، فقد قال تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (94) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ آبَاءنَا الضَّرَّاء وَالسَّرَّاء فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ} [الأعراف 94-95]. "بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء" هما البلاء كالفقر والمرض، "ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ" أي أن الله بدل حالهم من الشدة إلى الرخاء، "حَتَّى عَفَواْ" أي كثروا وكثرت أموالهم، "وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ آبَاءنَا الضَّرَّاء وَالسَّرَّاء" أي ألقوا اللوم بما مروا به من شدة على أن هذا هو حال المرء في الزمن مثل ما حدث لآبائهم من قبل، وبرروا ما مر بهم بدلًا من اتهامه أنفسهم بالفساد أو التقصير.

وقد جاء في تفسير ابن كثير (رحمه الله): يَقُول تَعَالَى اِبْتَلَيْنَاهُمْ بِهَذَا وَهَذَا لِيَتَضَرَّعُوا وَيُنِيبُوا إِلَى اللَّه، فَمَا نَجَعَ فِيهِمْ لا هَذَا وَلا هَذَا وَلا اِنْتَهَوْا بِهَذَا وَلا بِهَذَا، قَالُوا قَدْ مَسَّنَا مِنْ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء ثُمَّ بَعْده مِنْ الرَّخَاء مِثْل مَا أَصَابَ آبَاءَنَا فِي قَدِيم الزَّمَان وَالدَّهْر، وَإِنَّمَا هُوَ الدَّهْر تَارَات وَتَارَات، بَلْ لَمْ يَتَفَطَّنُوا لأَمْرِ اللَّه فِيهِمْ وَلا اِسْتَشْعَرُوا اِبْتِلاء اللَّه لَهُمْ فِي الْحَالَيْنِ. وَهَذَا بِخِلافِ حَال الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَشْكُرُونَ اللَّه عَلَى السَّرَّاء وَيَصْبِرُونَ عَلَى الضَّرَّاء (انتهى).

وفي الآية دلالة على مدى إمهال الله للطغاة وصبره عليهم حتى يُنيبوا إليه، فإن لم يفعلوا ذلك في السراء استنفد منهم الأعذار بأن يبتليهم بالضراء ليتعظوا فيتضرعوا إليه تعالى، وهذا من رحمته بعباده قبل نزول كلمته بالعذاب المُهلك، فإن لم يُجدي معهم كل ذلك فتح عليهم أبواب الرزق ثانيةً مكرًا كي يستدرجهم. وهذا ما أشارت إليه الآيات {وَلَقَدْ أَرْسَلنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (42) فَلَوْلا إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (43) فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ} [الأنعام 42-44].

فالخظورة تكمن فيمن يتجاوز كل تلك المراحل التحذيرية فيكون لسان حاله بسبب جُرأته وعناده كأنه يدعو نقمة الله أن تأتيه، ومن جاءته نقمة الله ومكره لن يسلم مصيره. فالحذر كل الحذر يا أخي، لك مرحلتان للإنابة إلى الله وهما في الرخاء وفي البلاء فلا تتجاوزهما، ألا يكون لك عذر عند الله فتصبح مُعرَّضًا أن يصيبك ما لست بصدده.

إصلاح النفس فقط إذا أصاب المرء البلاء. إن الفرد في سعيه للتقرب إلى الله لنيل ما يريده من الدنيا يحاول أن يظهر في أحسن صوره مع الله، فمثلًا قد يذهب إلى المسجد ليُصلي الفرائض في جماعة بعد أن كان يُصلي في البيت. ومع أن التقرب إلى الله محمود عامةً، فإن النية في التقرب إلى الله هي التي فيها علة وقد تُمرض القلب، إذ يتعامل المرء مع ربه بما يُشبه التجارة. وإن تغاضينا عن نيَّته ونظرنا إلى الجانب الإيجابي أنه تقرَّب إلى الله، فلا خلاف أن هذا شيءٌ جيد، ولكن ماذا يُقال فيمن يرجع لما كان عليه من التراخي –وربما الانتكاس إلى الأسوأ حتى– بعدما يُكشف عنه البلاء أو يُحصِّل ما كان يدعو الله من أجله؟

ففي هذا السلوك سوء تعامل مع الله، لأن لسان حال المرء يُبين أنه لا يتقرب إلى الله إلا لمصلحة ما، وهذه من سلوكيات أعتل الظالمين. قال تعالى {وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلـهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (90) آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (91) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ} [يونس 90–92]. فلا يدري المرء عندما يصيبه البلاء كيف يكون حاله، كما تُبين الآيات المذكورة أن البلاء على فرعون كان مُميتًا بالغرق، وآنذاك قد تأخر في التوبة وكان نطقه بالإيمان تلفظ المُضطر المقهور الماكر فلم يُقبل منه.

فلا ندري ذلك البلاء الذي ننتظره لإصلاح النفس وللتقرب إلى الله كيف تكون درجته، فقد يكون الموت حيت لا تنفع التوبة، أو أن يأتي البلاء فيزداد المرء قسوةً وجحودًا بدلًا من الإنابة والتضرع إلى الله، أو قد لا يأتي البلاء فيموت المرء مُفسدًا. وفي ذلك النمط المُتبع سوء أخلاق في التعامل مع الله إذ إنه تعاملٍ مادِّيٌ، أي بمبدأ: إنما أُنيب إليك فقط لتُعطيني أو لتُغيثني؛ فأنى يأمن من يتبع ذلك المنهج مع ربه؟

التَكَبُّر أو الاستعظام. هاتان الصفتان تؤديان إلى الاستعلاء على الناس وظلمهم والإفساد في الأرض. قال تعالى {تِلْكَ الدّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوّا فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَادا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتّقِينَ} [القصص 83]، وجاء عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "مَنْ تَعَظَّمَ فِي نَفْسِهِ أَوْ اخْتَالَ فِي مِشْيَتِهِ

لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ"[1] (اختالَ أي تباهى). إني لا أريد أن أكون متعاليًا مفسدًا في الأرض، ولتفادي هذا يجب أن أتجنب التكبر عن الحق، فإن الكبر هو بطر (أي منع أو نُكران) الحق وغمط الناس (أي ازدراؤهم).

وغمط الناس يجعل المرء ظلومًا لهم لأنه لا يهتم بحقوقهم، وتلك هي ثاني أكبر آفة للتكبر، أنه يفتح على المرء باب ظُلم الناس. وهذا ما دل عليه كلام رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "وَإِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ وَلا يَبْغِ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ"[2]. من يتكبر فيبغي على الناس يُفضي به هذا إلى عاقبة وخيمة.

ومَثلُ ذلك واضحٌ في اليهود، فإنهم زعموا أنهم أولياء الله وأن كل ما خُلق غيرهم فهو مسخّر لهم، يفعلون بمخلوقات الله ما يشاءون ويستحلون منهن ما أرادوا، وبذلك احتقروا الناس الذين ليسوا من مِلّتهم فطغوا عليهم. وجاء دليل ذلك في قول الله تعالى {وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [آل عمران 75]، ومعنى "لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ" أي زعموا أنه لا إثم عليهم في ظُلم من خالف دينهم، ثم تجرأوا ونسبوا ذلك المبدأ أنه من عند الله! ومن عواقب فعلهم ذلك أن قلوبهم قست ويُعاقبهم الله على تكبرهم، كما جاء في الآية {وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىَ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَللهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ} [المائدة 18].

ولهذا يجب ألا نحتقر شخصًا، فإن كان فاجرًا يُنصح، فإن أبى فإنه يُمنع إن أمكن، فإن لم يُمكن منعه فحينئذ يُمقت ويُذم –بل وربما يجب فضحه ليحذر الناس من أذاه– بحسب معصيته لربه، ولكن لا يُحَقَّر. بل الأصوب أن ندعو له بالهداية في كل الأحوال ونحمد الله أنه عافانا من أن نصبح مثله، وهذا السلوك يكن أخيَر للمؤمن وللفاجر إن شاء الله –أخير للفاجر إذ إن الإرشاد بالرفق للصواب يكن أبلغ في الأثر، وهذا هو الهدف المحوري: إصلاح العاصي، وليس بيان من أصوب من الآخَر–، فما يدرينا لعل الله أن يهديه هو ويُفتِن من يحتقره منا. وسيكون ذلك الوضع شبيهًا بالرجل الذي تأول على الله وافترى مُقسمًا أن الله لن يغفر لرجلٍ آخر تمادى في العصيان، فأحبط الله عمل الرجل الأول وغفر للثاني.

للتفصيل، إن قال أحد إن أصحاب البدع والمعاصي ينبغي أن يُمقَتوا ويُحتقروا حتى لا نصير مثلهم، فهذا كلام فيه خلط، فيمكن أن يُمقتوا تحت شروط مُحددة ولكن لا يُحتقرون كمخلوقات، مع

---

[1] مسند أحمد 5723.

[2] صحيح مسلم 5109، جزء من الحديث.

أهمية الاحتياط بأخذ إجراءات تمنعنا من أن نصير مثلهم. هذا لأن الضرر المبدئي المؤكد وقوعه هو أن المؤمن الذي يحتقر العاصي يقوم بإدخال مشاعر شر –بشوائبها– في قلبه، أي يُمرِض قلبه.

ثم إن أصحاب البدع والفجور فيهم من هو قابل للصلاح إن نُصِح وتم تفقيهه، أو إن هيّأ الله له الظروف المُناسبة، وهذا إذ قد يكون قلبه في الخفاء صافيًا نقيًّا من آفات القلب العُظمى مثل الكبر والحقد والحسد (وإن كان قلبه ممتلئًا بالنكت السوداء من آثار المعاصي، فهذه نقرة وتلك نقرة). والدليل على هذا يوجد في أحاديث ذُكرت مثل أن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى يكون بينه وبينها ذراع ثم يسبق عليه الكتاب فيُقبَض وهو يعمل عمل أهل الجنة فيدخل الجنة، وعن المرأة البغي التي سقت كلبًا عطشانًا من البئر بخُفِّها فغفر الله لها.

وبالرغم من أن الكلب من الحيوانات –بل ومن أنجسهم بدنا–، فإنه مخلوق من مخلوقات الله التي شاء خلقها لحكمته سبحانه، وأن حسن معاملة هذا المخلوق أدى إلى المغفرة للمخلوق الأهم: الإنسان. فكذلك ينبغي أن ننظر إلى المخلوقين حتى مِن أهل المعاصي الذين أهانوا أنفسهم وصغَّروها، أنهم من مخلوقات الله التي قدَّر أن يكن لكل واحد منهم وجود فلا يحق لنا أن نحتقرهم. أرأيت لو قتلت فاجرا لم يرتكب ما يستحق القتل شرعًا أيُقام عليك الحد أم لا؟ فهذا يعني أن له مكانة عند الله ووَضع الله له حقوقًا، حتى إن كانت مكانته عند الله سلبية وقد لعنه، فلنا أن نلعنه للعن الله له ولكن لا نحتقره، فرُبما يُبدِّل الله أحوالنا بسبب احتقارنا لبعض مخلوقاته.

إذا وضعنا كل تلك العوامل المذكورة في الاعتبار، نستخلص أن أنسب طريقة للتعامل مع أهل البدع والفجور –خاصةً المُستَتِر منهم أو على الأقل لا يتعمد إعلانهما وإشاعتهما– هو نصحهم والدعاء لهم بالهداية مثلما فرحنا بأن الله هدانا ونُحب أن يهدينا أكثر، مع عدم احتقارهم. فإن لم يستجيبوا واستمروا فنشفق على ما هم فيه من الافتتان مقرونٌ بتجنبهم ومقتهم. فإن كان الاحتقار يفرض نفسه على المرء تجاههم، فليكن على أفعالهم وليس عليهم كأفراد.

أما إن كان مبتدعًا أو فاجرًا مُتماديًا أو مُعلِنًا بحيث إنه يؤذي المسلمين أو يُضعف شوكة الإسلام، فهذا يتم الإبلاغ عنه ليُقام عليه الحد إن انتهك حَدًّا، وإلا فيُقاوَم مع فضحه (بما يؤذي المسلمين به) ليحذر المسلمون منه ومن أفعاله ويستوعبوا حقيقته. قد قال الحسن البصري: أترغبون عن ذكر الفاجر؟ اذكروه بما فيه يحذره الناس[1]. هذا مع الدعاء على أن يكفي الله المسلمين شره كيفما يشاء تعالى –أي سواء بهدايته أم بإصابته ببلاء يُشغله عن مضرّة المسلمين–. كل هذا مع عدم احتقاره، ولكن يمكن أن يُمقَت أو يُهجَر أو يُنتقد أو يُناظَر علنًا أو حتى يُتجنب السلام عليه وما

[1] مجموع فتاوى ابن تيمية 219/28.

شابه. الخلاصة هي أن ينبغي التفرقة بين احتقار المخلوق نفسه وبين احتقار أفعاله، فمَقتُ الأفعال التي تُغضب الله هو من سُبُل الوقاية من الافتتان بهن ومن أُلفتهن وارتكابهن.

للأسف، هناك أُناس يكرهون من يرشدهم للحق، ظانين أن الناصح يتكبر أو سيظهر أنه أفضل منهم، ويقول المخطئ في نفسه مثلًا "لعل هذا يفعل كذا وكذا من المعاصي ويظن أنه أفضل مني" أو "انظر لما أنت فيه من الخطأ أولًا قبل أن تطالبني بالمِثالية" أو "من هذا حتى ينصحني، فإنه فقير/ضعيف/صغير ولم يبلغ ما بلغته أنا"، ثم ينفر منه. وقد يعتدي على الناصح أو يتجهّم في وجهه، ويحدث هذا خصوصًا لو أن الناصح كان أسلوبه جافًّا أو غليظًا أو كان مثالًا سيئًا في أفعاله. وأقول لا داعي لهذه الوساوس، فإن الناصح لم يكن لينصح إلا لاهتمامه بالمنفعة غالبًا، وإن كان مخطئًا في أسلوب النصح فليُنصح على تصحيح أسلوبه، وإن كان مُذنبًا في الخفاء فمن فينا معصومٌ من الذنب؟؟؟

المهم أني كفردٍ لا أُعرض عن الحق، فإن الحق هو الله، ومن أعرض عن الله أعرض الله عنه في الدنيا والآخرة {وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمَىَ (124) قَالَ رَبّ لِمَ حَشَرْتَنِيَ أَعْمَىَ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (125) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَىَ} [طه 124-126]. الإعراض عن الحق في مسألة، تحت أي عذر، يضع المرء في موضع سلبي، إذ لا يُدري سيُذَكَّر بالحق ثانيةً في المُستقبل أم لا، فالأفضل قبوله وتطبيقه عندما يُواجَه به المرء وإن كانت بطريقة مُهينة أو من شخصٍ فاجرٍ أو حتى كافرٍ، لئلا يُفوّت على نفسه منفعة، فليُزيل الشوائب والأضرار وليغتنم المنفعة وينأى بذاته. والإعراض عن الحق يحدث عادة عندما أبتغي بلوغ شهوة أو غاية مثل تحصيل المال أو سُمعة بين الناس... أي عندما تكون رغبتي شديدة في تحصيل شيء من أمور الدنيا، فالحذر كل الحذر من الفتن التي تجعل المرء يكون متكبرًا متعاليًا مفسدًا في الأرض.

وقد حذرنا النبي (صلى الله عليه وسلم) من التكبر في قوله "لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ"، فقَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً، قَالَ (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ؛ الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ"[1] (بَطَرُ أي دفع الحق وإنكاره؛ وَغَمْطُ أي الاحتقار والتعالي). اللهم إنا نسألك العفو والعافية في الدنيا والآخرة، ونعوذ بك مما هو ليس إلا لك... الكبر (مع العلم أن كبرياء الله ليس ككبرياء الإنسان، فإن الله منزه من الظلم). وليكن هذا الحديث تحذيرًا لي: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "يَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي، مَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا أَلْقَيْتُهُ فِي جَهَنَّمَ"[2].

---

[1] صحيح مسلم 131.

[2] سنن ابن ماجه 4164.

وهناك واقعة تُبين لنا أن التكبر والاستعظام طبع الإنسان إلا من جاهد نفسه عليهما، ومن عواقب ذلك الاستكبار أنه يؤشك الله أن يُذل المُتكبر في الأرض، إضافة إلى ما أعده الله للمتكبرين في الآخرة. تلك الرواية جاءت عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) واعظا لنا "إِنَّ ثَلاثَةً فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ: أَبْرَصَ وَأَقْرَعَ وَأَعْمَى؛ بَدَا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَلَكًا فَأَتَى الأَبْرَصَ فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: لَوْنٌ حَسَنٌ وَجِلْدٌ حَسَنٌ، قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ؛ فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ فَأُعْطِيَ لَوْنًا حَسَنًا وَجِلْدًا حَسَنًا، فَقَالَ: أَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الإِبِلُ (أَوْ قَالَ الْبَقَرُ، شَكَّ فِي ذَلِكَ أحد رواة الحديث، إِنَّ الأَبْرَصَ وَالأَقْرَعَ قَالَ أَحَدُهُمَا الإِبِلُ وَقَالَ الآخَرُ الْبَقَرُ)، فَأُعْطِيَ نَاقَةً عُشَرَاءَ فَقَالَ: يُبَارَكُ لَكَ فِيهَا. وَأَتَى الأَقْرَعَ فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: شَعَرٌ حَسَنٌ وَيَذْهَبُ عَنِّي هَذَا، قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ؛ فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ وَأُعْطِيَ شَعَرًا حَسَنًا، قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْبَقَرُ، فَأَعْطَاهُ بَقَرَةً حَامِلا وَقَالَ: يُبَارَكُ لَكَ فِيهَا. وَأَتَى الأَعْمَى فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: يَرُدُّ اللَّهُ إِلَيَّ بَصَرِي فَأُبْصِرُ بِهِ النَّاسَ؛ فَمَسَحَهُ فَرَدَّ اللَّهُ إِلَيْهِ بَصَرَهُ، قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْغَنَمُ، فَأَعْطَاهُ شَاةً وَالِدًا. فَأُنْتِجَ هَذَانِ وَوَلَّدَ هَذَا، فَكَانَ لِهَذَا وَادٍ مِنْ إِبِلٍ وَلِهَذَا وَادٍ مِنْ بَقَرٍ وَلِهَذَا وَادٍ مِنْ غَنَمٍ. ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى الأَبْرَصَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ تَقَطَّعَتْ بِيَ الْحِبَالُ فِي سَفَرِي فَلا بَلاغَ الْيَوْمَ إِلا بِاللَّهِ ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي أَعْطَاكَ اللَّوْنَ الْحَسَنَ وَالْجِلْدَ الْحَسَنَ وَالْمَالَ بَعِيرًا أَتَبَلَّغُ عَلَيْهِ فِي سَفَرِي، فَقَالَ لَهُ: إِنَّ الْحُقُوقَ كَثِيرَةٌ، فَقَالَ لَهُ: كَأَنِّي أَعْرِفُكَ، أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَصَ يَقْذَرُكَ النَّاسُ فَقِيرًا فَأَعْطَاكَ اللَّهُ؟ فَقَالَ: لَقَدْ وَرِثْتُ لِكَابِرٍ عَنْ كَابِرٍ، فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتَ. وَأَتَى الأَقْرَعَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ لِهَذَا، فَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا رَدَّ عَلَيْهِ هَذَا فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتَ. وَأَتَى الأَعْمَى فِي صُورَتِهِ فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ وَابْنُ سَبِيلٍ وَتَقَطَّعَتْ بِيَ الْحِبَالُ فِي سَفَرِي فَلا بَلاغَ الْيَوْمَ إِلا بِاللَّهِ ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ شَاةً أَتَبَلَّغُ بِهَا فِي سَفَرِي، فَقَالَ: قَدْ كُنْتُ أَعْمَى فَرَدَّ اللَّهُ بَصَرِي، وَفَقِيرًا فَقَدْ أَغْنَانِي، فَخُذْ مَا شِئْتَ، فَوَاللَّهِ لا أَجْهَدُكَ الْيَوْمَ بِشَيْءٍ أَخَذْتَهُ لِلَّهِ، فَقَالَ: أَمْسِكْ مَالَكَ فَإِنَّمَا ابْتُلِيتُمْ، فَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْكَ وَسَخِطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ"[1].

فهذا الحديث يحث المرء على عدم نسيان فضل الله عليه، وعلى التواضع وحسن معاملة الفقير والمسكين، وعلى مجاهدة صفة البخل. ولمن يُحقق ذلك كله فله رضا الله، ومن لم يتخلق بهذا سخط الله عليه. وسخط الله لا يُشترط أن تكون صيغته في الدنيا بذهاب النعم، مع أن في هذا الحديث دلالة على ذهاب النعم من الكاذبَين، فقد تكون عاقبة سخط الله كثرة المحن على العبد، أو إشغال العبد عن الطاعات، أو الختم على القلب وهذه عقوبة أغلظ إذ قد لا يرجع المرء إلى الله بسببها، إضافةً إلى أن في الآخرة تقع عواقب من سخط الله عليه ولا بد. فالحذر كل الحذر من الكبر وسوء معاملة المساكين والفقراء والضعفاء، وليتذكر الإنسان أصله ليكسر تعظيم نفسه، وبمخالطة المساكين والفقراء وقهر نفسه على ذلك إن لزم الأمر، لعل الله يرضى عنه ويتجاوز عنه.

---

[1] صحيح البخاري 3205.

وذلك بناء على اقتدائنا بمنهج الرسول (صلى الله عليه وسلم) إذ كان يعلم أن المساكين والفقراء هم أغلب أهل الجنة، وذلك لأنهم أقرب إلى الله، فقد كان يدعو لنفسه أن يكون منهم، ويُوصينا بحسن التعامل معهم. فمن البديهي أن المرء إذا أراد أن يضمن أن يُحشر مع المساكين يوم القيامة أن يُخالطهم في الدنيا، وذلك من شيم الصالحين، إضافة إلى الإحسان إليهم كما حثَّنا تعالى {وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا} [الإنسان 8].

كما أنهم مصادر خير لهذه الأمة، فكيف نُفرّط فيهم أو نُسيء معاملتهم، فقد قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) "ابْغُونِي ضُعَفَاءَكُمْ، فَإِنَّمَا تُرْزَقُونَ وَتُنْصَرُونَ بِضُعَفَائِكُمْ" (ابْغُونِي أي اطلبوني، وربما المقصد أن يُبحث عنه مع الضعفاء؛ بِضُعَفَائِكُمْ أي المساكين)[1]. ويُنافي حسن معاملتهم والقرب منهم تصرفات تدل على التكبر مثل {أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ} [القلم 24]، {وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولواْ أَهَؤُلاء مَنَّ اللهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ} [الأنعام 53]، {وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ} [هود 27، جزء من الآية]. وقد يُبالغ المتكبر في الإعراض عن المساكين والفقراء والضعفاء حتى إنه يمنع عنهم حقوقهم مثل الزكاة {الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ} [النساء 37، جزء من الآية]، {مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ} [القلم 12]، {وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ} [الحآقة 34].

فهذه نماذج في القرآن للمتكبرين على المساكين والضعفاء، وقد رد سيدنا نوح (عليه السلام) على المتكبرين الذين طلبوا منه طرد الضعفاء والمساكين الذين معه كي لا يتخالطوا معهم (وحدث هذا أيضًا مع سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم) {وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (29) وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (30) وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ} [هود 29-31]. ففي ذلك توجيها لنا على كيف ينبغي أن نكون.

ومن طُرق علاج الكبر واستعظام النفس هو أنك إذا رأيت نفسك تستعظم، بحيث ترى أنها مُميزة عن باقي أو كثير من الخلق، فذكّرها بإخفاقاتها مثل ذنوبها ومواقف أخطأت فيها الرأي أو التصرف، وذكّرها بغدراتها. ذكّرها بنقاط ضعفها (مثل قصر القامة أو إصابة في البدن أو سهولة افتتانها بالنساء)، وبسلبياتها (مثل وجود البخل أو سرعة الغضب)، وذكّرها بالصفات التي هي أدنى فيها عن معظم المخلوقات (أي إذا كانت بطيئة الاستيعاب أو قليلة التحمل مثلًا).

[1] سنن الترمذي 1624.

وذكِّرها بأوقات أُهينت فيها. وذكرها بعملٍ قبيحٍ ارتكبَته تندم على فعله من شدة دناءته. وذكِّرها بحجمها في الكون وحالها مع الله، وليُقارن نفسه بالملائكة من حيث الخَلق والعبادة. فليفعل هذا حتى ولو كان يرى لنفسه أفضلية على الناس بعلوم الدين أو بالتقوى، ولنتأسى بأخلاق العلماء الأتقياء، فها هو أبو حفص يوصي أبا عثمان النيسابوري (رحمهم الله): إذا جلست للناس فكن واعظًا لقلبك ونفسك، ولا يغُرَّنك اجتماعهم عليك، فإنهم يُراقبون ظاهرك، والله يُراقب باطنك[1]. وليُعلم أن إذا اقتنع العبد أن علمه أو إيمانه أو أعماله الصالحة أفضل من أغلب المسلمين، بينما لا يدري ما الذي قدَّموه من أعمالٍ سِرّية لله ولا يدرك حالهم في مناجاة ربهم، فهو يخدع نفسه، وادعاؤه من البُطلان والكذب والسفه.

وفيما يخص مصير المتكبرين والمتجبرين، قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) "تَحَاجَّتْ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ فَقَالَتْ النَّارُ: أُوثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ، وَقَالَتْ الْجَنَّةُ: مَا لِي لا يَدْخُلُنِي إلا ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ! قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَقَالَ لِلنَّارِ: إِنَّمَا أَنْتِ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا مِلْؤُهَا. فَأَمَّا النَّارُ فَلا تَمْتَلِئُ حَتَّى يَضَعَ رِجْلَهُ فَتَقُولُ: قَطْ قَطْ؛ فَهُنَالِكَ تَمْتَلِئُ وَيُزْوَى بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، وَلا يَظْلِمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ خَلْقِهِ أَحَدًا، وَأَمَّا الْجَنَّةُ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُنْشِئُ لَهَا خَلْقًا"[2] (أُوثِرْتُ أي خُصِّصت؛ وَسَقَطُهُمْ أي المُحتقَرون في أعين الناس؛ وَيُزْوَى أي يُجمع ويُضمّ).

هذا الحديث يدل على أن المتكبرين والمتجبرين الظالمين للناس يدخلون النار، وإن كانوا يُصَّلون ويزَّكون وغير ذلك، فإن المسلم كما جاء في حديث آخر عن النبي (صلى الله عليه وسلم) "الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ"[3]. أما المتكبرون فهم عادة ما يكونوا معارضين لبعض أمور الدين، بالإضافة إلى ظلمهم للناس، ولا يحق لعبد مهما بلغ من نعيم وسلطة وإنجازات أن يستصغر عبدًا آخر، فهل يعقل أن يسخر شخص من شخص وكلاهما عبد لله؟! قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلا لا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ، وَلا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلا لأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ، إِلا بِالتَّقْوَى، أَبَلَّغْتُ؟" قَالُوا: بَلَّغَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[4].

فلا أفضلية لعبد على عبد إلا بالعمل الصالح، ولله وحده أن يُحدد منزلة ذلك العبد بناء على المعايير التي وضعها سبحانه –المُطَّلع على سرائر الأعمال وأحاديث النفس–، وليس العبد الذي يُحدد لنفسه بناء على معاييره المتحيزة، وهذا مصداقًا لكلام الله تعالى {هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ

---

[1] مدارج السالكين لابن القيم 66/2.

[2] صحيح البخاري 4472.

[3] سنن النسائي 4909.

[4] مسند أحمد 22391، جزء من الحديث.

الأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى} [النجم 32، جزء من الآية]. فلا يجوز لعبد أن يتكبر على عبد آخر اعتبارًا بتحذيرات الرسول (صلَى الله عليه وسلم) مثل قوله "يَطْوِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيُمْنَى ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟ ثُمَّ يَطْوِي الأَرَضِينَ بِشِمَالِهِ ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟"[1].

فإعلاء شأن النفس على الناس يولِّد الكبر والظلم ومن ثمَّ المعاصي، وأما الشخص المتواضع الذي يعمل العمل الصالح، ويُدرك أنه لم يوفِّ حق الله بعد وعليه أن يرتقي أكثر، فذلك الذي يقدر على الابتعاد عن المعاصي بعون الله له. هذا لأنه يسعى لدرجة أعلى مما هو فيها، ومن ثمَّ يعزم على عدم تضييع فرص طاعة الله ويتجنب المعاصي التي تجره إلى الأسفل.

فيجب عليَّ أن أحترس من الغرور والكبر والرياء والافتخار بالنفس لأنهم مصادر لمعاصٍ شتى. أما الثقة بالنفس وكرامة النفس فمطلوبتان كي يُحقق المرء سعيه في الدنيا ويتصدى لأعداء الإسلام، ولكن الخط الذي يفصل بينهما وبين الكبر يكاد يكون خفيًّا. فالمشكلة تكمن في أن قد تختلط ثقة النفس بالكبر أو الغرور، ويحتاج ذلك إلى تدقيق واجتهاد مستمر للتمييز بينهم ولمُدافعة الصفات السلبية التي تتسلل للمرء.

ولو أني تركت الكبر والغرور يتسللان إليَّ، فقد يصبح حالي متناقضًا ومشفقًا بأن أواصل المعاصي ببعض مع اقتناعي أن لي الدرجات العُلى من الجنة، ولا أدرك ما ينتظرني. قال يحيى بن معاذ: من أعظم الاغترار عندي: التمادي في الذنوب مع رجاء العفو من غير ندامة، وتوقع القرب من الله تعالى بغير طاعة، وانتظار زرع الجنة ببذر النار، وطلب دار المُطيعين بالمعاصي، وانتظار الجزاء بغير عمل، والتمني على الله عز وجل مع الإفراط[2]. وقد قال الشاعر:

نَصِلُ الذُّنُوبَ إِلَى الذُّنُوبِ وَنَرْتَجِي دَرَجَ الْجِنَانِ لِذِي النَّعِيمِ الْخَالِدِ

وَلَقَدْ عَلِمْنَا أَخْرَجَ الأَبَوَيْنِ مِنْ مَلَكُوتِهِ الأَعْلَى بِذَنْبٍ وَاحِدِ[3]

وإن الله قد أحسن خَلقنا وأسبغ علينا نعمه ظاهرة وباطنة، وما كان نتيجة ذلك عند أكثر الناس؟ منهم من آمن بالله، والأغلب منهم ما بين متقاعس عن طاعة الله إلى كافر. فمن ظن أنه يملك ما يريد ويستطيع فعل أي شيء يسعى إليه من تلقاء نفسه فذاك متكبر مغرور يظن أنه في غنى عن الله، والمفارقة أن ذاك الكبر لم يأتِ إلا بعد أن مكَّنه الله وأعطاه القدرة على الإقدام على

[1] صحيح مسلم 4995.

[2] إحياء علوم الدين للغزالي 144/4.

[3] الجواب الكافي لابن القيم 88.

الأمور ثم رزقه بعد سعيه. وطبيعيًّا فإن التجبر والكبر متلازمان، لأن من تجبر تكبر، ومن تكبر تجبر.

ومن تجبر تجده مغرورًا ظالمًا، ودليل ظلمه أنه يستعمل ما أنعم الله عليه من قوة ونفوذ للتوصل إلى أهدافه وشهواته، والذي عادةً يتضمن ظلم الناس وسلك سبل مُخالفة لتحقيق المراد. وفي أخف الأحوال تجد المتجبر ظلومًا بالتفاخر على عباد الله، الذين خلقهم الله من روحه ويحبهم وهم من مُلكه.

من لم يدفع الغرور والإعجاب بالنفس والتفاخر والكبر عن نفسه سيكون دائم العصيان، لأن التكبر بابٌ إلى أي معصية. وكل الوبال الذي يرتكبه يكون بسبب مبدأين باطلين يتبناهما، أولهما أنه يرى أنه أفضل من سائر العباد فله حقوق أكثر منهم وتكون أولى من حقوقهم، فيستحق أن ينال ما يرغب فيه ولو على حساب الناس، فينتج عن هذا أنه يستقوي عليهم فيظلمهم، ولا يتجاوز عمن أخطأ معه (وقد يكون مُتوهمًا) فيبطش به. والباب الثاني هو أنه يقتنع أنه مميز ووضعه استثنائي فيُتجاوز له عن أخطائه وزلّاته، بل وأن بعض القوانين لا تسري عليه، مما يسوقه إلى التهوين بفعل الخطأ.

وشخص كهذا، إن استمر في هذا الطريق، مُعَرَّضٌ أكثر بكثير أن يُكذِّب بتفسيرٍ موثوق لآية في كتاب الله أو بحديث مُثبت أو ينتقد حُكمًا شرعيًّا، فيكون قد خسر الخسران الأعظم بالدخول في الكفر. وهذه هي أكبر آفة للتكبر، أنها قد تسوق العبد إلى الكفر، فالكبر والكفر مرتبطان كما دلت العديد من الآيات مثل {قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ} [الأعراف 76]، {بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ} [الزمر 59]. فالحذر كل الحذر من الكبرياء ونسب العزة للنفس بدلًا من الله المتكبر الوهاب للعزة.

هذا بينما يتغافل المستكبر أنه لا شيء أمام الله، ويغفل أنه قد لا يُساوي جناح بعوضة عند الله العظيم، وبهذا يجد نفسه يُلقى في جهنم يوم الحساب! والأدهى هو أنه قد يتكبر ويسخر من شخص أفضل منه في الحقيقة –في الدنيا والآخرة!–، كما برزت عدة آيات هذه الظاهرة خاصة من الكفار تجاه المؤمنين {إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} [البقرة 55]. بل ويصبح في قمة السفه إن كان لا يُساوي شيئًا طبقًا لمعايير الدنيا حتى، ولكن غروره قاده إلى تعظيم شأنه فوق الناس ومن ثَمَّ تكبَّر، وهذا له إهانة خاصة عند الله كما دل حديث رسول

الله (صلى الله عليه وسلم) "ثَلاثَةٌ لا يُكَلِّمُهُمْ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: شَيْخٌ زَانٍ، وَمَلِكٌ كَذَّابٌ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ"[1] (وَعَائِلٌ أي المحتاج إلى من يعوله، وهو الفقير).

وقد بيّن لنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) الموازين التي يقاس بها المرء في الآخرة (وهي حسن طاعة الله وسلامة القلب)، بينما فنَّد معايير أغلب الناس في الدنيا عند تقييم شخص. وهذا حين مرَّ رجلٌ فسأل سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) رجلًا جالسًا عنده "مَا رَأْيُكَ فِي هَذَا؟" فَقَالَ: رَجُلٌ مِنْ أَشْرَافِ النَّاسِ، هَذَا وَاللَّهِ حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ يُنْكَحَ وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَّعَ؛ فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ثُمَّ مَرَّ رَجُلٌ آخَرُ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "مَا رَأْيُكَ فِي هَذَا؟" فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا رَجُلٌ مِنْ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ، هَذَا حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ لا يُنْكَحَ وَإِنْ شَفَعَ أَنْ لا يُشَفَّعَ وَإِنْ قَالَ أَنْ لا يُسْمَعَ لِقَوْلِهِ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلْءِ الأَرْضِ مِثْلَ هَذَا"[2] (أي أن هذا الفقير بعينه خير من ملء الأرض من ذاك المشهور بعينه، وظاهر التفاضل في التقوى). وعلى منهج الرسول (صلى الله عليه وسلم) وجب علينا الامتثال، فينبغي أن نُصوِّب معاييرنا في تقييم أنفسنا ومن سنتَّخذه رفيقًا.

فأسأل الله ألا نكون من الجبارين ولا المتكبرين فنشقى يوم القيامة، وألا يحشرنا معهم ولا ينادينا منهم، فقد أُحسَب معهم إذ إني أجد نفسي عاصيًا لله بما أنعم عليَّ، لأني أستعمل يدي عمدًا لأُخالف أوامر الله الحق، وعقلي، وبصري، وجسدي، وصحتي، ومالي، وغير ذلك. فاللهم لا عذر لي، ولا أجد رجاءً غير أنك أنت الله، وأنا العبد وصفاتي صفات العبد.

يجب عليَّ أن أتخلى عما لديَّ من كبر وأدرك حقيقة أني لا شيء إلا عبد لله، فسبب خَلقي هو لهذا الغرض، فإن لم أُؤدِه فلا لزمة لي. فإني مخلوق طيني وأصلي من ماء مهين، جئت وسأذهب من الدنيا كسائر الناس، ولن يُميزني إلا الجهد الذي بذلته وتضحياتي في تطبيق شرع الله، وما تكبري إلا على مخلوق من طين وماء مهين مثلي تمامًا وكلانا عبد! فعجبًا للإنسان يستعلى على من حوله وهو مثلهم!

هناك واقعة في صميم موضوعنا، فيها موعظة وتجعل المرء منا يستبصر ويتواضع. يُروى أن مالك بن دينار (رحمه الله) مرّ أمامه والٍ يمشي مُتبخترًا، فقال له: يا عبد الله، ما هذه المشية التي يبغضها الله؟ فقال له: أتعرفني؟ قال: نعم، أوَّلُك نُطفة مَذِرَةٌ، وآخِرُك جِيفَةٌ قَذِرَةٌ، وأنت فيما بين ذلك تحمل العَذِرَةَ. فمضى الوالي وترك مشيته[3] (مَذِرَةٌ أي تَفسَد؛ العَذِرَةَ أي الفَضَلات).

---

[1] صحيح مسلم 156.

[2] صحيح البخاري 5966.

[3] تفسير القرطبي 295/18؛ بتصرف.

يجب أن أصحح مفهومي للحياة، أن عملي وحياتي كلها يجب أن تكون لله طواعيةً كما حثَّت الوصية {قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الأنعام 162]. فإن أبيت فسيكون الحال كذلك أيضًا رغمًا عن أنفي، إذ إن الجسد يُسبّح وأن لا مفر من إذعان العقل أيضًا يوم القيامة، ولا يزال يُحسب على كتقصيرٍ أُعذَّب عليه في الآخرة. وحق الله أن يفعل بي ما يشاء، فقد خلقني لعبادته، فلا أغتر بنفسي، ولو شاء الله لذهب بي وأتى بغيري في هذه اللحظة التي أكتب فيها، يميتني حيث ومتى وكيف يشاء، والله قد خلق من هو خير مني. يجب أن أعرف قدر نفسي ومكانتها في كون الله وما هو واجبي فيه كي لا أتكبر ولا أتعاظم، فإني عبد مخلوق لعبادة الله، فما الفائدة المُجملة وما الداعي لمعصية الله؟ وكيف أتجرأ وأعصي الله الذي خلقني لعبادته ويُجري أنظمة جسدي؟ حقًّا إني مخلوق هزيل.

أسئلة ليس لها أجوبة مُرضية تُبرر أفعالي، ولكن هذا هو الذي يصدر مني ولا أملك إلا المقاومة قدر المستطاع مع دوام الاستغفار. فاللهم أعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك؛ اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك؛ اللهم أرنا الحق حقًّا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه. اللهم اهدنا فيمن هديت، وتولنا في من توليت، وبارك لنا فيما أعطيت، وقنا واصرف عنا شر ما قضيت. اللهم حبب إلينا الإيمان وزَيّنه في قلوبنا وكرّهِ إلينا الكفر والفسوق والعصيان.

اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا، ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا، واجعل ثأرنا على من ظلمنا، وانصرنا على من عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا. اللهم انزع من قلوبنا حب الدنيا وازرع فيهم حبك والخوف منك كي نزداد تقوى، وأعنا على الأعمال الصالحة للأخرة؛ اللهم زدنا حكمةً وصبرًا. اللهم قنا مساوئ الفتن واقبضنا غير مفتونين.

اللهم بعِّد بيننا وبين خطايانا كما بعَّدت بين المشرق والمغرب، اللهم نقنا من خطايانا كما يُنقى الثوب الأبيض من الدنس، اللهم اغسلنا من خطايانا بالماء والثلج والبرد. اللهم أنت ربنا لا إله إلا أنت خلقتنا ونحن عبادك، ونحن على عهدك ووعدك ما استطعنا، نعوذ بك من شر ما صنعنا، نبوء لك بنعمك علينا ونبوء بذنوبنا، فاغفر لنا، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت. لا إله إلا أنت سبحانك إنا كنا من الظالمين؛ اللهم لئن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين.

ربنا أذنبنا، فاغفر لنا، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، ولا يحصيهن إلا أنت، ولا يحاسبنا عليهن سواك، فاغفر لنا، فليس لنا رب ندعوه ونرجوه سواك، ولكن لك عبادٌ كُثُر غيرنا لا يحصيهم أحدٌ سواك. فاللهم نسألك بهزلنا أمام عظمتك، وبفقرنا إليك أمام غناك عنا، وبعجزنا أمام قدرتك علينا،

وبضعفنا أمام قوتك، وبذلتنا أمام عزتك وكبريائك، وبنقصنا أمام كمالك، وبكثرتنا أمام وحدانيتك، أن تغفر لنا وترحمنا وتلطف بنا وترضى عنا.

اللهم لا تتركنا مهما عصيناك، فإننا مهما فعلنا ومهما ارتكبنا لن نغير حقيقة أننا عبادك، ومهما بلغنا في هذه الدنيا ومهما أنجزنا فيها ومهما حصَّلنا من علمٍ فلن ننال شرفًا أعلى ولن نبلغ عزةً أكثر من كوننا عبادك، فإذا تركتنا ضعنا لأنك إلى من تكلنا؟ فإننا لا نرضى برب سواك وحدك لا شريك لك، فمهما سافرنا في الأرض فليس لنا ملجأ ولا مفر منك إلا إليك، فلا تدعنا. اللهم إنك عفو غفور كريم تحب العفو فاعف عنا؛ اللهم ارض عنا وأحب لقاءنا كي تطمئن قلوبنا؛ اللهم إننا قد بعنا أنفسنا لك مع أنك تملُكنا على أن تغفر لنا ما قدمنا وما أخرنا، ما أسررنا وما أعلنا، صغيره وكبيره، ما علمنا منه وما لم نعلم. اللهم على ذلك الأساس لا تؤاخذنا على ما صدر وما سيصدر منا عن سفه، واغفر لنا عندما نحيد عن طاعتك أحيانًا.

اللهم إننا عبيدك، نتذلل بين يديك بضعفنا وأخطائنا، وأنت إلهنا وإله كل شيء، فلا تُعاقبنا بوضعنا خارج سعة رحمتك وعفوك. ربنا إنك أوفيت بحقوقنا عليك وزدت بإفاضة ولم تمنع عنا رزقك وسترك بالرغم من معاصينا، بل وأعذرتنا مرارًا، وأما نحن فنُخطئ فنرد إليك إحسانك بالسوء عن طريق عصيانك تعالى بينما لا ينبغي أن تُعصَى، ولكن نرجو أن تغفر لنا وألا تتركنا أبدًا حتى في أثناء معصيتنا، فذلك طلب العبد من الرب، لأنك إن تركتنا فلا معنى ولا أمل لنا في الحياة. اللهم لا تتركنا بحق إدراكنا أننا لا نضرك بمعصيتنا لك ولكن نضر أنفسنا في المُحصِّلة، وهذا من جهلنا وضعفنا وسفاهتنا، فتجاوز عن سفاهتنا وعاملنا بما أنت أهله وليس بما نحن أهله، فلا تتركنا وأنت العظيم الكبير القوي، وأنت علينا قادر، فنسألك بعظمتك المُطلقة وبقوتك اللا محدودة ألا تتركنا.

ربنا إننا لا نأبى إن تَرَكَنَا مَن في العالم كله ما دمت أنت معنا، وإنما معصيتنا لك ما هي إلا من ضعفنا ونقصنا ونُقر بهذا، ولكننا عبادك فلا تتركنا. اللهم إننا لا ندري كيف سنلقاك يوم القيامة بذنوبنا، ولا ندري كيف ستحملنا أقدامنا أمامك وأنت تحاسبنا عليها، فالطف بنا! اللهم قد عاملتنا بما أنت أهله، ولم تعاملنا بما نحن أهله، ونشهد بذلك، فقد عصيناك ولكنك أكرمتنا بعد ذلك، ولم نعبدك حق عبادتك ولن نبلغ ذلك أبدًا، ومع هذا أعطيتنا كل حقوقنا وأكثر. اللهم إنك توفي بعهودك إلينا ونحن نخلف عهودنا معك على طاعتك؛ اللهم كنت قريبًا منا ونحن أبعدنا أنفسنا عنك بالمعاصي، هذا هو ما يحدث ونقر بتلك الحقيقة.

اللهم إننا نستحيي أن نسألك أن تغفر لنا تكرارًا بعد أن قدّمنا التوبة ولم نلتزم بها، ولكن ما من سبيل أمامنا إلا تكرار طلب المغفرة منك والأمل في أن تغفر لنا مُجددًا. اللهم إننا لا نجد عذرًا لما نحن عليه إلا أننا نحن العباد وأنت الرب. اللهم إننا نطمع في مغفرتك ورحمتك بالرغم أننا لا نجد

أعذارًا لأنفسنا، فلا نقول إن ذنوبنا كانت عن سهوة أو غفلة أو بغير عمد، بل كنا نتعمد في كثير منها، ولكننا نريد الخروج مما أورطنا أنفسنا فيه فنستغفرك لعلك تغفر لنا.

ربنا إننا أغضبناك، ولكننا نطمع بحق كمالك وعظمتك ألا تُعرض عنا ولا تُخيب رجاءنا فيك، فما نفعله نحن يليق بأفعال العباد، ونطلب منك أن تعاملنا برحمةٍ وعفوٍ يليق بالرب. اللهم إنا نسألك من خير ما سألك منه عبدك ونبيك محمد (صلى الله عليه وسلم)، ونعوذ بك من شر ما استعاذ منه عبدك ونبيك محمد (صلى الله عليه وسلم)، أنت المستعان وعليك البلاغ ولا حول ولا قوة إلا بالله. اللهم إنا نسألك العفو والعافية في الدنيا والآخرة. ربنا آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار.

سوء الأخلاق أو ظلم الناس. قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) "أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟"، قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لا دِرْهَمَ لَهُ وَلا مَتَاعَ، فَقَالَ "إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ"[1]. هذا الحديث يدل على عدم كفاية العبادات وحدها لدخول الجنة من أول فرصة، بل يجب على المسلم أن يكون حسن الخلق غير ظالمٍ للناس أيضًا. فما بال مثوى العاصي ذي الخلق السيئ؟

كما أن المعاصي لا تقتصر على فقط على وقت المعصية، لأن للمعصية تبعات وآثار تظهر، منها قسوة القلب، وهذه الصفة تضعف التقوى وتزيد من الكبر (ما يؤدي إلى ظلم الناس)، وتجعل المرء يستخف بحرمات الله فيسهل عليه ارتكاب إثم آخر. وقد أحببت ذكر نقطة أخرى مهمة تتعلق بهذا الحديث، وهي أن الإسلام دين شامل ومتكامل يتعلق بكل فروع الحياة اليومية دون استثناء، فكل عمل يُقيَّم حتى يُكتب إما بحسنة وإما سيئة، وإن اختلط على الملائكة عملٌ لا يدرون في أي قسمٍ يكتبونه، أمرهم الله بكتابته وهو سيحاسبنا عليه يوم القيامة بحكمته.

فالحياة والإسلام في نسيجٍ واحدٍ متشابكٍ تمامًا مثل شبكة العنكبوت، كل النقاط متشابكة بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، فلا تكاد تقع ذبابة في الشبكة إلا وسمَّعَت ذبذباتها في الشبكة كلها. وكذلك الإسلام، فما أن يتخلى أو يتهاون المرء عن أمر أو حُكم أو حد من أمور الدين إلا أثّرت على جزء آخر من أمر دينه، ويظهر ذلك في أعماله وفي جوانب حياته. للتوضيح أعرض مثلًا حول الصلاة، فالعاصي يجد أن الصلاة ثقيلة عليه، وقد لا يقدر على الفرض في جماعة المسجد أو النافلة

[1] صحيح مسلم 4678.

–بحسب قبح المعصية–، وذلك بسبب مرض قلبه بالمعاصي، لأن المعصية تُبعِد بين المرء وربه، فيَنزع الله منه الخشوع في الصلاة عقابًا له. حينئذ لا يتمتع المرء بالصلاة فيجدها تثقل عليه، وتكون له كالحمل الثقيل.

ويُقاس على ذلك النهج باقي الأعمال ومبادئ العبد الذي يُسرُّها، وإنما ذكرت الصلاة كمثالٍ بارز. ولكن في المقام الأول إذا بلغت المعاصي أنها أثَّرت على الصلاة بشكلٍ ملحوظ فتلك مصيبة، خاصةً إذا بلغ مرحلة أن الوقت الذي يقضيه في المعصية أحب إليه وأسكن لنفسه من الوقت الذي يقضيه في الصلاة، إذ إن الصلاة هي درع العبد الأساسي للدفاع من الشيطان! وعلى أثر ذلك، يتفشى تهاونه في الأمور التعبدية الأخرى، فيُعرض عن الزكاة كليًّا مثلًا، أو يتحايل على شروطها مثل أن يتصرف في ماله قبل إتمام الحول عليه كي لا يُزكِّي.

ومن السهل من ذلك المحور أن يصبح حريصًا جدًّا على ماله حتى يُصبح بخيلًا، ثم يسوقه بُخله أن يكتسب الأموال من مصادر غير شرعية، بالربا أو الرشاوى مثلًا. وقد أشار الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى أن الشح (أي البخل مع الحرص على جمع المزيد) يقود إلى فسادٍ أكثر وأكبر، مثل سفك الدماء واستحلال ما حرَّم الله، قائلًا "اتَّقُوا الظُّلْمَ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَاتَّقُوا الشُّحَّ فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ"[1]. وهكذا يكون حال العاصي، يسهل عليه ارتكاب المعصية مرة أخرى أو معصية من جنس آخر، فيقسو قلبه ويصبح ظالمًا، ويطمع في الدنيا فيسعى لجمع المال وتحصيل السلطة، ويتهاون في واجباته لربه مثل الصلاة والصيام وغيرهما، بل ويُحِلّ ما حرَّم الله.

أما مدى تأثير كل جزء من الإيمان على الآخر فلا يعلمه إلا الله، ولكن لا شك في أن القدْر والتكرار للطاعة أو المعصية عنصران في مدى النفع أو الضرر على سائر الجوانب. للتوضيح، الشخص الذي يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا (صلى الله عليه وسلم) عبده ورسوله قد جاء بأول وأهم شعبة من شعب الإيمان، فإذا كثرت شعب الإيمان في الشخص الواحد يسهل عليه فعل آخر شعبة: إماطة الأذى عن الطريق. بهذا نستنتج أنه ليس من الممكن تجزئة الإيمان –ومن ثمَّ الإسلام أيضًا–، فلا يمكن فصل الدين عن الحياة (السياسة كمثالٍ) دون وقوع أضرار جسيمة، لأنه لا يمكن فصل تقوى الله والأخلاق الإسلامية عن التعاملات الحياتية ثم يُتوقع أن ذوي السلطة سيعدلون أو يصيبون في قراراتهم!

وقد رأينا هذا في دول عربية كثيرة التي نادى شعبها وسلاطينها بفصل الدين عن الدولة، حتى أصبح الحكام يُقَتلون أناس من شعبهم ظلمًا ويسرقون منهم ويُضيعون حقوق وكرامة شعبهم

---

[1] صحيح مسلم 4675.

حتى أمام أعداء الإسلام، بل إن بعضهم يستعين بأعداء الإسلام على المسلمين أصحاب البلد. فلا ينخدع أحد بظنه تجزُّء الإسلام بعضه عن بعض، والإسلام لم يذكر فصل نفسه عن الحياة العملية، والمفترض أن عبادة الله (ومن ثمَّ تنفيذ أوامره) لها الأولوية على أي اعتبار آخر، وأن الإسلام مُقدَّمٌ على أي أي فكرٍ آخر عند أي شخصٍ، إذ إنه المنهج الأصلي من مُنشئ الكون. بل من أهداف الإسلام الرئيسية ضبط الأخلاق والتعاملات في جوانب الحياة –من أسباب بعث الرسول صلى الله عليه وسلم هو ليُتمم صالح الأخلاق–، فمن أين جاء هؤلاء بزعمهم أن الدين ليس له علاقة ولا دخل له بالحياة السياسة؟! كيف نكون صادقين في أننا نريد مصلحة أنفسنا والفلاح في الأرض إذا تركنا أفضل منهج تطبيقي: الإسلام؟

فلا ينبغي لأحد أن يدّعي مثلًا أنه يستمع إلى الموسيقى ليُرَّفه عن نفسه ولا يؤثر ذلك على صلاته، فالإيمان والالتزام بالحدود وصالح الأعمال وسيئها كلهم مترابطون كشبكة العنكبوت، إذا مسست أحدهم فإنه يُؤثِّر على الباقي. فيجب علي أن أدرك أن عندما أرتكب المعصية فإنها لها تداعيات على باقي الشبكة، أي أن عواقبها أكبر مما أراه أو أظنه، ولعل تلك المعلومة تُساعد في الامتناع عن المعصية، أي لأنها تضحية بأجزاء شتى من الدين.

ومن أكبر الأدلة على أن سوء الخُلق يؤثر على إيمان المرء هو قول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالطَّعَّانِ وَلا اللَّعَّانِ وَلا الْفَاحِشِ وَلا الْبَذِيءِ"[1] (بِالطَّعَّانِ أي الذي يُعيب في الأفراد أو يطعنهم في عِرضهم، بأن يتَّهم أحدًا بُهتانًا وظُلمًا، مثل قذف المُحصنات العفيفات من النساء بالزنا دون دليل؛ الْفَاحِشِ أي التكلم بما يُكره سماعه أو فيما لا ينبغي؛ الْبَذِيءِ أي قول ما يجرح الحياء)، أي أن تلك الأفعال تنفي كمال الإيمان لدى المرء. وإذا نقص الإيمان يتبعه التقصير في العمل الصالح، مع الإقبال على المعصية، ولذلك حث الرسول (صلى الله عليه وسلم) على حُسن الخلق كي يتفادى المرء ما يترتب على سوء الأخلاق، قائلًا "مَا شَيْءٌ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ، وَإِنَّ اللَّهَ لَيُبْغِضُ الْفَاحِشَ الْبَذِيءَ"[2].

والوصية الشاملة حول هذا الموضوع هي أنه يجب على المرء أن يتجنب الظُلم وسوء الخُلُق مع الناس، فإن زلَّت نفسه فليُصلح ما صدر منه قبل يوم القيامة. قد أوصانا الرسول (صلى الله عليه وسلم) وصية غاية في الأهمية حول ظُلم الناس قائلًا "مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ مَظْلَمَةٌ مِنْ أَخِيهِ مِنْ عِرْضِهِ أَوْ مَالِهِ، فَلْيَتَحَلَّلْهُ الْيَوْمَ قَبْلَ أَنْ يُؤْخَذَ حِينَ لَا يَكُونُ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ، وَإِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ

[1] سنن الترمذي 1900.

[2] سنن الترمذي 1925.

مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَجُعِلَت عَلَيْهِ"[1] (فَلْيَتَحَلَّلْهُ أي يرد إليه حقه أو يطلب منه السماح والعفو).

أُناس لم يكتفوا بتقصيرهم في حق الله، بل وأقبلوا على السخرية ممن يلتزم. قال تعالى {فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ} [المؤمنون 110]. هذا قول الله للذين في جهنم عما كانوا يفعلونه مع الذين آمنوا، توبيخًا لهم وكي يزيدهم تحسرًا على ضلالهم. والذي حملهم إلى سخريتهم من الذين آمنوا هو تعظيمهم لمتاع الدنيا، وغاياتهم العُلى في سعيهم هي تحصيله {اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاء وَيَقْدِرُ وَفَرِحُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ} [الرعد 26]، ومعايير النجاح عندهم تدور حول الكم الذي يجمعه المرء من الدنيا، بينما المؤمنين يُعرضون عن متاع الدنيا فسخروا منهم. هذا بالرغم من أن من يسعى وراء شهواته فيكون عبدًا للمال أو ما شابه هو الذي يكون وضعه مذلولًا ومُشفقًا، فسبحان الله على انقلاب الأوضاع.

والعجيب هو أننا الآن تجد من ينتمي إلى المسلمين يسخر من أخيه المسلم الذي يلتزم بالسُنن والمستحبات في الشريعة، بل أحيانًا في تجنب الحرام! أمثلةً على ذلك أنك تجد أناس يسخرون من المؤمن الذي لا يصافح النساء، أو الذي يتجنب سمع المعازف، أو الذي يتشبه بالرسول (صلى الله عليه وسلم) في الملبس، أو من يُوفِّر لحيته، أو الذي يُقدِّم استخدام يده اليمنى في أفعاله مثل الأكل بالأدوات وارتداء الساعة الرقمية.

ولا شك أن كل حُكمٍ وسُنَّةٍ في هذا الدين يقوّي إيمان العبد، وفيه مصلحةٌ له إما في بدنه وإما في قلبه، وترك ذلك يُضعف الإيمان إضافة إلى الضرر الواقع على الإنسان ككيان، لاسيما الذين يسخرون ممن يريد الالتزام، فهم يضعف إيمانهم أسرع من غيرهم حتى يقعوا في من شملتهم آية سورة المؤمنون المذكورة (ولو لم يكونوا مُشركين). فتجد أولئك لا يذكرون الله إلا قليلًا ويُكثرون من المعاصي، وتتراوح أعمالهم بين صالحة وأقوال أو أفعال الجاهلية، وهذا من جنس عملهم أنهم في الآخرة يدركون أن الشيطان قد أغراهم وخدعهم ويسعد بما آلوا إليه في الآخرة {وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ (62) أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ (63) إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ} [ص 62-64].

ويجب الحذر من الوقوع في ذلك لكل المسلمين عامة بما فيهم المؤمنون، لأنه قد يسخر مؤمن من أخيه المؤمن (لا يشترط أن يسخر منه لشدة التزامه بل قد يسخر منه لقلة التزامه، أو لاختلافٍ في المذهب). حينئذٍ قد يسخط الله عليه ويهوي إلى تلك الحفرة، ولعل بعضنا رأى تحول

[1] مسند أحمد 10169.

أناس كنا نراهم من المتقين ثم استدرجتهم أهواؤهم حتى وقعوا فيما لا يُرجى عقباه، وما ذلك من أحدنا ببعيد إن لم يُجاهد نفسه ويكُف أذاه عن إخوانه.

تقديم ما يُسخط الله على ما يُرضي الله، وإكمان الضغينة للإسلام أو المُلتزمين. هذان الأمران مرتبطان ببعضهما، إذ إن الذي يُعرض عن شرع الله ويستجيب لما يُمليه عليه هواه يجد نفسه تلقائيًّا يكره من يلتزم بالشريعة. لعل هذا يحدث لأن الملتزم نموذجٌ يُغالط فكرته الباطلة أن المرء لا يستطيع تطبيق الشرائع كلها، أو أنه يُريده أن يكون مُفسدًا مثله فلا يكون أفضل منه، أو لأن التقي بمنزلة تذكير له على تقصيره. ولكن في كل الأحوال، سيُفضح سِرَّه يوم القيامة وربما في الدنيا أيضًا، فقد قال تعالى {فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (27) ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (28) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ} [محمد 27-29].

إضافة إلى ذلك فهناك العذاب الأليم والإهانة الشديدة لمن يتّبع ما يُسخط الله ويكره إرضاءه بطاعته، وقد تكلمت الآية خاصةً عن المنافقين. وفي زمننا هذا نرى أمثالهم تمامًا في الأفعال، فمن الناس طائفة يدعون لفصل الدين عن المنهج السياسي، ومن قَبِلَ الإسلام دينًا له فليقبله كافة، ولو لم يفعل ذلك فليتركه كافة. فأنى لهم بتلك الدعوة الباطلة وقد كان لهم في رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أُسوة حسنة إذ كان يحكم بما أنزل الله وهو ولي أمر المسلمين.

ومن أبى فقَبِلَ الإسلام فقط جُزئيًّا بأن يقبل الإسلام في الأمور العبادية دون تمكينه في أمور الحياة، أو يقبل الأجزاء التي توافق هواه ويترك ما يُخالف هواه، فهو مثل الذين قال عنهم الله {وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ (48) وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ} [النور 48-49]، فإنه لا يَسلم إلا أن يكون من المنافقين في أخف الأحوال. هؤلاء يُقدّمون الأنظمة البشرية (أشهرها حاليًّا ما يُسمّى بالديمقراطية) على النظام الإلهي: الإسلام، فهم ليسوا بمؤمنين (قد يظل مسلمًا إذا يفعل هذا عن جهلٍ)، لأن الإيمان يقتضي التسليم التام لأمر الله وسُنة رسوله (صلى الله عليه وسلم). ومن أوامر الله أن يُمكّن العبدُ الإسلام من جميع جوانب حياته، وذلك كما قال تعالى {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا} [النساء 65]، بل إن المؤمن يُحب تمكينه أيضًا وليست المسألة عنده قضية تنفيذ أوامر فحسب.

ومعلوم أن الديمقراطية كفكر جاء بعد الإسلام من طائفة نبذوا الدين ثم سنّوا مبادئ، ما صلح منها وجدت في الإسلام أصلًا (مثل مبدأ المشورة)، ثم سمّوها بغير اسمها، ويكأن يقبلون أي

نظام ما دام لم يأتِ تحت مُسَمَّى الإسلام، وكأن كلمة الإسلام تُثير نفورهم وتستفزهم، وما أرى ما فعلوه إلا بسبب جهلهم عن الإسلام أو الضغينة التي تكمن في قلوبهم تجاهه. فكيف لنا كمسلمين أن نؤْثِر منهج الناس على منهج الله، وكيف نُقدّم التابع التجريبي (الديمقراطية) على الأصل الذي ثبت فعاليته ومنفعته (الإسلام)، فأي عقل ومنطق هذا؟

وأكبر دليلين على أن الديمقراطية ليست بالنظام المتكامل والمثالي هما أن الدول التي أنشأت هذا النظام بها أنظمة بديلة تُنافس ذلك النظام (مثل الأحزاب الجمهورية) وتصل أحيانًا إلى السلطة (وهذه هي النقطة المحورية)، مما يدل على أنها ليست بالنظام المُتكامل بما أن الناس يختارون غيره أحيانا. ويدل هذا أيضًا أن كي تتحقق الديمقراطية فعلًا –وهو إعطاء حرية الرأي– فيجب فتح الباب إلى الأنظمة الأخرى أن تصل للسلطة عليها، فبأي منطق يكون نجاح نظامٍ معتمدًا على وجود أنظمة أخرى معه بل ويُتيح لهن أن تُهيمن عليه، وكأنه لا يستطيع أن يقوم وحده. فلو كان هو المثالي لما رضي أن يعلو الباطل عليه، إذ لو رضي بالباطل فهو باطل في حد ذاته، ولو كان النظام الآخر فيه الحق فهذا أيضًا يعني أنه معلول، ففي كل الافتراضات يظهر نقصانه. فهذا مثل دينٍ لا يمنع أتباعه من الانتقال إلى دينٍ آخر ولا يزجرهم عن ذلك، بل ويُشجِّع تعدد الأديان (هناك فرق بين تشجيع وبين استيعاب)، فأي باطل هذا؟!

وأما الدليل الثاني فيوجد في أن الديمقراطية مبدأها هو حرية الرأي المُطلقة للجميع مع تحكيم رأي الأغلبية، وهذا يعني أنه يتحتم في بعض الجوانب أن يحكم من ليس عندهم علم أو خبرة في مسألة على أناس مُثقفين أو خائضين في حادثة، مما ينتج عنه بعض القرارات الضارة للمجتمع وظُلم لأفراد قد مستهم حادثة ولهم حقوق. ومثالٌ على قرار فيه ظُلم هو أن الناس يحكمون على القاتل بقضاء بقية حياته في السجن (وربما 25 عامًا حتى وليس حياته كلها ثم يُطلق حُرًّا) بدلًا من قتله، فالقاتل يعيش ويأكل بينما آباء وأبناء وزوجة المقتول يتحسرون على من فقدوه، ويتغيظون من القصاص غير الكافي ولا شافي للحُرقة التي في صدورهم إذ إن القاتل حي، فهؤلاء يُظلَمون بهذا النظام.

ومثالٌ على قرارات ضارة للمجتمع هو عندما يكون هناك استفتاء لعامة الناس: هل يتم إباحة بيع الخمور أم لا؟ فسيخرج من عامة الناس من يقول 'من باب الحرية أن يوجد الخمر، ومن يره ضارًّا فلا يشترِه'، وآخر يقول 'إن الخمر به فوائد للجسد'، وآخر يقول 'لا ضرر في شرب الخمر بكميات بسيطة بما أن المجتمع مُتحضّر'، ومثل هذا من الأقوال العجيبة. فمثل هذه الأقوال تنتج عن أناس يجهلون كل الحقائق عن الخمر، فحتى وإن لم يسمعوا لرأي الشرع فإن تأثير الخمر واضح ضرره عمليًّا، فلو أنه من باب الحرية فلماذا لا تُباع الأسلحة والمُتفجرات بجانب الخمر إذ لن يشتريهما من يرى بهما ضرر.

ولو أن به فوائد فلا ضرر من الكميات البسيطة فقد أثبت علماء الطب بالأبحاث أن أضرار الخمر أكثر من فوائده، وأن المرء يحدث له تعود جسدي تدريجي فيحتاج إلى كمية أكبر تدريجيًّا ليبلغ نفس درجة الاستمتاع، إلى أن تتسبب في الاعتماد الجسدي على الخمر بحيث إنه لا يستطيع تركها -الإدمان-. هذا ومع ذهاب عقله فلا مجال للتحجج بدرجة تعليم وحضارة الفرد أو المجتمع. فأصحاب مثل تلك الآراء في المجتمع قدّموا آراءهم المبنية على قلة علمٍ والظنون أمام رأي فقهاء الدين وعلماء الطب الذين يستوعبون ضرورة منع الخمر، ولكن بسبب طرح المسألة على عامة المجتمع يُباح بيع الخمر كما في أغلب الدول التي تتبنى الديمقراطية.

وهذه الظاهرة، طرح القرارات المهمة على عامة الناس وليس على المتخصصين وحدهم، هي علَّة في الديمقراطية يشتكي منها من يُحبون ويُطبقون الديمقراطية في بلادهم: أن الرأي على قرار يؤخذ ممن ليسوا مثقفين وأهل التخصص حول المسألة، فينتج عن هذا فرض القرار الخاطئ -أو في أخف الأحوال ليس القرار الأمثل-. ومن تبعات هذا الخطيرة أن عامة الناس يُستشارون على من سيقود البلاد بالرغم من أنهم يجهلون أخلاق وأغراض من يترشح للرئاسة ولم يسمعوا عنه قبل الانتخابات، ومن ثمَّ تصبح عملية تنافسية بين المُرشحين كثيرًا ما يفوز فيها من يستخدم الأساليب الدنيئة مثل الكذب والغش واتهام المُنافسين زورًا، فالدول الديمقراطية تشكو من أن الذي يتنافس على السلطة يؤثر على آراء الناخبين بالتلاعب بالدعاية (لتوجيه آرائهم) وبالوعود الفارغة وبرشاوى غير مُباشرة، فيصعب جدًّا أن يفوز المُرشَح النزيه المُستقيم.

ولكن للأسف فإن بعض الناس يرون أن تقدم بلاد المسلمين لن يكون إلا بالامتثال بمنهج البلاد الغربية والأوروبية (الذين نبذوا مبدأ الالتزام بدينهم)، فقدَّموا ما يُسخط الله على ما يُرضي الله، بل وقد يتعاون الخبثاء في الدول الإسلامية ممن ينتسبون للإسلام مع الكفار لإسقاط الشريعة الإسلامية في الدول الإسلامية. أفلم يتمعَّن هؤلاء الخائنين في قول الله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (51) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُواْ عَلَى مَا أَسَرُّواْ فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ} [51-52]، فقد أصبحوا عند الله من هؤلاء المشركين بتوليهم إياهم، وهذا ما يستحقونه تمامًا.

وسبحان الله في دقة وصفه لأفعال هؤلاء إذ لا يقول إنهم يسعون فقط للتحالف مع الكفار، بل استخدم الله مصطلح "يُسَارِعُونَ"، في إشارة إلى لهفتهم وشدة حرصهم على موافقتهم وطاعتهم وبيان الولاء لهم، فكم رأينا منافقًا يهرع ويتودد ويتذلل للمشركين ويُقدم الفداءات لهم لنيل رضاهم. وأفعالهم تلك تنبع من جهل عن الإسلام إن لم يكن غدرًا به، ولتحكيم أهوائهم على الحق، بالإضافة إلى حُبِّهم لمتاع الدنيا مما يجعلهم يرون هؤلاء الكفار لهم العزة ويُعظِّمونهم إذ استطاعوا تملُّك

وتسخير جوانب غزيرة من متاع الدنيا. ولتجدن كثيرًا من هؤلاء المُسارعين والداعين لاتباع الكُفار غارقين في أطياف من المعاصي. قد زين الله لهم سوء أعمالهم نظرًا لنبذهم إرشادات الإسلام، وزينت شياطينهم لهم أعمالهم وزينت لهم أنفسهم أيضًا فيرون أن آراءهم على حق ومن يُخالفهم على خطأ، بل وقد يُعجبون ويفتخرون به، حتى إنهم قد يلجأون إلى أساليب غدّارة ودنية لتحقيق ما يرونه ولو جبرًا على عامة الأمة.

وهؤلاء أصبحوا عبئًا على الإسلام أكثر من منفعتهم له، وكانوا من المنافقين الذين يُخربون المجتمع الإسلامي كما يأكل النمل الأبيض في الخشب حتى يصبح مُفرَّغًا هشًّا. وهذه ظاهرة أخرى لمن يُسرف في المعاصي، أنه يصبح لا يطيق مخالطة الملتزمين من الإخوة لأنه يريد أن يلهو وهم لا يلهون إلا بضوابط، بل وربما أيضًا لا يحب الشرائع الإسلامية ولا يُحب أن يراه أصحاب الدنيا معهم. وعلى الجهة الأخرى، فإنه يحب أصدقاء السوء الذين يلهونه في الدنيا ويجعلون وقته يمر مرحًا، ويتزين له مبادئ وفكر غير مسلمين في منهج الحياة، فيعمد لتقليدهم دون تصفية أفعالهم. وقد وصفهم الله بأن في قلوبهم مرضًا، وجزء من المرض أنهم يحملون الضغينة للمؤمنين، فبئس مآلهم.

وهناك صِنفٌ من الناس يسخرون من المتمسكين بشرائع الله وسنن رسوله (صلى الله عليه وسلم)، فإيانا أن نكون منهم أو أن نجاوبهم إلى ما يريدون لأن الله حذَّرنا من مكرهم في ذلك {وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ} [القلم 9]. فقد قال تعالى فيهم {إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُواْ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (29) وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (30) وَإِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُواْ فَكِهِينَ (31) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاء لَضَالُّونَ (32) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (33) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (34) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (35) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} [المطففين 29-36].

للأسف هذا حال كثير من الناس تجاه من يتمسك بشرع الله، ولا يصدر فقط من الكفار، بل وممن يقولون إنهم مسلمون ولكن يسخرون ممن يسعى لتطبيق شرع الله بحذافيره. وسيزداد ذلك الاضطهاد مع تقدم الزمن حتى يكون الوذع كما قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "بَدَأَ الإِسْلَامُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ"[1].

فترى أناس يسخرون ممن يجتنب الاختلاط مثلًا، أو لا يصافح النساء، أو يطلق لحيته، أو يُقصّر من ثوبه، أو لا يستمع إلى المعازف، حتى يكون الحال كما وصفه الله إذا مر ذلك الملتزم ببعض اللاهين في الدنيا ضحكوا عليه، وتغامزوا بينهم سخريةً وفكها، وربما إذا ذهبوا لمجالس أُخرى ذكروه لأصحابهم أو أهليهم وهم فخورين بأنفسهم. وبعد كل ذلك عكسوا الواقع في عقولهم، فقالوا

[1] صحيح مسلم 208.

على الملتزمين التزامًا صحيحًا أنهم ضالون، مستخدمين ألقابًا مثل "متطرف" أو "متزمت" أو "متشدد" أو "رجعي" أو "منفصل عن الواقع".

فسبحان الله، حتى في هذا يُسمّونه بغير اسمه ولكن لغرضٍ عكسي، أي يطلقون عليه "متشدد" بدلًا من "ملتزم" لتبغيضه، كما يُسمّون الخمر بغير اسمه مثل "مشروب روحي" تزيينًا له ليستَحلّونه ويُروّجون له؛ نفس الأسلوب ولكن لغايات مختلفة. ويفترون على الملتزمين بقول إنهم استوعبوا مقاصد الدين خطأ فضَيَّقوا على أنفسهم دون داعٍ ولم يتمتعوا بالدنيا كما ينبغي، بينما يستمتع المستهزئون بمتاع الدنيا وينالون منها نيلًا لأنهم فهموا لُب مقصد الإسلام في زعمهم (أن قلوبهم صالحة بالرغم من أن أعمالهم مفسدة).

وهؤلاء فتنة للملتزمين في الواقع (سلَّمهم الله من المستهزئين)، إذ يُمثل المستهزئون ضغطًا عليهم ليلينوا عن الدين ويتلهفوا على دنياهم، فطوبى للغرباء، وطوبى لمن صبر وأمسك بدينه في زمننا هذا وما بعده. وما بعده أكثر ظلمة، إذ يتحول تدريجيًّا حتى يصبح كما وصفه الرسول (صلى الله عليه وسلم) عندما سُئل عن الآية {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ} "بَلْ ائْتَمِرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنَاهَوْا عَنْ الْمُنْكَرِ، حَتَّى إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا وَهَوًى مُتَّبَعًا وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ وَدَعْ الْعَوَامَّ، فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامًا الصَّبْرُ فِيهِنَّ مِثْلُ الْقَبْضِ عَلَى الْجَمْرِ، لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلًا يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِكُمْ"، قال الصحابة: أَجْرُ خَمْسِينَ مِنَّا أَوْ مِنْهُمْ؟! قَالَ "بَلْ أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ"[1].

والمقصود من الصبر في الحديث يتَّضح أكثر في حديث آخر عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) "يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ الصَّابِرُ فِيهِمْ عَلَى دِينِهِ كَالْقَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ"[2]، أي أن الصبر يتمثل في التمسك بعقيدة الإسلام والإصرار على تطبيقه، وفي ذلك دلالة على شدة الابتلاء والفتنة والمشقة على الملتزم. وقد جاء في تحفة الأحوزي بشرح جامع الترمذي (رحمهما الله): قَالَ الطِّيبِيُّ: الْمَعْنَى كَمَا لا يَقْدِرُ الْقَابِضُ عَلَى الْجَمْرِ أَنْ يَصْبِرَ لإِحْرَاقِ يَدِهِ، كَذَلِكَ الْمُتَدَيِّنُ يَوْمَئِذٍ لا يَقْدِرُ عَلَى ثَبَاتِهِ عَلَى دِينِهِ لِغَلَبَةِ الْعُصَاةِ وَالْمَعَاصِي وَانْتِشَارِ الْفِسْقِ وَضَعْفِ الإِيمَانِ [إلا بصبرٍ كثيرٍ]؛ وَقَالَ الْقَارِي: الظَّاهِرُ أَنَّ مَعْنَى الْحَدِيثِ كَمَا لا يُمْكِنُ الْقَبْضُ عَلَى الْجَمْرَةِ إلا بِصَبْرٍ شَدِيدٍ وَتَحَمُّلِ غَلَبَةِ الْمَشَقَّةِ كَذَلِكَ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ لا يُتَصَوَّرُ حِفْظُ دِينِهِ وَنُورِ إِيمَانِهِ إلا بِصَبْرٍ عَظِيمٍ (انتهى).

وتلك فتنة لأن كثرة العصاة هو المألوف، فأصبح الملتزم شاذًّا بينهم، ولو أجابهم لما هم عليه وأصبح مثلهم فرحوا بصنيعه أنه تساوى معهم، ورحبوا به ورضوا عنه وعاملوه بإحسان (مؤقتًا)! وذلك منتهى البلاء إذ يرى العبد بعينه أن الملتزم يُعاقب ويُزجر ويُضطهد ويُنبذ بينما

---

[1] سنن الترمذي 2984.

[2] سنن الترمذي 2186.

المُتراخي في دينه يُعلى من قدره ويُكرّم ويُقرُّ به ويُعينونه على النيل من الدنيا. هذا ومن دون نسيان عامل أنه يراهم الأكثرية في الأرض وينالون من الدنيا نيلًا.

وهناك نقطة إضافية أردت ذكرها عمن يكمن للإسلام والمسلمين الضغينة، وهي أن إذا أصاب المسلمين خير ساءه هذا، وإذا أصاب المسلمين شرٌ فرح بذلك، مثل الذين قال الله فيهم {إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ} [آل عمران 120]. فهؤلاء بسبب خبث نفوسهم وسواد قلوبهم تجاه الآخرين لا يهديهم الله، وذلك لأنه ليس من العدل أن يدخلوا الجنة إذ كانوا يتمنون لعباد الله الأذية والذُل والضعف في الآرض، وهذه ليست من أخلاق المؤمن إذ إن المؤمن يتمنى لمن حوله الخير، حتى لمن يكفر فإنه يتمنى له النجاة بأن يهتدي، كما كان خُلُق رسول الله (صلى الله عليه ويسلم).

فهؤلاء الكارهون والحاقدون لمن غيرهم من الناس لا يدخلون الجنة لأنهم لا يستحقونها، وإن كان فيهم من يعمل بعمل أهل الجنة في الدنيا مثل المحافظة على الصلاة في المسجد بانتظام، فإن الله يستدرجه إلى النار. وذلك قد يفعله الله بشتى الوسائل إذ لا أمان من مَكرِه وأنه العليم الحكيم، فمثلًا قد لا يقبل من ذاك الشخص توباته من ذنوبه لأن قلبه خبيث، فقد أشارت آيةٌ أن الله يغفر للتائب ذي النفس الصالحة {رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُواْ صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا} [الإسراء 25]. ومع أن هذه الآية تكلمت في الأساس عن علم الله بما في نفوس الناس من بر أو عقوق للوالدين، فإن ذلك لا يمنع أن تكون عامة التطبيق، فمن الآية نستطيع أن نستنتج أن من كانت نفسه طيبة، يتمنى للإسلام أن يعلو في الأرض ويتمنى الخير لإخوانه ولكنه هو نفسه زلته شهواته فيقع في التقصير والمعاصي، فإن الله يغفر له عندما يتوب في أثناء حياته.

ونستطيع أيضًا أن نقول إن من يعمل الخير ولكنه يزدري العصاة بدلًا من أن يتمنى لهم الهداية والانصلاح، ويحكم عليهم بالهالكين، فقد يعاقبه الله بأن لا يغفر له عندما يقع –ذلك المُعظِّم لنفسه– في المعصية التي كان يزدري إخوانه لوقوعهم فيها. بل وأكثر من ذلك، لأن نفسه خبثت تجاه إخوانه المسلمين، فقد يجعله الله مثلهم في أكثر لحظة حرجة في حياة الإنسان، وهي في ختام عمره، فيقع في المعصية زلةً قبل موته مباشرة فيصير منهم ومعهم إذ إن قلبه لم يستوعب أن معصية الإنسان لربه إنما هي زلة من الإنسان بسبب ضعفه، وأي فرد معرضٌ أن يقع في تلك الحفرة لولا وقاية الله له.

ومن ثَمَّ، فقد يقع في المعصية التي كان يحتقر الناس لفعلها ثم يموت فيكون قد خُتم له بعملٍ سيئ، فيُبعث على ذلك ويدخل النار، قد مكر الله به وأصبح صنفًا من الناس الذين استحقوا ما نبأ به الرسول (صلى الله عليه وسلم) "فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى لا يَكُونُ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ إِلا

ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُ النَّارَ"[1]. فالحذر كل الحذر من أن يكون أحدنا عنده من خبثٍ أو سوءٍ في نفسه أو قلبه تجاه إخوانه.

تمني ما عند الغير من نعم، خاصة إذا كان بالحسد. قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) "لا تَحَاسُدَ إلا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ فَهُوَ يَتْلُوهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ فَهُوَ يَقُولُ 'لَوْ أُوتِيتُ مِثْلَ مَا أُوتِيَ هَذَا لَفَعَلْتُ كَمَا يَفْعَلُ'، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالا فَهُوَ يُنْفِقُهُ فِي حَقِّهِ فَيَقُولُ 'لَوْ أُوتِيتُ مِثْلَ مَا أُوتِيَ عَمِلْتُ فِيهِ مِثْلَ مَا يَعْمَلُ'"[2]. في هذا الحديث معنى التحاسد هو الغبطة، والغبطة هي تمني حصول نعمة مثل شخصٍ آخر مع استمرارها عند ذاك الشخص. أما الحسد المعروف، وهو تمني نِعَم الغير مع رغبة زوالها منهم، فهو علامة على مرض القلب مرضًا شديدًا إذ يجمع العبد بين السخط على ما أنعم الله به عليه وبين أنه يريد أن يكون فوق الناس –بمعايير الدنيا– وبين تمني الأذى لعباد الله، فيجب مُدافعته.

ثم ينبغي ألا تصدر الغبطة إلا لمن له نعمة يستعملها في طاعة الله وتقربًا إليه، فلا يليق أن أغبط عاصيًا ولو كان لديه نعم الدنيا كلها، فهي عليه نقمة في صورة نعمة (مثل العبرة من مال قارون)، وسيُسأل عن سوء استخدامها يوم القيامة ثم يبوء بعبئها. وأسوأ حال هو لمن يحسد العاصي على نِعمٍ عنده.

العاصي المُنعَم عليه له متعة واحدة ولكن عليه حِملان في الآخرة. أما المتعة فهي في استعمال النعمة على هواه في الدنيا، وأما الحِملان فأحدهما أنه سيسأل عن النعمة: ماذا قدّم لله شكرًا عليها، لأن نعمة الله دَينٌ عليه لم يؤد حق الله فيها، والحمل الثاني أنه استعملها في المعاصي فسيُحسب عليه سيئات هذا. بل وربما يكون عليه حملٌ ثالثٌ إن كان اكتسب تلك النعمة من حرام –مثل المال–.

وكما جاء في الحديث عن النبي (صلى الله عليه وسلم) "لا تَزُولُ قَدَمُ ابْنِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ خَمْسٍ: عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ، وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَ أَبْلاهُ، وَمَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَمَاذَا عَمِلَ فِيمَا عَلِمَ"[3]. فيُسأل المرء عن النعم كيف تَصَرَّف فيها، وفي المال يُسأل سؤالان هما من أين اكتسبه وفيمَ أنفقه، فهو حِملان على الشخص العاصي. ولو أني تمنيت نعمة

[1] صحيح البخاري 6900، جزء من الحديث.
[2] صحيح البخاري 6974.
[3] سنن الترمذي 2340.

لدى عاصي فهذا دليل على قلة علمي وحكمتي وضعف إيماني، وهو مؤشر على ضرورة إصلاح نفسي.

وإذا تمنيت أن يكون لي مثل ماله وأفعل مثل ما يفعل فتلك مصيبة فادحة، إذ قد يكون لي إثم مثل إثمه بالرغم من افتقاري إلى ذلك المال وعدم ارتكابي لتلك المعاصي، فأكون سفيهًا إذ لم أُحَصِّله في الدنيا ومع ذلك حمَّلت نفسي مثل أوزاره في الآخرة، خسارة فوق خسارة! وكلامي هذا مُستند إلى جاء عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "مَثَلُ هَذِهِ الأُمَّةِ مَثَلُ أَرْبَعَةِ نَفَرٍ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالا وَعِلْمًا فَهُوَ يَعْمَلُ بِهِ فِي مَالِهِ فَيُنْفِقُهُ فِي حَقِّهِ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ عِلْمًا وَلَمْ يُؤْتِهِ مَالا فَهُوَ يَقُولُ 'لَوْ كَانَ لِي مِثْلُ مَا لِهَذَا عَمِلْتُ فِيهِ مِثْلَ الَّذِي يَعْمَلُ'، (قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَهُمَا فِي الأَجْرِ سَوَاءٌ؛ وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالا وَلَمْ يُؤْتِهِ عِلْمًا فَهُوَ يَخْبِطُ فِيهِ يُنْفِقُهُ فِي غَيْرِ حَقِّهِ، وَرَجُلٌ لَمْ يُؤْتِهِ اللَّهُ مَالا وَلا عِلْمًا فَهُوَ يَقُولُ 'لَوْ كَانَ لِي مَالٌ مِثْلُ هَذَا عَمِلْتُ فِيهِ مِثْلَ الَّذِي يَعْمَلُ'، (قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَهُمَا فِي الْوِزْرِ سَوَاءٌ"[1].

لكن لنضع كل ذلك جانبًا للحظة ونُفكر في المسألة الأعمّ، وهي: لماذا لا ينبغي للمؤمن أن حتى يغبط (دون الحسد) أحدًا على نعمة من نعم الدنيا المباحة إلا الحالتين المذكورتين في الحديث، مثل الغبطة على نعمة قوة الجسد أو النَسَب؟ قد جاء في القرآن الكريم {وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى} [طه 131] (أَزْوَاجًا هنا تعني أصنافًا)، ففي الآية أحد الأسباب وهو أن قد يكون ذلك استدراجًا أو تعجيلًا للحسنات، ويكون ذلك خاصةً مع المُعرِضين عن الله.

وهناك أسباب أخرى، وهو أن القلب يمرض عندما ينظر المرء إلى متاع الدنيا برغبة، فينشغل قلبه بتلك النعمة ويشتاق إلى تحصيلها ويُعلي قدر الدنيا في قلبه، مما يُلهيه عن عبادة الله. بل وقد تجعله يقع في الحرام لتحصيلها بسبب حرصه عليها، مثلما أشار حديث لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّهُ سيُصيبُ أمتي داءُ الأُمَمِ" قالوا: وما داءُ الأممِ؟ قال "الأشرُ، والبطرُ، والتكاثرُ، والتنافسُ في الدُّنيا، والتباغدُ، والتحاسدُ؛ حتى يكونَ البغيُ ثم الهرجُ"[2] (الأشرُ هي الفرحة تفاخرًا؛ والبطر هو التكبر؛ التكاثر أي من مقتنيات الدنيا؛ والهرج هو القتل).

ولنلاحظ أن الحسد حلقة في سلسلة تطور صفات سلبية متعلقة ببعض، كما دلت الألفاظ 'حتى' 'وثُم'. فالأشر يؤدي إلى عدم الاكتراث بحقوق الله والعباد فيتكبر، ويستكثر من مقتنيات الدنيا للازدياد من التفاخر والتباهي، وكل هذا يؤدي إلى بُغض الناس له فيبتعدون عنه،

[1] مسند أحمد 17336.

[2] تخريج الإحياء للحافظ العراقي 231/3؛ قال عنه: إسناده جيد. رواه أبو هريرة.

ومنهم من يحسده، ويؤدي هذا إلى العداوة بين الطرفين فيسوق إلى الظُلم والقهر، ثم إلى القتل بالطبع. وهذه الآفات تزداد مع تقدم الزمن لابتعاد العباد عن تطبيق شرع الله أكثر.

وسببٌ آخر هو أن الحسد يُضعف رضا العبد بما قسمه الله له من نعم، فإنه إذا أمسك الله عليه في الرزق فتمنى ما عند غيره فقد يتشابه بمن يسخط مما قَدَّرَه الله عليه، معترضًا على حكمة الله في توزيع النعم على عباده بالتوازن والعياذ بالله. وكما رأينا، هناك عواقب للحسد أخطر، مثل الظُلم والقتل، فأيهما قد يفيض بالعبد إلى المصيبة الكبرى، ألا وهي الخروج من هذا الدين، كما حدث مع إبليس، صار إلى لعنة الله بعدما كان من عباد الله الساجدين بسبب الحسد على مكانة سيدنا آدم (عليه السلام) عند الله.

قد قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ: الْحَسَدُ وَالْبَغْضَاءُ؛ هِيَ الْحَالِقَةُ، لَا أَقُولُ تَحْلِقُ الشَّعَرَ وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ. وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَفَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِمَا يُثَبِّتُ ذَاكُمْ لَكُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ"[1] (دَبَّ أي أتى وفشا؛ هِيَ الْحَالِقَةُ، الضمير عائد إلى البغضاء؛ لَا أَقُولُ تَحْلِقُ الشَّعَرَ أي ليس ضررها على البدن هو الخطير؛ وَلَا تُؤْمِنُوا أي تبلغوا كمال الإيمان؛ أَفَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِمَا يُثَبِّتُ ذَاكُمْ لَكُمْ أي يُحقق المحبة بينكم). ومن البديهي أن الحسد يؤدي إلى البغضاء بين الناس. فلكل تلك الأسباب كان الأصون للمرء ترك الحسد كليًّا، والغبطة عامةً.

للفائدة، هناك أمور يستطيع أن يفعلها الحاسد حتى يُذهب هذا الشعور من نفسه، قد ذكرها العلماء. فمنها أولا أنه يلتزم بأمور الإسلام مثل الصلاة في المسجد والزكاة وقراءة القرآن، فمثل هذه الأمور تُصلح عِلل النفس، وتُشغل عن الحسد. وهي أيضًا تجعل العبد يُدرك أن عنده أعظم نعمة: الهداية وإعانة الله له على أمور الدين، فلا يحسد أحدًا على نعمة أدنى منها (نعمة من نعم الدنيا)، خاصة لو كان ذاك الشخص فاجرًا أو منافقًا أو كافرًا مُتجهًا إلى النار. فإذا تفكر ذو نعمة الهداية سيرى أنه سيرفض عرضًا، مثلًا، بأن يُعطى أكثر سيارة متطورة وفارهة مقابل أن يُفوّت صلاة الصبح في المسجد مرة واحدة فحسب؛ فما بال حظه وقد وفَّقه الله على صلاة الصبح بالتتالي؟! وهذه النعمة البالغة في القدر لا يمنحها اللهُ إلا لقلة نادرة مُختارة من البشرية كلها.

ثانيًا، فليُذكِّر نفسه أن الله قد ذمّ هذا الخُلُق ذمًّا شديدًا، وليُلزمها أمر الله بكف النفس عن حسد الناس. ثالثًا، فليُكثر من ذكر الموت، وهذا سيُذكِّره أن هذه النعم (بل والدنيا بأسرها) زائلة من عند كل الناس، وأنها لا تسوى شيئًا أمام نعمة من النعم في الجنة ولا تُغني من لحظة من عذاب الآخرة. رابعًا، ليتذكر أن الحسد يؤدي إلى إذلال النفس، واغتمامها، وبُغض الناس له، وأن الحسد

[1] سنن الترمذي 2434.

صفة دنيئة ينبغي أن يأنف منها ويُنَزِّه نفسه عن كل هذا. خامسًا، وهي من العوامل المهمة التي تقطع الطريق على الحسد، ألا يتتبع ما عند الناس من نِعم، ويترك الأسئلة والاستفسارات التي لا منفعة منها أو في الأمور الشخصية للناس.

سادسًا وكما تطرقنا لهذه النقطة قريبًا، فليستوعب أن ما من نعمة تكون عند عبد إلا وأن الله أراد إعطاءه إياها، وما من نعمة منعها الله عن عبد إلا وقد أراد أن يمنعه إياها؛ فكل ما عند كل عبد من نعم فهو من مشيئة الله وحكمته وقَدَرِه. ومن ثمَّ، أن يحسد شخصًا آخر هو بمنزلة اعتراض على قسمة الله وحكمته، بل وربما يصل بعض الناس بالحسد إلى الاستنكار والسخط مما قدَّره الله والعياذ بالله، وهذا كله جاء مذمومًا بقول الله تعالى {أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا} [النساء 54].

ومن الأمور المتعلقة بهذه القضية هو أن يُدرك العبد أن لكل عبد ما يُميِّزه من نِعم، فإن الله يهب النعم ويرسل البلايا بين الناس في الدنيا بتوازن، ولكننا لا نرى أو حتى لا نعي بهذا لقصر علمنا بأحوال الناس وقيمة النعم. فرجل عنده مال جمّ وليست صحته جيدة، ورجل عنده صحة ولكن ليس عنده دهاء، ورجل عنده الصحة والمال والجمال والنسب والتقوى ولكن كان أبواه يؤذيانه في صغره مما أحدث عنده مشكلة نفسية دائمة يُعاني منها بشدة وتُعيقه بقية حياته، ورجل ليس عنده مال ولا صحة ولا نَسَب ولكن رزقه الله الرضا بدرجة بالغة، فلا يتألم بما ينقصه، ورضي بما قضى الله له بل وفرح بذلك، فهو يرتقي في المراتب عند الله بنعمة الرضا.

وبهذه المعلومة يُوقن المرء أن عنده نعمة ليست عند المحسُود ولكن ربما لا تكون واضحة له، وعند المحسود من الابتلاء ما لا يظهر. وقد رأينا من عنده من المال الطائل والشُهرة إلا أنه بائسٌ تعيسٌ بسبب ظروف قاسية (مثل أزمات عائلية شديدة، أو مرض مزمن مُعيق) قد أثَّرت فيه نفسيًّا، إلى أنه قد يأخذ العقاقير لإسكان معاناته أو حتى يُقدِم على الانتحار. فهل حقًّا يوافق المرء على أن يُجازف بالمُبادلة، أي بخسارة كل ما عنده من نِعم مقابل أخذ كل النعم التي عند الشخص الذي يحسده، ولكن يأخذ كل عيوبه وأزماته أيضًا؟ فليس من العدل ولا المنطق ولا المصلحة أن يجمع عبدٌ واحدٌ كل النعم التي عند كل الناس.

ثم إن الدعاء من العوامل المحورية المُساعِدة، فعلى العبد أن يستعين بالله ويدعو أن يشفيه من الحسد. وعلى الصعيد الآخر –وهذا عاملٌ مفيد جدًّا– فليدعُ لمن يجد تجاهه شيئًا في نفسه أن يزيده الله أكثر من تلك النعمة دون أن تفتنه أو تضره، أو أن يهب الله ذاك الشخص نعمة يفتقرها. أيضًا إن استطاع إجبار وقهر نفسه على إعطاء هديةً إلى ذاك الشخص ذي النعم فليفعل، وليواظب على الصيام طوال العام، أخذًا بنصائح سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) ""تَهَادَوْا، فَإِنَّ الْهَدِيَّةَ تُذْهِبُ

وَغَرَ الصَّدْرِ"[1]؛ "صَومُ شهرِ الصَّبرِ، وثلاثةِ أيامٍ من كلِّ شهرٍ، يُذْهِبْنَ وحَرَ الصَّدْرِ"[2] (شهر الصبر هو رمضان؛ وَغَرَ أو وحَرَ هو مشاعر السوء في القلب مثل الحقد والغيظ والغل والنفاق والغضب والبغضاء). فهذا كله بمنزلة تأديب وإيلام للنفس على حسدها لشخص، ويجعلها تيأس من اللحاق بالنعم التي عند ذاك الشخص، فيكُفّ عن الحسد. وهذا أيضًا يُطهِّر القلب تجاه الآخرين.

حُبِّ مُدح الناس وتعظيمهم له، أو مَدح الناس بما ليس فيهم. إن المرء الذي يمدح الناس بما ليس فيهم أو يبالغ في المدح فقد خان، وذلك لأنه مما لا شك فيه أن المادح سينفي عنهم ما وصفهم به يوم القيامة بعد أن أغررهم. وذلك لأنه يُسوّل لهم ما ليس فيهم فيغترون أو يُعظِّم لهم نُفوسهم في أعينهم فيتكبروا، والحقيقة أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) زجر عن هذا زجرًا شديدًا. يروي لنا أبو بكرة (رضي الله عنه) أنه أثنى رجلٌ على رجلٍ عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال "وَيْلَكَ قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ، قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ" مِرَارًا، ثم قال "مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَادِحًا أَخَاهُ لا مَحَالَةَ فَلْيَقُلْ: أَحْسِبُ فُلانًا وَاللَّهُ حَسِيبُهُ وَلا أُزَكِّي عَلَى اللَّهِ أَحَدًا، أَحْسِبُهُ كَذَا وَكَذَا؛ إِنْ كَانَ يَعْلَمُ ذَلِكَ مِنْهُ"[3]. ويجب أن نلاحظ قوله (صلى الله عليه وسلم) "إِنْ كَانَ يَعْلَمُ ذَلِكَ مِنْهُ"، أي يشترط أن يكون يرى ذلك فيه.

وعلى الوجه الآخر، من أحب مدح الناس له وتعظيمهم له (كأن يقوموا عندما يدخل عليهم أو أن يصمتوا)، فهذا من الإعجاب بالنفس والافتخار، مما سيؤدي إلى الغرور، فيصبح شخصًا ظلومًا متكبرًا ومُقصرًا في عمله، ومع ذلك يرى أنه يُحسن وأن له خير الجزاء عند الله. وربما لذلك توعد الله لمن أحب هذا كما جاء على لسان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَتَمَثَّلَ لَهُ الرِّجَالُ قِيَامًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنْ النَّارِ"[4]. وقال بعض السَّلَف: رُبَّ مُسْتَدْرَجٍ بِنِعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِ وَهُوَ لا يَعْلَمُ [أي أنه مُستدرج]، وَرُبَّ مَغْرُورٍ بِسَتْرِ اللَّهِ عَلَيْهِ وَهُوَ لا يَعْلَمُ [أي أنه مُغرَّر به]، وَرُبَّ مَفْتُونٍ بِثَنَاءِ النَّاسِ عَلَيْهِ وَهُوَ لا يَعْلَمُ[5].

ومِن تورع الفقهاء الصادقين أنهم يكرهون تجمع الناس عليهم دون سبب، إذ إن في ذلك فتنة للنفس لأن أنفسهم تُحدِّثهم بأهميتهم لدى الناس، مما قد يؤدي إلى الكبر والغرور والرياء اللذين يؤديان إلى انتكاس تقواهم لله. يُضاف إلى هذا أن ذلك التصرف يزرع في نفوس المُتَّبِعين التبعية العمياء، مما قد تؤدي إلى تبعية العالم حتى في الخطأ، وحب للمتبوع مما يشغل عن طاعة الله،

---

[1] مسند أحمد 8882.

[2] صحيح الترغيب للألباني 1032.

[3] صحيح البخاري 2468.

[4] سنن الترمذي 2679.

[5] الجواب الكافي لابن القيم 36.

والحط من شأن النفس مما قد يجعل المرء يقبل الأوضاع المهينة. قد روى لنا حبيب بن أبي ثابت أنه قال: تَبِعَ ابْنَ مَسْعُودٍ نَاسٌ فَجَعَلُوا يَمْشُونَ خَلْفَهُ، فَقَالَ: أَلَكُمْ حَاجَةٌ؟ قَالُوا: لا، قَالَ: ارْجِعُوا، فَإِنَّهَا ذِلَّةٌ لِلتَّابِعِ، فِتْنَةٌ لِلْمَتْبُوعِ[1]. فحق علينا أن نمتثل بمنهج العلماء المتقين.

الرياء. إن الرياء (وهو طلب المنزلة في قلوب الناس بإظهار لهم خصال الخير) إذا دخل على العمل أفسده لأنه شركٌ أصغر بالله، كما تُفسد قطرة السُمّ كوب من الماء إذا دخلت فيه، فإذا لم يرضَ أحدنا أن يشرب ذلك الكوب فكيف نرغب أن يقبل الله عملًا أُشرك معه فيه أحد؟ وبعد قول هذا، وجب التنبيه أن هناك فرقًا ما بين من خطر للحظة في باله أن يُرائي ولكنه دافع الخطرة، وبين من أقدم على العمل لله ولكن دخل عليه في أثناء تأديته شيئًا من الرياء وبين من أقدم على العمل رياءً ومباهاةً للناس. فإن كان أقدم على العمل رياءً فليس فيه شيءٌ لله إذ كانت نيَّته في العمل فاسدة، حتى ولو كان العمل هو الجهاد في سبيل الله (في ظاهره)، بل وإن عجب العجاب أن مثل هؤلاء هم أول من يُقضى فيهم وتُفتح بهم جهنم بحسب ما نبأنا به الرسول (صلى الله عليه وسلم).

روى سيدنا أبو هريرة (رضي الله عنه) قائلًا: حَدَّثَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ يَنْزِلُ إِلَى الْعِبَادِ لِيَقْضِيَ بَيْنَهُمْ وَكُلُّ أُمَّةٍ جَاثِيَةٌ، فَأَوَّلُ مَنْ يَدْعُو بِهِ رَجُلٌ جَمَعَ الْقُرْآنَ وَرَجُلٌ يَقْتَتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَرَجُلٌ كَثِيرُ الْمَالِ، فَيَقُولُ اللَّهُ لِلْقَارِئِ: أَلَمْ أُعَلِّمْكَ مَا أَنْزَلْتُ عَلَى رَسُولِي؟ قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ، قَالَ: فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا عُلِّمْتَ؟ قَالَ: كُنْتُ أَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ، فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ لَهُ الْمَلائِكَةُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ اللَّهُ: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ إِنَّ فُلانًا قَارِئٌ فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ؛ وَيُؤْتَى بِصَاحِبِ الْمَالِ فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: أَلَمْ أُوَسِّعْ عَلَيْكَ حَتَّى لَمْ أَدَعْكَ تَحْتَاجُ إِلَى أَحَدٍ؟ قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ، قَالَ: فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا آتَيْتُكَ؟ قَالَ: كُنْتُ أَصِلُ الرَّحِمَ وَأَتَصَدَّقُ، فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ لَهُ الْمَلائِكَةُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ فُلانٌ جَوَادٌ فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ؛ وَيُؤْتَى بِالَّذِي قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: فِي مَاذَا قُتِلْتَ؟ فَيَقُولُ: أُمِرْتُ بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِكَ فَقَاتَلْتُ حَتَّى قُتِلْتُ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ لَهُ الْمَلائِكَةُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ اللَّهُ: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ فُلانٌ جَرِيءٌ فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ"، ثُمَّ ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى رُكْبَتِي فَقَالَ "يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، أُولَئِكَ الثَّلاثَةُ أَوَّلُ خَلْقِ اللَّهِ تُسَعَّرُ بِهِمْ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"[2].

وفيما يختص بالذي يبدأ عمله لله (مثل الصدقة) ولكن في خلال عمله بدأ يرائي الناس، بأن يكتشف أن الناس تنظر إليه فجعل يتباهى بأنه يتصدق بمبلغ كذا مثلًا، أو زاد في المبلغ الذي يتصدق به لكسب إعجاب الناظرين أكثر، فقد أشرك في العمل أحدًا من الناس مع الله. جاء عن

[1] المصنَّف لأبي شعبة 213/6.

[2] سنن الترمذي 2304.

رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنْ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ؟"، قُلْنَا: بَلَى، فَقَالَ "الشِّرْكُ الْخَفِيُّ؛ أَنْ يَقُومَ الرَّجُلُ يُصَلِّي فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ"[1].

هذا الشخص يُبطل من عمله القدر الذي راءى الناس فيه، ويُحسب له منه ما كان لله خالصًا. هذا لأن الله غني عن عملنا، فما بالنا إذا أُشرِك معه فيه، فإنه تعالى يترك العمل لمن دونه آنذاك، فقد جاء في حديثٍ قدسي عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنْ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ"[2].

التوقيت والطريقة التي يُظهر الله بها بطلان العمل للمرائي تكون مُفجعة، إذ إن التوقيت يكون يوم القيامة الذي لا ينفع فيه تعديل العمل، وتكون بطريقة صادمة ومُحبطة ومُهينة للمرائي إذ يُقال له أن يطلب ممن كان يرائيه أجرًا على عمله. ذلك كما ذكر الرسول (صلى الله عليه وسلم) في قوله "إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ: الشِّرْكُ الأَصْغَرُ" قَالُوا (الصحابة): وَمَا الشِّرْكُ الأَصْغَرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ "الرِّيَاءُ؛ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا جُزِيَ النَّاسُ بِأَعْمَالِهِمْ: اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاءُونَ فِي الدُّنْيَا فَانْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً"[3]. وأنى ينفعهم الذين كانوا يُراءونهم في يومٍ لا يملك أحدٌ شيئًا ذا قيمة إلا عمله الصالح، وليبحث عن من يستغني ولو بمقدار ذرة من عمله الصالح، إذ كان جميع الناس يتهافتون على الاستزادة في رصيدهم ولو بحسنةٍ، فكيف بمن يُطلب منه أن يُفرِّط في حسنةٍ من حسناته؟!

هذا وإذا كان التبرع بحسنة بين ذوي الأرحام الصالحين لا يحدث، فكيف الحال بين الغرباء؟ جاء في تفسير بن كثير للآية {يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (34) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (35) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (36) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ} [عبس 34-37]: قال عكرمة: يلقى الرجل زوجته فيقول لها: يا هذه، أي بعل كنت لك؟ فتقول: نِعم البعل كنت؛ وتثني بخير ما استطاعت فيقول لها: فإني أطلب إليك اليوم حسنة واحدة تهبينها لي، لعلي أنجو مما ترين، فتقول له: ما أيسر ما طلبت ولكني لا أطيق أن أعطيك شيئًا، أتخوف مثل الذي تخاف. وإن الرجل ليلقى ابنه فيتعلق به فيقول: يا بني أي والد كنت لك؟ فيثني بخير، فيقول له: يا بني إني احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك، لعلي أنجو بها مما ترى، فيقول ولده: يا أبت ما أيسر ما طلبت ولكني أتخوف مثل الذي تتخوف فلا أستطيع أن أعطيك شيئًا (انتهى).

يُضاف إلى هذا أن المُرائي يُفضح يوم القيامة مُجازاةً بجنس العمل، إذ كان ذاك المُرائي يُخفي –بل وينكر– رغبته في أن يُرائي الناس. فكما نبأنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) "مَنْ سَمَّعَ

---

[1] سنن ابن ماجه 4194.

[2] صحيح مسلم 5300.

[3] مسند أحمد 22523.

النَّاسَ بِعَمَلِهِ سَمَّعَ اللَّهُ بِهِ سَامِعَ خَلْقِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَحَقَّرَهُ وَصَغَّرَهُ"[1]، وفي تلك الرواية توضيح لقوله (صلى الله عليه وسلم) "مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللَّهُ بِهِ، وَمَنْ يُرَائِي يُرَائِي اللَّهُ بِهِ"[2]. فإيانا والرياء، فإنه يُبطل العمل الصالح، ويجعل الإقبال على المُحرَّم هينًا على المرء كي يُرضي الذي يريد التباهي له (خاصةً إذا طُلب منه أن يرتكب المعصية).

ونظرًا لخطورة الرياء، سأذكر بعض ما قاله العلماء عن طرق علاج الرياء. أولًا، ينبغي معرفة أن الرياء يصدر نتيجة أحد ثلاث رغبات، وهن: حب لذة ثناء الناس، الفرار من ألم ذم الناس، والطمع فيما في أيدي الناس. وعلى هذا الأساس يدرك المرء أن محاربة ومعالجة الرياء يكون بالحيلولة عن تلك الغايات، وهذا عن طريق:

- إخفاء الأعمال التي تكون لله قدر المستطاع، خاصة الأعمال التي تجلب السُمعة الحسنة بين الناس، كما يُخفي فواحشه عن الأنظار.

- أن يُدرك أن إرضاء جميع الناس حلمٌ لا يمكن تحقيقه، إذ إن طباع الناس تتعارض ويتنافسون في تحصيل المُمتلكات. بل والأدهى، إذا كان الناس لم يجتمعوا في الرضا بالله ربًّا، فكيف يجتمعون في الرضا عن عبدٍ من عباده؟

- أن يعلم العبد أن الناس الذي يتصنَّع لهم لا يملكون له نفعًا ولا ضرًّا حقيقةً، إذ إن النفع والضر يحتاج إلى إذنٍ من الله، فلا يتشاغل بمراعاتهم في طاعة الله. بل إن المرء الذي يرى عبدًا على أنه عظيم فهو أحيانًا لا يملك نفع نفسه حتى أو دفع ضر عنها وهو يريد، مثل عندما يمرض فيصبح عاجزًا وربما حتى ذليلًا في طلب من يُداويه، فكيف يستطيع مؤكدًا أن ينفع أو يضر غيره؟

- أن يعلم أن الناس لا يملكون وهب الحسنات له كأجرٍ على عمله، فهُم عاجزون مثله، إنما قد يتسببون له في سُمعَة فحسب، بل وسيطمعون في أخذ حسناته يوم القيامة.

- على الصعيد الآخر، ليعلم أن الذي بيده إعطاء الأجر على الأعمال –وهو الله– لا يُعطي أجرًا مع الرياء.

- أن من بين هؤلاء الناس الذي يُرائيهم هناك الفاجر والمُنافق والخائن والمُجرم والمُتكبر والمُعادي لله، أُناس سَخِط الله عليهم بينما يعمد المرء إلى إرضائهم.

---

[1] مسند أحمد 6691.

[2] صحيح البخاري 6018.

- يُفيد أن يعمل العبد بضد ما يهواه، فمثلًا في حالة أنه يكره أن يُذِمّه الناس، فليجهر بعملٍ يعلم أن الناس يستنكرونه وسيُذِمُّونه عليه مع أنه يُرضي الله، مثل إقامة سُنَّة قد هجرها الناس أو حتى أبدلوها ببدعة، فيكون أجره مُضاعفًا إن شاء الله. وبالنسبة إليه، فإن هذا السلوك يُرَسِّخ في نفسه الانشغال بما يُرضي الله على حساب ما يُرضي الناس، ويُذيب شعوره بالحرج من ذمّ الناس له ويذهب تلهُّفه على ما يظنه الناس فيه. وبهذا قد يبلغ مرحلة أن يتساوي عنده رأي الناس فيه، فلا فرق له إن مدحوه أو ذَمّوه ما دام يُرضي الله.

- الدعاء أن يشفيه الله من الرياء، خاصة الأدعية المأثورة من السُنَّة مثل: اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ نُشْرِكَ بِكَ شَيْئًا نَعْلَمُهُ، وَنَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا نَعْلَمُ[1]. هذا مع المواظبة على الأذكار.

نقض العهود مع الله. قال تعالى {وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (75) فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ (76) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُواْ اللّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ} [التوبة 75-77] (وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ أي عن طاعة الله، فلا هم تصدقوا بما عندهم ولا فعلوا الأعمال الصالحة عامةً، فخالفوا عهدهم من جهتين). فتلك بعض طباع الإنسان، الطمع ونُكران النِعم ونسيان الفضل، إلا من عصمه الله.

إن أطلقنا العنان لأنفسنا سنصبح مثل هؤلاء الذين أخلفوا الله ما وعدوه، وكانت عاقبتهم من جنس العمل أن أصبحوا منافقين -أي أن ظاهرهم يُخالف باطنهم بما أنهم خالفوا كلامهم مع الله-، بل وختم الله على قلوبهم من قبح صنيعهم فسيظلوا منافقين حتى يلقون الله، أي أن الأمر حُسِم ولا رجعة فيه لهم. وكل ذلك لأنهم استخفوا بعهدهم مع الله، وقد قال تعالى في أخذ العهد معه {وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُولًا} [الأحزاب 15]، وفي هذه الواقعة كان المنافقون يتهربون من مواجهة المعتدين في واقعة الأحزاب بحجة أن بيوتهم سهلة المنال ووجب عليهم حمايتها.

وهناك أمثلة أخرى لأناس تراجعوا عن نفع الناس بما رزقهم الله به بعد أن أغناهم ورفع عنهم الضر، فحتى إن لم يكن هناك ما يدل أنهم عاهدوا الله أن يتصدقوا بعد الغنى فإن الزكاة عهدٌ يترتب تلقائيًّا على من يُوسِّع الله عليه في الرزق. فهناك مثل الأبرص والأقرع في القصة التي ذُكرت قريبًا حين قالوا إن الحقوق عليهم كثيرة لتجنب التصدق مما أغناهم الله به، وكذبوا تكبُّرًا وجحودًا أنهم

[1] مسند أحمد 18781، حسنه الألباني وضعفه الأرناؤوط.

ورثوا النعم لكابر عن كابر حتى لا يُتحَدّث عنهم أنهم كانوا فقراء وسُقماء. وهناك أيضًا أصحاب البُستان: {إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (17) وَلَا يَسْتَثْنُونَ (18) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (19) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ} [القلم 17–20] (لَيَصْرِمُنَّهَا أي يقطعون ثمارها؛ كَالصَّرِيمِ أي كالليل الأسود، وهذا بسبب أن نارًا أحرقتها). فأصبحت تلك عاقبتهم وذلك عقابهم لأنهم مكروا {أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ} [القلم 24] بعد أن أكرمهم الله.

ومن المسلمين من يعهد بينه وبين الله أنه سيتصدَّق ويفعل كذا وكذا إذا رزقه الله نعمة ما (مثل المال)، ثم عندما يفتح عليه الله ينسى العهد أو يتجاهله أو ينقضه أو يتعذر فيبخل عن الوفاء بالعهد. وقد يكون العهد من جهة أخرى، أن العبد يعهد أنه سينصلح إذا نجَّاه الله من هذه المحنة الشديدة (مثل الموت أو مرض أو مأزق قد ورَّط نفسه فيه)، ثم عندما يَسلم وتمر الأزمة يرجع إلى عادته من عصيان الله. فإنا إن تشابه سلوكنا مع هؤلاء الذين ذكرهم الله أفلا نخشى أن نتشابه معهم في الجزاء؟ وانظر أخي إلى قول الذين في سورة التوبة "وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ"، أي أنهم ربطوا إصلاح أنفسهم بالنعمة إذا نالوها، وهذا فيه سوء أدب في التعامل مع الله إذ كأنهم يشيرون إلى أنهم لن يُصلحوا حالهم إلا إذا أنعم عليهم الله.

إضافة إلى ذلك، في ذلك المنهج تسويفٌ في إصلاح النفس، فكم منا يقع في هذا الخطأ بأن يقول لنفسه مثل: سأصلح حالي بعد فترة وكذا أو إذا حدث كذا أو كذا. ونلاحظ بموضوعية أن غالبًا ما يؤول الأمر إلى أن المرء لا يُصلح نفسه حتى بعد حدوث ما كان ينتظره، إما لتعودٍ على حاله مما يُثقل الإصلاح عليه وإما للركون إلى فكرة عدم الاحتياج إلى الإصلاح.

فينبغي لنا نحن أن نجتهد في تهذيب طباعنا كي نُحسن الأدب في التعامل مع الله، وكي نكون أوفياء لله في عهودنا وممتنين له على نعمه، شاكرين فضله فنطيعه ونتجنب عصيانه. ومن لم يفعل ذلك فقد سلك الطريق الذي يضل الإنسان نفسه به، لأن من يترك أوامر الله يتركه الله فيُصبح تائهًا في الدنيا. ومن تاه لم يسلم من الوقوع في المعاصي، ومعصية تجر معصية أخرى لم يكن يُحبها (لأن من جزاء ارتكاب المعصية... الوقوع في معصية أخرى)، فلا يلبث كثيرًا حتى يكون كذابًا خائنًا بخيلًا سيئ الخُلُق. وقد يشرب قلبه الفجور إن لم يتب، أي أن المعاصي تتشابك مع نسيج القلب بتأصل جذورها فتصبح راسخة في قلبه، فيدخل في دائرة يصعب الخروج منها بتتابع المعاصي، فيكون من الذين هلكوا أنفسهم بزج نفسه في الدائرة تدريجيًّا.

وقياسًا على ذلك فالعكس صحيح، من عمل عملًا صالحًا جزاه الله بتوفيقه إلى عمل صالح آخر بعده. فيجب على الإنسان أن يُحَسِّن في خُلُقه كي لا يقع في دائرة ختم القلب، وليكن تدريجيًّا كي لا ييأس ولا يَمَلَّ ولا يُجهد، فتغيير طباع المرء هو من المسائل الشاقة التي تحتاج إلى المثابرة. والأفضل في ترك المعصية أن يتركها الإنسان جملة واحدة إن أيقن أنه يستطيع أن يثابر ويصبر على

تركها، لأنه إذا تركها تدريجيًّا قد يخدعه الشيطان إلى الرجوع إليها ويزينها فيضعف الإنسان ويرجع لسابق حاله. أما إذا تعود الإنسان عليها لطول ارتكابه لها وتعلق قلبه بها، أو أن المعاصي كثيرة، فليضع لنفسه خطةً والتزامًا زمني لترك معصية تلو معصية، ويبدأ بأكبرها أولًا لأنها الأخطر تأثيرًا على النفس إذا تم تأجيلها، حتى يتعود على ترك تلك المعصية ولا يعود إليها، ثم يستهدف المعاصي التي تليها.

ومنهم من ارتقى فوق منزلة المؤمن، فاختص الله بذكرهم من بين المؤمنين، ووصفهم بالرجال بما تشمله الكلمة من معانٍ، لأنهم صدقوا فيما قالوا وأفعالهم صدَّقت قولهم، فكانوا أوفياء فيما عاهدوا الله، كما قال تعالى {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا} [الأحزاب 33]. هؤلاء الذين ذُكروا ومن شابههم هم الرجال بحق، وكفى أن الله وصفهم بالرجال.

ذلك بأنهم آمنوا بالله وما جاء به الرسول (صلى الله عليه وسلم)، فوافق عملهم قولهم حتى في أعسر المواقف التي تُفَرِّق الصادق من الكاذب والمُرتاب. فمنهم من استُشهد ومنهم من كان ينتظر أجله أو موقف يُفرِّق بين الرجل والمنافق كي يُثبت صدقه، وكلهم لم يبدِّلوا ولا ينقضوا عهدهم مع الله، ولم يتزحزحوا عن هذا الدين نهائيًّا حتى في المواقف العصيبة، بل تحملوا وكانوا عند عهدهم.

وخير مثال هو من نزلت فيه وفي أصحابه هذه الآية، فقد روى لنا سيدنا أنس (رضي الله عنه): غَابَ عَمِّي أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ عَنْ قِتَالِ بَدْرٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ غِبْتُ عَنْ أَوَّلِ قِتَالٍ قَاتَلْتَ الْمُشْرِكِينَ، لَئِنْ اللَّهُ أَشْهَدَنِي قِتَالَ الْمُشْرِكِينَ لَيَرَيَنَّ اللَّهُ مَا أَصْنَعُ. فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ وَانْكَشَفَ الْمُسْلِمُونَ قَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلاءِ (يَعْنِي أَصْحَابَهُ) وَأَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلاءِ (يَعْنِي الْمُشْرِكِينَ)، ثُمَّ تَقَدَّمَ فَاسْتَقْبَلَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ فَقَالَ: يَا سَعْدُ بْنَ مُعَاذٍ الْجَنَّةَ، وَرَبِّ النَّضْرِ إِنِّي أَجِدُ رِيحَهَا مِنْ دُونِ أُحُدٍ، قَالَ سَعْدٌ: فَمَا اسْتَطَعْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا صَنَعَ! قَالَ أَنَسٌ: فَوَجَدْنَا بِهِ بِضْعًا وَثَمَانِينَ ضَرْبَةً بِالسَّيْفِ أَوْ طَعْنَةً بِرُمْحٍ أَوْ رَمْيَةً بِسَهْمٍ، وَوَجَدْنَاهُ قَدْ قُتِلَ وَقَدْ مَثَّلَ بِهِ الْمُشْرِكُونَ، فَمَا عَرَفَهُ أَحَدٌ إِلّا أُخْتُهُ بِبَنَانِهِ [أي أسنانه]. قَالَ أَنَسٌ: كُنَّا نُرَى أَوْ نَظُنُّ أَنَّ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ فِيهِ وَفِي أَشْبَاهِهِ {مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ} إِلَى آخِرِ الآيَةِ[1].

وفي واقعة طريفة من الصحابة (رضي الله عنهم)، جاء أنهم طلبوا من أعرابي: سَلْهُ عَمَّنْ قَضَى نَحْبَهُ مَنْ هُوَ (أي يسأل الرسول صلى الله عليه وسلم)؛ وذلك لأنهم كانوا لا يَجْتَرِئُونَ على مَسْأَلَتِهِ يُوَقِّرُونَهُ وَيَهَابُونَهُ، فَسَأَلَهُ الأَعْرَابِيُّ فَأَعْرَضَ (صلى الله عليه وسلم) عَنْهُ، ثُمَّ سَأَلَهُ فَأَعْرَضَ عَنْهُ، ثُمَّ سَأَلَهُ فَأَعْرَضَ عَنْهُ، فقال سيدنا طلحة بن عبيد الله (رضي الله عنه): ثُمَّ إِنِّي اطَّلَعْتُ مِنْ بَابِ

[1] صحيح البخاري 2595.

الْمَسْجِدِ وَعَلَيَّ ثِيَابٌ خُضْرٌ، فَلَمَّا رَآنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ "أَيْنَ السَّائِلُ عَمَّنْ قَضَى نَحْبَهُ؟" قَالَ الأعرابي: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ "هَذَا مِمَّنْ قَضَى نَحْبَهُ"[1].

أما على الوجه الآخر، ففي عصرنا هذا، كثر أُناس تُسيّرهم المعاصي عن دينهم يسارًا ويمينًا، حتى يكون كالمركب على أمواج البحر، ولكن ذاك زمنٌ وهذا زمنٌ، رجالٌ ورجال. فوجب عليَّ أن أسأل نفسي: أين موضعي؟

والحذر كل الحذر، فإن نقض العهد مع الله قد يبلغ تصنيف الخيانة مع الله، وذلك إذا تعمد ورضي العبد بنقض العهد مع الله، قد أخذ ما يريده من الله ثم لم يُوفِّ تهاونًا. وإذا كان الله قد أوصانا ألا نَخوُن الخائن من الناس، وذلك على لسان رسوله (صلى الله عليه وسلم) "أَدِّ الْأَمَانَةَ إِلَى مَنْ ائْتَمَنَكَ وَلَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ"[2]، أفلا يستحيي العبد من أن يخون من أوصى بهذا؟!

الإعراض عن ذكر الله. {أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (22) اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاء وَمَن يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ} [الزمر 22–23]. القاسية قلوبهم هم الذين يعرضون عن ذكر الله، بدرجاته ابتداء بإنكار الذكر جملة وهو الكفر، وصولًا إلى المسلم الذي يتغافل عن الذكر مثل الهاجر للقرآن، فمن المسلمين من هو قاسي القلب. أولئك يبحثون عن أي شيء يلهيهم عن ذكر وطاعة الله، فغالبًا يقعون في المعصية، وأولئك في ضلال مبين.

على الوجه الآخر، هناك صنف من عباد الله لا تلهيهم الدنيا عن رغبتهم في ذكر الله، يذكرون الله كثيرًا حتى بلغوا مرحلة أنهم تقشعر جلودهم بسبب تعظيمهم وخشيتهم لله، ويرجعون إلى ذكر الله لتطمئن قلوبهم! أين أنا من هؤلاء؟ هذه الآية تدل على أن كلما بذل العبد بعض المجهود في طاعة الله، زاده الله هدى. فلماذا لا أجتهد بعض الشيء لكي أرتقي إلى درجة أعلى في الهدى؟ لماذا أنا راضٍ وساكنٌ للمستوى الذي أنا فيه من الإيمان؟ لماذا لا أتحرك قبل أن أندم يوم القيامة على ما فرطّته في ديني.

هذا الهدى يعطيه الله لمن يشاء، وبلا شك إن أردت أن يزيدني الله هدًى، وكانت نيتي خالصة صالحة صادقة وقوية، وسعيت إلى طاعة الله، فسأكون ممن يهديه الله ويدخلني في هداه. أما

---

[1] سنن الترمذي 3127.

[2] سنن الترمذي 1185.

إن أردت أن أبقى على حالي كما أنا، فإما أن أغرق في المعاصي تدريجيًّا لرفضي الزيادة في رضا الله إلى أن أكون من المفتونين، أو في أحسن الافتراضات قد يكرمني الله ولا أدنو من مستوى إيماني، وفي هذا مجازفة بديني. وهذا المبدأ شبيهٌ بالمثل الذي يقول: إن الوقت كالسيف، إن لم تقطعه قطعك؛ فكذلك الإيمان، إن لم أُقوّيه ضعف، إما صاعدًا متجددًا بالجهد أو هابطًا منتقصًا بالإهمال.

وجاء أيضًا {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [الحشر 19]. هذا تحذيرٌ من الله لعباده مِن ترك أمره. قيل في التفاسير عن الذين نسوا الله إنهم تركوا شُكره وتعظيمه وذكره، وهذا كقوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [المنافقون 9]. وكانت العاقبة أن الله أنساهم أنفسهم وهو جزاء من جنس العمل، أي نسوا أن يقدموا لأنفسهم الخير والمنفعة بالأعمال التي تُفيدهم في الآخرة، ومن ثمَّ فإن انشغالهم عن ذكر الله بمتاع الدنيا جعلهم ينسون مصلحتهم الشخصية.

وهذا يشير إلى أنهم نسوا العمل الصالح الذي فيه نجاة أنفسهم، أي أن الوقت تجاوزهم دون أن يأخذوا نصيبًا مما ينفعهم، وكأن المعنى أنهم نسوا تخصيص وقت وجُهدٍ لإنقاذ أنفسهم، فأي مصيبة تلك؟! وأي خُدعة تلك التي تجُرُّ ضحاياها إلى غيابة ظلماتها بذلك الإحكام، إلى حد أنهم توهَّمُوا أنهم مسيطرون على الوضع فيستطيعون إصلاح عملهم وقتما شاءوا؟!

وهذا فيه دلالة على أن ارتكاب المعصية في بعض الأحيان قد يكون عاقبة الإعراض أو التكاسل عن عمل صالح، لأن العمل الصالح يشغل قلب المرء مع الله أولًا، ويقوي عزيمة المرء في الإعراض عن المعصية ثانيًا. هذا بالإضافة إلى عون الله ووقايته بأن يحول بين المعصية وعبده من أن تصل إلى العبد أو أن يقع فيها. وأوضح مثال على ذلك ما حدث (في رواية ضعيفة) مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، حينما كان في شبابه يرعى الغنم قبل الوحي وأراد أن يستمع إلى عزف عُرسٍ، فبعد أن حال الله بينه وبين الاستماع للمعازف مرتين، استشعر أن ذلك شيءٌ فيه ضررٌ ويجب أن يُتجنب. فالحمد لله، كانت فطرته (صلى الله عليه وسلم) على الصلاح والحكمة حتى قبل أن ينزل عليه الوحي.

فيُروى أنه جاء عنه (صلى الله عليه وسلم) قائلًا: ما هممتُ بشيءٍ مِمَّا كانَ أهلُ الجاهليَّةِ يعملونَهُ غيرَ مرَّتينِ، كلُّ ذلكَ يحولُ اللهُ بيني وبينَهُ، ثمَّ ما هَممتُ بهِ حتَّى أكرَمَني برسالتِهِ؛ قلتُ ليلةً للغلامِ الَّذي يرعَى معي بأعلَى مكَّةَ: لَو أبصرتَ لي غنَمي حتَّى أدخُلَ مكَّةَ وأسمُرَ بها كما يسمُرُ الشَّبابُ! فقال: أفعَلُ؛ فخرَجتُ حتَّى إذا كنتُ عندَ أوَّلِ دارٍ بمكَّةَ سمِعتُ عزفًا، فقُلتُ: ما هذا؟ قالوا: عُرسُ فلانٍ بفُلانَةٍ، فجلَستُ أسمَعُ فضربَ اللهُ علَى أذُني فنِمتُ، فما أيقَظَني إلّا حَرُّ الشَّمسِ، فعُدتُ

إلى صاحبي فسألَني، فأخبرتُهُ. ثمَّ قلتُ لهُ ليلَةً أُخرى مثلَ ذلكَ ودخلتُ مكَّةَ فأصابَني مثلُ أوَّلِ ليلَةٍ، ثُمَّ ما همَمتُ بعدَه بسوءٍ[1].

وهناك أدلة أخرى في القرآن والسُنّة أن الله يقي المرء الفتن إن شاء، أو العكس بأن يفتنه بأمور لم يُفتتن بها من قبل، فقد قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} [الأنفال 24]. وكان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يُكثر من الدعاء "يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ" فقالت أم المؤمنين السيدة عائشة (رضي الله عنها): يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّكَ تُكْثِرُ تَدْعُو بِهَذَا الدُّعَاءِ، فَقَالَ "إِنَّ قَلْبَ الآدَمِيِّ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِذَا شَاءَ أَزَاغَهُ وَإِذَا شَاءَ أَقَامَهُ"[2].

ومن ذلك نستطيع أن نستنتج أن من يتقي الله عندما يضعف ويعمد إلى معصية فقد يحول الله بينها وبين عبده فلا تصل إلى عبده، ولكن إذا أصرّ ذاك العبد على ارتكاب تلك المعصية فإن الله يتركه إليها. فلا تتهاون أو تستخف بمعروف، عسى أن يدفع عنك معصية أكبر من المعروف الذي قدمته، وكما وصّى الرسول (صلى الله عليه وسلم) "لا يَحْقِرَنَّ أَحَدُكُمْ شَيْئًا مِنْ الْمَعْرُوفِ، وَإِنْ لَمْ يَجِدْ فَلْيَلْقَ أَخَاهُ بِوَجْهٍ طَلِيقٍ، وَإِنْ اشْتَرَيْتَ لَحْمًا أَوْ طَبَخْتَ قِدْرًا فَأَكْثِرْ مَرَقَتَهُ وَاغْرِفْ لِجَارِكَ مِنْهُ"[3]، وقال أيضا "اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ"[4].

الجهر بالمعصية. الجهر بالمعصية يتحقق إما بارتكابها علنًا أمام الملأ أو بإفشائها للتباهي بها بعد ارتكابها في الخفاء. قال تعالى {لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ} [النحل 25]. هذه الآية تتحدث عن الذين لا يؤمنون ويُضلون الناس، ولكنها تنطبق أيضًا على الذين يُضلون الناس عامةً، سواء كانوا مؤمنين أم غير مؤمنين. وهذا يحتمل حدوثه أكثر مع الذي يجهر بالمعصية نفسها عيانًا أو يتحدث بالمعصية التي عملها في الخفاء، أو يُروّج لها بين الناس ويُزينها لهم. وكما جاء في الحديث الشريف عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) "كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إِلا الْمُجَاهِرِينَ، وَإِنَّ مِنْ الْمُجَاهَرَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلا ثُمَّ يُصْبِحَ –وَقَدْ سَتَرَهُ

---

[1] فقه السيرة للألباني 69؛ رواه سيدنا علي بن أبي طالب (رضي الله عنه). قال ابن كثير (البداية والنهاية 287/2) والألباني عن الرواية: ضعيفة؛ وصححه الحاكم وتبعه الذهبي.

[2] مسند أحمد 23463.

[3] سنن الترمذي 1756.

[4] صحيح البخاري 6078.

اللَّهُ عَلَيْهِ- فَيَقُولَ: يَا فُلانُ عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا؛ وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللَّهِ عَنْهُ"[1].

فالمجاهرة بالمعصية دليل على أن العاصي تجرأ على حدود الله، مما يؤدي إلى مرض القلب إن لم يكن مرض بعد. ومن تبعات المجاهرة أنها تُفتن الناس بأن تجعلهم يألفون رؤيتها أو السماع عنها، ومن ثمَّ تهون عندهم فيتجرأون على الامتثال بالمجاهر، فمن فُتن فاتَّبعه يحمل وزر، وللمُجاهر مُحصلة أوزار الذين اتبعوه مع أنه لم يستمتع بمعصيتهم. والدليل على ذلك قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) "مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الإِسْلامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ"[2].

فنصيحتي لكل مسلم: إذا كنت مُصرًّا على ارتكاب معصية ما، فعلى الأقل احذر من المجاهرة بها، سواء بالفعل أم بالكلام، لأنه لا يُؤمَن من مكر الله، فلا تدري كم من الناس سيتّبعونك وأنت لا تدرك، فيكونون عليك حمل دون أن تكتسب منهم نفعًا، فتكون أنت السفيه المخدوع. واعلم أخي، أن الجهر بالمعصية مرحلة تُصنَّف عند الله تصنيفًا مختلفًا عن الذي يستتر بالمعصية، فيتفاقم وضع العاصي وتتصعد عقوبة الله. وذلك ما يدل عليه حديث سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) "لَمْ تَظْهَرْ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إلا فَشَا فِيهِمْ الطَّاعُونُ وَالأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلافِهِمْ الَّذِينَ مَضَوْا"[3]، ويرجى الانتباه لجملة "حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا"، أي أن ذلك العقاب في الدنيا لن يقع عليهم بالرغم من وجود الفاحشة ما داموا يستترون (ولكن هذا ليس رُخصة للفاحشة في الخفاء أيضًا).

وفي حديث آخر قال نبي الله (صلى الله عليه وسلم) "إِذَا ظَهَرَتْ الْمَعَاصِي فِي أُمَّتِي عَمَّهُمْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ"، فقالت السيدة عائشة (رضي الله عنها): يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمَا فِيهِمْ يَوْمَئِذٍ أُنَاس صَالِحُونَ؟ قَالَ "بَلَى"، قَالَتْ: فَكَيْفَ يَصْنَعُ أُولَئِكَ؟ قَالَ "يُصِيبُهُمْ مَا أَصَابَ النَّاسَ، ثُمَّ يَصِيرُونَ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ"[4]. وهنا أيضا تم البيان باللفظ أن العذاب لا يَعُمّ إلا إذا "ظَهَرَتْ الْمَعَاصِي". والمصيبة الكبرى تتحقق، ألا وهي استحقاق عذاب الله في الدنيا، إذا أصبح صنفان من المعاصي ظاهرتين مُعلنتين في مجتمع، قد نبأنا بهما رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قائلًا "إذا ظهرَ الزّنا والرّبا في قَريةٍ، فقد أَحَلُّوا بأنفسِهم عذابَ اللهِ"[5]. هذا مع التنبيه والتحذير أن في كثير من مجتمعات المسلمين الآن قد أصبحت التعاملات الربوية علانيةً، بل حتى مألوفة مُعتادة مُنتشرة، ومصدر دخل

---

[1] صحيح البخاري 5608.

[2] صحيح مسلم 1691.

[3] سنن ابن ماجه 4009، جزء من الحديث.

[4] مسند أحمد 25382.

[5] صحيح الجامع للألباني 679؛ أخرجه الطبراني (179/1) (462)، والحاكم (2261) باختلاف يسير.

منتظم للكثير، وهذا عن طريق البنوك الربوية، فلنحذر ولنتقِ الله ولننصلح، فقد أوشكنا على أن ننكث عنا عهد الله لنا بالسلامة.

وبعد كل هذه النقاط أقول لك يا أخي، لعل وعسى إن تجنبت الجهر بالمعصية أن يكون هذا أدعى لعفو الله عنك يوم القيامة، وأعون لك في ترك تلك المعصية كُليًّا في الدنيا. وقد تكلمنا كيف أن التستر، حياءً من الله ولتجنب فتنة الناس، لا يُدخل المرء في إطار المذمومين بأنهم ينتهكون حرمات الله إذا خلوا بها.

الأمن من عذاب الله أو مكره، أو محاولة المكر مع الله. {أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىَ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ (97) أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىَ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُون (98) أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلاّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ} [الأعراف 97-99]. كيف أنام ليلًا وأنا عاصٍ؟! ففي النوم فُرقة الروح للجسد... كما دلت الآية {اللهُ يَتَوَفّى الأنفُسَ حِينَ مِوْتِهَا وَالّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الّتِي قَضَىَ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَىَ إِلَىَ أَجَلٍ مّسَمّى إِنّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لّقَوْمٍ يَتَفَكّرُونَ} [الزمر 42]. هذا وأنا أستسلم للنوم وأنا مطمئن.

بل إني أذهب إلى ربي وأسلِّمه روحي إراديًّا ليليًّا، بينما أعصيه نهارًا، فكيف أهدأ وأسكن إلى فكرة أن الله لن يُمسك روحي اليوم وسيعيدها إلى جسدي؟! ما هذه المُفارقة وما مصدر هذا التناقض عندي؟! فهل أستطيع ألا أنام كي لا أُسلّمه روحي؟ حقًّا... أبلغت منزلة أني ءأمن من مكر الله حتى عندما تفارق روحي جسدي يوميًّا وأنا عاصٍ له فوق هذا!؟!

إن الرسول (صلى الله عليه وسلم) عندما كان يأوي إلي فراشه يقول "بِاسْمِكَ رَبِّ وَضَعْتُ جَنْبِي وَبِكَ أَرْفَعُهُ، إِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَاغْفِرْ لَهَا وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ"[1]، بينما أنا أُسلِّم نفسي إلي ربي يوميًّا ولا أُلقي بالًا لما يحدث لروحي وجاهلٌ عما قد يحدث لها! هذا حالي، أما حال الصالحين فكما أثنى عليهم الله {تَتَجَافَىَ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبّهُمْ خَوْفا وَطَمَعا وَمِمّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ} [السجدة 16]، أي لا يستطيعون النوم دون قلق من خوف الله وعذابه في الآخرة، فيقومون من مضجعهم ليصلوا صلاة قيام الليل يطلبون الرحمة والسلامة. أولئك هم الذين لا يأمنون مكر الله بحق.

ذلك ولم تخطر ببالي الآية {قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبّهِم مُّعْرِضُونَ} [الأنبياء 42]، والتي تحثنا أن نتساءل من الذي يحرسنا ويحفظنا من الرحمن بالليل

[1] صحيح البخاري 6844.

والنهار تكرارًا ومرارًا؟ وأريد منكم ملاحظة التعبير القرآني، فقد قال الله "مِنَ الرَّحْمَنِ" ولم يقل مثلًا: من الجبار، أو المنتقم، أو القوي، أو القادر. هذا لأن الله يُحذِّر من مكره، أي أن احترسوا من الذي يرحم، لأن المعنى الظاهري لا منطق له (أن البطش سيكون بالرحمة)، مما يسوق القارئ إلى المعنى الخفي، وهو أن صفته الله الأساسية الرحمة ولكن إذا تم استغلال سعة رحمته فإنه يتم تبديل رحمته بعذابه، فيحل بأسه وبطشه الشديد.

وهذا أبلغ في التحذير والترهيب من عقاب ونقمة الله، وعلى هذا النحو جاء المثل: اتق شر الحليم إذا غضب. ولكن إذا شرع الرحمن –بالرغم من رحمته الفائقة– في تعذيب عبد فلا رحمة ولا نجاة لذلك العبد، ولا حد لما قد يستخدمه الله من أنواع ودرجات العذاب إذ إنه أعذر عبده بالرحمة أولًا ولكن العبد تمادى.

وكذلك جاء في آياتٍ أُخر {أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُواْ السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللّهُ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ (45) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ (46) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ} [النحل 45–47]، وليُجاوب كل امرئٍ منا بنفسه على السؤال: لماذا يذكر الله نماذج من بطشه؟ هذه الآيات تتكلم عن الذين يمكرون بآيات الله لإخماد هذا الدين، ولكنها قد تنطبق على من طغى من المسلمين، فما لي أعصي ربي ثم أمشي فوق أرضه وتحت سمائه مطمئن وقد يُقلِّب الله عليَّ سمائه وأرضه في أي لحظة شاء! بل وبأي طريقة أيضًا. والمصيبة أني لا أستغفر الله علي ذنوبي حتى... فلو أراد الله أن يمنع عني النفس التالي الذي سيدخل رئتي لفعل... وإنكار هذا جحود لقدرة الله.

فهأنا عاصٍ آكُل وأشرب وأمشي وأتنفس وغير ذلك، كل هذا من نعم الله وأنا لا أبالي بفعلتي العاصية للرب. ولكن لماذا إذًا لا يعاقبني ربي فورًا؟ لأنه كما قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم "لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ"[1]، وأن الله يمكر بمن يتمادى في معصيته كما دل حديث آخر للرسول صلي الله عليه وسلم "إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ"، ثُمَّ قَرَأَ الرسول (صلى الله عليه وسلم) {وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ}"[2]. فقد قدَّر الله أن حياتنا الدنيا أساسًا دار عملٍ دون حساب، وأخَّر الحساب لأجلٍ مُسمى فأصبحت الآخرة دار حساب دون مجالٍ للعمل، ولا مفر لنا إلا الانسياق تحت سُنة الله، فمِنَّا من يدرك هذا في الدنيا فيعمل، ومنّا من يدرك هذا حين يكون قد فات أوان العمل.

وإن الله يحذرنا منه بقوله {وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ} [آل عمران 178]، فالله يتركني في الدنيا ليحاسبني على ما تراكم

[1] سنن الترمذي 2242.

[2] صحيح البخاري 4318.

عليَّ في الآخرة. هذا لأن الله يمكر للماكرين والذين يحسبون أنهم سيفلتون من عذاب الله (كمن يُمَنِّي نفسه بالتوبة عندما يكبر بعد أن "يعيش حياته")، ومكر الله على مستوى آخر لا نتخيله ولا نتوقعه ولا نطيقه... ولا يقتصر عليَّ ما ضُرب لنا من الأمثلة. فالذي خلق كل شيء قادر أن يمكر بطرق مختلفة لا نحصيها عددًا ولا قدرًا ولا تنوعًا.

فليحذر الذين قد يظنون أن مكر الله يقتصر بأن يتركهم على حالهم في الدنيا ثم يُحاسبهم في الآخرة، بل إن الله قد يستدرج العبد حتى يزداد إثمًا فيزداد وضعه تفاقمًا في الآخرة، كأن يفتح الله له فرصًا لمعاصٍ أخرى، أو يُزين له المعاصي فلا يستطيع ذلك الماكر أن يُقاوم إغراء المعاصي له، فينكب على معصية أخرى في حين أنه قد لا يُحبها حتى! وأي مصيبة تكون تلك عندما تتنكر المعصية في هيئة نعمة للعبد، مثل مصدرٍ طائلٍ من المال ولكن يكون عن طريق الحرام؟! فعن النبي (صلى الله عليه وسلم) جاء "إِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنْ الدُّنْيَا عَلَى مَعَاصِيهِ مَا يُحِبُّ فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ"، ثُمَّ تَلا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ {فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ}[1].

وفي هذا السياق جاء {فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُواْ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلّ اللّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا} [النساء 88]، {إِنّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظّالِمِينَ} [القصص 50]. وبعد هذا يتطور حال العاصي بحيث إنه لا يستطيع الرجوع ولا الإقلاع عن طريق المعصية فيصبح كالمدمن للمخدرات، فقد ختم الله على قلبه مكرًا. ولا يتركها العاصي مع أنها تُذله، فيحب المعصية وهي تذله، ذُل عليَّ ذُل والعياذ بالله. فأين إحساسي وإدراكي بكل هذا من الجهة التطبيقية بأن أخشي الله ولا أعصيه؟ إني لو كنت حيًّا لاستحييت من الله، فهل أنا حي القلب؟؟؟

ومكر الله بالعبد قد يصل إلى مرحلة أنه يُدخل العبد في فخٍ لا قبل له بالخروج منه، وذلك عادة ما يكون في صيغة أن الله يُنعم على العبد وهو عاصٍ حتى يتثبت ويركن ذلك العبد إلى تلك النعم، فلا يستطيع التخلي عنها من أجل الله بإصلاح نفسه كما أمره الله! بل وقد يقتنع بفكرة أن تلك النعم دليلٌ على حُب الله له ورضاه عنه، فقد غرق مثل هذا في عمق الضلال إلى حد أنه يلتبس عليه الأمور حتى يقتنع أن ما يحدث معه هو مكافأة له بدلًا من توريط له! فقد قال الله تعالى {أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ (55) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لا يَشْعُرُونَ} [المؤمنون 55-56]، وهذا أحد الأدلة على أن الله يُنعم على الذين يعرضون عنه ليجعل النعم دَينٌ عليهم فيشق عليهم الحساب يوم القيامة، بتعدد نعمه عليهم دون أن يوفوا حقوقها.

[1] مسند أحمد 16673.

ودليل آخر هو قول الله عز وجل {وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (33) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِؤُونَ (34) وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ} [الزخرف 33-35]. فلو كان الله يحبهم لعاتبهم وعاقبهم بلطفٍ في الدنيا كي يرجعوا إليه، ولكن قد صرف الله نظره إليهم بسبب قبح أفعالهم فمكر بهم وأملي لهم كي يُضاعف لهم العذاب بما كسبوا يوم القيامة. فإن الله لا يبالي بهم لدرجة أن الأمر لا يقتصر على عدم المعاتبة فحسب، بل ويُنعم عليهم، مما يدعو للريبة لمن كان له عقل يتفكر به. فعلامة حب الله للمرء أن يعاقبه بلطف ورأفة على معصيته في الدنيا حتى يُكَفِّرُ عنه ما صنعه، ولكي ينيب العبد إلى الله، والعكس صحيح.

وجاءت آيتان تجعلان المرء يرتعد لما ينتابه من كيفية مكر الله، وذلك في قوله تعالى {مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ}، فمن منا لا يريد متاع وزينة الحياة الدنيا بطبعه؟ ثم يتساءل المرء، إذا كان لمن يريد متاع الدنيا أن يفيض الله عليه من ذلك ويجعله يُحَصِّل جوانب الدنيا ويتمكن منها فلماذا لا نطلب نحن من الله ذلك؟! ثم تأتي الآية التي تليها مباشرةً {أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [هود 15-16]، فنتساءل بل من الذي يريد ذلك؟! ويكأن الله يُرينا لمحة من مكره في تلك الآيتين، إذ إنه يُخيِّر العبد في الآية الأولى ويُعرِّفه أنه إذا تمنى الدنيا فإنه تعالى سيعطيه إياها ويوفِّيه أعماله الصالحة فيها، ولن يحجب الله عن ذلك العبد من حقه شيئًا، ثم في الآية التالية يُبين للمرء ما عليه إذا اختار تلك الصفقة.

أما عن محاولة المكر مع الله فقد قال تعالى {وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ} [يونس 21]. اللهم إنا نعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك ونعوذ بك منك، لا نُحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك. اللهم إنا لا قِبَل لنا بمكرك ولا عذابك، فاللهم اغفر لنا وتجاوز عن سذاجتنا إن أخطأنا وظننا أننا نمكر على قوانينك واعف عنا. إن الآية تكلمت عن المشركين ولكن قد يصدر المكر من مسلمين أيضًا بدرجات أدنى، فقد يقع المسلم في فخ الاعتقاد أنه يستطيع أن يمكر على أحكام الله وشريعته -أي يتحايل عليها-، وهذه درجة دون درجة الذي يمكر بأحكام الله وآياته (الفرق هو "بالأحكام" بدلًا من "على الأحكام") كما فعل المشركون بمحاربة الإسلام في محاولةٍ لإخماده.

ففيما يخص بمن يمكر بأحكام الله (أي بالإسلام جملةً) فهم ما بين منافقٍ وكافرٍ، والمنافق هو الأخطر على الإسلام إذ قد يجعل الأمور تلتبس على المسلمين الصادقين عن طريق إشعال الفتن ونشر الفساد الخُلُقي لهدم المجتمع الإسلامي والقضاء على الإسلام. فمثلهم كما قال تعالى {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ (8) يُخَادِعُونَ اللّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا

يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ} [البقرة 8-9]، فظنوا أن مكيدتهم تفلح وقد انخدعوا أنهم يخدعون المؤمنين. ثم بيَّن تعالى أنهم يُعاندون بالباطل على أنهم لا يُفسدون في الأرض، بل وربما يدّعون أنهم يُريدون الإصلاح، بالرغم من أعمالهم المُفسِدة {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (11) أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ} [البقرة 11-12].

وفي نقطة جانبية، فحتى إن رغب أحد هؤلاء المُفسدين أن يُصلح في الأرض فعليًّا، مثل الحاكم الذي يدَّعي أنه يُعمِّر الأرض لرعيته هكذا، فإن أغلب ما يُحققه في الدنيا يذهب هباءً، وفي الآخرة أيضًا تذهب مشاريعه كلها هباءً إذ بُنيت على باطل. ففي الدنيا، إن الله لا يُبارك له فيما يسعى فيه فلا يُتم المُفسد ذلك المشروع إلا بشِقِّ الأنفُس، ومعلوم أن الإنسان في حاجة إلى توفيق الله ليُتم الأمر لأن الله هو الذي يُمسك بزمام جميع الأمور، والله يرفع بركته من العمل الذي يدخل فيه الباطل، فهو يسير عكس إرادة الله، فأنى يُفلِح؟ بل وربما يهدم الله ذلك العمل في الدنيا (وليس فقط يرفع بركته) لأنه من شخصٍ مفسد، وذلك استنادًا إلى حكمة سيدنا موسى (عليه السلام) {فَلَمَّا أَلْقَواْ قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ} [يونس 81].

وأيضًا يؤيد ذلك جزء من حديث (ضعيف الإسناد) لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) "وَلا يَكْسِبُ عَبْدٌ مَالًا مِنْ حَرَامٍ فَيُنْفِقَ مِنْهُ فَيُبَارَكَ لَهُ فِيهِ، وَلا يَتَصَدَّقُ بِهِ فَيُقْبَلَ مِنْهُ، وَلا يَتْرُكُ خَلْفَ ظَهْرِهِ إِلا كَانَ زَادَهُ إِلَى النَّارِ، إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لا يَمْحُو السَّيِّئَ بِالسَّيِّئِ وَلَكِنْ يَمْحُو السَّيِّئَ بِالْحَسَنِ، إِنَّ الْخَبِيثَ لا يَمْحُو الْخَبِيثَ"[1]. وهذا يعني أن الله لا يُبارك في العمل في الدنيا، وأن ذلك المُفسد لا يستطيع أن يُصلح ما أفسده ببناء عليه -ولو شيئًا صالحًا- من مصادر لا تحق له مثلًا "إِنَّ الْخَبِيثَ لا يَمْحُو الْخَبِيثَ".

أما في الآخرة فإن الله يدك الأرض دكًّا فيكون سطحها كله مستويًا أملس، وهكذا تصير مشريع المُفسِد هباءً من الجهة الملموسة، وليس له حسنات عليهن حتى إذ أتمَّهُن بمُخالفة شرع الله، وهكذا أصبحت هباءً من جهة القيمة أيضًا. بل وغالبًا سيأخذ على مشاريعه سيئات، خاصة إذا كان قد استولى على السلطة دون وجه حق، أو كان هناك أصناف أخر من الفساد في أثناء تنفيذ المشاريع مثل السرقة أو استقطاع لأملاك الناس أو حتى تجاهل أولوية مشروع أهم يحتاجه الناس.

فما يجب عليه فعله هو التوبة وإنشاء عمله الصالح من مصادر وبطرقٍ طيبة غير مُحرَّمة، حينئذ يُبارك له الله في الدنيا ويقبل منه للآخرة. آنذاك يُشبِه حاله بامرئٍ يسعى وهو آخذٌ بشريعة الله -ولو مع عدم اكتمال الأسباب عنده- ولكن يُبارك له الله ويُعينه حتى يصل إلى غايته، كأن يدعو المرء أن يعينه الله في أمرٍ مُباحٍ يرى أنه يستطيع نيله، فيوفِّقه الله فيناله!

---

[1] مسند أحمد 3490.

ورجوعًا للموضوع الأصلي عن المُفسدين الذين يزعمون أنهم يُصلحون، وقد يكون ذلك توهمًا منهم (أي مخدوعين) أو معاندةً بالإنكار (أي معاندة اعترافهم بفسادهم خُبثًا منهم)، ولكن ما يُجزم فسادهم أنهم يُخالفون كثيرًا من القوانين خصوصًا بعيدًا عن أعين الناس. وإضافةً إلى ذلك، فإنهم في الخفاء يُظهرون بين بعضهم نياتهم الحقيقية الفاسدة لتقوى شوكتهم {وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ} [البقرة 14]، وجاء أيضًا {وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُواْ بِالَّذِيَ أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُواْ آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [آل عمران 72]. وهؤلاء مصيرهم معروف، فبمكرهم قد مكر الله بهم وسيجمعهم في جهنم مع الكافرين بما والوهم وتشبهوا بهم، فكما اجتمعوا مع المشركين في الدنيا سيجمعهم الله بهم في الآخرة {إِنَّ اللّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا} [النساء 140، جزء من الآية].

وفيما يختص بالمكر على أحكام الله، وهو ما يصدر من بعض المسلمين، فهو ظن المرء أنه يستطيع أن يُكثر من المعاصي ويفعل ما يشاء ما دام على كلمة الحق (شهادة أنه لا إله إلا الله)، أو أنه سيتوب ويحسن عمله قبل مماته فيفوز بمنزلة ممن يتقي الله منذ صغره. ولكن مثل ذلك النمط التفكيري كله أوهام وخدع يسوله الشيطان والنفس التي تريد تلبية هواها. السؤال القاطع عن كل تلك الخواطر التي تأتي للإنسان هو: أيعجز الله أن يميّز في الجزاء، سواء بالمكافأة أم بالعقاب، بين اثنين الفرق بينهم مثقال ذرة في العمل؟ ليس من العدل أن يفوز من أصلح فقط في آخر عمره (عمدًا) بمثل من كان صالحًا منذ صغره، وإن من أسماء الله هو العدل وقد حرّم على نفسه الظلم، فكيف يرضى بالتساوي بينهما لمن أحسن مع الله منذ صغره؟!

والأدلة على ذلك كثيرة، مثل قول الله تعالى {أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ} [ص 28]، فهي تنطبق على مختلف المستويات بين المسلمين أيضًا وليس بين المسلمين والمشركين فحسب. وأيضًا هناك الآية {وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ} [الأنفال 75، جزء من الآية]، فحملت في معناها أن الذين هاجروا ولكن بعد السابقين الأولين من المُهاجرين فأولئك هم المُضاف إلى السابقين "فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ" وفي منزلة أدنى فيما يختص بالهجرة. وكذلك حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن السبع فئات من المسلمين الذين يُظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، فمن هؤلاء جاء "وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ"[1].

فهذا الظن بالفوز بنفس منزلة الذي كان يعمل طوال حياته، أو حتى النجاة من النار مثله، إنما ذلك ظنٌ باطل، فكلٌ له مكانه بحسب عمله؛ ومن السفاهة الإقتناع بتلك الفكرة إذ في تلك النظرية عدة علل كما تم بيانه بفضل الله في جزء 'في لحظات صدق مع النفس'. والأدهى من هذا أن كيف

[1] صحيح البخاري 1334.

أن نأمن مكر الله إن مكرنا بتلك الطريقة، وقد سبق ذكر بعض أساليب مكر الله التي قد تصيب من يفعل ذلك فتحيل بين المرء وما أراده.

فالحذر الحذر من الأمن من مكر الله، وهو من الكبائر لما فيه من الاستهانة بقدرة الله وعذابه، وأن من تبعاته أن العبد يُسيء العمل. سُئل سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) عن الكبائر فقال "الشِّرْكُ باللَّهِ، واليأسُ من رَوحِ اللَّهِ، والأمنُ من مَكرِ اللَّهِ"[1].

عدم الاعتبار من الأمم السابقة التي أهلكها الله، أو عدم الخوف من الإصابة مما أصابهم. قال تعالى {فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ (46) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} [الحج 46-47]. هاتان الآيتان فيهما تحذير ووعيد شديد ونصيحة بالغة القيمة للناس. فسلبية المرء مما حدث للأمم السابقة مصيبة من مصائب الابتلاءات التي قد تصيب المرء، لأنه لن يُعتبر بالأفعال التي تسببت في جلب عقاب الله على الأمم السابقة وأدَّت لهلاكهم. بل ومن الناس من يمشي في مساكنهم ولا يؤثر ذلك فيه، وربما يسعد ويفتخر، وهذا من شدة مرض قلبه، ولسان حاله يوشك أن يكون أنه يتحدى قدرة الله، وربما لذلك أوصى الرسول (صلى الله عليه وسلم) الصحابة بالبكاء، أو على الأقل التباكي، إذا مرّوا بأممٍ أهلكهم الله.

وفي الآية لفتة إلى ما قد بلغه أصحاب تلك القرية من تقدمٍ في عصرهم، إذ كان لهم قصر مشيد في ما مضى، ومع ذلك لم يقيهم ما بلغوه من علمٍ وتعميرٍ من عذاب الله، وهي خاوية لم تُسكن من بعدهم حتى الآن كما نرى. بل وكأنهم لم يحيوا قط، ولم يكن ليُعرف أن كان لهم وجود ههنا إلا بتلك الآثار المتبقية من قريتهم، وهذا مثل ما جاء في قول الله تعالى {الَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ الْخَاسِرِينَ} [الأعراف 92] أي لم يكن لهم أثر على وجودهم، وفي هذا عبرة لمن يعتبر. فكيف يمشي المرء في مكانٍ نزل به عذاب الله تنكيلًا بظالميه وعبرةً لمن بعدهم ثم لا يخاف؟ فكان في ذلك المكان أناس يعيشون أحياء مثل ما هو حي ووقع بهم عذابٌ شديدٌ من الله وهم لم يكونوا يتوقعونه إطلاقًا، ولم يكونوا يُصدِّقون قابلية حدوث ذلك معهم.

أما الذي لا يعتبر فقلبه ميت، فلا يُبصر ولا يسمع ولا يعي، وقد وصَّانا الرسول (صلى الله عليه وسلم) عندما مر بِالْحِجْرِ (وهو مكانٌ أنزل الله فيه عقابه على سُكَّانِه فأهلكهم، وجاء في فتح الباري أنهم قوم ثمود) فقال "لا تَدْخُلُوا مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ، إِلا أَنْ

[1] الدر المنثور للسيوطي 367/4؛ وقال إسناده حسن.

تَكُونُوا بَاكِينَ"، ثُمَّ قَنَّعَ رَأْسَهُ وَأَسْرَعَ السَّيْرَ حَتَّى أَجَازَ الْوَادِيَ[1] (قَنَّعَ رَأْسَهُ أي غطّى رأسه). فمن لم يستعظم أمر ما حدث لهم من الله فهو أكثر عُرضةً للوقوع في المعاصي لأنه يُسيء تقييم عظم أمر العذاب، وليس لعذاب الله عنده هيبة، والمصيبة تكون في أنه لا يضمن أين ينتهي به ذلك التهاون.

ومن قمة الاستخفاف بعذاب الله هو ما صدر من فئةٍ من الظالمين قد تمادوا، فلم تقتصر جُرأتهم على الأمن مما أصاب الأمم السابقة التي عذَّبهم الله ونكَّل بهم، بل تجبروا وفجروا لدرجة أنهم سكنوا في نفس مساكن تلك الأمم! وذِكر الله لتلك الفعلة من الظالمين يدل على مدى قبح صنيعهم ذلك عند الله، كما بيَّن في كتابه الكريم {وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ} [إبراهيم 45]. فمن منا يجرؤ أن يسكن في بيت أناس قد علم أن الله صب عليهم العذاب صبًّا في هذا المكان تحديدًا، ونكَّل بهم بما لم يُنكَّل بمثله أمة من قبلم، ما بين فيضان أو صيحة أو ريح أو حجارة مع إقلاب أو غير ذلك مثل البراكين والزلازل؟

تناقض الفعل مع القول. قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (3) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ} [الصف 2-3]. الحمد لله الذي يخاطبنا ويعاملنا بالرأفة واللطف بالرغم من غناه عنا وقهره إيانا. وحقًّا، إنها لصِفةٌ مذمومة أن يعمل المرء بما يُخالف قوله، ومن المخالفة أن يعصي العبد ربه لأن العبد عندما يقبل الإسلام يقبله بأحكامه، ويُبنى على ذلك عهد تلقائي بطاعة الله والبعد عما نهى. والمعصية تُعتبر شرخًا في العهد الذي بين العبد وربه، فمن زلت نفسه وعصى ربه أحيانًا ولكن لزم الاستغفار يُرجى له مغفرة الله وعفوه بإذنه تعالى، والأرجح أن الله سيتجاوز عنه استنادًا لقوله {الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى} [النجم 32].

ولكن المشكلة فيمن يُسرف في المعاصي لأن ذلك يكون مناقضًا لما عهد به، إذ إن عمله يدل على خلاف ما يقوله. فحينئذ يكون العبد مُعَرَّضًا للوقوع في الضلال دون رجعة إن أطال، أو يقع في النفاق ويظل على ذلك حتى يُختم له فيلقى الله على ذلك الحال، فوجب الإقلاع عن المعصية في أقرب وقت ممكن حتى لا تتمكن من القلب.

فما لي أُسرف في المعاصي وأنصرف عن استغلال وقتي في طاعة الله، وقد نبأنا الرسول صلى الله عليه وسلم أن لله عبادًا على خلاف ما أنا عليه قائلًا "إنَّ للهِ تَعالى مَلائكةً ترعَدُ فَرائصُهم مِن خيفتِه، ما مِنهُم مَلَكٌ تقطُرُ دَمعةٌ مِن عينِهِ إلا وقَعتْ علَى ملَكٍ يُصلّي، وإنَّ منْهُم ملائكةً سجودًا

[1] صحيح البخاري 4067.

منذُ خَلقَ اللهُ السَّماواتِ والأرضَ لَم يرفَعوا رؤوسَهم ولا يرفَعونَها إلى يومِ القيامةِ، وإنَّ منْهُم ملائِكةً رُكوعًا لَم يرفَعُوا رؤوسَهم مُنذُ خلقَ اللهُ السَّماواتِ والأرضَ ولا يَرفعونَها إلى يومِ القِيامةِ، فإذا رفعُوا رؤوسَهم نظَرُوا إلى وجْهِ اللهِ عزَّ وجلَّ قالوا: سُبحانَك ما عَبدنَاك حقَّ عبادَتِكَ"[1]. فمن أين يأتي أمني هذا مما سيُفعل بي يوم القيامة؟

ومن أنواع القول دون عمل أن المرء يقول أنا أحب الله بينما لا يحافظ على الصلوات ولا يقرأ القرآن ولا يلتزم بمنهج وآداب الإسلام، بل ويعصي الله كثيرًا. وأيضًا من يقول إنه يحب الإسلام وجب عليه التفقه فيه والالتزام به، ويرغب في تحكيمه وتمكينه من كل جوانب الحياة، فذلك هو الحفاظ عليه، وعكس ذلك هو هدم الدين، مثل من بسبب جهله (أو ضغينته وهو على علمٍ) أو كثرة معاصيه يعتدي على الإسلام فيسعى لفصل الدين عن نظام الدولة (أي السياسة) ومن ثمَّ الحياة العامة. ومن يقول إنه يُحب الرسول (صلى الله عليه وسلم) بصدق فهو يتبع منهجه ويستنّ بسُنته ويأتي ما أمر به ويمتنع عما نهى عنه، وليس لمن أثر المنهج الغربي على منهج وآداب الرسول (صلى الله عليه وسلم) زعمًا أن منهجه (صلى الله عليه وسلم) لا يواكب تقدم العصر.

وقد لخَّص إبراهيم بن أدهم (رحمه الله) العلة التي يراها وهو يمر في أَسواق البَصرَة واجتمع الناس حوله، فقيل له: يَا أبا إسحاق إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ فِي كِتَابِهِ {ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ}، وَنَحْنُ نَدْعُوهُ مُنْذُ دَهْرٍ فَلا يَسْتَجِيبُ لَنَا. فَقَالَ إبراهيم: يَا أَهْلَ الْبَصْرَةِ مَاتَتْ قُلُوبُكُمْ فِي عَشَرَةِ أَشْيَاءَ: أَوَّلُهَا: عَرَفْتُمُ اللَّهَ وَلَمْ تُؤَدُّوا حَقَّهُ، وَالثَّانِي: قَرَأْتُمْ كِتَابَ اللَّهِ وَلَمْ تَعْمَلُوا بِهِ، وَالثَّالِثُ: ادَّعَيْتُمْ حُبَّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَرَكْتُمْ سُنَّتَهُ، وَالرَّابِعُ: ادَّعَيْتُمْ عَدَاوَةَ الشَّيْطَانِ وَوَافَقْتُمُوهُ، وَالْخَامِسُ: قُلْتُمْ نُحِبُّ الْجَنَّةَ وَلَمْ تَعْمَلُوا لَهَا، وَالسَّادِسُ: قُلْتُمْ نَخَافُ النَّارَ وَرَهَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِهَا، وَالسَّابِعُ: قُلْتُمْ إِنَّ الْمَوْتَ حَقٌّ وَلَمْ تَسْتَعِدُّوا لَهُ، وَالثَّامِنُ: اشْتَغَلْتُمْ بِعُيُوبِ إِخْوَانِكُمْ وَنَبَذْتُمْ عُيُوبَكُمْ، وَالتَّاسِعُ: أَكَلْتُمْ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ وَلَمْ تَشْكُرُوهَا، وَالْعَاشِرُ: دَفَنْتُمْ مَوْتَاكُمْ وَلَمْ تَعْتَبِرُوا بِهِمْ[2].

وفي لفتة أخيرة، يجب أن نُدرك من هو سيدنا حذيفة بن اليمان (رضي الله عنه) قبل أن نُدرك وزن كلامه الآتي، فهو صاحب سر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إذ استأمنه على أسماء المنافقين، فكان يعرفهم ويراقب تصرفاتهم ويُلاحظ صفاتهم المُشتركة. إضافة إلى هذا، كان يسأل الرسول (صلى الله عليه وسلم) عن شر الأمور (مثل الفتن) مخافة أن يقع فيهن بينما كان الناس يسألونه عن الخير، فكان مُلمًّا بأمراض الأفراد والمجتمع. وبذلك فهو مِن أحق وأجدر وأدق الناس في وصف النفاق، وقد سأله رجل مرةً: مَا النِّفَاقُ؟ فقَالَ: أَنْ تَتَكَلَّمَ بِالإِسْلامِ وَلا تَعْمَلَ بِهِ[3]. فليحاسب كل

---

[1] تفسير ابن كثير 297/8، قال عنه: إسناده لا بأس به؛ وضعفه الألباني.

[2] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء للأصبهاني 15/8-16.

[3] سير أعلام النبلاء لمحمد الذهبي 363/2.

واحد نفسه على هذا، وذلك أدعى أن يكون نافعًا أكثر –له وللأُمّة– من أن يُحاسبه غيره من الناس، إذ المرء أعلم بعمله من غيره، والله أعلم بعمله منه. وليُقيّم المرء نفسه هو من أي الفريقين، الفريق الذي وافق عمله قوله أم من الذين عملهم يُخالف أقوالهم؟

عدم الاحتراز من فتنة المال. إن فتنة المال خاصةً من أشد فتن الدنيا التي تستميل المسلم، فهي سهلة التسلل إلى القلب خاصة أن العبد يحتاج إلى استخدامه كي يُقيم شؤونه، فلا يمكن غلق باب التعامل بالمال، فيسهل الاغترار بتعدي الحد الذي بين الجائز والحرام. والمال فتنة للثري حتى، فما بالنا بالوساوس التبريرية التي تطرأ للذي لا يجني ما يكفيه كي يُحصّله؟ والنتيجة هي أن المال قد يجعل الرجل العابد التقي يتغير، إلى حد أنه قد يتجاوز الأحكام الشرعية ويتخلى عن الأخلاق الحسنة للتحصيل والإكثار من المال، فيلجأ مثلًا إلى الخداع والكذب والتخاصم لجمعه. بل والأسوأ من ذلك، أنه قد يُجالس أو يتملق للظالم والفاسق كي يجني المال.

قد أنذرنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) من فتنة المال قائلًا "إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنَةً، وَفِتْنَةُ أُمَّتِي الْمَالُ"[1]. وقال (صلى الله عليه وسلم) "مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلَا فِي غَنَمٍ بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ لِدِينِهِ"[2]، أي أن حب المال والسُمعة بين الناس يُفسد الدين أكثر مما يُفسد ذئبان جائعان أُطلقا على قطيع غنم. ويروي لنا سيدنا حَكِيمِ بن حِزَامٍ (رضي الله عنه): سَأَلْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [أي نصيا من مال] فَأَعْطَانِي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ قَالَ "إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِطِيبِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ وَكَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ؛ وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنْ الْيَدِ السُّفْلَى"[3] (بِإِشْرَافِ نَفْسٍ أي تَطَلُّعُهَا إِلَيْهِ وَتَعَرُّضُهَا لَهُ وَطَمَعُهَا فِيهِ؛ وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنْ الْيَدِ السُّفْلَى أي الذي يُنفق مما يكتسبه خير من الذي يسأل ويأخذ المال).

بهذه العظات، وبغيرهن مما ذُكر في مواضع متفرقة في هذا الكتاب، يجب أن نتقي الله ونحذر من فتنة المال، فالصحابة (رضي الله عنهم) كانوا يتهربون من تراكم المال عندهم خشية أن يفتنهم، ويعتبرونه بابًا من أبواب الدنيا فتح عليهم، فكان يرى كثير منهم أنه ابتلاء. قد جاء عن سعدي بنت عوف المرية (وهي زوجة سيدنا طلحة بن عبيد الله، رضي الله عنهما) راويةً: دَخَلَ عَلَيَّ طلحة ذَاتَ يَوْمٍ وَهُوَ خَائِرُ النَّفْسِ [أي مَغْمُومًا]، فَقُلْتُ: مَا لِي أَرَاكَ كَالِحَ الْوَجْهِ، مَا شَأْنُكَ، أَرَابَكَ مِنِّي شَيْءٌ فَأَعْيَنَكَ؟ قَالَ: لا، وَلَنِعْمَ خَلِيلَةُ الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ أَنْتِ، قَلْتُ: فَمَا شَأْنُكَ؟ قَالَ: الْمَالُ الَّذِي عِنْدِي قَدْ كَثُرَ

[1] سنن الترمذي 2258.

[2] سنن الترمذي 2298.

[3] صحيح مسلم 1717.

وَأَكْرَبَنِي، قُلْتُ: وَمَا عَلَيْكَ، اقْسِمْهُ! [أي تصدق به]، فَقَسَمَهُ حَتَّى مَا بَقِي مِنْهُ دِرْهَمٌ وَاحِدٌ، فَسُئِل خَازِنَ طلحة: كَمْ كَانَ الْمَالُ؟ قَالَ: أَرْبَعُمِائَةِ أَلْفٍ[1]. وروي أيضًا أنه (رضي الله عنه) بَاعَ أَرْضًا لَهُ بِسَبْعِ مِائَةِ أَلْفٍ، فَبَاتَ أَرِقًا مِنْ مَخَافَةِ ذَلِكَ الْمَالِ، حَتَّى أَصْبَحَ فَفَرَّقَهُ[2].

لننظر إلى قَلَقه من فتنة المال ومن عبء المحاسبة عليه يوم القيامة، حتى إن الأمر قد همَّه وغمَّه. وانظروا إلى عون زوجته له، فنعم زوجة المُعينة على الخير وسيدنا طلحة يُدرك هذا، فقد سألَتَه أولًا إن كان صدر منها خطأٌ أحزنه منها، ثم عندما علمت أن المال هو الذي أهمَّه أشارت إليه أن يُفرِّقه في قومه، ولم تصده وتقول له إن أهله أولى بالمال أو أن الأفضل أن يدَّخره لنفسه. فكذلك تكون الزوجة الصالحة الطيبة المُعينة على الخير، وكذلك يكون الرجل الصالح التقي. فأين أنا من مثل هذا الإيمان؟! فإني وللأسف أُرَحِّب بالدنيا أحيانًا، فلماذا أعصي ربي، وبماذا، بشيء قد خلقه وسخره لي كي يختبرني به، وسوف ينفد مني أو أنفد أنا عنه، وسيفنى ولا بُد في الآخرة، فبدلًا من أن أزداد نفعًا به أضر نفسي به! ما هذا الفكر؟! هل أستحق الجنة بهذه الأفعال؟ بالطبع لا تجوز الجنة لمن فضّل معصية الله على إرضائه.

وقد يتساءل أحد: أليست فتنة النساء أشد وأخطر، وكيف نجمع بين حديث "وَفِتْنَةُ أُمَّتِي الْمَالُ" وقول الرسول (صلى الله عليه وسلم) "فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ"[3]. أظن بالفعل أن فتنة النساء أشد وتحتاج إلى حرص أكثر، ولكن قد تكون الأمة الإسلامية عامةً لا تقع في فتنة النساء كالأمم السابقة لأنها تتبع منهج الإسلام عامةً في تجنب تلك الفتنة، متمثلًا في أمور مثل حجاب المرأة وغض البصر، وتفادي التصافح والاختلاط والخلوة وغير ذلك. وبذلك فإن المسلمين قد يسلمون من فتنة النساء عامةً ولكن يقعون في فتنة المال، ويؤكد هذا الكلام أنه جاء في الحديث الأول أن فتنة الأمة الإسلامية تكون في المال، وفي الحديث الأخير جاء أن فتنة بني إسرائيل كانت في النساء.

يضاف إلى هذه النقطة أن إحصائيًّا تكون نسبة المفتونين من المسلمين بالمال أكثر من المفتونين بالنساء، خاصة أن فتنة النساء تكون فقط على الرجال، ولكن فتنة المال تكون على الرجال والنساء. وهذا الكلام يؤيده حديث آخر "مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنْ النِّسَاءِ"[4]، فجاء التحديد في الرجال. ولكن مما لا شك فيه أن فتنة النساء أقوى من فتنة المال كما دُل على ذلك في القرآن والسُّنة، والله أعلم.

---

[1] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء للإمام الحافظ أبي نعيم الأصبهاني 88/1.

[2] سير أعلام النبلاء لمحمد الذهبي 32/1.

[3] صحيح مسلم 4925.

[4] صحيح البخاري 4706.

إلمامًا بالنصيحة، قد قال العلماء إن العبد إذا سلِم من الآفات المتعلقة بالمال لم يعد مذمومًا ولا عبئًا على صاحبه. وتلك الآفات هي: اكتسابه من حرام، إنفاقه في الحرام (شاملًا الإسراف والتبذير)، البخل (عن الزكاة والتصدق)، الانشغال به عن الله (سواء بالحرص على جمعه أم بالحفاظ عليه)، العُجب والغرور لامتلاكه، احتقار الأفقر منه. أنا شخصيًّا أعرف أناس كانوا يذهبون إلى المسجد لأداء الصلوات المكتوبة، ولكن عندما كثر تردد الناس على تجارتهم انشغلوا بتجارتهم عن الذهاب إلى الجماعات، فبئس مثل تلك التجارة – تجارة خاسرة في الحقيقة. فالحذر الحذر، لأن الانزلاق سهل مع المال.

قد أجمل يحيى بن معاذ القضية قائلًا: الدرهم عقرب، فإن لم تحسن رُقيَتَه فلا تأخذه، فإنه إن لدغك قتلك سُمّه، قيل: وما رُقيته؟ قال: أخذه من حِلِّه ووضعه في حقه[1]. فموعظة لمن يحرص على جمع المال: أن من يُخالف هذه القاعدة فهو يوشك أن يكون من أحد ثلاثة نماذج هالكة:

الأول هو من يجمع مالًا ولو من الحرام، ولا يدفع الزكاة، وينفق على نفسه في المُحرمات، فله الخُسارة الفادحة والهلاك، إذ إن وزره في الدرهم الواحد يتعدد، فهو في ورطة عندما يُسأل لحظة الحساب "وَمَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ"[2]. والثاني خاسرٌ أكثر، وهو مثل الأول ولكن يبخل بالمال على نفسه أيضًا كي يُنَّمِّيه، فهذا يُعاني على عدة مستويات في الدنيا إضافيًّا بالرغم من امتلاكه المال، مثل الذي لا يُنفق ليُداوي نفسه من مرضه حرصًا على تراكم المال إلى أن يموت، فينطبق عليه قول يحيى بن معاذ في صاحب حق المال: مصيبتان للعبد في ماله عند موته لا تسمع الخلائق بمثلهما، قيل: ما هما؟ قال: يؤخذ منه كله، ويُسأل عنه كله[3]. والثالث أخسَرَ منهما، وهو الذي يتمنى أن يكون مثل رجلٍ عنده مال يُنفقه في المُحرمات، فهو كما قال عنه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "فَهُمَا فِي الْوِزْرِ سَوَاءٌ"[4]، تساوى في الوزر مع الذي تمنى أن يكون مثله، وهذا بالرغم من عناءه من الفقر! فلنتعظ من هذه المصائر.

التشبه أو التشابه بغير المسلمين فيما زجر عنه الإسلام، سواء في القول أم الفعل أم المظهر. جاء في كتاب الله الكريم {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمّنِ افْتَرَىَ عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذّبَ بِآيَاتِهِ إِنّهُ لاَ يُفْلِحُ الظّالِمُونَ (21) وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمّ نَقُولُ لِلّذِينَ أَشْرَكُواْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ الّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (22) ثُمّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاّ أَن قَالُواْ وَاللهِ رَبّنَا مَا كُنّا مُشْرِكِينَ (23) انظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىَ أَنفُسِهِمْ وَضَلّ عَنْهُمْ مّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ

[1] إحياء علوم الدين للغزالي 240/3.

[2] سنن الترمذي 2340، جزء من الحديث.

[3] مختصر منهاج القاصدين لابن قدامة المقدسي 213.

[4] مسند أحمد 17336، جزء من الحديث.

(24) وَمِنْهُمْ مّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىَ قُلُوبِهِمْ أَكِنّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيَ آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِن يَرَوْاْ كُلّ آيَةٍ لاّ يُؤْمِنُواْ بِهَا حَتّىَ إِذَا جَآءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَـَذَآ إِلاّ أَسَاطِيرُ الأوّلِينَ (25) وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلاّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (26) وَلَوْ تَرَىَ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النّارِ فَقَالُواْ يَلَيْتَنَا نُرَدّ وَلاَ نُكَذّبَ بِآيَاتِ رَبّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (27) بَلْ بَدَا لَهُمْ مّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنّهُمْ لَكَاذِبُونَ (28) وَقَالُوَاْ إِنْ هِيَ إِلاّ حَيَاتُنَا الدّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (29) وَلَوْ تَرَىَ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىَ رَبّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَـَذَا بِالْحَقّ قَالُواْ بَلَىَ وَرَبّنَا قَالَ فَذُوقُواْ العَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ} [الأنعام 21 – 30].

عذاب الله للذين كفروا هو النار... الذين جحدوا بحق الله وتحدوا البعث والعقاب –ولو كان هذا بأعمالهم دون قولهم–. يومئذ يقولون حين يُعرضون على جهنم أنها حق، الحق في أن هناك بعثًا وعقابًا، وحق عليهم أن يدخلوها استحقاقًا لتكذيبهم بها ولأعمالهم المخالفة لأوامر الله.

وما أردت الاستدلال به من هذه الآيات هو أن الله لا يظلم أحدًا، لدرجة أن الكافر يشهد على نفسه بأنه يستحق العذاب حين يُعرض على جهنم، بالرغم من إرادته الفداء منها. إذا ما بال حالي إن حُكِمَ عليَّ بجهنم، حُكم عليَّ بالدخول المكان المخصص لتعذيب الكافرين! حُكم عليَّ هكذا بسبب أعمالي. يا ويلي، ما مدى قبح أعمالي حتى أُفصل مع الكافرين في الجزاء بناءً على العمل؟! فمن المعلوم أن من المسلمين من يدخل النار... ثم يُخرَج، ومن الناس من يزعم ويظن أنه مسلم بمجرد قوله هذا، بينما أعماله تُخالف ذلك فيدخل النار خالدًا فيها (مثل المنافقين).

واعلم أخي، أن كسرًا من لويحظة في النار لا يُعادلها كل ما في السماوات والأرض من اللهو. فلماذا أسلك طريقًا يُذلني في الدنيا بأن تكون لي معيشة الأنعام، وذلةٌ في الآخرة أيضًا بالحشر مع الكفار والمنافقين –ولو لفترة وجيزة–. ولئن دخلت الجنة بعد العذاب، ليحيك في صدري أني من أصحاب النار سابقًا، وأن الله غضب عليَّ لدرجة أنه حكم عليَّ بالعذاب دون أن يظلمني، ثم أدخلني الجنة بكرمه لأنه عطف وأشفق عليَّ، وليس لأنه رضي عني من أول وهلة. أسأرضى أن يُلصق بي لقب "جَهَنَّمِي"، ويكون حول رقبتي خاتمًا أُوسم به؟ أفلن أخجل أو أتحسر من ذلك؟! أفلا أحترز من حدوث هذا إذًا؟

فذلك هو لقب من يدخل النار من الناس بسبب أعمالهم، ثُم يُخرجهم الله برحمته عليهم لأنهم شهدوا أنه لا إله إلا هو. قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "لَيُصِيبَنَّ أَقْوَامًا سَفْعٌ مِنْ النَّارِ بِذُنُوبٍ أَصَابُوهَا عُقُوبَةً، ثُمَّ يُدْخِلُهُمْ اللَّهُ الْجَنَّةَ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ، يُقَالُ لَهُمْ: الْجَهَنَّمِيُّونَ"[1]، وفي (جزء من) رواية أُخرى "يُسَمِّيهِمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ: الْجَهَنَّمِيُّونَ"[2]. أما ما يظهر عليهم ليُعرَفوا من بين أهل الجنة، فهو

---

[1] صحيح البخاري 6896.

[2] مسند أحمد 4109.

كما نبأنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "فِي رِقَابِهِمْ الْخَوَاتِمُ"[1]، وأيضًا "وَيُكْتَبُ بَيْنَ أَعْيُنِهِمْ: هَؤُلَاءِ عُتَقَاءُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ"[2]. فلماذا المُجازفة، ولماذا لا أُزَكّي نفسي وأدخل الجنة مباشرةً صافيًا من تلك الشوائب برضا من الله؟

انظروا أيضًا إلى الأخطاء الجسيمة الكثيرة التي أوقع المشركون أنفسهم فيها، بينما هناك ممن يقول كلمة التوحيد قد تشابه معهم في بعضٍ من تلك الأفعال. فمثلًا، قد كذب الذين كفروا على الله أو كَذَّبوا بآياته، وبالمقارنة فإن هناك من الناس من يقول إنه مُسلمٌ ويُنكر حُكمًا أو شريعةً أو يُجادل في آية لأنها لا توافق هواه أو منطقه أو العصر بحسب رؤيته القاصرة.

وأيضًا إنهم يحلفون بالله أنهم لم يكونوا مشركين جحودًا، وربما فيهم من يُصدّق هذا من شدة غرقه في كذباته، وذلك يكون عادةً بسبب طول مكثه على تلك الكذبة حتى إنها تتمكن منه شخصيًّا. وعلى ذلك النحو، فإن من المسلمين من اتخذ إلهه هواه، أو الشيطان، أو فلانًا من السلاطين، أو أصبح عبدًا للدينار أو لامرأة أو غير هذا، وهكذا يكونون قد كذبوا على أنفسهم وهم لا يلاحظون أو لا يكترثون أنهم فعلوا ذلك في أنفسهم، وينكرون أن ذلك هو حالهم. وبما أن المُشرَك به يتبرأ من المُشرِك، سواء أكان صنمًا أم غير ذلك، فإن المسلم العاصي يتبرأ منه الشيطان والسلطان والأب ومثل هذا، ولكن أنى ينتفع بإدراكه ذلك آنذاك إذ قد قُضي الأمر، وأنى تنفع النصيحة أو الموعظة أو الحسرة، فقد فات الأوان.

ثم إن المشركين جادلوا بالباطل بالرغم من المواعظ، ومن المسلمين من يُصر على معصيةٍ ويُجادل بأن مُبرره منطقي ومشروع، أو أنه سيتوب في المستقبل، هذا وبالرغم من عدم محاولته لمجاهدة المعصية بصدق أو عدم إنكار قلبه لها، فقد أضلّ نفسه وهو لا يشعر. وأخيرًا هم يتحسرون أنهم لم يغتموا الهدى، ولا شك أننا كلنا سنتحسّر يوم القيامة على ما فرطّنا فيه من الأعمال وكان بإمكاننا اغتنامه (وهذا قبل المُجازاة على الأعمال، فأهل الجنة لا يتحسرون، بخلاف الذين يُقضى بهم إلى النار يستمر تحسرهم بل ويزداد)، ولكن من يتحسر في الدنيا على تقصيره عادةً ما يُصلح حاله، فيُقلِّص من حسرته يوم القيامة.

وفوق ذلك كله فإن عمل المجرمين الفاسد قد تأصَّل وتمكَّن من قلوبهم لدرجة أنهم إذا أُعيدوا إلى الدنيا لعادوا لما كان حالهم عليه، فإن القلب أُشرب وصُبغ بتلك المعاصي بسبب ترعرعه فيهن، فلنحذر من التعود على معصيةٍ ما. وهذا منهجهم لأنهم لا يؤمنوا بالبعث فآثروا الدنيا على الآخرة، والغريب أن هناك من المسلمين من يؤثر الدنيا على الآخرة مثلهم (بالأفعال دون شَرطية قولهم ذلك).

---

[1] صحيح مسلم 269، جزء من الحديث.

[2] مسند أحمد 12013، جزء من الحديث.

وما أردت بيانه هو أن للكافر صفات فادحة متعددة، وقد يتشبه بعض المسلمين ببعض صفات هؤلاء، وكلما زادت الصفات المتشابهة كلما كان مثلهم أكثر، ومن يفعل هذا يوشك أن يُهلك نفسه.

مع أنه ليس بمجزوم أنه سيكون منهم، ولكن يكفي قولًا إنه يوشك أن لا يُميَّز بينه وبينهم، أو أن يُحشر مبدئيًّا معهم في الآخرة، وكفى بهذا فزعًا وإهانةً وهلاكًا. فمثلًا، قد حذرنا عبد الله بن عمرو (رضي الله عنه) من التشبه بهم خاصة في أعيادهم وطقوسهم قائلًا: من بنَى ببلادِ الأعاجمِ، فصنع نَيروزَهم ومهرجانَهم، وتشبَّهَ بهم حتَّى يموتَ وهو كذلك، حُشِرَ معهم يومَ القيامةِ[1].

قد قال تعالى في رسالة تنبيهٍ وتوعيةٍ {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ} [الممتحنة 13]. هذه فتنة أخرى أصابتنا في عصرنا هذا، فنرى كثيرًا من الناس (ومنهم من له مكانة عند الناس لثرائه أو سلطته أو علمه الدنيوي) يرى أن الارتقاء اقتصاديًّا وأخلاقيًّا واجتماعيًّا وعلميًّا يكون بالاقتداء بالغرب ونبذ "قيود" الشريعة، فكرًا وتطبيقًا! فكل ما هو فيه من أفكار باطلة هي نتاج افتتانه بمتاع الدنيا الذي عندهم، الذي أعطاهم الله إياه من باب الاستدراج وتعجيل الحسنات بسبب كفرهم في المقام الأول!

ففيهم من شرب مبادئ المتقدمين في الدنيا من المشركين وأجَلَّهُم لدرجة أنه يرى التقدم هو تقليدهم ولو ظاهريًّا فحسب إن تمكَّنا! وأما التقليد الباطني الذي يتمناه فيتمثل في نبذ الدين والتركيز على الدنيا، ويتحقق هذا بفصل الدين عن الدولة (وعن باقي جوانب الحياة تدريجيًّا بخُبثه)، والعياذ بالله من السعي إراديًّا إلى الهلاك. فلا يظل يمتثل هذا الشخص بالكفار حتى لا نستطيع التمييز بينه وبين الكافر، قد اغتر بما لديهم من متاع الدنيا وتوهم أن العزة معهم، فباع دينه وكفر مثل ما كفروا هم بدينهم، وتلك حقيقة سبب كفره: طمعه في متاع الدنيا. وقد صدق الرسول (صلى الله عليه وسلم) فيما نبأنا به "لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَلْحَقَ قَبَائِلُ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ، وَحَتَّى يَعْبُدُوا الْأَوْثَانَ"[2]، فإننا نرى هذه الظاهرة تنتشر في زمننا هذا.

وفيما يتعلق بهذه القضية، فليس هناك أفيد وأجمل وأريح من اتباع نصيحة الله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ}، وإن تَجَهَّمَت لنا الدنيا وأعطتنا ظهرها، فلا ينبغي أن ننسى من نحن (عبادٌ لله)، ومن أين جئنا (من فترة جاهلية إلى نور الإسلام)، ومن الذي يَقدمنا يوم القيامة (صلى الله عليه وسلم). فلا وألف لا لفقد هويتنا كمسلمين ومن ثمَّ قيمَتُنا، ولا للتيهة عن مقصد خَلقِنا وعن هدفنا في هذه الدنيا، والذي ليس نيل الدنيا بعينها لأنها سَراب. وأقول لمن يريد اتّباع منهج الغرب أن وجب عليه قبول ما عندهم جُملةً، أي بالتبعات المتعلقة بتفعيل ذلك المنهج، وهو ألا تُعاقب زوجته إذا زنت إراديًّا، ويحق لابنته أن يكون لها حبيب تُرافقه، وألا يكون له سلطان

[1] اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية 513.

[2] سنن الترمذي 2145، جزء من الحديث.

على ابنه لأنه قد يستدعي الشرطة علي الأب إن رغب، ولابنه الحق في أن يكون شاذًّا جنسيًّا، وأن يكون له حفيد لا يتيقن مَن أبيه، فكل ذلك يندرج تحت مبدأ الحرية عندهم.

وفيما يتعلق بالعقوبات القانونية، وجب أن يستكين إلى مبدأ أن من يقتل أباه أو أخاه أو ابنه ثُم يُقبض عليه أنه لن يُعاقب بالقتل قصاصًا، وأن المغتصب لأحد نساء أهله لا يُقتل ولكن يُسجن لفترة ثُم يُطلق سراحه فحسب. ويجب أن يقبل المعيشة الهمجية المتفتتة بأن يدخل الخمر بيته، وألا يسأل عنه أبناؤه ولا أحفاده عندما يكبرون، ويرضى أن لا تُقام كلمة لا إله إلا الله في هذا البلد، وغير ذلك من السلبيات التي لا ينظر إليهن، أو حتى يُخفيهن، الذي يدعو لاتباع الغرب لأن مراده هو إبراز لنفسه وللناس جانب المحاسن دون الطوائم المرافقة لمنهجهم، وغرَّته حصرهم لمتاع الدنيا. ولكن يتجسد السؤال: هل الحياة دون دين عيشة أصلًا؟ إنما هي بقاء على الحياة فحسب.

وذلك الداعي يدعو للتفلت الخُلقي التام والفجور في النهاية، لأن من نبذ دينه ما الذي يحكمه من أن يفعل ما تُبرره له نفسه؟ وكان الأحرى لهذا الداعي أن يتخذ الإسلام المرجع الأساسي له بدلًا من جعل المشركين والكافرين مرجعيته في فكره وتصرفاته، لأنهم لن يرضوا عنه ما دام يقول إنه مسلمٌ، بل وسيعمدون إلى الإضرار به مكرًا أو على الأقل عدم المبالاة بهلاكه. والحقيقة هي أنه مهما تبعهم، حتى إن بلغ أنه أعلن خروجه عن الإسلام والدخول في دينهم مع بلوغ ما عندهم من متاع الدنيا فقبلوه أنه منهم، فإنه سيكون ذليلًا في الأرض لا محالة، لأن الواقع هو ما نبأنا الله به {الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا} [النساء 139].

ثم هناك بالطبع عاقبة أن من يتبع المشرك فإنه يصبح منهم، ويكون المشرك وَلِيّه وإمامه يوم يُدعى كل أناس بإمامهم –كما كانت علاقتهما في الدنيا–. أفلم يقرأ ذاك الداعي قول الله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [المائدة 51]. وكفانا ما عندنا من تفلت للأخلاق بما لا يخفى على أحد، مما يُشدد على ضرورة مخاطبة وإصلاح تلك المشكلة دون خلاف. أبدلًا من معالجتها نُنَكِّسَها؟!

والمشكلة في التشبه (هو التطابق في التقليد) أو التشابه (هو التقارب في التقليد) بالمشركين هي أن معتقداتهم تتوغل في كل جوانب حياتهم. فمثلًا، من حيث الملبس فيكون فيه عُري، والقوانين التي يضعونها تبيح الزنا ما دام برضا الطرفين، والأفكار كتحرير السياسة من الأحكام الدينية، وتعاملاتهم المادية يتخللها الربا وغيره، وولائمهم تتضمن مُسكِرات، وأغانيهم تشمل صراحةً أو بين سطورها الفجور، وتصل إلى حد أن بعضًا منها فيها سبٌ لله. ومن أخطر النقاط هي أنهم يميلون عقائديًّا، بما أنهم نبذوا اليقين بوجود الله، إلى أن الحياة نشأت طبيعيًّا دون مُسبب أو خالق،

أي أن الحياة بدأت بعوامل كيميائية وما شابه –نظرية تحور كل المخلوقات من خلية واحدة تصادفت الظروف البيئية أن تتكون وتحيا–، فيغرسون تلك الأفكار في عقول الأجيال القادمة عن طريق المناهج التعليمية، مما يُسهِّل على الأطفال الكفر بالله، ويكأنهم يُعلمونهم الكفر!

وبذلك، فإن اتباعهم يؤدي إلى فعل تلك الأمور أيضًا، مما سيُفضي بالمسلم إلى الشرود عن الصراط لا محالة. ضف إلى ذلك أن دعواهم الباطلة والسفيهة قد كثرت، فدعواهم الباطلة بلغت حد أن نشأ منها ديانات مُحرَّفة مُشتقة من اليهودية أو النصرانية، مثل الاعتقاد بأن يوم الدين هو يوم كذا (قد حدَّدوه أنه في أثناء حياتهم) فيستعدون له، أو أنهم مُطالبون بالانتحار كي ينجوا في الآخرة.

يضاف إلى ذلك أن ذاك المنهج يجذب إليه الدعوات السفيهة، والتي وإن لم تكن خاطئة في الأصل فإنها على الأقل تُلهي الإنسان عن ربه، وتدل على مدى شرد الداعي لها عن الهدى. فمنها أن هناك من يقترح تخصيص وقت من النهار يوميًّا لتمرينات صوتية يصيح فيها المرء، ومنهم من يقترح التواصل مع الطبيعة عن طريق حك الجسد مع الأشجار (لامتصاص "طاقة" الطبيعة للمنفعة الجسدية)، أو وضع دُمية لحيوان في غرفة المنزل، أو افتعال الضحك لمدة زمنية من أجل رفع المعنويات النفسية! وقد رأيت مجموعة من الشباب في بلدي، أحسبهم من المسلمين، يدعون الناس إلى الترابط والأُلفة بطريقة غريبة جدًّا، فكانوا يوزعون القُبَل والأحضان على من يرغب من الغرباء في ميدانٍ رئيسيٍ في البلد. فماذا أقول، فإنها دعوات أستحيي وأنا مُجردّ أذكرهن دون تطبيقهن، وهناك غيرهن لم أذكرهن من شدة شعوري بالسفاهة لذكرهن.

ولعل من أبرز تلك الدعوات السفيهة في هذه الفترة هي الاهتمام المبالغ فيه بمظهر المرء، فتلك الدعوات مثل موجة البحر، تظهر بكثافة لفترة محدودة ثم تنقضي وتمضي بعد اكتشاف سلبياتها وعدم واقعيتها بعد خوضها. تلك الدعوة التسطيحية لقيمة الإنسان تدعو للاهتمام بمسألة الهيئة الظاهرية للإنسان، فيتم لفت الاهتمامات إلى الهيئة الجسدية بالتشديد –إلى درجة الابتذال– على أهمية الانتظام في الرياضة، بعدما نبذوا أو على الأقل أهملوا أهمية إصلاح المرء لأخلاقه –أي ما في القلب–. فيصبح الشخص مهمومًا طوال يومه بمظهره العام، وكيف سينظر الناس إليه يُصبح محور أفعاله، وهذا بالحث على اللباس بطريقة مُحددة لمواكبة الاتجاه السائد أو المشهور (الموضة)، والاشتغال بحساب السعرات الحرارية لما يأكله، والتدقيق في طريقة قص وتوضيب شعر الرأس، واقتناء كلب لإظهار الرفق والرُقيّ. مثل هذا فيه إشغالٌ كبيرٌ عن الاهتمام والتركيز على إرضاء الله.

وقد بلغت تلك الدعوة مرحلة إهمام الناس بالملامح الوجهية (إضافة إلى الجسدية)، فيتم الترويج والتشجيع على إجراء عمليات تجميلية بالحقن أو الزرع أو القطع، فيُغيّرون خلق الله. فهُم في مخالفة صارخةٍ لشرع الله إذ إن الرسول (صلى الله عليه وسلم) نبأ أن الله يلعن من يُغيّر خلق

الله، ونبأنا أن الله ينظر إلى باطن المرء في الأساس "إِنَّ اللَّهَ لا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ"[1].

ومع أن في بعض تلك الدعوات جُزء من الصواب، فإنه يتم إحاطة تلك الجزئية الصائبة بباطلٍ أو بسفاهة وفيرة. فمن المعلوم أن ارتباط المسلم بالطبيعة مُهم كي يتفكر في خلق الله، وأن يمارس بعض الرياضة ليحافظ على صحة جسده (وليس للتباهي بمظهره)، وأن يكون حسن المظهر في الملبس وبالتطيب، ولكن كل ذلك دون قصد الافتخار أو الشُهرة أو يكون الأساس، ودون تبذير ولا مبالغة. أما دعوى المشركين، فقد تعتمد على قصدٍ صحيحٍ ولكن يُشوّهونه بالنيَّة السيئة و'تسطيح' القضية، وهنا تكمن المشكلة.

ذلك لأن تسطيحهم للوقائع تكون مُقدِّمة لنبذ المحور الأهم من ذلك القصد بالكُلية، سواء عمدًا أم غفلةً، والتمسك بالشكليات فحسب؛ أصبحت الوسيلة هي الغاية. وأبرز دليل على هذا هو كيفية وصول أغلب النصارى إلى اعتقاد أن المسيح (عليه السلام) هو الله أو ابن الله، بتسطيح مقاصد آيات الإنجيل، فآمنوا أن المغفرة –ومن ثمَّ دخولهم الجنة– مرهونةٌ بالإيمان أن عيسى (عليه السلام) هو ابن الله بغض النظر عن أفعالهم أكانت صالحة أم فاسدة. ومثالٌ آخر، الرجل منهم قد يقبل الدياثة لأهله، ولا يتحمل المسؤوليات ولا يسعى ليعول بيته، ولا يتصدى لمُعتدٍ على رفقائه، ولا يُحافظ على عهوده، ومع ذلك ينتفض ويستشيط حميةً إذا قيل عنه إنه ليس برجل؛ يتثبت بلقب الرجل دون عمل أعمال الرجال ولا أخذ مواقف الرجال.

ومثلٌ آخر هو في كيفية وقوع أول شركٍ بالله في الأرض، فكان بدعوى التقرب إلى الله ببركة الناس الصالحة منهم، حتى إذا توفوا هؤلاء الصالحين ذهب الناس إلى قبورهم ليتذكروهم ويتأسوا بهم، ثم زين لهم الشيطان أن يُصورونهم في هيئة تماثيل حتى يتذكروهم ويتأسوا بهم، وبعد أجيال زين الشيطان لنسْلِهم عبادة تلك التماثيل. ولمن أراد تفاصيل تلك الواقعة فهي في تفاسير القرآن للآية التي تكلمت عن تلك القضية {وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا} [نوح 23]، فتلك أسماء أناس صالحين يعبدون الله وحده، ولكن الأجيال اللاحقة اتخذوا صورهم آلهة. وكذلك هو المآل الأخير للمسلم المتبع لدعوات المشركين، لأن تلك هي غاية الشيطان الجوهرية، قيادة الإنسان للشرك أو الكفر بالله.

وقد يصل المسلم إلى تلك المرحلة تدريجيًّا إذ إنه يتبعهم حتى يتبنى أفكارهم، إلى حد أن قد تنقلب رؤيته فيرى أنه ذليل وأنهم أعزّ من المسلمين، فيُحِبهم نظرًا للتقدم والنجاح الذي بلغوه في الدنيا. فيرى أنه يجب إدماج طرقهم في المجتمعات الإسلامية (فيما لا يُناسب المنهج الإسلامي)،

[1] صحيح مسلم 4651.

وبما أنه مُنبهرٌ بالمشركين ويخالطهم، فلا شك أنه سيضطر إلى التصرف مثلهم في بعض الأحيان، علمًا بأنهم يكرهون انتشار الإسلام ويُحاربونه. فقد يصل إصراره على إدخال نهجهم ذلك إلى حد أنه يواليهم على غزو المسلمين، سواء فِكريًّا أم عسكريًّا، وينتقد نهج المسلمين على أنهم متأخرون في أمور الدنيا.

آنذاك يكون ذلك المرء قد شرب من المشركين لدرجة أنه أصبح مثلهم، كما في قول الله تعالى {وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكَفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ}، أي أن من يظل يختلط بهم وهم على ذلك فهو مثلهم، فما بالنا بمن يُقلّدهم؟ فكما كان مثلهم في الأفعال ومُشتركًا في جرائمهم، أي مُوالاة المشركين على المسلمين، كان جزاؤه أن يكون مثلهم في التصنيف والجزاء، فيُحشر معهم يوم القيامة. ولذلك جاء في بقية الآية {إِنَّ اللهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا} [النساء 140].

وقد بصَّرَنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قائلًا "ثلاثٌ هنَّ حقٌّ: لا يجعلُ اللهُ من له سهمٌ في الإسلامِ كمن لا سهمَ له، ولا يتولَّى اللهُ عبدًا فيُوليه غيرَه، ولا يحبُّ رجلٌ قومًا إلَّا حُشِر معهم"[1] (سهمٌ هو النصيب، وسهام الإسلام ثلاث، وهم الصلاة والصدقة والصوم؛ ولا يتولَّى اللهُ عبدًا فيُوليه غيرَه أي لا يَتخذ عبدٌ اللهَ وليه في الدنيا إلا كان الله وليه يوم القيامة). فالحذر الحذر من تقليد غير المسلمين.

وفي سياق هذه القضية، يليق بالمقام ههنا التوعية والتوكيد على قاعدة أساسية في الإسلام أشمل من هذه القضية وحدها، هي من الصفات الواجبة على المسلم أن يُطبّقها ولكن يجهلها كثير من المسلمين، ألا وهي قاعدة الولاء والبراء. معنى الولاء هو التودد والتقرب، وعادة تصدر عن الحُب ولكن قد تكون نتيجة الخوف، ويكون الولاء في النيَّة فيظهر في القول والفعل. ومعنى البراء مُشتق من البراءة من شيء، فالبراءة هي انقطاع العصمة بين طرفين، وتفصيلًا فإن البراء هو البُعد والخلاص والعداوة بعد الإعذار والإنذار.

فيما يختص بالمسلم في مسألة الولاء والبراء، فشرعًا هو مُطالب بأن يجعل الله وليه (أي يخضع لله كمصدر التشريع، فيكون الله عنده أولى بالطاعة من غيره)، وعلى إثر ذلك رسوله (صلى الله عليه وسلم) وصالح المؤمنين، وأن يتبرأ ممن يُعادي الله ورُسُله ودينه وعباده المسلمين. قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " أَوْثَقُ عُرَى الإيمانِ: المُوَالاةُ في اللهِ، والمُعادَاةُ في اللهِ، والحُبُّ في

[1] الترغيب والترهيب للمنذري 87/4، وقال عنه: إسناده جيد.

اللهِ، والبُغضُ في اللهِ"[1]. قال الشيخ عبد الرحمن بن سعديً: وحيث أن الولاء والبراء تابعان للحُب والبُغض، فإن أصل الإيمان أن تُحب في الله أنبياءه وأتباعهم، وتُبغض في الله أعداءه وأعداء رُسُله[2].

قد جاء في عدة آيات الأمر باتخاذه تعالى وليًّا، والتبرؤ من غير المسلمين. ففي مسألة الولاء لله جاء {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (54) إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ} [المائدة 54-55] (يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أي أن الله يُحبهم، وهم يُحبون الله). وهناك أيضًا {إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ} [المائدة 55]؛ {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} [النساء 59].

وفي مسألة البراء من غير المسلمين جاء {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [التوبة 23]؛ {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ} [الممتحنة 1]. وأيضا جاء في قوله تعالى {وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ} [يونس 41]. وجيء بنموذجٍ لهم تلك الصفة، ثم أُمرنا أن نتأسى بهم، في الآية {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ} [الممتحنة 4، جزء من الآية]. وبالطبع هناك سورة الكافرون، والتي كلها تبرؤ من الكفر والشرك.

وفقهيات قاعدة الولاء والبراء متوسعة تحتاج إلى استفاضة، ليس محلها هذا الكتاب، لأن فيها ما قد يلتبس على المسلم مثل كيفية كون هناك عهد سلام بين مسلمين ومشركين مع وجود البراءة منهم، وإمكانية انبساط الوجه والتكرم على بعضهم لتحبيبهم في الإسلام بالرغم من البراءة منهم، وأن المسلم ينبغي أن يوالي الحاكم الشرعي ولو كان ظالمًا (ولكن دون طاعته في الظُلم ومعصية الله) فلا ينصر غير المسلم عليه. فيُنصح بالتطلع في الكتب المتخصصة حول هذه القاعدة حتى لا يُطبّقها المُسلم بطريقة خاطئة، وكي يستوعبها بدقائق الأمور التي فيها.

---

[1] السلسلة الصحيحة للألباني 998.

[2] الفتاوى السعدية.

فيما يختص من هذه القاعدة بموضوع هذا الباب، فإن اتّخاذ الله وليًّا مع التبرؤ من غير المسلمين يضبط وجهة المسلم بشكل عام، لأنه يصعب عليه معصية الله إذ إنه يُحب ويأخذ الأحكام من الله والأخلاق من الرسول (صلى الله عليه وسلم) من جهة، وتتقلص احتمالية وقوعه في المعاصي من الجهة الأخرى لأنه يضع حاجزًا بينه وبين الشيطان والكفار والمشركين والمنافقين، الذين يُكثرون من معصية الله ويُحرّضون على عصيانه تعالى. أما من يوالي أعداء الله، فقد قال العلماء إن تلك الموالاة تقع على شُعبٍ متفاوتة (بحسب درجة الموالاة)، فمنها ما يوجب الرِّدَّة وذهاب الإسلام بالكلية، ومنها ما هو دون ذلك من الكبائر والمُحَرَّمات.

ختامًا لجزء "صفات محمودة وصفات مذمومة"، أريد التنبيه أني لم أحصر كل الصفات في هذا الباب ولا في هذا الكتاب حتى، ولكن هناك صفات أُخر (سواء محمودة أم مذمومة) ذُكرت ضمنيًّا وسط الكلام في مواضع شتى في هذا الكتاب. أما من يريد أن يتعلم جميع الصفات الحسنة أو المذمومة في الإسلام، فليرجع إلى الكُتب المُتخصصة حول هذا الموضوع.

ومن الجُمل العبقرية التي تُجمل في الإرشاد إلى الصفات المحمودة وعن الصفات المذمومة هي جملة لابن القيم (رحمه الله). قال: أقرب الخَلق إلى الله تعالى أعظمهم رأفة ورحمة، كما أن أبعدهم منه من اتصف بضد صفاته[1]. وقد استفاض عن هذه الجملة وهو يتكلم عن أسماء الله: ولما كان سبحانه هو الشكور على الحقيقة كان أحب خلقه إليه من اتصف بصفة الشكر، كما أن أبغض خلقه إليه من عطلها أو اتصف بضدها. وهذا شأن أسمائه الحسنى، أحب خلقه إليه من اتصف بموجبها، وأبغضهم إليه من اتصف بضدها، ولهذا يبغض الكفور والظالم والجاهل والقاسي القلب، والبخيل والجبان والمهين واللئيم، وهو سبحانه جميل يحب الجمال، عليم يحب العلماء، رحيم يحب الراحمين، محسن يحب المحسنين، ستير يحب أهل الستر، قادر يلوم على العجز، والمؤمن القوي أحب إليه من المؤمن الضعيف، عفو يحب العفو، وتر يحب الوتر، وكل ما يحبه من آثار أسمائه وصفاته وموجبها، وكل ما يبغضه فهو مما يضادها وينافيها[2].

في موضع آخر أعطى أُسُسًا للاستيعاب، قائلًا: وحسن الخلق يقوم على أربعة أركان لا يتصور قيام ساقه إلا عليها: الصبر، والعِفّة، والشجاعة، والعدل.

فالصبر: يحمله على الاحتمال وكظم الغيظ، وكف الأذى، والحلم والأناة والرفق، وعدم الطيش والعجلة.

---

[1] الروح لابن القيم 557.

[2] عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين لابن القيم 337.

والعفة: تحمله على اجتناب الرذائل والقبائح من القول والفعل، وتحمله على الحياء. وهو رأس كل خير. وتمنعه من الفحشاء، والبخل والكذب، والغيبة والنميمة.

والشجاعة: تحمله على عزة النفس، وإيثار معالي الأخلاق والشيم، وعلى البذل والندى، الذي هو شجاعة النفس وقوتها على إخراج المحبوب ومفارقته. وتحمله على كظم الغيظ والحلم. فإنه بقوة نفسه وشجاعتها يمسك عنانها، ويكبحها بلجامها عن النزغ والبطش. كما قال النبي صلى الله عليه وسلم "ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد: الذي يملك نفسه عند الغضب"، وهو حقيقة الشجاعة، وهي ملكة يقتدر بها العبد على قهر خصمه.

والعدل: يحمله على اعتدال أخلاقه، وتوسطه فيها بين طرفي الإفراط والتفريط. فيحمله على خلق الجود والسخاء الذي هو توسط بين الذل والقحة. وعلى خلق الشجاعة، الذي هو توسط بين الجبن والتهور. وعلى خلق الحلم، الذي هو توسط بين الغضب والمهانة وسقوط النفس.

ومنشأ جميع الأخلاق الفاضلة من هذه الأربعة.

ومنشأ جميع الأخلاق السافلة وبناؤها على أربعة أركان: الجهل، والظلم، والشهوة، والغضب.

فالجهل: يريه الحسن في صورة القبيح، والقبيح في صورة الحسن، والكمال نقصًا، والنقص كمالًا.

والظلم: يحمله على وضع الشيء في غير موضعه. فيغضب في موضع الرضا. ويرضى في موضع الغضب. ويجهل في موضع الأناة. ويبخل في موضع البذل. ويبذل في موضع البخل. ويحجم في موضع الإقدام. ويقدم في موضع الإحجام. ويلين في موضع الشدة. ويشتد في موضع اللين. ويتواضع في موضع العزة. ويتكبر في موضع التواضع.

والشهوة: تحمله على الحرص والشح والبخل، وعدم العفة والنهمة والجشع، والذل والدناءات كلها.

والغضب: يحمله على الكبر والحقد والحسد، والعدوان والسفه.

ويتركب من بين كل خلقين من هذه الأخلاق: أخلاق مذمومة.

وملاك هذه الأربعة أصلان: إفراط النفس في الضعف، وإفراطها في القوة. فيتولد من إفراطها في الضعف: المهانة والبخل، والخسة واللؤم، والذل والحرص، والشح وسفساف الأمور والأخلاق.

ويتولد من إفراطها في القوة: الظلم والغضب والحدة، والفحش والطيش.

ويتولد من تزوج أحد الخلقين بالآخر أولاد غية [أي الضال] كثيرون. فإن النفس قد تجمع قوة وضعفًا، فيكون صاحبها أجبر الناس إذا قدر، وأذلهم إذا قُهر. ظالمًا عنوفًا جبارًا، فإذا قُهر صار أذل من امرأة: جبانًا عن القوي، جريئًا على الضعيف.

فالأخلاق الذميمة: يولد بعضها بعضًا، كما أن الأخلاق الحميدة: يولد بعضها بعضًا.

وكل خلق محمود مكتنف بخلقين ذميمين. وهو وسط بينهما. وطرفاه خلقان ذميمان، كالجود: الذي يكتنفه خلقا البخل والتبذير. والتواضع: الذي يكتنفه خلقا الذل والمهانة، والكبر والعلو.

فإن النفس متى انحرفت عن التوسط انحرفت إلى أحد الخلقين الذميمين ولا بد[1] (انتهى).

عامةً، إن فطرة الإنسان التي وضعها الله في كل فرد تُرشده على الأخلاق الحسنة وتقبضه من الأخلاق السيئة، وعلوم الشريعة الإسلامية تزيد وتؤكد على ما يجده العبد من فطرته حول الأخلاق. وعلى هذا الأساس، هناك حديث للرسول (صلى الله عليه وسلم) شامل الوصية في قضية الأخلاق، طوبى لمن التزم به منهجًا، ألا وهو "إِنَّ اللَّهَ كَرِيمٌ يُحِبُّ الْكَرَمَ، وَيُحِبُّ مَعَالِيَ الْأَخْلَاقِ، وَيَكْرَهُ سَفْسَافَهَا"[2] (سَفْسَافَهَا أي رَدِيئَها وحَقيرَها والتوافهَ التي تُنَبِّئ عن الخِسَّةِ والدناءةِ وعدمِ المروءةِ).

---

[1] مدارج السالكين لابن القيم 2/294-295.

[2] المستدرك للحاكم 1/48؛ وقال: صحيح الإسناد. وذكره الألباني في صحيحه 3/336.

بعد أن كل شيءٍ قد قيل وفُعِل، هناك أمل

اعلم أخي أنها مهما بلغت الذنوب فإنها ليست أكبر من سعة عفو الله. ويكفي لنا أملًا أن الله يغفر كل أنواع الأخطاء إلا الشرك، فهناك أدلة على أنه قد غفر للذي وأد بناته في الجاهلية، وغفر للزانية، وغفر للقاتل وغيرهم لأنهم تابوا بإخلاص. فما الذي يمنعك من أن يُغفر لك؟ ثم يجب أن تدرك قيمتك عند الله إذ إنه هو الذي رأى أن يخلُقَكَ فخلقك بنفسه، لئلا تتخيل أن الله مُتخلٍّ عنك بسهولة. إضافةً، لك قيمة لأنك عبدٌ من عباده بمعنى الكلمة –نظرًا لشهادتك له بالتوحيد–، والله يُحب ويُحافظ على عباده المُوحِّدين. قد قال الله في عباده الموحدين على لسان الرسول (صلى الله عليه وسلم) "لَزَوَالُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ قَتْلِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ"[1].

واعلم أنك إذا عصيت ربك أصبحت ممن ظلم نفسه بجهالة، ولك ذلك العذر أن تستخدمه في استغفارك وتوبتك إلى الله كما أشار إلينا ربنا {وَإِذَا جَاءكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [الأنعام 54]. وهذه الآية من الآيات الدالة على سعة رحمة الله، وقد فسّر العلماء ذلك الجهل أنه ليس بجهل عن الحرام والحلال، ولكن كل من عصى ربه فهو جاهل في تلك الفعلة لأنه آثر الدنيا على الآخرة! ومما يؤكِّد أن المعنى المقصود في الآية هي جهالة الاختيار والعواقب –إذ إن العبد قد أضر نفسه– وليس جهالة الحُكم الشرعي هو قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ"[2].

هذا يعني أن ما كان يجهله العبد من حدود الحرام ويرتكبه فإنه معفوٌ عنه، تحت باب أنه أخطأ في المعرفة بالحُكم وتقييم الخطأ من الصواب. يُعفى عنه ما دام لا يتعمد ألا يسأل عن الحكم الشرعي في مسألة، مُعتمدًا على أنه سيُعفى عنه بسبب جهله الشرعي فيما يفعله –مع ريبته منه–، فهذا مكرٌ وله جزاؤه، فلينظر على من يمكر وليُعيد تفكيره. أما التوبة، والتي ذُكرت في الآية، تنطبق أساسًا على من خالف أمر الله بقصد، وهذا يستدعي أن يكون يعلم أن ما سيفعله مُحرم. لكن لا يزال ينبغي للعبد، الذي لم يكن يعلم أنه كان يرتكب مُحرمًا، أن يستغفر الله عما ارتكبه بالرغم من تجاوز الله عنه، وهذا من باب توقير الله والخضوع له وشكره على رحمته وحِلمه.

وقال تعالى {وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ} [الشورى 25]، فالحمد لله على أنه هو الذي يُواخذ على الذنب ولكن يقبل التوبة دائمًا ما دامت

---

[1] سنن النسائي 3922.

[2] سنن ابن ماجه 2033.

خالصة، مهما كانت المعصية كبيرة، فلا يوجد سبب أن يقنط العبد من رحمة الله. والحمد لله الذي أعطى مغفرته مكانةً خاصةً بحيث إنه لم يجعل بين العبد وبينه وسيطًا في طلبها ونيلها، إذ جعل نفسه وحده يقبل التوبة مباشرةً من عبده ولا ينقلها أحدٌ من خلقه إلى التائب.

معلوم أن أهمية القضية عادةً ما تتبين من عدد المراحل التي تمر بها، فالأمر المهم لا يتنقل على عدد كبير من المراحل ولا يرتبط بعدد كبير من العوامل، مثل إذا حدثت مصيبة في شركة تجارية فالخبر ينتقل إلى المدير مباشرةً دون أن يمر على نائب المدير مثلًا. ولله المثل الأعلى، ومع أنه وضع بعض الأمور في مخلوقاته فجعلهم أسبابًا، مثل الرزق يُنال من مصادره بالسعي (ولكن يُطلب من الله إيهابه)، ومثل النُصرة في المعارك عن طريق إرسال الملائكة، إلا أن الله لم يجعل للتوبة من يُخاطَب فيها غيره في أي جانب من الجوانب، ولا تُمنَح عن طريق أحد من عباده. ليس للتوبة مُتطلبات كثيرة لتقديمها ولنيلها، ولم يُوَكِّل الله أحدًا للعفو عن عباده أو حتى يتوسط في استقبال التوبة من العبد، بل خصّ الأمر لنفسه من كل جوانبه.

توضيحًا لنقاط جانبية، قد يطرأ لشخص اعتراضان، الأول أن أحيانًا يكون هناك جانب مُتعلق بالعباد لقبول التوبة من العاصي، وهو رد المظالم أو طلب السماح -أي التحلل من المظلمة الذي وصى به الرسول (صلى الله عليه وسلم)-، والثاني أن المغفرة أمرٌ حسّي فلذلك لا يُنقل عن طريق أحد من العباد، أي بخلاف الرزق الملموس مثلًا. بالنسبة إلى أول نقطة فإن رد الحقوق أو طلب العفو من المظلوم هو من باب العدل والإصلاح وإثبات صدق توبة العاصي وليس من باب طلب المغفرة من الله، بدليل أنه إذا رد العاصي إلى المظلوم حقه واعتذر له ولكن المظلوم لم يقبل التعويض والاعتذار فهذا لا يُقيِّد الله من أن يعفو عن العاصي بما أنه أخذ بأسباب التوبة، مما يعني أن توبة الله على عباده لا تتعلق بأحد سواه (أما حق المظلوم على الظالم فقد يبقى ويحتاج إلى قضاء).

الأمر الثاني، كون أن قضية مغفرة الله لعباده حسِّية فهذا ليس السبب في عدم وجود من يمنحها أو ينقلها من العباد -من باب عدم الاحتياج-، بل وضعها هكذا أساسًا لأن الله خص قضية مغفرته بمزايا فريدة. هي خاصة لأن القضية برمتها حساسة للعبد، ومهمة من جهة علاقة العبد بربه من باب العقيدة السليمة النقية، وأن الله يُحب مناجاة عباده ولجوئهم وإنابتهم إليه وإذعانهم له واعترافهم أنه لا يغفر الذنوب إلا هو. والدليل على هذا عامة هو أن هناك قضايا أخرى حسِّية مثل الهداية، يطلبها العبد من الله وقد تُوهب بإصلاح الله للقلب مباشرة أو بإرسال سبب كعالمٍ أو واعظ أو كُتيِّب يجعل المرء يهتدي. كذلك قد يدعو العبد ربه أن يشفيه ثم يُرسل الله الشفاء عن طريق سبب من الأسباب مثل رفيق أو دواء. يُضاف إلى هذا أنه يُشرع أن يُسأل عبد -مع التعلق بالله وحده- على صدقة بعزةٍ أو يُطلب من مدير شركة وظيفة بأجر، وهذا كله يُبين أن قضية المغفرة لها مكانة مُميزة عند الله.

رجوعًا للسياق المحوري، يكفي طمأنينة لنا أن الله قال "وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ"، أي أنه يعلم أخفى السرائر وأقبح الجوانب مما فعله العبد في المعصية، ومع ذلك فهو يقبل التوبة ويعفو ولا يُبالي. ويكأن الله يُذكرنا أنه يعلم ما فعلنا ومع هذا فقد أعطى حُكمًا ووعدًا مُسبقين أنه سيغفر لمن يتوب، فهو يعلم ما اقترفنا ولا يزال يقبل التوبة إذا تُبنا. فلا يزال أفواج من الناس يدخلون في سعة عفو الله ومُحيت لهم جبالٌ من الذنوب، فلماذا أحرم نفسي من هذا، ولماذا لا آخذ دوري وأغتنم حقي مثلهم فأدخل معهم؟!

يروي لنا النبي (صلى الله عليه وسلم) في حديث قدسي "أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا فَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ. ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ. ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، اعْمَلْ مَا شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ"، قَالَ عَبْدُ الأَعْلَى: لا أَدْرِي أَقَالَ فِي الثَّالِثَةِ أَوْ الرَّابِعَةِ "اعْمَلْ مَا شِئْتَ"[1]. وفي رواية أخرى يقول المُذنب "أَيْ رَبِّ أَذْنَبْتُ ذَنْبًا فَاغْفِرْهُ لِي" أي أنه يُقر بخطأه ويتذلل لله راجيًا المغفرة.

وفي حديث قدسي آخر، مشيرًا إلى مدى عفو الله، جاء عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ الشَّيْطَانَ قَالَ: وَعِزَّتِكَ يَا رَبِّ لا أَبْرَحُ أُغْوِي عِبَادَكَ مَا دَامَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ. قَالَ الرَّبُّ: وَعِزَّتِي وَجَلالِي لا أَزَالُ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِي"[2].

فما أسهل هذا، أن نتوب فيقبلها الله، فعلينا الصدق في التوبة وعلى الله قبولها. فلنبادر بالإنابة دائمًا ولو تكرر الذنب بعينه، تنفيذًا لهذا الحديث، فإنّ ترك التوبة لأي سبب (ولو بسبب القنوط) هو باب من أبواب الهلاك، فرحمة الله أوسع من أن نستوعبها. رُبَ تائب مُستبعدٍ قُبول توبته، لا يُشغل باله بها لأنه يستصغر قدر التوبة التي قدّمها وإنما تاب تواضعًا وخوفًا وطاعةً لله وامتثالًا لوصايا النبي (صلى الله عليه وسلم)، فلا يظن أنها ستُقبل نظرًا لتقصيره مع الله أو لقبح ما ارتكبه ثم تُرفع التوبة منزلةً لا يبلغها كثير من الأعمال الصالحة.

ففي واقعة حدثت على عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) أن امرأة من جُهَيْنَةَ أتت نبي الله صلى الله عليه وسلم وهي حُبلَى من الزنى، فقالت: يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَصَبْتُ حَدًّا فَأَقِمْهُ عَلَيَّ. فَدَعَا نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلِيَّهَا فَقَالَ "أَحْسِنْ إِلَيْهَا، فَإِذَا وَضَعَتْ فَأْتِنِي بِهَا"، فَفَعَلَ. فَأَمَرَ بِهَا نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَشُكَّتْ عَلَيْهَا ثِيَابُهَا، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَرُجِمَتْ، ثُمَّ صَلَّى عَلَيْهَا. فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: تُصَلِّي عَلَيْهَا يَا نَبِيَّ اللَّهِ وَقَدْ زَنَتْ؟ فَقَالَ "لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ قُسِمَتْ بَيْنَ سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لَوَسِعَتْهُمْ، وَهَلْ

[1] صحيح مسلم4953.

[2] مسند أحمد 10807.

وَجَدْتَ تَوْبَةً أَفْضَلَ مِنْ أَنْ جَادَتْ بِنَفْسِهَا لِلَّهِ تَعَالَى"[1] (فَشُكَّتْ أي جُمعت ولُفَّت كيلا تتكشف في أثناء تقلبها؛ جَادَتْ أي أخرجت ودفعت بروحها في الحق من أجل الله). فهناك أمل، ولكن لنُبادر بالتوبة قبل أن يُبادرنا الأجل.

هذا وقد فتح الله باب قبول التوبة على مصراعيه قائلًا {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (53) وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ} [الزمر 53-54]. فالحمد لله الذي يترك باب التوبة مفتوحًا دائمًا، ويقبل التوبة بيُسرٍ، عسى أن يرجع أحدٌ قبل أن يأتي أجله. الحمد لله أن الله هو الله، والحمد لله الذي اتَّصف بصفاته، فأين سنكون دون رحمته الواسعة وكرمه البالغ وعفوه الفائق ورأفته المتناهية؟ فلنبادر بالرجوع إلى الله حتى ينصرنا يوم الحساب.

ويجب ألا يقنط المرء من مغفرة الله بحيث إنه ييأس من أن ينجو من العذاب، فيزداد في إسرافه تعنتًا أو إهمالًا إذ إنه فقَدَ الأمل، ولو أنه علم مدى رحمة الله وعفوه لأدرك أنه من السفه أن يتمادى في المعاصي. قد أُشير إلى هذه النقطة في قوله تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا} [النساء 64]. هذه الآية من المبشرات، فهي تبين لنا مدى رحمة الله وإرادته في العفو عنا، وذلك لمن طلب وأخذ بشروط التوبة. إنك إذا ندمت على معاصيك، فتلك بشرى لأن الندم هو لُب التوبة بحسب كلام الرسول (صلى الله عليه وسلم) "النَّدَمُ تَوْبَةٌ"[2]، فبِنَدَمِك تكون على طريق التوبة بالفعل، (وربما المقصد من أن الندم توبة هو أن الندم هو صميم التوبة، مثل قوله صلى الله عليه وسلم "الْحَجُّ عَرَفَةُ"[3]).

وقوله تعالى "لَوَجَدُواْ اللهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا" فيه إشارة إلى أن تلك الصفات هي السبَّاقة الغالبة الأساسية عند الله، أنه: تواب رحيم، وليس الأساس أنه يبطش وينتقم، وله الحمد لأنها نعمة عظيمة ورأفةٌ بنا. وهذا كما بين لنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) في الحديث "لَمَّا قَضَى اللَّهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي"[4]، وفي رواية أخرى "إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي"[5]. وقد جاء عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أيضا "لَوْ أَخْطَأْتُمْ حَتَّى تَبْلُغَ خَطَايَاكُمْ السَّمَاءَ ثُمَّ تُبْتُمْ لَتَابَ عَلَيْكُمْ"[6]، فما علينا إلا التوبة بعد مظالمنا والله سيقبلها. فالخسارة الفادحة تكون

---

[1] صحيح مسلم 3209.

[2] سنن ابن ماجه 4242.

[3] سنن الترمذي 814؛ جزء من الحديث.

[4] صحيح البخاري 2955.

[5] صحيح البخاري 6899.

[6] سنن ابن ماجه 4238.

لمن لا يغتنم ذلك العطاء من الله بألا يستغفر الله، فكل من عصى الله فهو ظالم لنفسه، والاستغفار يُخفِّض من درجة المظلمة للنفس حتى تكاد تكون منعدمة.

بل وقد أعاد الله علينا تلك الدعوة بصيغة وِدّية أكثر، قائلًا {وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُورًا رَّحِيمًا} [النساء 110]، فقد قال "يجد" ولم يقل: يجدوا، فهو تعالى يُخاطبني أنا وأنت شخصيًّا، فردًا فردًا. والحمد لله الذي ترك لنا باب التوبة مفتوحًا ندخل منه في أي لحظة تطرأ علينا ما لم نُغرغر، وهذا من جود رحمة الله ورأفته وكرمه وعفوه. فهذا سبيل لمحو الذنوب، وهو أن الله نفسه يقبل توبة التائب، فهل من سبل أُخرى لرحمة الله؟

نعم، قد قال تعالى {الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ} [غافر 7]. وقال تعالى {تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [الشورى 5]. هذا يدل على أن الملائكة، بما فيهم حملة العرش، يستغفرون لعُبَّاد الله، وهذه منحة لتزداد فرصتنا من نيل المغفرة. وذلك إن لم يُقبل استغفار العبد مثلًا لتقصيره في توبته، أو لمن نسي أن يستغفر لذنب مع أن طبعه لزوم الاستغفار، أو لمن ارتكب معصية لم يلاحظها لأنها جاءت تابعة لعمل ما عمله ليس بمعصية في الأصل. وقد يكون استغفارهم توكيدًا على استغفار العبد أيضًا، فترتفع منزلتها عند الله.

السؤال هو: من الذي خلق الملائكة وألهمهم الاستغفار للعباد؟! وذلك الإلهام تمامًا مثل الإلهام الذي ألهمه الله لسيدنا آدم (عليه السلام) بعد المعصية {فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [البقرة 37]. فلما نطق سيدنا آدم (عليه السلام) كلمات التوبة، قَبِلَهُمُ الله وتاب عليه. فأي رحمة هذه، لم يكفِ أن الله ترك باب التوبة لعباده مفتوحًا دائمًا ما داموا أحياء ومهما ارتكبوا من فدائح، بل وقد وكّل ملائكة يستغفرون لنا، بل إن الله أحيانًا ليزُجّ العبد على التوبة زجًّا ثم يقبلها عندما يُقدِّمها!

وقد جاءت أحاديث أيضًا عن استغفار الملائكة للعباد، رحمةً فوق الرحمة وكرمًا بعد الكرم من الله، منها قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى الصَّفِّ الأَوَّلِ"[1] (والصف الأول أي في الصلاة). ومنها "إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ كَانَ فِي صَلاةٍ مَا كَانَتْ الصَّلاةُ تَحْبِسُهُ، وَالْمَلائِكَةُ يُصَلُّونَ عَلَى أَحَدِكُمْ مَا دَامَ فِي مَجْلِسِهِ الَّذِي صَلَّى فِيهِ يَقُولُونَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ، اللَّهُمَّ تُبْ عَلَيْهِ؛ مَا لَمْ يُحْدِثْ فِيهِ مَا لَمْ يُؤْذِ فِيهِ"[2] (يُحْدِثْ أي ينقض وضوءه). ومنهم أيضا "مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا

[1] سنن ابن ماجه 987.

[2] سنن ابن ماجه 791.

رِضَاءً لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ، حَتَّى الْحِيتَانُ فِي الْمَاءِ، وَفَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ. إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، إِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلا دِرْهَمًا، إِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ"[1].

فهل هناك رحمة من الله أكثر من ذلك؟ نعم ثم نعم، فإن الرسول (صلى الله عليه وسلم) رحمة لا نعيى قدرها ولا يتسع المجال لذكر فقط ما نعرفه عنه حتى، ويشمل ذلك شتى أطياف معاناته لتوصيل هذا الدين الكامل إلينا، وأنه يسقينا من حوضه يوم القيامة. ومنها أنه يدعو ويشفع لنا يوم القيامة، ويجأر إلى الله ويتضرع بإلحاح على من بقي في النار من همّه على أُمّته بعد أن قُضي الحساب! فكفى بنا علمًا أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) لا يستطيع أن يهنأ في الجنة بسبب همّه على من في النار من أتباعه حتى يُخرجهم الله! فما هذا الإخلاص؟! من منا يستطيع ذلك، أن ينشغل بغير الجنة بعد أن يدخلها، ولمصلحة غيره؟! إذا كانت الدنيا، وهي الدنيا، تُلهي أغلب الناس عن السعي في مصالح إخوانهم، فما بالنا ونحن في الجنة؟!

فلم يكفِ له أنه أبلغنا وأنذرنا في الدنيا فيرتاح على أنه أدى ما عليه، بل حمله إخلاصه وحرصه على أمَّته إلى أنه يظل معهم ويتابع المُقصِّرين في الأعمال منهم حتى يدخلوا الجنة! قولوا لي من الذي بعث هذا الرسول (صلى الله عليه وسلم)؟ هذا النبي (صلى الله عليه وسلم) الذي ليس مثله أيُ نبي ولا رسول، إذ يترحم لأمته ويكون قائدهم يوم يقول باقي الرُسل: نفسي نفسي. قد عبَّر حق التعبير كلام الله تعالى (ولكن نحن لا نُقَدِّر أبعاد هذا الكلام حق التقدير) {لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رّحِيمٌ} [التوبة 128]. فاقرأ وتَمَعَّن في كل كلمة في تلك الآية يا أخي، لعلنا نُدرك قيمة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ومِنَّة الله علينا به ورحمتة علينا.

فأي رحمة أكثر من ذلك؟ ولكن لا يزال هناك المزيد، يقول الرسول (صلى الله عليه وسلم) لنا "جَعَلَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ مِائَةَ جُزْءٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ جُزْءًا وَأَنْزَلَ فِي الأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا، فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ يَتَرَاحَمُ الْخَلْقُ حَتَّى تَرْفَعَ الْفَرَسُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ"[2]. كل تلك الرحمات من الله، منه مباشرة ومن خلال ملائكته ومن خلال رسوله (صلى الله عليه وسلم)، وما عليَّ إلا أن أطلب من الله المغفرة بعد أن عصيته مرارًا وتكرارًا فيوفيني إياها ولا يحرمني منها، بالرغم من المصائب التي ارتكبتها في حقِّه. فاللهم ربنا إنا نسألك الآن أن تغفر لنا وتتوب علينا، إنك أنت التواب الغفور، ولا شيء يستطيع أن يحول بيننا وبين عفوك عنا إلا إرادتك، فالأمر كله لك وإليك. اللهم إنك عفو كريم تُحب العفو فاعفُ عنا.

---

[1] سنن الترمذي 2606.

[2] صحيح البخاري 5541.

لا تيأس من أن يغفر الله لك، فقد أدرك والد سيدنا يوسف (رحمه الله) جوهر كرم الله فقال {يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ} [يوسف 87]. فما دمت ترجو وتُلح طلبًا لرحمة الله وسعة مغفرته فإن الله سيمنحك إياهم. ويجب أن ندرك أن رحمة الله ومغفرته تسعنا جميعًا، ولكن ذلك لمن طلبها بحق. بل وقد أمرنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) أن نُحسن الظن بالله (مقرونا بالعمل الصالح بالطبع) قائلًا "إِنَّ حُسْنَ الظَّنِّ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ حُسْنِ عِبَادَةِ اللَّهِ"[1].

إذا ندمت وتوجهت إلى الله بعد معاصيك، فأحسن الظن بالله أنه سيغفر لك يا أخي. ولا ينبغي أن يظن المرء أن الله لن يقبل توبته من شدة قبح معصيته، بل وجب عليه الاعتماد على أن الله سيقبل توبته ما دام العبد أخلص فيها، لأن هذا من حُسن الظن بالله الذي حثَّنا عليه الرسول (صلى الله عليه وسلم). فلا تشغل بالك أقُبِلَت توبتك أم لا، إنما عليك التوبة وعلى الله قبولها. وأبشر أخي، فأنت في فُسحة ما دمت في الإسلام ولم تُصب دم مسلمٍ ظُلمًا (أي لم تقتل مسلمًا)، كما قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) "لَنْ يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا"، فتُب وسيُغفر لك.

أما إن كان هناك من قتل مسلمًا فلا يزال يوجد له أمل بالرغم من قُبح ما ارتكبه، بل وقد يأتي إليه الله ليُعينه على الدخول في نطاق عفوه تعالى. لنتمعن فيما رواه سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) "كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ إِنْسَانًا، ثُمَّ خَرَجَ يَسْأَلُ، فَأَتَى رَاهِبًا فَسَأَلَهُ فَقَالَ لَهُ: هَلْ مِنْ تَوْبَةٍ؟ قَالَ: لا؛ فَقَتَلَهُ. فَجَعَلَ يَسْأَلُ فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: ائْتِ قَرْيَةَ كَذَا وَكَذَا. فَأَدْرَكَهُ الْمَوْتُ فَنَاءَ بِصَدْرِهِ نَحْوَهَا، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلائِكَةُ الْعَذَابِ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى هَذِهِ أَنْ تَقَرَّبِي وَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى هَذِهِ أَنْ تَبَاعَدِي وَقَالَ قِيسُوا مَا بَيْنَهُمَا، فَوُجِدَ إِلَى هَذِهِ أَقْرَبَ بِشِبْرٍ، فَغُفِرَ لَهُ"[2]. فهذا قد بادر إليه الله وغفر له بالرغم من فداحة ما اقترفه، وذلك لأنه صدق في رغبته للتوبة ولم يتعمد المكر بعفو الله.

واعلم أخي أن الله قدَّر لنا أن نكون ضعفاء لدرجة أننا نقع في المعاصي، ولكن العبرة لمن يستغفر ويتوب، وهذا ما يترقبه الله منا. وهذا ما أكَّده علينا الرسول (صلى الله عليه وسلم) في قوله "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ"[3]. فالحمد لله على رحمته...

هذا الحديث لا يُحرض على المعصية، ولكن يمنع الناس من القنوط من رحمة الله، ويحُثّ على الاستغفار، ويُثني على المستغفرين. وهذا الحديث يدل على أن الذي يستغفر الله بعدما يقع في

---

[1] مسند أحمد 8353، حسنه شاكر ولكن ضعفه الألباني.

[2] صحيح البخاري 3211.

[3] صحيح مسلم 4936.

الذنب أفضل من الذي لا يستغفر الله بناء على أنه لا يعصي الله، لأن الاستغفار انكسارٌ وخضوعٌ لله وإقرارٌ بأن الله هو الإله، وأن له مطلق المُلك والسلطان والقوة والهيمنة، وإدراك لنقصنا أمام كماله تعالى. فيا أخي، الاستغفار الاستغفار أحب إلى الله وأثمر للعبد من القنوط من رحمته بعد المعصية.

ولنكن حياديين في تقييم أنفسنا، فيجب أن نقيس مكانتنا بحسب المؤشرات الشرعية التي وضعها الله لنا، ومن تلك المؤشرات ما دلنا عليه الرسول (صلى الله عليه وسلم) قائلًا "إِنَّ الْكَافِرَ إِذَا عَمِلَ حَسَنَةً أُطْعِمَ بِهَا طُعْمَةً مِنْ الدُّنْيَا، وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَإِنَّ اللَّهَ يَدَّخِرُ لَهُ حَسَنَاتِهِ فِي الآخِرَةِ وَيُعْقِبُهُ رِزْقًا فِي الدُّنْيَا عَلَى طَاعَتِهِ"[1]. وفي رواية جاء "إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مُؤْمِنًا حَسَنَةً، يُعْطَى بِهَا فِي الدُّنْيَا وَيُجْزَى بِهَا فِي الآخِرَةِ؛ وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيُطْعَمُ بِحَسَنَاتِ مَا عَمِلَ بِهَا لِلَّهِ فِي الدُّنْيَا حَتَّى إِذَا أَفْضَى إِلَى الآخِرَةِ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ يُجْزَى بِهَا"[2].

فهذا المؤشر أذكره كي يستخدمه من أوشك أن يقنط من رحمة الله، إذ إن القدرة على العمل الصالح مؤشر مُبّشِّر للمرء على أن الله لم يُغلق الباب على العبد. ذلك على أساس أن العمل الصالح يحتاج إلى عون الله، وهذا العون هو من مُكافأة الله للعبد في الدنيا على خيرٍ يراه في عبده.

الحديث يدل على أنه إذا أحب الله عبدًا، يحفظ له أجره حتى يثاب عليه يوم القيامة، بالإضافة إلى الإنعام عليه في الدنيا (لا يُشترط أن تكون النعمة سعةً في المال). ومن المنطقي أن العكس صحيح أيضًا، أنه إذا أذنب عبدٌ يحبه الله، كفَّر الله عنه سيئاته بالبلاء حتى لا يُعاقَب العبد عليه في الآخرة. أو الأكثر من ذلك، وهو أن يغفره الله له برحمته، فلا تحتاج إلى كفارة في الدنيا ولا يُعاقب عليه في الآخرة! فعقاب الله للعبد الصالح في الدنيا إذا أذنب هو كي يرجع العبد عنها ويُنيب إليه تعالى، وليكفِّر الله عنه الذنوب ببلاء الدنيا.

وأما الكافر (وربما يحدث هذا مع المسلم المُسرف أيضا)، فيمكر به ربه كي يتمادى في المعاصي فيزداد عقابه في الآخرة. بل إن الله قد يُكرمه بالنعم بعد المعصية كي يستدرجه بالغرور إلى الاستكثار من المعاصي، فيتضعف حِمله في الآخرة بناءً على تعدد طرق الأعباء. وبذلك يكون عقابه الضعف للمعصية بسبب مكر الله به، لأنه عصى الله أولًا وعليه دفع ثمنه يوم القيامة، وثانيًا لأنه أخذ فوقها نعمة من الله لم يؤدِّ حقها لله، فعليه دفع ثمنها أيضًا!

فالحذر كل الحذر من أن يقع المرء في سخط الله، لأن مكر الله عظيم فلا نُطيقه، ومن وقع في هذا قد لا يخرج منه، فيخسر الخسران العظيم. وتكون حياته لا معنى لها ولا داعي منها لأن حياته تكون نقمة عليه آنذاك، لأنه يزداد إثمًا كلما طال عمره، فيثقل حسابه يوم القيامة. فليُراقب

---

[1] صحيح مسلم 5023.

[2] صحيح مسلم 5022.

المرء نفسه وليتساءل، من أي الفئتين هو، من الفئة التي عندما تعصي الله يزدادوا من نعيم الدنيا، أم من الفئة التي يصيبها البلاء مع المعاصي؟ فإن كان من الفئة الأولى فليراجع نفسه لعله أخطأ أو أكمن الخبث في نياته مع الله أو مع عباده، أو قد يكون أسرف بشدة في المعاصي، فعليه أن يُبادر في إصلاح العلة. وإن كان من الفئة الثانية فليستبشر، فإنه لا يزال هناك خيطٌ يربطه بالله، فليُقوِّه بترك المعاصي والإكثار من الطاعات قبل أن ينقطع خيط الصلة الذي بينه وبين ربه فينتقل بهذا إلى الفئة الأولى.

وبشَّرنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) بمدى الترحاب الذي يُستقبل به العبد تائب، ومدى كبر الله عن معاصينا، وغناه عن تعذيبنا، قائلًا "قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً"[1] (بِقُرَابِ أي ما يُقارب ملئها). انظروا مدى رحمة ربنا، وانظروا مدى عفوه. فانظروا مدى عظمته، فإن من العظمة: السِعة في العفو مقرونة بمطلق القوة والتمكن، وتلك صفة الرب. ثم انظروا مدى حب الله لنا، أيعقل أنه لا يبالي بما اقترفناه من مصائب إذا استغفرناه بصدقٍ، حتى التي تجعلنا نخجل من أنفسنا عندما نتذكرها؟!

هذا العفو اللا محدود، الذي وحده فيه بشارة عظيمة، الذي يُمحى به الذنوب ولو بلغت عنان السماء أو مقدار قراب الأرض، أتاحه الله لنا بالرغم من إعذارنا لأقصى حد. قد جعل الله كتابة السيئة علينا أمرًا مُقيَّدًا -أي تُكتب بقدرها المُحدد ولا يتم تضعيفها-، ومشروطًا -فقط إذا ارتكب المعصية وليس إذا تفكر فيها مهما تفكر-. وفي المقابل، جعل كتابة الحسنة لنا أمرًا ميسورًا إلى حد أنها تتم حتى إذا أعرض المرء عن معصية، ويتم تضعّيف الحسنة كمبدأ أساسي بعشر أضعاف كحد أدنى. وذلك ليس كلامي، وإنما هو كلام الله في الحديث القدسي على لسان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "يَقُولُ اللَّهُ: إِذَا أَرَادَ عَبْدِي أَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً فَلا تَكْتُبُوهَا عَلَيْهِ حَتَّى يَعْمَلَهَا، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا بِمِثْلِهَا، وَإِنْ تَرَكَهَا مِنْ أَجْلِي فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً؛ وَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَعْمَلَ حَسَنَةً فَلَمْ يَعْمَلْهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ"[2].

فيا أيها العاصي القانط، هل ما زلت تظن أن ذنوبك بلغت عنان السماء؟ فحتى إن كانت كذلك، فلا تساوي شيئًا أمام عفو الله إذا استغفرته. أبعد كل هذا أيظن أحد أن دخول الجنة برحمة الله صعب؟ المشكلة أننا نحن الذي نأبى دخول الجنة بعدم الاستغفار بعد عصياننا الله. وأبواب غسيل الذنوب كثيرة ومفتوحة طوال الوقت، إلينا بعضًا منها عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "أَرَأَيْتُمْ لَوْ

[1] سنن الترمذي 3463.

[2] صحيح البخاري 6947.

أَنَّ نَهْرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ؟" قَالُوا: لا يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ، قَالَ "فَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، يَمْحُو اللَّهُ بِهِنَّ الْخَطَايَا"[1] (دَرَنِهِ أي الوسخ). وقال (صلى الله عليه وسلم) "مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلا وَصَبٍ وَلا هَمٍّ وَلا حُزْنٍ وَلا أَذًى وَلا غَمٍّ، حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا، إِلا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ"[2] (نَصَبٍ أي تعب؛ وَصَبٍ أي مرض).

وجاء عنه (صلى الله عليه وسلم) أيضًا "مَنْ قَالَ 'لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ' فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ، كَانَتْ لَهُ عَدْلَ عَشْرِ رِقَابٍ، وَكُتِبَتْ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ، وَمُحِيَتْ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ، وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنْ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِيَ، وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ إِلا أَحَدٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ؛ وَمَنْ قَالَ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ، حُطَّتْ خَطَايَاهُ وَلَوْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ"[3]. وعنه (صلى الله عليه وسلم) "مَنْ تَوَضَّأَ فَمَضْمَضَ وَاسْتَنْشَقَ خَرَجَتْ خَطَايَاهُ مِنْ فِيهِ وَأَنْفِهِ، فَإِذَا غَسَلَ وَجْهَهُ خَرَجَتْ خَطَايَاهُ مِنْ وَجْهِهِ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ تَحْتِ أَشْفَارِ عَيْنَيْهِ، فَإِذَا غَسَلَ يَدَيْهِ خَرَجَتْ خَطَايَاهُ مِنْ يَدَيْهِ، فَإِذَا مَسَحَ بِرَأْسِهِ خَرَجَتْ خَطَايَاهُ مِنْ رَأْسِهِ حَتَّى تَخْرُجَ مِنْ أُذُنَيْهِ، فَإِذَا غَسَلَ رِجْلَيْهِ خَرَجَتْ خَطَايَاهُ مِنْ رِجْلَيْهِ حَتَّى تَخْرُجَ مِنْ تَحْتِ أَظْفَارِ رِجْلَيْهِ، وَكَانَتْ صَلاتُهُ وَمَشْيُهُ إِلَى الْمَسْجِدِ نَافِلَةً"[4].

هذا كله مع وجود عملٍ أثره استثنائي على السيئات، فهو يمحو كل السيئات حتى الكبائر (إلا ما هو دَينٌ للناس)، ألا وهو الحج. نبأنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) "مَنْ حَجَّ لِلَّهِ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ"[5] (يَرْفُثْ أي يُجامع زوجته في الحج). بل وقد بلغ عفو الله أنه ليس فقط يتيح لنا فرصًا كثيرة للتخلص من الذنوب، ومنها ما تُكفِّر الذنوب تلقائيًّا ولو لم يقصد المرء مثل عندما يُصاب بالأذى، بل أنه تعالى يتقرب إلينا يوميًّا في جزء من الليل يدعُنا بترحابٍ ونُصحٍ أن نستغفر ونتوب.

قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ اللَّهَ يُمْهِلُ حَتَّى إِذَا ذَهَبَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الأَوَّلُ نَزَلَ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ؟ هَلْ مِنْ تَائِبٍ؟ هَلْ مِنْ سَائِلٍ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ؟ حَتَّى يَنْفَجِرَ الْفَجْرُ"[6]. فالله يغفر ويتوب لعباده مصداقا لقوله {وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ} [النساء 27، جزء من الآية].

---

[1] صحيح مسلم 1071.

[2] صحيح البخاري 5210.

[3] صحيح مسلم 4857.

[4] سنن ابن ماجه 278.

[5] صحيح البخاري 1424.

[6] صحيح مسلم 1265.

وقد جاء في رواية أخرى "هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ؟ هَلْ مِنْ تَائِبٍ فَأَتُوبَ عَلَيْهِ؟"[1]. وإذا كان قد أهمّك وأعياك ذنبٌ بعينه قد اقترفته، تراه مهولًا، فقد جاء في رواية أخرى "هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ مِنْ ذَنْبٍ؟"[2]. فأيها المشفق على نفسك، بينك وبين ربك ميعاد لا تُفَوّته، فاذهب لملاقاة ربك في الثلث الأخير من الليل، ولا تتركه ينادِك دون أن تجيبه وأنت الذي في حاجة إليه. ثم إن الذهاب لملاقاة الله في ذلك التوقيت أفضل من الجلوس سلبيًّا يتحسر المرء فيه هل يُغفر له أم لا.

وسيفرح الله بتلبيتك ندائه بالوقوف بين يديه وطلبك المغفرة منه، وهذا لأن الأصل هو أن الله يُحب عباده، وهو يُحب أن يغفر لهم. جاء عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيِسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ؛ أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ"[3] (فَلاةٍ أي الأرض الواسعة المقفرة مثل الصحراء). فهلم بنا إلى قَبُولٍ من الله وفرحة.

وأبشر أكثر، إذا وجدت نفسك تقع في المعصية والله يسترك، فهذه علامة على أنه ما زال يُحبك وأن صلتك به لم تنقطع بعد إذ إنه يرحمك. وهذا مؤشر أيضًا، ما دمت لا تستغل ولا تكشف ستر الله عليك، على أنك قد تكون من الذين نبأنا عنهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ اللَّهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّ؛ حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ؛ فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ"[4]، فلا يزال باب الأمل مفتوحًا على مصراعيه. ولتلتفت إلى لفظ "فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ"، أي أن الله يستره في الآخرة أيضًا كما ستره في الدنيا حتى لا ينفضح أمام الملائكة والإنس والجن؛ يُكمل ويُتمّ ستره على عبده.

بل وأبشر أكثر وأكثر، فإن التائب قد يتعدى مرحلة محو ذنوبه فحسب، فقد تُقلَب سيئاتك إلى حسنات، كما دل حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "إِنِّي لأَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولا الْجَنَّةَ وَآخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنْهَا، رَجُلٌ يُؤْتَى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُقَالُ: اعْرِضُوا عَلَيْهِ صِغَارَ ذُنُوبِهِ وَارْفَعُوا عَنْهُ كِبَارَهَا. فَتُعْرَضُ عَلَيْهِ صِغَارُ ذُنُوبِهِ فَيُقَالُ: عَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا: كَذَا وَكَذَا، وَعَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا: كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: نَعَمْ؛ لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنْكِرَ وَهُوَ مُشْفِقٌ مِنْ كِبَارِ ذُنُوبِهِ أَنْ تُعْرَضَ عَلَيْهِ، فَيُقَالُ لَهُ: فَإِنَّ لَكَ مَكَانَ كُلِّ سَيِّئَةٍ حَسَنَةً، فَيَقُولُ: رَبِّ قَدْ عَمِلْتُ أَشْيَاءَ لا أَرَاهَا هَا هُنَا!"، فقال أبي ذر (رضي الله عنه):

---

[1] مسند أحمد 9220.

[2] مسند أحمد 10959.

[3] صحيح مسلم 4932.

[4] صحيح البخاري 2261، جزء من الحديث.

فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ[1]. أما إن بلغت الإحسان في التوبة كفاية، فقد تبلغ مرحلة أبعد أكثر بأن تصبح في منزلة أعلى من بعض الذين كانوا يعملون الصالحات، وذلك لنقاء القلب وإخلاصه مع الله وقوة التوبة!

قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "لَيَتَمَنَّيَنَّ أقوامٌ لَوْ أكثرُوا مِنَ السَّيِّئَاتِ"، قالوا [الصحابة]: بِمَ يا رسولَ اللهِ؟ قال "الذينَ بَدَّلَ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَناتٍ"[2]. وفي موضع آخر روي أنه أتى رجلًا للنبي (صلى الله عليه وسلم) فقال: أرأيتَ من عمِل الذُّنوبَ كلَّها ولم يترُكْ منها شيئًا، وهو في ذلك لم يترُكْ حاجةً ولا داجةً إلَّا أتاها، فهل لذلك من توبةٍ؟ قال "فهل أسلمتَ؟" قال: أمَّا أنا فأشهدُ أن لا إلهَ إلَّا اللهُ وأنَّك رسولُ اللهِ. قال "تفعلُ الخيراتِ، وتتركُ السَّيِّئاتِ، فيجعلُهنَّ اللهُ لك خيراتٍ كلَّهنَّ" قال: وغدَراتي وفجَراتي؟! قال "نعم". قال: اللهُ أكبرُ؛ فما زال يُكبِّرُ حتَّى تَوارَى[3] (داجةً أي ما صغُر من الحوائج؛ تَوارَى أي ابتعد عن الأبصار).

وأُشدد ثانيةً أن مثل هذه الأحاديث لا تُرخِّص للعبد أن يتعمد عصيان الله، فهذا يكون استغلالٌ ومكرٌ بعفو الله، أي قول العبد 'سأعصي الله ثم أتوب' مثلًا، أو بأن يُخطئ الفهم أن الله يريد منا أن نعصيه. فالأحاديث لا تحث على التراخي في مجاهدة المعاصي أو الاسترسال فيهن أو الاستخفاف بعصيان أوامر الله، بل توصّل رسالة ترغيب في تقوى الله، مع الإبلاغ بأنه لا يمكن بلوغ مرحلة من التقوى بحيث إن العبد يترك جميع المعاصي نهائيًّا.

إني إذا قيَّمت نفسي للاحظت أني مخلوق يدعو إلى التعجب منه، فالله خلقني من عدم ورزقني من مُلكه دون أن أسأله كي أعيش، وأسكنني أرضه، ثم أرُد هذا له ليس بالامتنان، بل أرُد بمعصيته. لماذا ذاك؟ هذا هو السؤال المحوري: لماذا المعصية. فإن قلت لأنني ضعيف، فهناك من هو اتقى مني وقلما يعصي الله وهو إنسان مثلي؛ وإن قلت لأني أتبع شهواتي، فلماذا وأنا قد استيقنت أن تلبية شهوات الجسد عناءٌ مستمر وعلمت بفناء الدنيا وأن ما عند الله أفضل إن تركت متاع الدنيا. إني أُحكمكم عليَّ، فالله خلق السماء والأرض ومن فيهن من مخلوقات، وهم لا يعصونه بل ويُسَبِّحون له، وخلقني وجبلني على أني أُخطئ وأعصيه، ولكنه تعالى لم يجبلني على الإعراض عن الاستغفار، فما حكمكم عليَّ إن كانت عادتي أن أفرّ وأتهاون بالاستغفار فوق هذا كله؟! أين حيائي مما أفعله؟

وهناك نقطة مهمة وجب ملاحظتها، وهي تأتي تبعًا في الجواب على السؤال: لماذا يبسط الله في عرض الاستغفار على عباده، ويقبله من عباده بهذا الحد من اليُسر بالرغم من أنه الغني عنهم؟ المعلوم أن صفة الرحمة غالبة عند الله، ولله الحمد والمنّة على ذلك، وذلك هو السبب الأساسي

---

[1] صحيح مسلم 277.

[2] السلسلة الصحيحة للألباني 3053؛ رواه أبو هريرة.

[3] الترغيب والترهيب للمنذري 128/4، وقال عنه: إسناده جيد قوي؛ رواه أبو طويل شطب الممدود.

لغفرانه لنا، ولكن هناك سبب آخر خفي. إنه إن آذاك شخصٌ فإما ترغب في أخذ حقك منه، أو على الأقل تتجنب أذاه ثانيةً، ولكن بعض الناس يعفون –ربما مع الوعظ والمُعاتبة أو من دونهما–. أما إن أذتك بعوضة قد ترغب في الانتقام منها ودفع أذاها، ولكن ذلك أقل احتمالًا مما لو آذاك شخصٌ. وإنها إن لدعتك نملة دفاعًا عن نفسها لتوترت أو انزعجت، ففقط قلة من الناس قد يصلون إلى رغبة الانتقام منها، وعامتهم يهدفون إلى كف أذاها فحسب. أما إن أُصبت المرء بمرض بسبب جراثيم، أترى أن راشدًا قد يرغب في الانتقام منهن؟!

ذلك لأنه كلما ضعف خصمك وزادت قدرتك وتمكينك عليه، قلت حميَّتك ورغبتك في الانتقام ممن آذاك. ولله المثل الأعلى، فإن درجة رحمته ورأفته وعفوه بقبول توبة عباده إلى ذلك الحد إنما هو دليل على مدى عظمة الله عنا وقدرته علينا وتمكُّنه منا. فالحذر كل الحذر من أن أعمد إلى استغلال رحمة الله وعفوه فيُخرجني من سعة عفوه ويُدخلني في دائرة المغضوب عليهم، فيريني قدرته بدلًا من رحمته.

واعلم أخي أن الإيمان يزيد وينقص بحسب لهو المرء، فإذا نقص ارتفعت احتمالية وقوعه في المعصية. لكن على الصعيد الآخر، لا يستطيع أحد إبقاء إيمانه مرتفعًا طوال الوقت، وإلا لبلغ مرحلة أن الملائكة تصافحه في الطرقات.

يروي لنا سيدنا حَنْظَلَة (رضي الله عنه): كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَوَعَظَنَا فَذَكَّرَ النَّارَ، ثُمَّ جِئْتُ إِلَى الْبَيْتِ فَضَاحَكْتُ الصِّبْيَانَ وَلاعَبْتُ الْمَرْأَةَ، فَخَرَجْتُ فَلَقِيتُ أَبَا بَكْرٍ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ: وَأَنَا قَدْ فَعَلْتُ مِثْلَ مَا تَذْكُرُ، فَلَقِينَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ نَافَقَ حَنْظَلَةُ! فَقَالَ "مَهْ"، فَحَدَّثْتُهُ بِالْحَدِيثِ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَأَنَا قَدْ فَعَلْتُ مِثْلَ مَا فَعَلَ، فَقَالَ "يَا حَنْظَلَةُ، سَاعَةً وَسَاعَةً، وَلَوْ كَانَتْ تَكُونُ قُلُوبُكُمْ كَمَا تَكُونُ عِنْدَ الذِّكْرِ لَصَافَحَتْكُمْ الْمَلائِكَةُ حَتَّى تُسَلِّمَ عَلَيْكُمْ فِي الطُّرُقِ"[1]. وجاء عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "مَثَلُ المُؤمِنِ ومَثَلُ الإيمانِ كمَثَلِ الفَرَسِ في آخِيَّتِه، يجولُ ثم يَرجِعُ إلى آخِيَّتِه، وإنَّ المُؤمِنَ يسهو، ثم يَرجِعُ إلى الإيمانِ، فأطْعِموا طعامَكم الأتقياءَ، ووَلُّوا معروفَكم المُؤمِنينَ"[2] (آخِيَّتِهِ هو عود يُثبَّت فيه الفرس).

هذا دليل على أن الإيمان يزيد وينقص، ولا شك أن الإيمان ينقص بالمعصية، وأن نُقصانه (بالتقصير في العمل الصالح) قد يؤدي إلى الوقوع في المعصية أيضًا. فمن المهم محاسبة النفس على ثِقَل المعصية، ومدة البقاء فيها، ومعدل تكرار المعصية؛ فإنهن عوامل تؤثر في درجة الإيمان. وبعد تسجيل هذا يدرك المرء مستواه الحقيقي، ومن ثم يستطيع أن يواجه ويعالج وضعه. والمُهم في

---

[1] صحيح مسلم 4938.

[2] صحيح ابن حبان 616.

القضية هو ما يفعله المرء بعد أن يجد نفسه قد أخطأ، لأنه لا محالة من ضعف الإنسان والوقوع في معصية الله، فالحل آنذاك الاستغفار والتوبة.

ويؤيد ذلك حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ"[1]. وهذا كله يدل على أن الله يُحب العبد المواظب على التوبة، ولم يبِشر حتى إلى أنه يُحب العبد الذي يستطيع أن يُقلع عن الذنوب تمامًا (هناك فرق بين الإقلاع التام وبين التقوى، فالتقوى هي الحد من العصيان قدر المُستطاع وقايةً من عقاب الله)، بل العكس إذ إن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قال (الحديث سنده ضعيف) "إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحِبُّ الْعَبْدَ الْمُفَتَّنَ التَّوَّابَ"[2]. وكلامه هذا يأتي في سياق قول الله تعالى {إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ} [البقرة 222، جزء من الآية]. فالله يُحب العبد المنيب إليه المنكسر له، ويُحب أن يتردد عليه العبد بالتوبة بعدما يُخفق بالوقوع في المعصية، وبهذا يُحافظ العبد على اتصاله بربه، وفيه تعظيمٌ لله.

بل والظاهر أن الله ليُحب كثرة تردد عبده عليه بالتوبة أكثر مما يكره وقوع عبده في المعصية، وإلا لما كان الله أعطانا القدرة على عصيانه. فإن الله قادرٌ على أن يمنع وقوعنا في المعصية بأن يجلبنا فقط على طاعته بالفطرة مثل الملائكة.

فأصوب منهج يُطبَّق هو أن يجاهد المرء نفسه في عدم ارتكاب المعصية، فإن وقع فيها اجتهد في تركها حالًا، مع الإسراع في الاستغفار والتوبة لأن ذلك يدل على الخضوع والحب لله، ويدل على الندم أكثر عما لو تأخر في الإنابة. ثم ليُحاول معادلة المعصية بعمل صالح في أسرع وقت. وهذا مما يُفرّق بين درجة المسلم ومسلمٍ آخر عند الله: مدى ابتعاد العبد عن المعصية، ومدى حسن وسرعة إنابته بعد المعصية، ومدى إقباله على العمل الصالح بعد المعصية، بالإضافة إلى نقاء قلبه مع الله ومع الناس.

ويجب أن نستوعب أن من صفات المؤمن أنه يستمتع في خوض دوره كعبدٍ لله، شاملًا الجوانب التي يتطلبه هذا الدور، فيتذلل لله ويعلن ضعفه وعيوبه وفقره إليه. وهذا أدعى في أن يُحسن إليه الله، مما نرجوه جميعًا من صفات الرب مع العبد، بالعفو والرحمة. وحينئذ يبصر العبد بيقينٍ أن الأمور كلها بيد الله، صغيرة وكبيرة، مثل أنه كُتب علينا الضعف فنقع في المعصية لا محالة. وهذا هو الحال الذي وضعنا فيه الله، ولكنه مع ذلك أراد من عباده المجاهدة الدائمة للمعاصي والاستغفار بعد الوقوع؛ فالاستغفار ثم الاستغفار. فهل سأُلبي أنا تكليفي –كعبدٍ– في الحياة؟

---

[1] سنن الترمذي 2423.

[2] مسند أحمد 769.

ولتعلم أخي، أن هناك تأثيرين للمعصية تستطيع أن تقلبهما لصالحك في التوبة، فتستخرج منهما نفعًا كبيرًا، وهما انكسار النفس واستيعاب الضلال بعد مُعايشته. فأما انكسار النفس فهو يساعد المرء في الاعتراف بالخطأ في حق الله، والتذلل له، والرجاء منه أن يغفر له. الانكسار يدفعك إلى الاستغفار والتوبة، والخشوع في الأعمال، وتجديد الإيمان والعزيمة على طاعة الله، فتتقرب إلى الله. أما معايشة الضلال، فالمرء عندما يخوض في الضلال يستوعب مدى قُبحه، وبذلك يُدرك قيمة الدين أكثر وأكثر في أنه يرشدنا للحق، وفيه سكينة لروح المرء. ويستطيع العبد أن يستخدم ذلك الإدراك في تحفيز نفسه للالتزام بالحق، من باب الامتنان لله على نعمة الإسلام والخشية من أن تُسلب منه علوم الإسلام لتفريطه فيه، وفي نفس الوقت من باب تجنب ما يجعل المرء ذليلًا مُهانًا خجلًا بغيضًا ثانيةً.

ولعل وعسى أن استيعاب الفرق بين عادات الجاهلية ونمط الإسلام هو من الأسباب التي جعلت إيمان الصحابة يبلغ ما لم يبلغه أحدٌ بعدهم، إضافة إلى رؤيتهم للرسول صلى الله عليه وسلم ومعاينة النبوة، لأنهم خاضوا وعايشوا أجواء الانحراف والسفه. فليس أحدٌ تثبتٍ بهذا الدين مثل تثبتهم، متمثلًا في تطبيقه بحذافيره وعزيمتهم في الدفاع عنه ونشره. ما تمسك به أغلب الناس مثل تمسكهم به، وحمايته بتلك الضراوة، إذ علموا أنه إذا زال فسترجع الحياة إلى ما كانوا عليه في سابق عهدهم من جاهلية وضلال. وأمثلة على ذلك أنهم اعتادوا رؤية عبادة الأصنام في الجاهلية، بل ومن الصحابة من كان يعبد صنمًا مصنوع من العجوة في الجاهلية فإذا جاع أكله، ومن الصحابة مثل سيدنا عمر (رضي الله عنه) كان يوئد بناته، أفعالٍ ندموا عليها أشد الندم بعد أن أُرشدوا إلى نور الإسلام.

ومن عادات جاهلية ما يجعل الرجل يصير ديوثًا، بل ويعجبه ذلك بالرغم من كونه من العرب الذين يتميزون بشرفهم وغيرتهم وحميَّتهم في الأصل، وذلك بسبب تمكن أهوائهم منهم. فكان من العادات تعدد الاختيارات المطروحة للنكاح، وكلهن مُعترفٌ بهن ومقبولون في المجتمع بالرغم من أن منهم ما هو أقرب للعُهر. فكان من بين تلك الطرق ما يُسمَّى بنكاح الاستبضاع ونكاح السفاح.

أما نكاح الاستبضاع فهو أن يقول الرجل لامرأته إذا طهرت من طمثها: أرسلي إلى فلان فاستبضعي منه (أي أن تحمل منه!)، ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبدًا حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه. فإذا تبين حملها أصابها زوجها إن أحب، وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد (من ذلك الشخص، إما لحسن خلقته أو لنسبه مثلًا، يراه أفضل منه). فهنا يُحرِّم الرجل زوجته على نفسه بينما يَحِلُّها لغيره، بل ويُودِّدها فيه أو يُجبرها على النكاح (ربما المُتكرر) من رجلٍ غيره، ويسعد عندما تحمل منه. فسبحان الله، أين النخوة... فما هذا الانتكاس العجيب في الفطرة؟!

ونكاح السفاح يقع بأن يجتمع مجموعة، دون العشرة أفراد، فيدخلون على المرأة وكلهم يصيبها. فإذا حملت ووضعت ومر ليالٍ بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم، فلا يستطع رجل منهم أن يمتنع (نظرًا لشرف تمسكهم بالعهود!) حتى يجتمعوا عندها. فتقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم، وقد وَلَدت، وهو ابنك يا فلان؛ فتسمي من أحبت منهم باسمه، فيلحق به ولدها. وهذا النكاح أشبه بحُكم قضاء على الرجل، فيكون بمنزلة النكبة على من تختاره، ولكن ربما هناك من يسعد ممن تختاره المرأة بهذه الطريقة... هذا مع أن البديهي أن الرجل هو الذي ينبغي له أن يُحدد من يتزوجها، وأن زوجته تكون لم يُصبها غيره، وأن الذرية التي تأتي تكون من صُلبه يقينًا، فيعيش حياة مستقرة وسعيدة معها إن شاء الله.

فسبحان الله. كيف يهنأ هذا الرجل بالزواج ويحرص على بيته بعد كل هذا، قد علم أنه قد أصاب زوجته من أصاب، ويعيش متشككًا إذا كان الولد ابنه حقًّا. فالزواج الذي من المفترض أن يكون مصدر سعادة وسكينة واستقرار للرجل، ويكون مُقبلًا عليه، أصبح مصدر بؤس وتعاسة وحيرة وإجبار. فالحمد لله على نعمة الإسلام، الذي أبطل جميع أنواع النكاح إلا النكاح الذي نعرفه اليوم عن طريق شهودٍ وإشهارٍ وموافقة ولي المرأة ومهرٍ، وتكون المرأة خالصةً للرجل ويكون هو مسؤولًا عنها.

وقد أشار جعفر بن أبي طالب إلى الفرق بين الحياتين (الجاهلية والإسلام) عندما خاطب النجاشي (رحمهما الله) قائلًا: أَيُّهَا الْمَلِكُ، كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ، نَعْبُدُ الأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ، يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولا مِنَّا، نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ، فَدَعَانَا إِلَى اللهِ لِنُوَحِّدَهُ وَنَعْبُدَهُ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالأَوْثَانِ. وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ، وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ؛ وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالَ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ. وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرَنَا بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ –فَعَدَّدَ عَلَيْهِ أُمُورَ الإِسْلامِ–، فَصَدَّقْنَاهُ وَآمَنَّا بِهِ وَاتَّبَعْنَاهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ، فَعَبَدْنَا اللَّهَ وَحْدَهُ فَلَمْ نُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَحَرَّمْنَا مَا حَرَّمَ عَلَيْنَا، وَأَحْلَلْنَا مَا أَحَلَّ لَنَا، فَعَدَا عَلَيْنَا قَوْمُنَا فَعَذَّبُونَا وَفَتَنُونَا عَنْ دِينِنَا لِيَرُدُّونَا إِلَى عِبَادَةِ الأَوْثَانِ مِنْ عِبَادَةِ اللهِ، وَأَنْ نَسْتَحِلَّ مَا كُنَّا نَسْتَحِلُّ مِنَ الْخَبَائِثِ [إلى آخر الخطاب][1].

فنستطيع أن نستشف مدى بُغضه ونفوره من تلك الحياة السالفة التي كحال الغابة، ومدى سعادته بما انتقل إليه، فهذا أدعى أن يتمسك بدينه ويُطبّقه إذ إنه أدرك قيمته، وكلما أدرك العبد قيمة هذا الدين تمسك به أكثر. وهذه النقطة يُشار إليها في جزء من حديث لرسول الله (صلى الله عليه

[1] مسند أحمد 1649.

وسلم)، في وصفه لصفة من الصفات التي تجعل المسلم يذوق حلاوة الإيمان، قائلًا "وَمَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ"[1].

فيا أخي، إذا وقعت في المعصية فلا تُحبَط وتنهزم، بل اعمد إلى توظيف هذين الأمرين (الانكسار وإدراك مدى الضلال) إلى التوبة والتثبت بالدين، فتأخذ عليهما أجرًا! وتلك هي حقيقة ما يريده الله منا، ليس أن نُقلع عن المعصية تمامًا، بل أن نستغفره إذا وقعنا في المعصية بعد الاجتهاد في تفاديها، وعندما نُحقق ما أراده الله منا نأخذ على هذا أجرًا بكرمه. الملخص فيما هو مطلوب من ابن آدم حول قضية عصيان الله هو: أن يتفانى بصدق في تجنب المعصية، فإن أخفق وأصاب الذنب فعليه بالتوبة، مع أفضلية تعجيلها.

من أراد أن يُخلص في طلب الاستغفار فليأخذ بمفتاح الاستغفار الذي أعطانا إياه رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، وهذا حين قال "سَيِّدُ الاسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلا أَنْتَ"[2]. بهذا الدعاء، قد يرتاح بال المرء أنه وفَّى في الاستغفار قدر استطاعته إذا قاله نادمًا خاشعًا.

واعلم أخي أن الله يصبر علينا حتى نتوب، ولكن ذلك إلى مجيء أجَل المرء وبعده يكون الجزاء. وهذا ما دلت عليه الآية {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا} [فاطر 45]، فلنُسارع ولنغتنم ما دامت الفرصة متاحة لنا. ويجب أن نلاحظ أن إمهال الله للناس دلالة على حُبِّه لهم ورأفته بهم، إذ إنه يبلغ منتهى إعذارهم، ولو لم يُحبنا لأهلك منا من يعصيه معصية كبيرة –أو حتى صغيرة– في الفور إن شاء، فلا شيء يفرض عليه أن يصبر علينا، فهو القاهر الغني العلي سبحانه.

ثم إن المرء يجب أن يُحسن الظن بالله مع حُسن العمل، فإن تاب المرء وصدق فيها فلا يشُك أن الله سيقبلها ويُغفر له. هذا لأن الله قد وعدنا قبول المغفرة في القرآن، وليس في موضعٍ واحد بل في عدة مواضع، مثل الذي ذكرناه {فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا}. وهذا ما دام العبد لا يطلب المغفرة عبثًا، أو وهو غير مبالٍ أيُقبل الدعاء أم لا، أو مُعرض عن الله، فإن خلى من هذا وأخذ بأسباب قبول الدعاء فسيُستجاب له دعاءه أو استغفاره لا محالة. قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) "الْقُلُوبُ أَوْعِيَةٌ وَبَعْضُهَا أَوْعَى مِنْ بَعْضٍ، فَإِذَا سَأَلْتُمْ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَيُّهَا النَّاسُ فَاسْأَلُوهُ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالْإِجَابَةِ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَجِيبُ لِعَبْدٍ دَعَاهُ عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ غَافِلٍ"[3]. وجاء في حديث

---

[1] صحيح البخاري 20.

[2] صحيح البخاري 5831، جزء من الحديث.

[3] مسند أحمد 6368، حسنه شاكر والهيثمي ولكن ضعفه الألباني والأرناؤوط.

آخر "لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ، اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ. لِيَعْزِمْ فِي الدُّعَاءِ، فَإِنَّ اللَّهَ صَانِعٌ مَا شَاءَ لَا مُكْرِهَ لَهُ"[1].

فلماذا قد يقلق التائب الصادق بأن قد يكون الله رفض توبته، هل يرى منا أحدٌ أن الله يرُدَّ منيبًا إليه خائبًا؟ أهكذا نظن في ربنا؟ كلا، فقد جعل رسوله (صلى الله عليه وسلم) يُنبئنا "إِنَّ اللَّهَ حَيِيٌّ كَرِيمٌ، يَسْتَحْيِي إِذَا رَفَعَ الرَّجُلُ إِلَيْهِ يَدَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا خَائِبَتَيْنِ"[2]. وأوليس النبى (صلى الله عليه وسلم) هو الذي قال (قبل موته بثلاثة أيام) "لا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إلا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ"[3]؟ فمن حسن الظن بالله أن يرى العبد أن ربه غفورٌ رحيم إلى أقصى الحدود، فما الداعي للقنوط؟ فلا ينبغي للعبد أن يغتمّ بقبول الله التوبة. أما أن يتحسر ويظل نادمًا على أنه عصى الله فهذا يُندب، وهو دليل على قوة إيمان العبد.

وفي لفتة جانبية متعلقة بحسن الظن بالله، فإن هناك أدلة تشير إلى أن الله يُحاسب العبد بحسب ظنه فيه تعالى، منها الحديث القدسي "أنا عندَ ظَنِّ عَبدي بي، فَلْيَظُنَّ بي ما شاءَ"[4]. بمعنى آخر: أمل ومنطلق نظرة العبد لله بما لا يتعارض مع قوانين الله (فلا يجوز أن يظن العبد أن الله سيُدخل الكفار إلى الجنة بعد أمدٍ، رحمةً منه). أي أن من يلقى الله وهو يُحسن الظن في أنه غفور رحيم لأبعد الحدود، فإن الله سيكون مع ذاك العبد غفورًا رحيمًا بإفاضة. لذلك قد حث الرسول (صلى الله عليه وسلم) حثًّا قبل موته على أنه ينبغي للعبد ألا يموت إلا وهو يُحسن الظن بالله، ويُحسن أمله في معاملة الله له.

وعلى الوجه الآخر، فإن هناك طوائف من المسلمين يفترون أن الكبيرة لا يغفرها الله بأي حال من الأحوال، أو أن المعصية الصغيرة وجب المعاقبة عليها حتى إن تاب المرء. فإني أرى أن هؤلاء قد أساءوا الظن بالله، وأخشى عليهم أن قد يُحاسبهم ويُعاملهم الله بحسب افتراءاتهم تلك. فمثلًا: قد يحكم الله أن من وقع منهم في كبيرة يكون قد وجبت له النار حتى يُكفِّر عنها، ومن وقع منهم في صغائر الذنوب فإنه سيُسأل عنهن واحدة واحدة، مع المناقشة، جزاء من جنس ما يفترون!

فمن يُخفف على نفسه وعلى الناس (في إطار شرائع الله) يُخفف الله عنه، ومن يُشدِّد على نفسه وعلى الناس يُشدِّد الله عليه. والدليل القطعي على هذا هو ما جاء عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في مسألة مشابهة، ألا وهي التشديد في التعبد، قائلًا "لا تُشَدِّدُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَيُشَدَّدَ

---

[1] صحيح مسلم 4839.

[2] سنن الترمذي 3479.

[3] صحيح مسلم 5125.

[4] صحيح الموارد للألباني 2088.

عَلَيْكُمْ، فَإِنَّ قَوْمًا شَدَّدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ فَشَدَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، فَتِلْكَ بَقَايَاهُمْ فِي الصَّوَامِعِ وَالدِّيَارِ {وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ}"[1].

وتعقيبًا لموضوع الحديث، ففي الآية المذكورة جاء {وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاء رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا} [الحديد 27، جزء من الآية]. لننتبه إلى قوله تعالى "فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا"، فمن تفسيرات تلك الجملة أنهم لم يُوَفّوا حق ما قد ابتدعوه بأنفسهم تطوعًا، بمعنى أن حتى الذي ابتدعوه قصَّروا فيه بعد أن فرضوه على أنفسهم.

في الكلام دليلٌ على تقصيرهم حتى فيما ابتدعوه (ألزموه على أنفسهم)، وبناء على فعلتهم تلك فالكلام أيضًا يُحمل على وجه التهديد من مكر الله، إذ إننا لا ندري أسيحاسبهم الله على ذلك التقصير في الآخرة أم لا. فلا نستطيع أن نأمن أنه لن يُحاسبهم على تقصيرهم في الوفاء بتلك البدعة (ومع أنها بدعة)! فأي داهية تلك حين يفرض المرء على نفسه أمرًا شاقًّا ثُم لا يوفِّيه، وما نال منه إلا أنه فتح على نفسه باب المحاسبة والأحمال يوم القيامة على ذلك التقصير؛ تكليفًا لم يكن على المرء في الأصل ولكنه وضعه على نفسه أمام الله. ألا يكفي ما على المرء التكاليف من الله حتى يُكلِّف نفسه بالمزيد؟! وهل وفَّى التكليف الأساسي حتى يزيد على نفسه؟! فأي انحرافٍ وسفهٍ ذلك؟!؟

فحسن الظن أو سوء الظن ينتج عنه اختلافٌ في طريقة محاسبة الله للعبد بلا شك، إذ إن الله عند حسن ظن العبد به تعالى، فقد نبأنا سيدنا محمد "إِنَّ اللهَ تعالى يقولُ: أنا عندَ ظنِّ عبدي بي، إن خَيرًا فخَيرٌ، وإن شرًّا فشرٌّ"[2]. وهذا تم توضيحه بالمثال في واقعة يرويها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "يَخْرُجُ مِنْ النَّارِ أَرْبَعَةٌ يُعْرَضُونَ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَيَأْمُرُ بِهِمْ إِلَى النَّارِ، فَيَلْتَفِتُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ قَدْ كُنْتُ أَرْجُو إِنْ أَخْرَجْتَنِي مِنْهَا أَنْ لا تُعِيدَنِي فِيهَا! فَيَقُولُ: فَلا نُعِيدُكَ فِيهَا"[3].

فليلاقي كلُ منا ربنا وهو يأمل أن يكون قد غفر الله له، فذلك أدعى أن يُخفف الله عنه في الآخرة، بل وليتمادى في الظن الحسن بربه أكثر من هذا ما دام يُحسن العمل. ومع أني قلت إن المرء الذي تاب بصدق يجب ألا يقلق من أن الله لم يقبل توبته فلم يغفر له، إلا أنه من الورع والتواضع أن يقلق –بل ويخشى– المرء المُساءلة على ذلك الذنب، ومن أنه قد يضطر إلى مناقشته مع الله بالرغم من وجود توبته معه (فكفى بالمناقشة عذابًا). من منا لا يريد تجنب ولا يرتعد أن يُلقي الله عليه سؤالًا مثل: فعلت كذا وكذا ثم تُبت؟ ثم قد ينتظر الله من المرء الاستفاضة التامة في الذنب، وعن أسباب

---

[1] سنن أبي داود 4258.

[2] صحيح الجامع للألباني 1905.

[3] مسند أحمد 12835.

إقباله عليه، والوقوع فيه، وما هي الترتيبات التي أعدَّها لارتكاب الذنب، وكيفية ارتكابه، وهذا قبل التكلم عن توبته التي قبلها الله!

الرجاء في عفو الله مع الخوف منه تعالى لما اقترفه العبد من ذنوب هو الحال الصائب، فقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل على شابٍ وهو في الموت فقال "كَيْفَ تَجِدُكَ؟" قال: أَرْجُو اللَّهَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَأَخَافُ ذُنُوبِي؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لَا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ إِلَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ مَا يَرْجُو وَآمَنَهُ مِمَّا يَخَافُ"[1]. فلنسأل الله أن يُدخلنا الجنة بغير حساب، فإن أبى ذلك وحاسبنا فأن فقط تُعرَض علينا أعمالنا دون أن نُناقش عليهن.

وقرب الختام، يجب ألا يلوم المرء نفسه على لماذا لا يستطيع الإقلاع عن المعاصي كليًّا، ولكن ينبغي أن يلوم نفسه إذا وقع في المعصية، لأن ذلك أعون له في مقاومتها والإقلاع عنها. والأشمل من ذلك كله هو لوم النفس على التقصير في الاستغفار والتوبة، إذا كان هذا هو حال العبد. والحمد لله الذي يُحب العبد المنيب بعد المعصية، الذي يُدرك أن له ربًّا يأخذ بالذنب ويغفر. والحمد لله الذي يُحب سماع تضرع وتوسل عبده إليه، ويحب أن يسمع صوت مناجاة عباده له، فعندما يعصون الله يُكثرون من مناجاته بالمغفرة. وبهذه العلة التي في العبد، ألا وهي الوقوع في معصية لضعفه، يستغفر ويتضرع لله أكثر من العبد الذي لا يُذنب ومن ثَمَّ لا ينكسر ولا يتضرع إلى الله.

بل إن المرء إذا بلغ مرحلة أنه لا يُذنب، سيعجب بعمله ويقتنع أنه ناجٍ يوم القيامة، ويفتخر بنفسه أو حتى يرى في نفسه الكمال، مما يقوده إلى أن يتكبر على الناس بعد ذلك. وهذه الآفة القلبية أسوأ عند الله من كثير من المعاصي، إذ إن العجب قد يفيض بالمرء إلى استصغار نِعَمِ الله عليه، وربما التكبر على الله والكفر به. وهذا دل عليه حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَخَشِيتُ عَلَيْكُمْ مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْهُ: الْعُجْبُ"[2].

والكبر صفة خطيرة على العبد، لأن بها يُفسد في الأرض ويُقلع عن الإصلاح فيها وفي نفسه. وقد توعد الله لمن تكبر {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} [غافر 60]. فالكبر بالطبع يؤدي إلى الهلاك، وقد يؤدي تدريجيًّا إلى ترك عبادة الله كليًّا تعاظمًا من شأن العبد لنفسه والعياذ بالله.

مثال على ذلك هو إذا عمل المرء عملًا فربح منه مالًا كثيرًا أُعجب بنفسه ومدح نفسه، مع أن هذه نعمة من الله وما قدَّره من رزقه لهذا العبد. قد أُعجب العبد بنفسه ونسب النجاح إلى نفسه على شيء رزقه الله إياه، ظانًّا أنه جلب ذلك بنفسه لنفسه. وذلك كما قال الله عز وجل {فَإِذَا مَسَّ

---

[1] سنن ابن ماجه 4251.

[2] صحيح الترغيب للألباني 2921، رواه أنس بن مالك (رضي الله عنه)؛ قال الألباني عن الحديث: حسن لغيره.

الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ} [الزمر 49]. فبسفاهةٍ جزم أن ليس لله فضل فيما عنده، على قناعته أنه هو الذي جنى ذلك المال بمهاراته ومميزاته، فينكر أن لله حقًّا عليه، فيترك حمده وعبادته!

بل وقد يصل إلى مرحلة من الضلال أنه يرى أنه سيُغفر له تقصيره وأخطاؤه مع الله ومع الناس، نظرًا إلى مكانته العالية عند الله وإلى ما قدَّمه للناس من منافع (التي في الواقع قد تكون مفاسد حتى)، فيرى أنه سينجو وله الجنة. ولهذا فإن الله يُحب العبد العاصي المتواضع المنيب أكثر من العبد الذي لا يعصيه ويستعظم نفسه، لأن الله يُحب التضرع إليه أكثر من كرهه أن يعصيه العبد. وقد خلق الله كل فصيل من الكائنات بحسب إرادته، ولو أنه أراد مخلوقات لا يعصونه فلكان خلقنا لا نستطيع عصيانه مثل الملائكة، ولكنه أراد خلاف ذلك للإنس والجن بحكمته.

أما طبع العبد الصالح، فضميره يؤَنِّبه بعد معصية ربه فيتجه إلى ربه ويسأله المغفرة بإلحاح، وهذا العبد المتذلل لله هو الذي عرف مكانه ويُقر بسيطرة الله المطلقة على كل الأمور، وأن ما هو إلا عبد به عيوب. يستوعب أنه عبدٌ لرب العباد الذي كَمُلت وتعالت وتنزهت صفاته عن العيوب أو النقصان، الخالق الذي ليس كمثله شيء.

وإدراك العبد لهذا، وقبوله التام للعبودية، لا يكون إلا لمن أخطأ في حقوق الله ويشعر بإخفاقه، وهذا يكون في المعصية التي يندم بعدها، وحينئذ تأخذه نفسه إلى الخضوع لحقيقة كمال الله. وتوبة العبد تعني أيضًا أنه أدرك أن كمال الله يعطيه الحق بأن يكون هو المُشَرِّع الوحيد لهذا الكون، أي تحديد ما هو حلال وما هو حرام. وقد حكم الله أن من خالف حدوده تكتب مُخالفته، ومن أراد أن يمحو الله له مخالفته تلك فليستغفره. فالحمد لله على عظمته وحكمته ورأفته بنا بالرغم من قدرته المطلقة علينا.

تخيلوا لو لم يكن الله ليرحمنا، أو لم يكن ليغفر لنا، لكان ذلك هو الذي يدعو لليأس، لأن ليس أحدٌ بناجٍ من العذاب آنذاك، وليس لأحد حيلة في تغيير ذلك الواقع. فالحمد لله الذي وصف نفسه بصفات الرحمة والمغفرة والرأفة.

فكلما أخطأ الإنسان واعترف بضعفه وقلة حيلته، انكسرت نفسه فيخضع للعظيم الكامل... لرب العالمين. هكذا لن يستكبر العبد عن عبادة الله والتضرع واللجوء إليه، لأنه أدرك أن القوة لله وأن الله ليس فيه شبه ضعف حتى، أي لا تأخذه سِنَةٌ (أي النُعاس) ولا نوم سبحانه وتعالى. فعندما يُخطئ أحدنا فليُقِر بخطئه، ولينِدم ويحزن على ما فعل، وينوِ الإقلاع عن الذنب، ويستغفر الله على ذنبه، ويرد الحقوق إن كان قد غصَب حقًّا. ولا ييأس العاصي من رحمة الله مهما تكررت وتنوعت الذنوب، ولو كان نفس الذنب عمدًا، ولا يقسو على نفسه بما يُحبط النفس. هذا كله وقد قال تعالى

{وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ} [الأنفال 33]، وذلك عن المشركين، فنحن كعباد الله المُخلصين المُقرّين بأنه لا إله إلا هو أولى بنيل عفو الله منهم. فيا أخي، أَقبِل على الاستغفار.

الوصية الأخيرة الشاملة

لا أجد وصية أفضل ولا نصيحة أشمل للخير، ووقائية من الشر وتكفِّر الذنوب، أختم بها الكتاب من وصية الرسول (صلى الله عليه وسلم) التي ختم بها حياته، في آخر أنفاسه قبل أن يُفارق الحياة. وبتحمله عناء نطقها وتكبده التشديد في تكرارها في آخر لحظات حياته جعلتني أُدرك وأتيقن أنها الأقيم والأفيد لنا. تلك الوصية هي ما نقلتها لنا أم المؤمنين أم سَلَمَة (رضي الله عنها) قائلة: كَانَ عَامَّةُ وَصِيَّةِ نَبِيِّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَ مَوْتِهِ "الصَّلاةَ الصَّلاةَ، وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ" حَتَّى جَعَلَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُلَجْلِجُهَا فِي صَدْرِهِ وَمَا يَفِيضُ بِهَا لِسَانُهُ[1] (يُلَجْلِجُهَا أي يرددها فلا تخرج من فمه مفهومة، وَمَا يَفِيضُ بِهَا لِسَانُهُ أي ينطقها بصعوبة فتختفي).

ولنستفيض فيها قليلًا، ذاكرًا أن الله رفع من شأن رجالٍ صفاتهم {الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ} [الحج 41]، فبدأ بإقامتهم للصلاة حق الإقامة. الصلاة في أول الوقت هي أفضل وأحب الأعمال إلى الله التي قد يفعلها المرء، فقد سُئل رسول الله (صلى الله عليه وسلم): أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ قَالَ "الصَّلَاةُ لِأَوَّلِ وَقْتِهَا"[2].

ومن أكثر من صلاة النوافل، بعد الفرائض، كان الله مُرشِده في سمعه وبصره ويده ورجله، كما في الحديث القدسي "إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ. وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ"[3] (عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ أي عن أخذ روحه عند الموت).

فكيف لمن كان الله معه في سمعه وبصره وتداوله ومشيه أن يَضِل؟ ذلك بأنه إذا جاءه فاجر يريد أن يغويه، كشف الله للمؤمن حقيقة الفاجر لأنه يرى بنور الله، وحال الله بين الفاجر وعبده المؤمن وكفاه إياه. وإذا أقبل ذاك المؤمن على المعصية حال الله بينه وبينها، وصرف إحداهما عن الآخر، فيمنع العبد من أن يقع في المعصية إلا إذا أصرّ.

---

[1] مسند أحمد 25278.

[2] سنن الترمذي 155.

[3] صحيح البخاري 6021.

هذا كله والصلاة والمعاصي لا يتوافقان، فإن كثرت إحداهما أوشكت أن تُفضي بالأُخرى، كما يتبين لنا من الحديث عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عندما جاءه رجلٌ فقال: إِنَّ فُلانًا يُصَلِّي بِاللَّيْلِ، فَإِذَا أَصْبَحَ سَرَقَ، قَالَ "إِنَّهُ سَيَنْهَاهُ مَا يَقُولُ"[1]. فالطريق إلى الارتقاء بالإيمان له سبيلان، إما أن المرء قد يُجاهد نفسه على الطاعات حتى يُنبت الله في قلبه كره المعصية، بل وقد يمنعه عندما يعمد العبد إلى المعصية، وإما أن العبد قد يجاهد نفسه على ترك المعاصي فيهتدي إلى فعل الطاعات ويحب أن يأتيها. الحمد لله على سعة رحمته وعونه، فالطريقان متاحان لنا لنختار الطريق الأنسب والأكثر فعالية في نفوسنا، فنميل على إحداهما أكثر من الأخرى مبدئيًّا (إما ملازمة الصلاة وإما الامتناع عن المعصية)، فيُعيننا الله على الأخرى.

ومجاهدة النفس على الصلاة سبيل من السبل للتخلص من الوقوع في المعاصي في الدنيا، وللتخلص من أعبائهن في الآخرة. ويسوقني الكلام إلى ذكر مفتاح لبلوغ مرحلة مرافقة الرسول (صلى الله عليه وسلم) في الجنة، وحقيقة يغفل عنها كثير من الناس، وهي فيما رواه لنا سيدنا رَبِيعَة بن كَعْب الأَسْلَمِيُّ (رضي الله عنه) قائلًا: كُنْتُ أَبِيتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَتَيْتُهُ بِوَضُوئِهِ وَحَاجَتِهِ، فَقَالَ لِي "سَلْ"، فَقُلْتُ: أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ. قَالَ "أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ؟" قُلْتُ: هُوَ ذَاكَ! قَالَ "فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ"[2] (سَلْ أي إسأل أو أطلب). فسبحان الله، قرن الرسول (صلى الله عليه وسلم) بين كثرة السجود وبين بلوغ منزلة مرافقته في الجنة، فمن منا المغتنم؟

وعلى إثر الوصايا الشاملة بصفة عامة، فهناك عدة وصايا شاملة أخرى نصح بهن الرسول (صلى الله عليه وسلم) في خلال حياته قبل أن يختم بالوصية التي تداولناها، للعبد أن ينتفع بهن. فمثلًا، هناك دعاء شامل يرويه لنا أبو أُمَامَة (رضي الله عنه) قائلًا: دَعَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِدُعَاءٍ كَثِيرٍ لَمْ نَحْفَظْ مِنْهُ شَيْئًا، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ دَعَوْتَ بِدُعَاءٍ كَثِيرٍ لَمْ نَحْفَظْ مِنْهُ شَيْئًا، فَقَالَ "أَلا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَجْمَعُ ذَلِكَ كُلَّهُ؟ تَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا سَأَلَكَ مِنْهُ نَبِيُّكَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا اسْتَعَاذَ مِنْهُ نَبِيُّكَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَنْتَ الْمُسْتَعَانُ وَعَلَيْكَ الْبَلاغُ وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلا بِاللَّهِ"[3].

وهناك عملٌ شامل لمن أراد أن يرفع من مراتبه في الآخرة، ألا وهو لزوم ذكر الله (والصلاة نوع من أنواع ذكر الله، ووصية الرسول صلى الله عليه وسلم بالصلاة عند وفاته أخص). يُروى أن أعرابيًّا سأل الرسول (صلى الله عليه وسلم) قائلًا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ شَرَائِعَ الإِسْلامِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ

---

[1] مسند أحمد 9402.

[2] صحيح مسلم 754.

[3] سنن الترمذي 3443.

فَمُرْنِي بِأَمْرٍ أَتَثَبَّتُ بِهِ، فَقَالَ "لا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا بِذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ"[1]، وبلا شك فإن الصلاة أهم –من جهة الشرائع– من كثرة ذكر الله، مما يدل على أنها جوهر ذكر الله.

هذا وينبغي التنبيه على أن الصلاة هي أهم حق لله على العبد بعد الشهادة لله بالتوحيد، كما دل جزء من حديث لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) "رَأْسُ الْأَمْرِ: الْإِسْلَامُ؛ وَعَمُودُهُ: الصَّلَاةُ؛ وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ: الْجِهَادُ"[2]، فلا يُتصور أن يُقيم عبدٌ بناءً بغير عمود، وكذلك فلا يمكن لعبدٍ أن يُقيم الإسلام فعليًّا دون الصلاة. وهناك حديث يدل على أهمية الصلاة كحق لله، إذ قال (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عَمَلِهِ: صَلَاتُهُ؛ فَإِنْ صَلُحَتْ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ. فَإِنْ انْتَقَصَ مِنْ فَرِيضَتِهِ شَيْءٌ قَالَ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ: انْظُرُوا هَلْ لِعَبْدِي مِنْ تَطَوُّعٍ فَيُكَمَّلَ بِهَا مَا انْتَقَصَ مِنْ الْفَرِيضَةِ؟ ثُمَّ يَكُونُ سَائِرُ عَمَلِهِ عَلَى ذَلِكَ"[3]. فتخيلوا معي، إذا أفلح المرء في أول سؤال، وخصوصًا إذا كان مكتسحًا فيه، ما مدى السعادة والراحة التي سيكون فيها تجاه الأسئلة اللاحقة. ولكن ماذا لو أخفق في إيفاء حق أول سؤال، كيف سيكون حاله في باقي الأسئلة؟

يُضاف إلى كل تلك المميزات لصلاة الجماعة في المسجد أنها تمحو الذنوب أيضًا. قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "أَلا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟"، قَالُوا بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ "إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلاةِ بَعْدَ الصَّلاةِ، فَذَلِكُمْ الرِّبَاطُ"[4]. فلنلاحظ أن كل تلك الأمور التي ذُكرت مرتبطة بالصلاة في المسجد! بل إن هذا يرفع الدرجات أيضًا وليس فقط يُبرِئ العبد من خطاياه، فأي غنيمة تلك؟

وليعلم كل منا، أن حضور الصلوات المكتوبة في المسجد واجبة على الرجال، كما دلّت عدة أحاديث. فمنها ما نقله أبو هريرة (رضي الله عنه) أن رجلًا أعمى جاء إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّهُ لَيْسَ لِي قَائِدٌ يَقُودُنِي إِلَى الْمَسْجِدِ؛ فَسَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُرَخِّصَ لَهُ فَيُصَلِّيَ فِي بَيْتِهِ، فَرَخَّصَ لَهُ؛ فَلَمَّا وَلَّى دَعَاهُ فَقَالَ "هَلْ تَسْمَعُ النِّدَاءَ بِالصَّلَاةِ؟" قَالَ: نَعَمْ؛ قَالَ "فَأَجِبْ"[5]. 'فَلَمَّا وَلَّى دَعَاهُ' أي عندما بدأ ينصرف الرجل ناداه الرسول أن يُجيب نداء المؤذن بأن يُصلي في المسجد، وفيه إشارة أنه لم يجد له رخصة في ألا يُصلِّي في المسجد بالرغم من أن الرجل أعمى وأوشك الرسول أن يُعذِره.

---

[1] مسند أحمد 17037، جزء من الحديث.

[2] سنن الترمذي 2541.

[3] سنن الترمذي 378.

[4] صحيح مسلم 369.

[5] صحيح مسلم 1044.

وحديث آخر هو قوله (صلى الله عليه وسلم) "لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ بِحَطَبٍ يُحْتَطَبُ، ثُمَّ آمُرَ بِالصَّلَاةِ فَيُؤَذَّنَ لَهَا، ثُمَّ آمُرَ رَجُلًا فَيَؤُمَّ النَّاسَ، ثُمَّ أُخَالِفَ إِلَى رِجَالٍ فَأُحَرِّقَ عَلَيْهِمْ بُيُوتَهُمْ. وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ يَعْلَمُ أَحَدُكُمْ أَنَّهُ يَجِدُ عَرْقًا سَمِينًا أَوْ مِرْمَاتَيْنِ حَسَنَتَيْنِ لَشَهِدَ الْعِشَاءَ"[1]. أُخَالِفَ أي يأتيهم من خلفهم، أو يترك المُصلين ليذهب إلى من لا يأتي الجماعات؛ عَرْقًا سَمِينًا هو قطعة لحم كبيرة قريبة من العظم؛ مِرْمَاتَيْنِ هو ما بين ظِلفَيْ الشاة من اللحم؛ لَشَهِدَ أي لحَضَر.

ولكن، مع أن الصلاة في المسجد واجبةٌ فإنها في نفس الوقت أفضل عمل قد يُقدِّمه العبد لله، كما جاء صريحًا في حديثه (صلى الله عليه وسلم) "اسْتَقِيمُوا وَلَنْ تُحْصُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ خَيْرَ أَعْمَالِكُمْ الصَّلَاةَ، وَلَا يُحَافِظُ عَلَى الْوُضُوءِ إِلَّا مُؤْمِنٌ"[2]. اسْتَقِيمُوا أي التزموا منهج الله بإتيان ما أمر به واجتناب ما نهى عنه؛ وَلَنْ تُحْصُوا أي لن تُحيطوا بكل أعمال البر ولن يُمكنكم الاستقامة في كل شيء، ففيه حث على الاجتهاد دون أن يتكلوا على ما قدَّموه من أعمال، ولا أن ييأسوا أيضًا من رحمة الله لعدم الاستطاعة على الاستقامة التامة، وقيل أي لن تُحصوا ما لكم من أجر إذا استقمتم.

وقد يسأل سائل: هناك أحديث تشير على أن قول "لا إله إلا الله" هو خير الكلام، وأن الذاكرين الله كثيرًا هم من أفضل الناس درجةً يوم القيامة، فكيف نجمع في الفهم بين الأحاديث؟ الظاهر، والله أعلم، أن المعيار إذا كان المعيار عن عملٍ واحد مقارنة بعمل آخر، فيكون آنذاك هو الصلاة، لأن الصلاة تشمل نطق "لا إله إلا الله" في التشهد في أدنى الأحوال، وفيها ذكرٌ لله كثير، ولو أن العبد ذكر الله كثيرًا ولكنه لا يُصلِّي فإن له العذاب وليس المنازل العالية. أما إن كان المعيار هو المرتبة العالية، فهي للذاكرين الله كثيرًا، الذين يُحافظون على الصلوات في المسجد ويزيدون على ذلك بأذكار اللسان خارج الصلوات.

وختامًا، فالحفاظ على الصلاة في المساجد خاصةً تجعل المرء يكتسب صفات النجاة، وتنسلت عنه صفات الهلاك، وتُقرِّبه إلى الله بأن يكتسب علمًا في المساجد، وتُنشئ الأُلفة بينه وبين إخوانه المسلمين وتُقوي الروابط حتى يكونوا كالجسد الواحد، وتفتح المجال للتفكر في الله وفيما خلقه، فتُلين قلبه وتُقنعه بالإقلاع عما يُغضب الله. هذا وإنها لتُكفِّر عنه أثقال ما ارتكبه من معاصٍ، ويُعافى من آثارهن، وتجعله أكثر نفورًا منهن. فكيف أختم الكتاب بوصيةٍ خلاف الالتزام بصلاة الجماعة في المساجد؟

ونهايةً أيها القارئ، بعد الإلمام بكل المعلومات التي في هذا الكتاب، ألا تبدو المعصية هَيِّنة؟ فكل العوامل المنطقية تسوق إلى تجنب المعاصي. بعد معرفة المكافآت التي تفوتني بمعصيتي الله، ومعرفة العناء الذي ينتظرني في الآخرة بها، ومعرفة الأضرار التي تقع عليَّ وعلى غيري في الدنيا من

---

[1] صحيح البخاري 6683.

[2] سنن ابن ماجه 273.

تبعات المعصية، ينظر المرء إلى الوراء ويتساءل كيف تجاهلت أو تجاوزت كل هذه العوامل، وأقدمت على الشقاء، وخالفت المنطق، وتجرأت نفسي فعصيت الله. فيظل السؤال: ربي، كيف عصيتك؟!

الخاتمة

أخي القارئ، إن كان هذا الكتاب أفادك بأن أحدث فيك تغييرًا ملموسًا في أعمالك، فإني أقترح أن تعيد قراءة الأقسام التي أثَّرت فيك بين الحين والآخر، فإن الإنسان بطبعه لينسى المواعظ والحقائق، ويضعف إيمانه، فتساعده التذكرة على تنشيط وإعلاء هِمَّته في إصلاح عمله. هذا وأن إعادة القراءة بعد فترة قد تجعل المرء يرى نفس الكلام بمنظور جديد إضافي، بعدما يكتسب فقهًا وخبرةً أكثر في الحياة، فيستوعب ويؤثر الكلام فيه أكثر. والحمد لله، وما التوفيق إلا من عند الله، وهو المُستعان.

ويجب أن أشكر كل من ساهم في جمعي لهذا الكتاب وتصحيحه، سواء بطريقة مباشرة أم غير مباشرة، من علماء وصالحين وإخوة وأصدقاء. ومنهم بالطبع أصحاب الكتب والفتاوى التي أخذت منهن معلومات (فإنهم، وبلا شك، يفوقون قدرتي على إحصائهم وذكرهم هنا)، ومبرمجو الأسطوانات المدمجة التي يسَّرت تداول المعلومات. وذلك يشمل كل من أرشدني إلى معلومة موثوقة (سواء في كتاب أم مقالة أم درس أم غير ذلك) استخدمتها أم لم أستخدمها، وكل من أعانني على طريق الهدى، فلولا أن الله استعملهم لهدايتي لم أكن لأبلغ مرحلة أني أكتب هذا الكتاب. فأسأل الله أن يجازيهم عني وعن الأمة الإسلامية خيرًا كثيرًا، فهو يحصيهم جميعًا، ويعلم أين يكون الخير لهم، وأقدر على مُكافأتهم إذ عجزت أنا. وبدلًا من ذكرهم، أدعو الله لهم أن ينفعهم ويُقرَّ أنفسهم بأكثر مما لو ذكرتهم أنا هنا. اللهم اغفر لهم، وارحمهم، واجبُرهم، وارفعهم، واهدهم، وعافهم، وارزقهم، وأكرمهم، وسائر المسلمين الأحياء منهم والأموات.

وأخيرا، أُحب أن أشكر فردين بالأخص، أخذا بيدي إلى الهداية خطوة خطوة، تعرفت عليهما من المسجد بعدما بدأت تأدية الصلوات المفروضة في جماعة المسجد. دونهما لم أكن لأجد أعوانًا يُصاحباني في طريق هدايتي، وربما لم أكن لأصل إلى مرحلة أن أكتب هذا الكتاب. فكلاهما أفضل مني علمًا وعملًا، والحمد لله أنه جمعني بهما. وإضافة إلى ذلك، فإنهما أعاناني على بعض المعلومات لهذا الكتاب (دون أن أُخبرهما)، فآن الأوان لأُقر بعونهما لي وبصبرهما عليَّ، فكلاهما قام ما بين تفقيهي في الدين وتحفيظي للقرآن، وبذلا مجهودًا كبيرًا معي، إضافة إلى الصحبة الممتعة. الأَخَّان هما: أحمد رشاد (خاصةً)، ومحمد يوسف. الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.